الجامع
لأحكام القرآن

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس عشر

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت

Marfat.com

فهـــرس الجـــزء الخـــامس عشر

تفســـير ســـورة « يسٓ »

صفحة

القول بمكيتها . الترغيب فى تلاوتها على الموتى . الأحاديث الواردة فى فضل قراءتها واستماعها ١

قوله تعـالى : « يسٓ . والقـرآن الحكيم ... » الآيات . بيـان أوجه القراءات فى « يس » وتفسيرها ٣

قوله تعـالى : « إنا نحن نحيي الموتى ... » الآية . سبب نزولها . فضل المشى إلى المسـاجد ١١

قوله تعـالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ... » الآيات . القرية هى أنطاكية . ما حكاه المفسرون فى قصـة أصحابها ١٣

قوله تعـالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... » الآيات . بيان منازل الشمس ٢٥

قوله تعـالى : « والقمر قدرناه منازل ... » الآية . بيان منازل القمر ٢٩

قوله تعـالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ... » الآيات . الفلك سفينة نوح أو المراد الجنس ٣٤

قوله تعـالى : « ونفخ فى الصور ... » الآيات . الكلام على عدد النفخ ومعنى الصور ٣٩

قوله تعـالى : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ... » الآيات . الأقوال فى شغل أهل الجنة ٤٣

قوله تعـالى : « اليوم نختم على أفواههم ... » الآيات . الأحاديث الواردة فى شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة ٤٨

قوله تعـالى : « وما علمناه الشعر ... » الآية . الرد على من قال من الكفار إن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر . إصابته الوزن لا يوجب أنه يعلم الشعر ٥١

قوله تعـالى : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... » الآيات ٥٥

قوله تعـالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ... » الآية . دلالتها على صحة القياس وأن فى العظام حياة، وأنها تنجس بالموت ٥٨

قوله تعـالى : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ... » الآيات ٥٩

Marfat.com

ســـــورة الصـــافات

صفحة

قوله تعالى : « والصافات صفا ... » الآيات . الكلام على قذف الشياطين بالشهب . هل كان القذف قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده لأجل المبعث . كيفية آستراق الشياطين السمع ٦١

قوله تعالى : « فآستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ... » الآيات ٦٨

قوله تعالى : « آحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ... » الآيات ٧٢

قوله تعالى : « و يقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ... » الآيات ٧٦

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... » الآيات ٨١

قوله تعالى : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ... » الآيات . معنى النزل فى اللغة وآشتقاقه . شجرة الزقوم وآشتقاقها وما قيل فيها ٨٥

قوله تعالى : « ولقد نادانا نوح ... » الآيات . هل الناس كلهم من ولد نوح أم كان لغيره نسل ؟ ٨٩

قوله تعالى : « و إن من شيعته لإبراهيم ... » الآيات . الكلام على نظر سيدنا إبراهيم عليه السلام فى النجوم . اختلافهم فى سقمه هل كان حقيقة، أو تورية وتعريضا . كان أول من هاجر من بلده إلى حيث يتمكن من عبادة ربه . طلبه الولد الصالح... .. .. ٩١

قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى . » الآيات . آختلاف العلماء فى المأمور بذبحه . رؤيا الأنبياء وحى . فى قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل . وأيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها . وهل هى سنة أو واجبة . ما يضحى به الأزواج الثمانية . ماذا يتقى من الضحايا . حكم من نذر ذبح آبنه... ... ... ٩٨

قوله تعالى . « ولقد مننا على موسى وهرون ... » الآيات... ... ... ١١٤

قوله تعالى : « و إن إلياس لمن المرسلين ... » الآيات . قصة إلياس ولوط عليهما السلام ١١٥

قوله تعالى : « و إن يونس لمن المرسلين ... » الآيات . يونس هو ذو النون . ما حكى فى قصته عليه السلام . حكم القرعة فى الشرع . الأقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لا يجوز . محامل « أو » فى قوله تعالى : « أو يزيدون » ... ١٢١

Marfat.com

صفحة
قوله تعالى : « فأستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ... » الآيات ١٣٣
قوله تعالى : « فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين ... » الآيات . فيها ردّ على القدرية ١٣٥
قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... » الايات . معنى « سبحان ربك » و « رب العزة » . وفضل قول هذه الآيات فى ختام المجلس ١٤٠

سورة ص

قوله تعالى : « ص والقرآن ذى الذكر ... » الآيات . القراءات فى « ص » وأقوال العلماء فى معناها . معنى « ولات حين مناص » وإعرابها ١٤٢
قوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ... » الآيات . سبب نزولها إلى قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح » ١٤٩
قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات ١٥٤
قوله تعالى : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ... » الآية . معنى تسبيح الجبال والطير . صلاة الإشراق هى صلاة الضحى . حكم صلاة الضحى . أجزمن صلاها ١٥٩
قوله تعالى : « والطير محشورة ... » الآيات . الكلام على معنى « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . علم القضاء نوع من العلم غير المعرفة بالأحكام ١٦١
قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم ... » الآيات . قصة داود عليه السلام مع الملكين اللذين تسوروا عليه المحراب وسبب محنته . ليس على الحاكم أن يجلس للفصل كل يوم . لا يقضى القاضى حتى يسمع حجة كل واحد من الخصمين حكم القضاء فى المساجد . كان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من أستقضى معاوية . آختلاف العلماء فى سجدة « ص » ١٦٤
قوله تعالى : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ... » الآية . هى أصل فى الأقضية . الحكم بين الناس بالعدل واجب . الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ١٨٨
قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ... » الآيات ١٩١
قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان ... » الآيات . حكم سباق الخيل ١٩٢
قوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان ... » الآيات . ما حكى فى سبب فتنة سليمان عليه السلام . صفة كرسيه ١٩٨

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب ... » الايات . ما قيل فى سبب بلاء أيوب عليه السلام ، وما أصابه من البلاء ومدته ٢٠٧

قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثا ... » الآية . حلف أيوب وسببه . دلالة الآية على جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا . اختلاف العلماء فى هذا الحكم ؛ هل هو عام أو خاص بأيوب . قوله تعالى : «ولا تحنث» دليل على أن الاستثناء فى اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخيا . قوله تعالى : « اركض برجلك » لا يدل على جواز الرقص خلافا لجهلة المتصوفة ٢١٢

قوله تعالى : « واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ... » الآيات ٢١٧

قوله تعالى : « واذكر إسمعيل واليسع وذا الكفل ... » الآيات ٢١٨

قوله تعالى : « هـذا وإن للطاغين لشر مآب ... » الآيات ٢٢٠

قوله تعالى : « وقالوا ما لنا لا نرى رجالا ... » الآيات ٢٢٤

قوله تعالى : « قل إنما أنا منذر ... » الايات ٢٢٥

قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا ... » الآيات ٢٢٧

سـورة الزمـر

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ... » الآيات فى قوله تعالى : « فاعبد الله مخلصا » دليل على وجوب النية فى كل عمل خلافا للحنفية فى الوضوء . ٢٣٢

قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق ... » الآيات ٢٣٤

قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه ... » الآيات... ... ... ٢٣٧

قوله تعالى : « قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم... » . فى قوله تعالى : «وأرض الله واسعة » أمر بالهجرة من مكة ، ومن الأرض الغالية إلى الأرض الراخية . ٢٤٠

قوله تعالى : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا ... » الآيات ٢٤٢

قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ... » الآية ٢٤٥

قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث ... » الآية . أحسن الحديث القرآن . كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرئ عليهم القرآن تقشعر جلودهم ... ٢٤٨

قوله تعالى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب ... » الآيات ٢٥١

قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله ... » الآيات ٢٥٥

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ... » الآيات ٢٥٨

قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ... » الآية . النوم أخو الموت . اختلاف الناس في النفس والروح . ما يقوله الإنسان إذا أراد أن ينام . وإذا استيقظ ٢٦٠

قوله تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ... » الآيات ٢٦٣

قوله تعالى « قل اللهم فاطر السموات والأرض ... » الآيات ٢٦٤

قوله تعالى : « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ... » الآيات ٢٦٦

قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » الآيات . سبب نزولها ٢٦٧

قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ... » الآيات ٢٧٣

قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ... » الآيات ٢٧٧

قوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ... » الآيات ٢٨٣

سورة غافر

القول بمكيتها إلا آيتين . عدد آياتها . فضل الحواميم . كيفية جمعها ٢٨٨

قوله تعالى : « حم . تنزيل الكتاب من الله ... » الآيات . الأقوال في معنى « حم » ٢٨٩

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات ٢٩٢

قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينادون ... » الآيات ٢٩٦

قوله تعالى : « هو الذى يريكم آياته ... » الآيات ٢٩٨

قوله تعالى : « وأنذرهم [illegible] الآزفة ... » الآيات ٣٠١

قوله تعالى : « ولقد [illegible] بآياتنا ... » الآيات ٣٠٤

قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن [illegible] آل فرعون » الآية . الكلام على مؤمن آل فرعون . الإنسان لا يكون مؤمنا بقلبه حتى يتلفظ بلسانه . دفاع أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ٣٠٦

قوله تعالى : « يا قوم لكم الملك اليوم ... » الآيات ٣٠٩

قوله تعالى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... » الآيات ٣١٢

قوله تعالى : « وإذ يتحاجون في النار ... » الآيات ٣٢٠

Marfat.com

صفحة

قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا ... » الآيات ٣٢٣

قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ... » الآيات ٣٢٦

قوله تعالى : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ... » الآيات . ٣٢٩

قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض ... » الآيات ٣٣٥

سورة فصلت

قوله تعالى : « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ... » الآيات . ما روى من سماع عتبة بن ربيعة سورة « فصلت » إلى قوله : « مثل صاعقة عاد وثمود » وإنذاره قومه ٣٣٧

قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ... » الآيات . خلق السموات والأرض فى ستة أيام ٣٤٢

قوله تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار ... » الآيات ٣٤٩

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ... » الآيات . سبب نزولها . ٣٥٧

قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار ... » الآيات . اختلافهم فى موضع سجود من آية السجدة . الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ٣٦٣

قوله تعالى : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا . » الآيات . الكل... على أن القرآن عربىّ ، وأنه إذا نقل عنه إلى غيره لم يكن قرآنا .. ..

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . » الآيات ...

قوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير . » الآيات ... ...

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كـ...

استدرا...

أورد القرطبي " ثلاث مسائل " فى تفسير قوله تعالى : « الله نزل أحس...
-- الآية -- وسقط منها لفظ " الثالثة " ، وموضعها فى أول السطر الثالث من...

محمد محمد ...

المصحح بالـ...

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

وهي[1] مكية بإجماع . وهي ثلاث وثمانون آية ؛ إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما يأتي . وفي كتاب أبي داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا يس على موتاكم" . وذكر الآجُرِّي من حديث أم الدرداء[2] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه" . وفي مسند الدارمي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفر له في تلك الليلة" خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا . وروى الترمذي عن أنس قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : "إن لكل شيء قلبًا وقلبُ القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات" قال : هذا حديث غريب، وفي إسناده هرون أبو محمد شيخ مجهول ؛ وفي الباب عن أبي بكر الصدّيق ، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده ، وإسناده ضعيف . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن في القرآن لسورةً تَشفع لقرائها ويُغفر لمستمعها ، ألا وهي سورة يس تُدْعى في التوراة المعِمّة" قيل : يارسول الله وما المعِمّة ؟ قال : "تَعُمّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل ال[illegible] وتدعى الدافعة والقاضية" قيل : يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال : "تَدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها في سبيل الله ومن [illegible] أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف [illegible]

[illegible]

Marfat.com

عنه كلَّ داء وغِلّ". ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مسندا. وفي مسند الدارمي عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس: من قرأ «يٓس» حين يصبح أعطى يُسْر يومه حتى يُمسي ومن قرأها في صدر ليلته أعطى يُسْر ليلته حتى يُصبح. وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يٓس من قرأها نهارا كُفِي همّه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه. وقال شهر ابن حَوْشَب: يقرأ أهل الجنة «طه» و «يٓس» فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء قلبا و إن قلبَ القرآن يٓس ومن قرأها في ليلة أعطى يُسْر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أعطى يُسْر ذلك اليوم و إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا إلا طه ويٓس". وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة «يٓس» ليلا لم يزل في فرح حتى يُصبح، ومن قرأها حين يُصبح لم يزل في فرح حتى يُمسي؛ وقد حدّثني من جرّبها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية. قال ابن عطية: ويصدّق ذلك التجربة. وذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال: حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب «يٓس» في جام بزعفران ثم يشربه؛ حدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب، عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد ابن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقّر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده. القرآن شافع مشفّع وماحِلٌ[1] مصدَّق فمن شَفَع له القرآنُ شُفِّع ومن مَحَل به القرآن صُدِّق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار. وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَّسون نور الله المعلَّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى: يا حملة القرآن

(١) قال ابن الأثير: ماحل أي خصم مجادل مصدق.

Marfat.com

ٱستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبًّا ويحبّبكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالى القرآن](١) بلوى الآخرة ومن ٱستمع آية من كتاب الله كان له أفضل ممـا تحت العرش إلى التُّخوم وإن فى كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها فى أكثر من ربيعة ومضر وهى سورة يٓس ". وذكر الثعلبى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة يٓس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دخل المقابر فقرأ سورة يٓس خفّف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد حروفها(٢) حسنات " .

قوله تعالى : يٓس ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يٓس ﴾ فى « يٓس » أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة والكسائى ﴿ يٓس وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ بإدغام النون فى الواو . وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة « يٰسِينْ » بإظهار النون . وقرأ عيسى بن عمر « يٰسِينَ » بنصب النون . وقرأ ٱبن عباس وٱبن أبى إسحق ونصر بن عاصم « يٰسِينِ » بالكسر . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « يٰسِينُ » بضم النون؛ فهـذه خمس قراءات . القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب فى العربيـة؛ لأن النون تدغم فى الواو . ومن بيّن قال : سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنمـا يكون الإدغام فى الإدراج . وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين : إحداهمـا أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده ٱسم أعجمى بمنزلة هابيل، والتقدير ٱذكر يسين . وجعله سيبويه ٱسما للسورة . وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كَيْفَ وأَيْنَ . وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل؛ فعلى هـذا يكون « يٰسِينِ » قسما . وقاله ٱبن عباس . وقيل : مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ . وأما الضم فشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُّ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ، لمن يقف عليه . قال ٱبن السَّمَيْقَع وهرون : وقد جاء فى تفسيرها

---

(١) الزيادة من « نوادر الأصول » للترمذى الحكيم . (٢) فى ب، ح : « بعدد من فيها حسنات » .

Marfat.com

يارجل فالأولى بها الضم . قال آبن الأنبارى : « يس » وقف حسن لمن قال هو آفتتاح للسورة. ومن قال : معنى « يس » يا رجل لم يقف عليه . وروى عن آبن عباس وآبن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا فى قوله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ »(1) أى على آل محمد. وقال سعيد بن جبير : هو آسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ودليله « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ». قال السيد الحميرى :

يا نفس لا تمحضى بالنصح جاهدة * على المودة إلا آل ياسين

وقال أبو بكر الوراق : معناه ياسيد البشر . وقيل : إنه آسم من أسماء الله ؛ قاله مالك ، روى عنه أشهب قال : سألته هل ينبغى لأحد أن يتسمى بياسين ؟ قال : ماأراه ينبغى لقول الله : « يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » يقول هذا آسمى يس . قال آبن العربى هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى بآسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله : عالم وقادر ومريد ومتكلم . وإنما منع مالك من التسمية بـ« يسين » ؛ لأنه آسم من أسماء الله لا يدرى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد . فإن قيل فقد قال الله تعالى: « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » قلنا : ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به ، وهذا الذى ليس بمتهجى هو الذى تكلم مالك عليه ؛ لما فيه من الإشكال ؛ والله أعلم . وقال بعض العلماء : آفتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير : ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب أمير على الجسد؛وكذلك « يس » أمير على سائر السور ، مشتمل على جميع القرآن . ثم آختلفوا فيه أيضا ؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة : هو بلغة الحبشة . وقال الشعبى : هو بلغة طئ . الحسن : بلغة كلب . الكلبى : هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقد مضى هذا المعنى فى « طه »(2) وفى مقدمة الكتاب(3) مستوفى . وقد سرد القاضى عياض أقوال المفسرين فى معنى « يس » فحكى أبو محمد مكى أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لى عند ربى عشرة أسماء " ذكر أن منها طه ويس آسمان له .

(1) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء . (2) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ فما بعد .
(3) راجع جـ ١ ص ٦٧ فما بعد .

Marfat.com

قلت : وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " قاله القاضي . وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : « يس » يا إنسان أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه . وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان . وعن ابن الحنفية : « يس » يا محمد . وعن كعب : « يس » قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال يا محمد](١) « إنك لمن المرسلين » ، ثم قال : « والقرآن الحكيم » . فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه . وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته . أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق . قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم " انتهى كلامه . وحكى القشيري قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا ؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين . « والحكيم » المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : « أحكمت آياته »(٢) . وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل . وقد يكون « الحكيم » في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم .

﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام . وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ [و] قال : « إنك لمن المرسلين » خبر إن ، و« على صراط مستقيم » خبر ثان ؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم . وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : « على صراط مستقيم » من صلة المرسلين ؛ أي إنك لمن المرسلين

---

(١) زيادة يقتضيها المقام ؛ ويدل عليها ما ورد في « الدر المنثور » للسيوطي عن كعب .

(٢) راجع ص ٣٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ »[1] أى الصراط الذى أمر الله به .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف : « تَنْزِيلَ » بنصب اللام على المصدر؛ أى نزّل الله ذلك تنزيلا . وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ »[1] أى فضربا للرقاب . الباقون « تَنْزِيلُ » بالرفع على خبر ابتداء محذوف أى هو تنزيل ، أو الذى أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم . هذا وقرئ : « تَنْزِيلِ » بالجر على البدل من « الْقُرْآنِ » والتنزيل يرجع إلى القرآن . وقيل : إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى إنك لمن المرسلين ، وإنك « تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو »[2] ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء . ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم . و « الْعَزِيزِ » المنتقم ممن خالفه « الرَّحِيمِ » بأهل طاعته .

قوله تعالى : لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « ما » لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة ؛ لأنها نفى والمعنى : لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير . وقيل : هى بمعنى الذى فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا . وقيل : إن « ما » والفعل مصدر ؛ أى لتنذر قوما إنذار آبائهم . ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء ؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم . ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا . ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ وص ٢٥٥ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧٢ فما بعد .

Marfat.com

نبي ، وقد قال الله : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ »(١)
وقال : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »(١) أى لم يأتهم نبي .
وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك ،
ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه . وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك . وهذا فيمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره . ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . قيل : نزلت فى أبى جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلى ليرضخن رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أى هو بمنزلة من غُلّت يده إلى عنقه ، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى ، فقال الرجل الثانى وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضخ رأسه . فأتاه وهو يصلى على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته . فقال الثالث : والله لأشدخن أنا رأسه . ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشيا عليه . فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأنى عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بينى وبينه ، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلنى . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ . وقرأ ابن عباس : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ » . وقال الزجاج : وقرئ « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ » . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فهى كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا . ونظيره : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »(٢) وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣١٠ وص ٨٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ فما بعد .

Marfat.com

من الحـر وق من البرد؛ لأن الغـلّ إذا كان فى العنق فلا بد أن يكون فى اليد، ولا سيما وقد قال الله عز وجل : « فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ » فقد علم أنه يراد به الأيدى. « فَهُم مُّقْمَحُونَ » أى رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلّت يده إلى ذَقنه آرتفع رأسه. روى عبد الله بن يحيى : أن على بن أبى طالب عليه السلام أراهم الإقماح؛ فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسـه. قال النحاس، وهـذا أجلّ ما روى فيه وهو مأخوذ ممـا حكاه الأصمعى. قال : يقـال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفـع رأسها. قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منهـا. كما يقال : قَهَرته وكَهَرته. قال الأصمعى : يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها. ومنه قول الشاعر :

* ... والرأسُ مُكْمَــحُ[(١)] *

ويقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعى. وقَمَح البعيرُ قُمُوحًا : إذا رفع رأسه عند الحوض وآمتنع من الشرب، فهو بعير قامِحٌ وقَمِحٌ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وآنقمح بمعنًى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا. وقد قامحت إبلُك : إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد. وهى إبل مُقامحة، وبعير مقامح، وناقة مقامح أيضا، والجمع قِمَـاح على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبهـا قُعُــودٌ * نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِمَاحِ

والإقماح : رفع الرأس وغض البصر؛ يقال : أقمحه الغُلّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه. وشهرا قِماح : أشدّ ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد المـاء فقامحت رءوسها؛ ومنـه قَمِحتُ السويق[(٢)]. وقيل : هو مثـل ضرب به الله تعـالى لهم فى آمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول؛ قاله يحيى بن سلّام وأبو عبيدة. وكما يقال : فلان حمار؛ أى لا يبصر الهدى. وكما قال :

* لهم عن الرشـد أغلالٌ وأقياد *

---

(١) البيت لذى الرمة، وتمـامه كما فى ديوانه طبع أوربا ص ٩٠ :

تمـــوج ذواعاها وترى بجـوزها * حـذارا من الإيعـاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) : إذا آستفه.

Marfat.com

وفي الخبر: أن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهد الدار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل * سوى العدل شيئا فاستراح العواذل (١)

أراد منعنا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنى والفسق. وقال الفراء أيضا: هذا ضرب مثل؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ» (٢) وقاله الضحاك. وقيل: إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جعل في يده غل فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضا بصره لا يفتحه. والمتكبر يوصف بانتصاب العنق. وقال الأزهري: إن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعدا كالإبل ترفع رءوسها. وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم. وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بأقوام غدا في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ» (٣) وأخبر عنه بلفظ الماضي. «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» تقدم تفسيره. قال مجاهد: «مُقْمَحُونَ» مغلون عن كل خير.

قوله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسقط الحجر من يده، أخذ

(١) يقول: رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهل، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه. سوى العدل: أي سوى الحق. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٩ فما بعد. (٣) راجع ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

Marfat.com

الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال : أقتله بهذا الحجر . فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية . وقال محمد بن إسحق في روايته : جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه ؛ فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ «يس» وفي يده تراب فرماهم به وقرأ : «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» (١) فأطرقوا حتى مر عليهم عليه السلام . وقد مضى هذا في سورة « سبحان » ومضى في « الكهف » (٢) الكلام في « سَدًّا » بضم السين وفتحها وهما لغتان . ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطينا أبصارهم ؛ وقد مضى في أول «البقرة» (٣) . وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

* متى تأته تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِه (٤) *

وقال تعالى : «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» (٥) الآية . والمعنى متقارب، والمعنى أعميناهم ، كما قال:

ومن الحوادثِ لا أبالَكَ أنّني * ضُرِبتْ عليّ الأرضُ بالأسْدادِ

لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعةٍ * بين العُذَيبِ وبين أرضِ مُرادِ

﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي الهدى ؛ قاله قتادة . وقيل : محمدا حين ائتمروا على قتله ؛ قاله السدي . وقال الضحاك : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أي الدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي الآخرة ؛ أي عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع في الدنيا ؛ قال الله تعالى : «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» (٦) أي زينوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة . وقيل : على هذا « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أي غرورا بالدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي تكذيبا بالآخرة . وقيل : «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الدُّنْيَا . ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدم في « البقرة » (٣) والآية رد على القدرية وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٩ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٩ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ وص ١٨٤ .
(٤) هو الحطيئة ، وتمام البيت : * تجد خير نار عندها خير موقد *
(٥) راجع جـ ١٦ ص ٨٩ . (٦) راجع ص ٣٥٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

وعن ابن شهاب : أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدري فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر ؛ فقال : يكذبون علي يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » قال : اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » فقال اقرأ فقال : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط . فقال له : يا غيلان اقرأ أول سورة « يس » فقرأ حتى بلغ « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها[1] قط قبل اليوم ؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب . قال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه . وقال ابن عون : فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق . فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن وعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره ؛ قاله قتادة . وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة . وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل . والأول أظهر ؛ أي نحييهم بالبعث للجزاء . ثم توعدهم بذكره كتب الآثار وهي :

الثانيـــة — وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان . قال قتادة : معناه من عمل . وقاله مجاهد وابن زيد . ونظيره قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[2] وقوله : « يُنَبَّأُ

(١) في الأصل المطبوع : « لم أرها » .　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ فما بعدها وص ١٥٠ وص ٢٤٢ .

Marfat.com

الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[1]، وقال : « اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ »[2] فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك . أو سيّئ كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ، وكذلك كل سُنّة حسنة ، أو سيئة يستنّ بها . وقيل : هي آثار المشّائين إلى المساجد . وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جُبير . وعن ابن عباس أيضا أن معنى : « وَآثَارَهُمْ » خُطاهم إلى المساجد . قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه ؛ لأنه قال : إن الآية نزلت في ذلك ؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد . وفي الحديث مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُكتَبُ له برجلٍ حسنة وتُحطُّ عنه برجل سيئة ذاهبا وراجعا إذا خرج إلى المسجد".

قلت : وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سَلِمة[3] في ناحية المدينة فأرادوا النُّقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن آثاركم تكتب " فلم ينتقلوا . قال : هذا حديث [حسن][4] غريب من حديث الثوري . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد ؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا بني سَلِمة دياركم تُكتَبْ آثارُكم دياركم تُكتَبْ آثارُكم" فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا . وقال ثابت البُنَاني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : "أمَا علمت أن الآثار تُكتَب" فهذا احتجاج بالآية . وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن : الآثار في هذه الآية الخُطَا . وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخُطَا إلى الجمعة . وواحد الآثار أَثَر ويقال أَثْر .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٩٧ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٤٢ .
(٣) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار . (٤) الزيادة من صحيح الترمذي .

Marfat.com

الثالثة — في هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد ؟ آختلف فيه ؛ فروى عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم . وروى عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرا . وكره الحسن وغيره هذا ؛ وقال : لا يدع مسجدًا قربه ويأتى غيره . وهذا مذهب مالك . وفى تخطى مسجده إلى المسجد الأعظم قولان . وخرّج آبن ماجه من حديث أنس آبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى بيته بصلاة وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته فى المسجد الذى يُجمَّع فيه[(١)] بخمسمائة صلاة" .

الرابعة — «دياركم» منصوب على الإغراء أى آلزموا، و«نكتب» جزم على جواب ذلك الأمر . «وكُلَّ» نصب بفعل مضمر يدلّ عليه «أَحْصَيْنَاهُ» كأنه قال: وأحصينا كل شيء أحصيناه . ويجوز رفعه بالآبتداء إلا أن نصبه أولى ؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل . وهو قول الخليل وسيبويه . والإمام: الكتاب المقتدَى به الذى هو حجة . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ . وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

---

(١) يجمّع (بالتشديد) من التجميع ، أى يصلى فيه الجمعة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية](١) هـذه القرية هي أنطاكية في قول جميـع المفسرين فيما ذكر المـاوردي . نسبت إلى أهل أنطيس وهـو آسم الذي بناها ثم غُيِّر لمـا عُرِّب ؛ ذكره السهيلي . ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء . وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام ؛ ذكره المهدوي، وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب . فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصـدوق ، وشلوم هو الثالث ، هذا قول الطبري . وقال غيره : شمعون ويوحنا . وحكى النقاش : سمعان ويحيى، ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا . ويجـوز أن يكون « مَثَلًا » و « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » مفعولين لأضرب ، أو « أَصْحَابَ ٱلْقَـرْيَةِ » بدلا من « مَثَلًا » أي آضرب لهم مثـلَ أصحاب القرية فحذف المضاف . أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحلّ بهـم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل . قيل : رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ ، وكان ذلك حين رُفع عيسى إلى السماء . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما . ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي فقوّينا وشدّدنا الرسالة «بِثَالِثٍ» . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ » بالتخفيف وشدّد الباقون . قال الجوهري : وقوله تعـالى : « فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » يخفّف ويشدّد ؛ أي قوّينا وشدّدنا . قال الأصمعي : أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للتلمّس :

أُجُدٌ إذا رَحَلَت تَعَزَّزَ لَحْمُهـا(٢) * وإذا تُشَد بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ

أي لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى . وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ؛ ومنه : «وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ»(٣) . والتشديد بمعنى قوّينا وكثّرنا . وفي القصة : أن عيسى أرسل

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي .

(٢) وفي اللسان : أجد إذا ضمرت . ويروى في غيره : عنس إذا ضمرت . (٣) راجع ص ١٧٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

إليهم رسولين، فلقيا شيخًا يرعى غُنيمات له وهو حبيب النجار صاحب «يس» فدعوه إلى الله وقالا : نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفى المرضى وكان له ابن مجنون . وقيل : مريض على الفراش فمسحاه ، فقام بإذن الله صحيحا ؛ فآمن الرجل بالله . وقيل : هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ففشا أمرهما ، وشفَيَا كثيرا من المرضى ، فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى . فقال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المريض بإذن الله ، وندعوك إلى عبادة الله وحده . فهمّ الملكُ بضربهما . وقال وهب : حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة ؛ فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا . قيل : شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما ؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم ، واستأنسوا به ، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به ، وأظهر موافقته فى دينه ، فرضى الملك طريقته ؛ ثم قال يوما للملك : بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بينى وبين سؤالها . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ؛ فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدعيان ؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص . فجيء بغلام ممسوح العينين ؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فانشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين طينا فوضعاهما فى خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاما مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرًّا ، فقام الميت حيًّا ، فقال للناس : إنى متّ منذ سبعة أيام، فوُجدت مشركا، فأدخلتُ فى سبعة أودية من النار ، فأحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحيانى الله ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله . فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم ، فأثر قوله فى الملك ، فدعاه إلى الله ، فآمن الملك فى قوم كثير وكفر آخرون . وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهم من الكفار .

Marfat.com

وروى أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يانبيّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم . فدعا الله لهم فناموا بمكانهم ، فهبّوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية ، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم ؛ فذلك قوله : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » فقالوا جميعا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون فى الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا [من شىء][1] ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعواكم الرسالة ؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فى أن الله واحد ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى تشاءمنا بكم . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم . ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم . قال : وعامة ما فى القرآن من الرجم معناه القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة . وقيل : لنشتمنكم ؛ وقد تقدّم جميعه[2] . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : هو القتل . وقيل : هو التعذيب المؤلم . وقيل : هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب . فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى شؤمكم معكم أى حظكم من الخير والشر معكم ولازمٌ فى أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا ؛ قال معناه الضحاك . وقال قتادة : أعمالكم معكم . ابن عباس : معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم . الفراء : « طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ » رزقكم وعملكم ؛ والمعنى واحد . وقرأ الحسن : « اطَّيْرُكُمْ »[3] أى تطيركم . ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم . وفيه تسعة أوجه من القراءات ؛ قرأ أهل المدينة : « أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ » بتخفيف الهمزة الثانية . وقرأ أهل الكوفة : « أَإِنْ » بتحقيق الهمزتين . والوجه الثالث : « أَاإِنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين . والوجه الرابع : « أَاإِنْ » بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة . والقراءة الخامسة « أَاأَنْ » بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف . والوجه السادس : « أَأَنْ » بهمزتين محققتين مفتوحتين . وحكى الفراء : أن هذه القراءة قراءة أبى رزين .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ٩١ . (٣) قال أبو حيان فى هذه القراءة : « اطّيركم » مصدر اطّير الذى أصله تطير فأدغمت التاء فى الطاء ، فاجتلبت همزة الوصل فى الماضى والمصدر .

Marfat.com

قلت : وحكاه الثعلبي عن زرّ بن حُبيش وابن السَّمَيْقَع . وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري : « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ » بمعنى حيث . وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة « ذُكِرْتُمْ » بالتخفيف ؛ ذكر جميعه النحاس . وذكر المهدوي عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهَمَذاني : « آنْ ذُكِّرْتُمْ » بالمد ، على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة . الماجشون : « أَنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزة واحدة مفتوحة . فهذه تسع قراءات . وقرأ ابن هُرْمُز « طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ » . « أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ » أي لإن وُعظتم ؛ وهو كلام مستأنف ، أي إن وعظتم تطيرتم . وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم[(١)] الهلاك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة : مسرفون في تطيركم . يحيى بن سلام : مسرفون في كفركم . وقال ابن بحر : السرف هاهنا الفساد ، ومعناه بل أنتم قوم مفسدون . وقيل : مسرفون مشركون ، والإسراف مجاوزة الحد ، والمشرك[(٢)] يجاوز الحد .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ هو حبيب بن مرى وكان نجارا . وقيل : إسكافا . وقيل : قصّارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب

(١) في ب وح وش وك : كان عاقبة قومه الهلاك . (٢) في ك : والشرك تجاوز الحد . وفي ب والمشرك مجاوز الحد . وفي ح المشرك تجاوز الحد .

Marfat.com

آبن إسرائيل النجار وكان يَنحت الأصنام ، وهو ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة ، كما آمن به تُبَّع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما . ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره . قال وهب : وكان حبيب مجذوماً ، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يَعكُف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه و يكشفون ضره فما آستجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربّنا القادر فيفرج عنك مابك . فقال : إن هذا لَعجب ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرّج عنى فلم تستطع ، [فكيف] (١) يفرجه ربكم فى غداة واحدة؟ قالوا : نعم، ربُّنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله مابه، كأن لم يكن به بأس ، فحينئذ أقبل على التكسب ،فإذا أمسى تصدّق بكسبه ،فأطعم عياله نصفا وتصدّق بنصف ، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم ف﴿قَالَ يَاقَوْمِ آتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى ، فقال للرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجرا؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على الله . قال أبو العالية : فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ف « يَقَالَ يَاقَوْمِ آتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ آتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أى لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فاهتدوا بهم . ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ ! فقال: « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» أى خلقنى . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا آحتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم ؛ لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر؛فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا. ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعنى أصناما . ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ يعنى ما أصابه من السقم. ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ يخلصونى مما أنا فيه من البلاء ﴿ إِنِّي إِذاً ﴾ يعنى إن فعلت ذلك ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر . ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال آبن مسعود : خاطب الرسل بأنه

(١) الزيادة من تفسير الآلوسى .

Marfat.com

مؤمن بالله ربهم. ومعنى « فَاسْمَعُونِ » أى فاشهدوا، أى كونوا شهودى بالإيمان. وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به. وقيل : إنه لما قال لقومه « اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا؛ فطوّل معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال : « إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » فوثبوا عليه فقتلوه. قال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبه (١) من دبره، وألقى فى بئر وهى الرَّسّ وهم أصحاب الرَّسّ. وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدى: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهدى قومى حتى قتلوه. وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما. وقال الحسن: حرقوه حرقا، وعلّقوه من سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي. وقال القشيرى : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أُدخلها. وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: « قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » فلما شاهدها «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي» أى بغفران ربى لى؛ فـ«ما» مع الفعل بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذى والعائد من الصلة محذوف. ويجوز أن تكون استفهاما فيه معنى التعجب، كأنه قال ليت قومى يعلمون بأى شيء غفر لى ربى؛ قاله الفراء. واعترضه الكسائى فقال : لو صحّ هذا لقال بم من غير ألف. وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهام وأنشد فيه أبياتا. الزمخشرى : « بِمَ غَفَرَ لِي » بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزا؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت. المهدوى: وإثبات الألف فى الاستفهام قليل. فيوقف على هذا على « يَعْلَمُونَ ». وقال جماعة: معنى قيل « ادْخُلِ الْجَنَّةَ » وجبت لك الجنة؛ فهو خبر بأنه قد استحق دخول الجنة؛ لأن دخولها يُستحق بعد البعث.

(١) القصب: المعى.

Marfat.com

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قُتل قيل له ٱدخل الجنة . قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق؛ أراد قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » على ما تقدم في « آل عمران » (١) بيانه . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وقرئ « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » وفي معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته . الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حيا وميتا . رفعه القشيري فقال : وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية "إنه نصح لهم في حياته وبعد موته". وقال ٱبن أبي ليلى : سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يٓس ، فهم الصدّيقون ؛ ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في ٱفتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبيّ بعد قتله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن . قال الحسن : الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء . وقيل : الجند العساكر ؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر ؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة . قال معناه ابن مسعود وغيره . فقوله : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » تصغير لأمرهم ؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل ، أو من بعد رفعه إلى السماء . وقيل : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » على من كان قبلهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ فما بعد .

Marfat.com

الزمخشري : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا »(١)، وقال : « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ »(٢) .

قلت : إنما كان يكفي ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولى العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز مالم يوله أحدا ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء ، وكأنه أشار بقوله : « وَمَا أَنْزَلْنَا » . « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة « وَاحِدَةً » بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج : « صَيْحَةٌ » بالرفع هنا ، وفي قوله « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ » جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ؛ فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا ؛ من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند . قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : إن كان إلا صيحةٌ . قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتني إلا جاريتك ، بمعنى ما جاءتني امرأة أو جارية إلا جاريتك . والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ، وقدّره غيره : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب . وقرأ عبد الرحمن بن الأسود — ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك — « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً » . وهذا مخالف للمصحف . وأيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقل من الزّواقي ؛ فكان يجب على هذا أن يكون زقوة . ذكره النحاس .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ فما بعد .	(٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ فما بعد .

Marfat.com

قلت : وقال الجوهري : الزَّقْو والزَّقْي مصدر ، وقد زَقَا الصدى[(١)] يَزْقُو زقاء : أي صاح ، وكل صائح زاقٍ ، والزَّقْيَة الصَّيحة .

قلت : وعلى هذا يقال : زَقْوة وزَقْية لغتان ؛ فالقراءة صحيحة لا آعتراض عليها . والله أعلم . ﴿ فإِذَا هُـمْ خَامِدُونَ ﴾ أى ميتون هامدون ؛ تشبيها بالرماد الخامد . وقال قتادة : هلكى . والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ منصوب ؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين . وفى حرف أُبَىّ « يا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » على الإضافة . وحقيقة الحسرة فى اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا . وزعم الفراء أن الآختيار النصب ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا . وآستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يامُهْتَمٌّ بأمرنا لاتهتمّ . وأنشد :

* يا دارُ غيَّرها البِلَى تغييرا[(٢)] *

قال النحاس : وفى هـذا إبطال باب النـداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النـكرة المحضة ، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف فى طوله ، ويحـذف التنوين متوسطا ، ويرفع ما هو فى المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك . فأما ما حكاه عن العرب فلا يشـبه ما أجازه ؛ لأن تقدير يامُهْـتَمّ بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير، والمعنى : يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا . وتقدير البيت : يأيتها الدار، ثم حوّل المخاطبة ؛ أى ياهؤلاء غيّر هذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم[(٣)] » . فـ « حسرة » منصوب على النداء ؛ كما تقول يا رجلًا أقبل ، ومعنى النداء :

(١) فى ك : « الصيد » . (٢) البيت للأحوص ؛ وتمامه :

* وسفت عليها الريح بعدك مورا *

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ فما بعد .

Marfat.com

هـذا موضع حضور الحسرة . الطبرى : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندُّمًا وتلهُّفًا في ٱستهزائهم برسل الله عليهم السلام . ٱبن عباس : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » أى يا ويلا على العباد . وعنه أيضا : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم . وروى الربيع عن أنس عن أبى العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : « يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ » فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل . وقيل : « يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله . وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى، وحلّ بالقوم العذاب : يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة ، على ٱختلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل ، وعلى هذا الرجل ، ليتنا آمنا بهم فى الوقت الذى ينفع الإيمان . وتم الكلام على هـذا ، ثم ٱبتدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ . وقرأ ٱبن هُرْمُز ومسلم بن جُندب وعكرمة : « يَاحَسْرَهْ عَلَى العِبَادِ » بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى فى النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك فى مثله ، وإن لم يكن موضعا للوقف . ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقطع قراءته حرفًا حرفًا؛ حرصًا على البيان والإفهام . ويجوز أن يكون « عَلَى الْعِبَادِ » متعلقا بالحسرة . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة؛ فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء، ثم قال : «عَلَى الْعِبَادِ» أى أتحسر على العباد . وعن ٱبن عباس والضحاك وغيرهما : «يَا حَسْرَةَ العِبَادِ » مضاف بحذف «على» . وهو خلاف المصحف . وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا فهو كقولك يا قيام زيد . ويجوز أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم . وقراءة من قرأ : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » مقوية لهذا المعنى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه : «أن» بدل من «كم»، ومعنى كم هاهنا الخبر، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : «كَمْ» فى موضع نصب من وجهين : أحدهما بـ «يَرَوْا» واستشهد على هذا بأنه فى قراءة ابن مسعود «أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا» . والوجه الآخر أن يكون «كَمْ» فى موضع نصب بـ «أَهْلَكْنَا» . قال النحاس : القول الأول محال؛ لأن «كَمْ» لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام فى خبر ما قبله . وكذا حكمها إذا كانت خبرا، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا بجعل «أَنَّهُمْ» بدلا من كم . وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال : «كَمْ» فى موضع نصب بـ «أَهْلَكْنَا» و «أَنَّهُمْ» فى موضع نصب، والمعنى عنده بأنهم أى «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» بالاستئصال . قال : والدليل على هذا أنها فى قراءة عبد الله «مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» . وقرأ الحسن : «إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» بكسر الهمزة على الاستئناف . وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت . ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا» بتشديد «لمّا». وخفف الباقون . فـ«إن» مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر. وبطل عملها حين تغيّر لفظها . ولزمت اللام فى الخبر فرقا بينها وبين إن التى بمعنى ما . و«ما» عند أبى عبيدة زائدة. والتقدير عنده: وإن كلٌّ لجميع . قال الفرّاء : ومن شدّد جعل «لمّا» بمعنى إلا و «إن» بمعنى ما، أى ما كلٌّ إلّا لجميع ؛ كقوله : «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ»(١) . وحكى سيبويه فى قوله : سألتك بالله لمّا فعلت . وزعم الكسائى أنه لا يعرف هذا . وقد مضى هذا المعنى فى «هود»(٢) . وفى حرف أُبَىّ «وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٥ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ نبّهم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته ، وهى الأرض الميتة أحياها بالنبات و إخراج الحبّ منها . ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أى من الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذّون . وشدّد أهل المدينة « المَيِّتَةُ » وخفف الباقون، وقد تقدّم[1] . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض . ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى فى البساتين . ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء فى « ثَمَرِهِ » تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه آندرج ؛ قاله الجرجانى والمهدوى وغيرهما . وقيل : أى ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ »[2] . وقرأ حمزة والكسائى : « مِن ثُمُرِهِ » بضم الثاء والميم . وفتحهما الباقون . وعن الأعمش ضم الثاء و إسكان الميم . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »[3] . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع خفض على العطف على « مِنْ ثَمَرِهِ » أى ومما عملته أيديهم . وقرأ الكوفيون : «وَمَا عَمِلَتْ» بغير هاء . الباقون « عَمِلَتْه » على الأصل من غير حذف . وحذف الصلة أيضا فى الكلام كثير لطول الآسم . و يجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع . أى ولم تعمله أيديهم من الزرع الذى أنبته الله لهم . وهذا قول آبن عباس والضحاك ومقاتل . وقال غيرهم : المعنى ومن الذى عملته أيديهم أى من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٢٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩ فما بعد .

Marfat.com

اتخذوا من الحبوب بملاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون . وقيل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس . روى معناه عن ابن عباس أيضا . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ نزه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته . وفيه تقدير الأمر؛ أى سبّحوه ونزّهوه عما لا يليق به . وقيل : فيه معنى التعجب؛ أى عجبًا لهؤلاء فى كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات؛ ومَن تعجب من شيء قال : سبحان الله ! والأزواج الأنواع والأصناف؛ فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف فى الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو ازدواجها . وقال قتادة : يعنى الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ يعنى من النبات؛ لأنه أصناف . ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعنى وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا و إناثا . ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى من أصناف خلقه فى البر والبحر والسماء والأرض . ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة . ويجوز ألا يعلمه مخلوق . ووجه الاستدلال فى هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغى أن يشرك به .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهيته . والسلخ : الكشط والنزع؛ يقال : سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج . وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهى استعارة . و﴿ مُظْلِمُونَ ﴾ داخلون فى الظلام؛ يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا . وقيل : « مِنْهُ » بمعنى عنه، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار . « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » أي فى ظلمة؛ لأن ضوء النهار يتداخل فى الهواء فيضيء، فإذا خرج منه أظلم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس. ويجوز أن يكون «الشمس» مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ﴿ تَجْرِي ﴾ في موضع الخبر أي جارية. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال " مستقرها تحت العرش ". وفيه عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما : " أتدرون أين تذهب هذه الشمس " ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ٱرتفعي ٱرجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها ٱرتفعي ٱرجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها ٱرتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون متى ذلكم ذاك حين « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » ". ولفظ البخاري عن أبي ذر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس : " تدري أين تذهب " قلت الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ٱرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » ". ولفظ الترمذي عن أبي ذر قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي صلى الله عليه وسلم جالس. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه " قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ٱطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها " قال : ثم قرأ « ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا »[1] قال وذلك قراءة عبد الله. قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

(١) كذا في الأصول وفي صحيح الترمذي. ولعله تحريف ؛ إذ لا نعرف قراءة بهذا النص ؛ وقراءة عبد الله ابن مسعود « والشمس تجري لا مستقرا لها » كما سيأتي.

Marfat.com

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غَرَبت دخلت محرابا تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت آستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولم ذاك ؟ قالت : إنى إذا خرجت عُبِدت من دونك ، فيقول الرب تبارك وتعالى : آخرجى فليس عليك من ذاك شىء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها . وقال الكلبي وغيره : المعنى تجرى إلى أبعد منازلها فى الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلها؛ فمستقرها بلوغها الموضع الذى لا تتجاوزه بل ترجع منه ؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضى وَطَره، ثم يرجع إلى منزله الأول الذى آبتدأ منه سفره . وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام فى السنة، وتلك الليلة أقصر الليالى، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ فى النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا آستوى الليل والنهار، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدّلو المؤخّر آستوى الليل والنهار ، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة، وكل عشرة أيام ثلث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة، ويأخذ النهار من الليل كذلك . وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلثمائة وستين مطلعا ، تنزل فى كل يوم مطلعا ، ثم لا تنزله إلى الحول ؛ فهى تجرى فى تلك المنازل وهى مستقرها . وهو معنى الذى قبله سواء . وقال ابن عباس : إنها إذا غربت وآنتهت إلى الموضع الذى لا تتجاوزه آستقرت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ماقاله آبن عباس يجمع الأقوال فتأمله . وقيل : إلى آنتهاء أمدها عند آنقضاء الدنيا . وقرأ آبن مسعود وآبن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا » أى إنها تجرى فى الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة . وقد آحتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة آبن مسعود وآبن عباس . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن آبن عباس وآبنُ كثير روى

Marfat.com

عن مجاهد عن ابن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع — يبطلان ما روى بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما اتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله ، فما أجرأه على كتاب الله ، قاتله الله . وقوله : « لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أى إلى مستقرها ، والمستقر موضع القرار . ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ﴾ أى الذى ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرُ ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ . ويجوز أن يكون « وَالْقَمَرُ » مرفوعا بالابتداء . وقرأ الكوفيون « وَالْقَمَرَ » بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبى عبيد . قال : لأن قبله فعلا و بعده فعلا ؛ قبله « نَسْلَخُ » و بعده « قَدَّرْنَاهُ » . النحاس : وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إلىّ ، وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ . وقوله : إن قبله « نَسْلَخُ » فقبله ما هو أقرب منه وهو « تَجْرِى » وقبله « وَالشَّمْسُ » بالرفع . والذى ذكره بعده وهو « قَدَّرْنَاهُ » قد عمل فى الهاء . قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء . و يقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ففى هذا جوابان : أحدهما قدّرناه ذا منازل ؛ مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(١) . والتقدير الآخر قدّرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسنا لتعدى الفعل إلى مفعولين مثل « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا »(٢) . والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهى : الشَّرَطَان . البُطَيْن . الثُّرَيَّا . الدَّبَرَان . الهَقْعَة . الهنعة . الذِّراع . النَّثْرة . الطَّرْف . الجَبْهة . الخَرَاتان . الصَّرْفة . العَوَّاء . السِّماك . الغَفْر . الزُّبَانَيان .

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٣ فما بعد .

Marfat.com

الإكليل . القَلْب . الشَّوْلة . النَّعائم . البَلْدَة . سَعْد الذَّابح . سَعْدُ بُلَع . سَعْد السُّعود . سَعْد الأَخْبِيَة . الفَرْغ المقدَّم . الفَرْغ المؤخَّر . بطن الحوت . فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أولها ، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة ، ثم يَسْتَسِرّ ثم يطلع هلالا ، فيعود فى قطع الفلك على المنازل ، وهى منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث . فللحمَل الشَّرَطان والبُطَين وثلث الثريا ، وللثور ثلثا الثريا والدَّبران وثلثا الهَقْعة ، ثم كذلك إلى سائرها . وقد مضى فى « الحجر »[1] تسمية البروج والحمد لله . وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كُسِيا النور عند الطلوع ، فأما نور الشمس فمن نور العرش ، وأما نور القمر فمن نور الكرسى ، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة . فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق ، وأما القمر فأمرّ الروحُ الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء . فبقى ذلك المحو على ما يراه الخلق ، ثم جعل فى غلاف من ماء ، ثم جعل له مجرى ، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما يقمر لهم حتى ينتهى بدؤه ، ويراه الخلق بكماله واستدارته . ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شىء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد فى البدء . ويبتدئ فى النقصان من الناحية التى لا تراه الشمس وهى ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العِذْق المتقوِّس ليُبْسه ودقته . وإنما قيل القمر ، لأنه يُقْمِر أى يبيض الجو ببياضه إلى أن يَسْتَسِرّ .

الثانية — ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج : هو عود العِذْق الذى عليه الشماريخ ، وهو فُعْلُون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعُرجون . وعلى هذا فالنون زائدة . وقال قتادة : هو العِذْق اليابس المنحنى من النخلة . ثعلب : « كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال : « العُرْجُون » الذى يبقى من الكباسة فى النخلة إذا قطعت ، و « القَدِيم » البالى . الخليل : فى باب الرباعى « العُرْجُون » أصل العِذْق وهو أصفر عريض يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى . الجوهرى :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ فما بعد .

Marfat.com

«والعرجون» أصل العِذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا؛ وعَرْجَنه: ضربه بالعرجون . فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بنى قيس :

شرق المسْك والعبير بها(١) * فهى صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عَتق ويَبِس وتقوّس شُبِّه القمرُ فى دقّته وصفرته به . ويقال له أيضا الإهان والكِباسة والقِنْو، وأهل مصر يسمونه الإسباطة. وقرئ : «العِرْجَوْن» بوزن الفِرجون وهما لغتان كالبُزْيون والبِزْيَون(٢)؛ ذكره الزمخشرى وقال : هو عود العِذْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . وآعلم أن السَّنَة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل : فأولها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوما من أَذَار ، وعدد أيامه آثنان وتسعون يوما ؛ تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحمل، والثور ، والجوزاء، وسبعة منازل : الشَّرَطان والبُطَين والثُّريا والدَّبَران والهَقْعة والهَنْعة والذِّراع . ثم يدخل فصل الصيف فى خمسة عشر يوما من حَزِيران، وعدد أيامه آثنان وتسعون يوما ؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : السَّرَطان ، والأسد ، والسُّنبلة، وسبعة منازل : وهى النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصَّرفة والعوّاء والسِّماك . ثم يدخل فصل الخريف فى خمسة عشر يوما من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج ؛ وهى الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغُفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة . ثم يدخل فصل الشتاء فى خمسة عشر يوما من كانون الأوّل، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهى الجَدى والدَّلو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السُّعود وسعد الأَخبية والفَرْغ المقدم ، والفرغ المؤخر و بطن الحوت . وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأوّل، تشرين الثانى، كانون الأوّل، كانون الثانى، أشباط ، آذار ، نيسان ، أيار ، حَزِيران ، تَمُّوز ، آب ، أيلول ، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثانى ونيسان وحزيران وأيلول ، فهى ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم .

---

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر عليه فى ديوانه ، ويحتمل أن يكون : شرق العنبر والمسك بها .

(٢) البزيون : السندس . وقيل هو رقيق الديباج .

Marfat.com

و إنما أردنا بهذا(١) أن تنظر فى قدرة الله تعالى ؛ فذلك قوله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » فإذا كانت الشمس فى منزل أهلّ الهلال بالمنزل الذى بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله . فإذا كانت الشمس بالثريا فى خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له فى كل ليلة منزلة حتى يقطع فى ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة . وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع فى المنزلة التى بعـد منزلة الشمس ف « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ الْقَـدِيمِ ﴾ قال الزمخشرى : القديم المحوِل و إذا قَدُم دَقّ وآنحنى وآصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقل عدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلا قال : كل مملوك لى قديم فهو حر، أو كتب ذلك فى وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر .

قلت : قد مضى فى « البقرة »(٢) ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله .

قوله تعـالى : لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَـا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ رفعت «الشمس» بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل «لا» فى معرفة . وقد تكلم العلماء فى معنى هذه الآية ، فقال بعضهم : معناها أن الشمس لا تدرك القمـر فتبطل معناه . أى لكل واحد منهما سـلطان على حياله ، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله مادبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم فى آخر سورة « الأنعـام »(٣) بيانه . وقيل : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، و إذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . روى معناه عن آبن عباس والضحاك . وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر . وقال قتادة : لكلٍّ حدّ وعَلَم لا يعدوه

---

(١) فى ك : « و إنما أراد بهذا أن ينظر » . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٤١ فما بعد .
(٣) راجع ج ٧ ص ١٤٥ فما بعد .

Marfat.com

ولا يقصردونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا . وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة . أى لاتبق الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر . يحيى بن سلّام : لاتدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها . وقيل : معناه إذا آجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : القمر فى السماء الدنيا ، والشمس فى السماء الرابعة فهى لاتدركه ؛ ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ماقيل فى معناها وأبينه مما لا يُدفَع : أن سير القمر سيْر سريع والشمس لا تدركه فى السير ؛ ذكره المهدوى أيضا . فأما قوله سبحانه : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »[1] فذلك حين حَبْس الشمس عن الطلوع على ماتقدّم بيانه فى آخر « الأنعام »[2] ويأتى فى سورة « القيامة »[1] أيضا . وجمعهما علامة لآنقضاء الدنيا وقيام الساعة . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون . وقيل : يدورون . ولم يقل تسبح ؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم فى فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ؛ ولو كانت ملصقة ماجرت ؛ ذكره الثعلبى والماوردى . وآستدلّ بعضهم بقوله تعالى : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » على أن النهار مخلوق قبل الليل ، وأن الليل لم يسبقه بخلق . وقيل : كل واحد منهما يجئ وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد . « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[3] ويكون الليل للإجمام والاستراحة ، والنهار للتصرف ؛ كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »[4] وقال : « وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا »[1] أى راحة لأبدانكم من عمل النهار . فقوله : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى غالب النهار ؛ يقال : سبق فلان فلانا أى غلبه . وذكر المبرّد قال : سمعت عمارة يقرأ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » فقلت ماهذا ؟ قال : أردت سابقٌ النهارَ فحذفت التنوين ؛ لأنه أخفّ . قال النحاس : يجوز أن يكون « النهارَ » منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٩٤ وص ١٦٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٦
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٨

Marfat.com

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن فى الآيات آعتبارا . الثانى نعمة عليهم ؛ لأن فى الآيات إنعاما . الثالث إنذار لهم ؛ لأن فى الآيات إنذارا . ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ(١) فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ من أشكل مافى السورة ؛ لأنهم هم المحمولون . فقيل : المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية « فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوى . وحكاه النحاس عن علىّ بن سليمان أنه سمعه يقوله . وقيل : الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم ؛ فالفلك على القول الأوّل سفينة نوح . وعلى الثانى يكون آسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وآمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشى والركوب من الذرية والضعفاء ، فيكون الضميران على هذا متفقين . وقيل : الذرية الآباء والأجداد، حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام ؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان . وسمّى الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرأ الأبناء . وقول رابع : أن الذرية النُّطَف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ ذكره الماوردى . وقد مضى فى « البقرة »(٢) آشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفًى . و « الْمَشْحُونِ » المملوء الموقَر، و « الْفُلْك » يكون واحدا وجمعا . وقد تقدّم فى « يونس »(٣) القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الأسم(٤) وأنه رأس آية . وفى معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير،

---

(١) « ذرياتهم » بالجمع قراءة نافع . (٢) راجع ج ٢ ص ١٠٧ فما بعد .
(٣) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ (٤) كذا فى الأصول وفى إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

وروى عن ابن عباس أن معنى « مِنْ مِثْلِهِ » للإبل، خلقها لهم للركوب فى البر مثل السفن المركوبة فى البحر ؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن . قال طرفة :

كأنَّ حُدُوجَ المالكيَّةِ غُدوةً ＊ خَلَايَا سَفِينٍ بالنواصِفِ مِن دَدِ (١)

جمع خليّة وهى السفينة العظيمة . والقول الثانى أنه للإبل والدواب وكل ما يركب . والقول الثالث أنه للسفن ؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس . « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » قال : خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها . وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار ؛ وروى عن ابن عباس والحسن . وقال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قال الماوردى : ويجىء على مقتضى تأويل على رضى الله عنه فى أن الذرية فى الفلك المشحون هى النطف فى بطون النساء قول خامس فى قوله : « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أى فى البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع ، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال : إن المراد « مِنْ مِثْلِهِ » السفن لا الإبل . ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة . وروى شيبان عنه : فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان . و « صَرِيخَ » بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل . ويجوز « فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ » ؛ لأن بعده مالا يجوز فيه إلا الرفع ؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل فى الدار ولا زيد . ومعنى : « يُنْقَذُونَ » يخلصون من الغرق . وقيل : من العذاب . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ قال الكسائى : هو نصب على الاستثناء . وقال الزجاج : نصب مفعول من أجله ؛ أى للرحمة ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ معطوف عليه . ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى الموت ؛ قاله قتادة . يحيى بن سلام : إلى القيامة أى إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم ، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة ، وأخر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة .

(١) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة . والنواصف : جمع ناصفة ، وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . ودد : موضع .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال قتادة : يعني « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، « وَمَا خَلْفَكُمْ » من الآخرة . ٱبن عباس وٱبن جبير ومجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من الذنوب، « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما يأتي من الذنوب . الحسن : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من أجلكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » مابقى منه . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من الدنيا، «وَمَا خَلْفَكُمْ» من عذاب الآخرة ؛ قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ٱبن عباس . قال : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ» من أمر الآخرة وما عملوا لها، «وَمَا خَلْفَكُمْ» من أمر الدنيا فٱحذروها ولا تغتروا بها . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ماظهر لكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما خفي عنكم . والجواب محذوف، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا؛ دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فٱكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى تصدّقوا على الفقراء . قال الحسن : يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقيل : هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله؛ وذلك قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

Marfat.com

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا (١) » فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم — آستهزاء — فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ أى أنرزق ﴿ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين : أن الرازق هو الله . فقالوا هزءا : أنرزق من لو يشاء الله أغناه . وعن آبن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله! أيفقره الله ونطعمه نحن . وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء الله لأعزّ ، ولو شاء الله لكان كذا . فأخرجوا هذا الجواب مخرج الآستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى . وقيل : قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ . وكان هذا الآحتجاج باطلا ؛ لأن الله تعالى إذا ملك عبدا مالا ثم أوجب عليه فيه حقا فكأنه آنتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض . وقد صدقوا فى قولهم : لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا فى الآحتجاج . ومثله قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا (١) » ، وقوله : « قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (٢) » . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قيل : هو من قول الكفار للمؤمنين ؛ أى فى سؤال المال وفى آتباعكم محمدا . قال معناه مقاتل وغيره . وقيل : هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم . وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب . وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال : آبتلى قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا فى ضلال ! أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت !؟ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٣) » الآيات . وقيل : نزلت الآية فى قوم من الزنادقة ، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، وآستهزءوا بالمسلمين بهذا القول ؛ ذكره القشيرى والماوردى .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ و ص ١٢٨ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٢٠ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٨٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ لما قيل لهم : « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ » قالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وكان هذا آستهزاء منهم أيضا أى لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهى نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى يختصمون فى أمور دنياهم فيموتون فى مكانهم ؛ وهذه نفخة الصَّعق . وفى « يَخِصِّمُونَ » خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وآبن كثير : « وَهُمْ يَخَصِّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وكذا روى وَرْش عن نافع . فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه « يَخْصِّمُونَ » بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة : « وَهُمْ يَخْصِمُونَ » بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه. وقرأ عاصم والكسائىّ « وَهُم يَخِصِّمُونَ » بكسر الخاء وتشديد الصاد، ومعناه يخصم بعضهم بعضا . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون فى الحجة أنهم لا يبعثون. وقد روى آبن جبير عن أبى بكر عن عاصم، وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد. قال النحاس: القراءة الأولى أبينها، والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء . وفى حرف أُبَىّ « وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ » — وإسكان الخاء لا يجوز ، لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين . وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها، والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف ، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول . قال الثعلبى : وهى قراءة أبىّ بن كعب . قال النحاس : فأما « يَخِصِّمُونَ » فالأصل فيه أيضا يختصمون، فأدغمت التاء فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وزعم الفرّاء أن هذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء وآجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ، وزعم أنه أجود وأكثر . وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة ! وما روى عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع . وقد مضى هذا فى « البقرة »(1) فى « يَخْطَفُ

(1) راجع جـ ١ ص ١٩٢

Marfat.com

أَبْصَارُهُمْ » وفى « يونس » « يَهِدِّى »(١) . وقال عكرمة فى قوله جل وعز: « إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » قال: هى النفخة الأولى فى الصور . وقال أبو هريرة : يُنفخ فى الصُّور والناس فى أسواقهم: فمن حالب لقحة ، ومن ذارع ثوبا ، ومن مارّ فى حاجة . وروى نعيم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يَلِيط(٢) حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبلَّعها حتى تقوم الساعة" . وفى حديث عبد الله بن عمرو : "وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله — قال — فيصعق ويصعق الناس" الحديث . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا لما فى يده من حق . وقيل : لا يستطيع أن يوصى بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع ؛ بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم . ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا . وقيل : إن معنى « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » لا يرجعون إليهم قولا . وقال قتادة : « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى إلى منازلهم ؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك .

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة . وقد بيّنا فى سورة « النمل »(٣) أنهما نفختان لا ثلاث . وهذه الآية دالّة على ذلك . وروى المبارك بن فضالة

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤١　　(٢) يليط حوضه . وفى رواية يلوط حوضه : أى يطينه .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩

Marfat.com

عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة : الأولى يميت الله بها كل حيّ، والأخرى يحيي الله بها كل ميّت" . وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة؛ أي نفخ في الصور والأرواح . وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور؛ قال العجّاج :

وربّ ذي سُرادِقٍ مَحْجُورِ * سِرْتُ إليه في أعالي السُّورِ

وقد روي عن أبي هريرة أنه قرأ : « وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ » . النحاس : والصحيح أن « الصور » بإسكان الواو : القَرْن؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك معروف في كلام العرب . أنشد أهل اللغة :

نحنُ نَطَحْناهُمْ غداةَ الغَوْرَيْنْ * بالضّابِحاتِ في غُبارِ النَّقْعَيْنْ
* نَطْحًا شديدًا لا كَنَطْحِ الصُّوَرَيْنْ *

وقد مضى هذا في « الأنعام »(١) مستوفًى . ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور . وقرئ بالفاء « مِنَ الأَجْدَافِ » ذكره الزمخشري . يقال: جَدَثٌ وجَدَفٌ . واللغة الفصيحة الجدث (بالثاء) والجمع أَجْدُث وأجداث؛ قال المتنخّل الهذلي :

عَرفْتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ * علاماتٍ كتَحْبيرِ النِّماطِ

واجتدث : أي اتخذ جَدَثا . ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ أي يخرجون؛ قاله ابن عباس وقتادة . ومنه قول امرئ القيس :

* فَسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ *

ومنه قيل للولد نَسْل؛ لأنه يخرج من بطن أمه . وقيل : يسرعون . والنَّسَلان والعَسَلان : الإسراع في السير، ومنه مشية الذئب؛ قال(٢) :

عَسَلانَ الذِّئبِ أمسَى قارِبًا * بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ

يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل، يَعْسِل ويَنْسِل، من باب ضرب يضرب . ويقال: يَنْسُل بالضم أيضا . وهو الإسراع في المشي؛ فالمعنى يخرجون مسرعين . وفي التنزيل : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ فما بعد . (٢) البيت للبيد، وقيل هو للنابغة الجعدي .

Marfat.com

إلا كنفس واحدة»[1]، وقال: «يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»[2]، وفي «سأل سائل»[3]: «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون» أي يسرعون. وفي الخبر: شكونا إلى النبي صلى الله عليه وسلم الضعف فقال "عليكم بالنسل" أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قالوا يا ويلنا﴾ قال ابن الأنباري: «يا ويلنا» وقف حسن ثم تبتدئ ﴿من بعثنا﴾. وروى عن بعض القراء «يا ويلنا من بعثنا» بكسر من والثاء من البعث. روى ذلك عن علي رضي الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله: «يا ويلنا» حتى يقول ﴿من مرقدنا﴾. وفي قراءة أبي بن كعب «من هبنا» بالوصل «من مرقدنا» فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوي: قرأ ابن أبي ليلى: «قالوا ياويلتنا» بزيادة تاء وهو تأنيث الويل، ومثله: «يا ويلتا أألد وأنا عجوز»[4]. وقرأ علي رضي الله عنه «يا ويلنا من بعثنا» ف «من» متعلقة بالويل أو حال من «ويلنا» فتتعلق بمحذوف؛ كأنه قال: ياويلنا كائنا من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه. و «من» من قوله: «من مرقدنا» متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب أن أبي بن كعب قال: ينامون نومة. وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من أهبنا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن «أهبنا» من لفظ القرآن كما قاله من طعن في القرآن، ولكنه تفسير «بعثنا» أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته «من هبنا» بغير ألف في أهبنا مع تسكين نون من. والصواب فيه على طريق اللغة «من اهبنا» بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون «من» وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: من اخبرك من اعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك. ويقال: أهببت النائم فهب النائم. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعاذلة هبت بليل تلومني * ولم يعتمرني قبل ذاك عذول

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجموا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: «من بعثنا من مرقدنا» وقاله ابن

(١) راجع ج ١٤ ص ٧٨	(٢) راجع ج ١٧ ص ١٣٠
(٣) راجع ج ١٨ ص ٢٧٨ وص ٢٩٦	(٤) راجع ج ٩ ص ٦٩

Marfat.com

عباس وقتادة . وقال أهل المعانى : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذّبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هـدى الله « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . وقال الفـراء : فقال لهم الملائكة: « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل . وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ »(١) وكذا الحديث : " المؤمن عند الله خير من كل ما خلق " . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : « هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . وقيـل : إن الكفار لمـا قال بعضهم لبعض : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » صدّقوا الرسل لمـا عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » فكذبنا به؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على «مِنْ مَرْقَدِنَا» ثم يبتدئ فيقول : « هَذَا » . قال أبو بكر بن الأنبارى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» وقف حسن؛ ثم تبتدئ : « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » ويجوز أن تقف على مرقدنا هذا» فتخفض هذا على الإتباع للرقد، وتبتدئ : « مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » على معنى بعثكم ما وعد الرحمن؛ أى بعثكم وعد الرحمن . النحاس : التمام على « مِنْ مَرْقَدِنَا » و« هَذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » . و يجوز أن يكون فى موضع خفض على النعت لـ«مَرْقَدِنَا» فيكون التمام « مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا » . « مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ » فى موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحاق منهـا آثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانيـة أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعنى إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهى قول إسرافيل : أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وهذا معنى قوله الحق : « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »(٢) . وقال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي »(٢) على ما يأتى . وفى قراءة آبن مسعود إن صح عنه « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦ فما بعد وص ١٢٥ فما بعد .

Marfat.com

وَاحِدَةً » والزقية الصيحة ؛ وقد تقدّم هذا . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ « فَإِذَا هُمْ » مبتدأ وخبره « جَمِيعٌ » نكرة ، و « مُحْضَرُونَ » من صفته . ومعنى « مُحْضَرُونَ » مجموعون أحضروا موقف الحساب ؛ وهو كقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ »(١) . قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى لا تنقص من ثواب عمل . ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ « مَا » فى محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ لما لم يسم فاعله . والثانى بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بما كنتم تعملون ؛ أى تعملونه فحذف .

قوله تعالى : إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قال ٱبن مسعود وٱبن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم ٱفتضاض العذارى . وذكر الترمذى الحكيم فى كتاب مشكل القرآن له : حدّثنا محمد بن حميد الرازى ، حدّثنا يعقوب القُمّى ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ » قال : شغلهم ٱفتضاض العذارى . حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هرون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ٱبن عباس بمثله . وقال أبو قلابة : بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلى مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضا إلى أهلك . وقيل : أصحاب الجنة فى شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصى ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره . وقال وكيع : يعنى فى السماع . وقال ٱبن كيسان : « فِي شُغُلٍ » أى فى زيارة بعضهم بعضا . وقيل : فى ضيافة الله تعالى . وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين عبادى الذين

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٠ .

Marfat.com

أطاعونى وحفظوا عهـدى بالغيب ؟ فيقومون كأنمـا وجوههم البدر والكوكب الدرىّ ، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رءوس الخلائق، حتى يقوموا بين يدى العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادى الذين أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، أنا آصطفيتكم وأنا آجتبيتكم وأنا آخترتكم ، آذهبـوا فادخلوا الجنـة بغـير حساب وَ « لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ »(١) . فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها . ثم إن الخلق فى المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : ياقوم أين فلان وفلان ! ؟ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادى منادٍ « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ » . و « شُغُلٍ » و « شُغْلٍ » لغتان قرئ بهما ؛ مثل الرُّعُب والرُّعْب ، والسُّحُت والسُّحْت ؛ وقد تقدم(٢) . ﴿فَاكِهُونَ﴾ قال الحسن : مسرورون . وقال آبن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجبون . السّدّى : ناعمون . والمعنى متقارب . والفكاهة المزاح والكلام الطيّب . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج : « فَكِهُونَ » بغير ألف وهما لغتان كالفارِه والفَرِه ، والحاذر والحَذِر ؛ قاله الفراء . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه ذو الفاكهة ؛ مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن ، والفَكِه : المتفكّه والمتنعّم . و « فَكِهُون » بغير ألف فى قول قتادة : معجبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فكِه إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقرأ طلحة بن مُصرِّف : « فَاكِهِينَ » نصبه على الحـال . ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ وخبره . ويجوز أن يكون « هُمْ » توكيدا « وَأَزْوَاجُهُمْ » عطف على المضمر، و« مُتَّكِئُونَ » نعت لقوله « فَاكِهُونَ » . وقراءة العامة : « فِي ظِلَالٍ » بكسر الظاء والألف . وقرأ آبن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف : « فى ظُلَلٍ » بضم الظاء من غير ألف ؛ فالظلال جمع ظِلّ ، وظُلَل جمع ظُلّة . ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعنى السُّرر فى الحجال واحدها أريكة ؛ مثل سفينة وسفائن ؛ قال الشاعر :

كأنّ آحمرارَ الوردِ فوق غُصُـونه * بوقت الضحى فى روضة المتضاحك
خُدودُ عذارَى قد خَجِلن من الحَيَا * تَهـادَيْنَ بالريحان فـوق الأرائك

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٠ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨٤ .

Marfat.com

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدن أبكارا " . وقال ابن عباس : إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكرا ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ؛ فيجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يكون بينهما منىّ ؛ يأتى من غير منىّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء ، لأنه يفتعلون من دعا أى من دعا بشئ أعطيه . قاله أبو عبيدة ؛ فمعنى « يَدَّعُونَ » يتمنون من الدعاء . وقيل : المعنى أن من ادّعى منهم شيئا فهو له ؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعى منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه . وقال يحيى بن سلام : « يَدَّعُونَ » يشتهون . ابن عباس : يسألون . والمعنى متقارب . قال ابن الأنبارى : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » وقف حسن ، ثم تبتدئ : « سَلَامٌ » على معنى ذلك لهم سلام . ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « مَا يَدَّعُونَ » . وقال الزجاج : « سلام » مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلّم الله عليهم ، وهذا منَى أهل الجنة . وروى من حديث جرير بن عبد الله البَجَلىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا الربّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله : «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» . فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم فى ديارهم " ذكره الثعلبى والقشيرى . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم ، وقد بيّناه فى «يونس»(1) عند قوله تعالى : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» . ويجوز أن تكون « ما » نكرة ، و « سَلَامٌ » نعتا لها ؛ أى ولهم ما يدعون مسلّم . ويجوز أن تكون «ما» رفع بالابتداء ، و «سلام» خبر عنها . وعلى هذه الوجوه لا يوقف على «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ» . وفى قراءة ابن مسعود « سلاما » يكون مصدرا ، وإن شئت فى موضع الحال ؛ أى ولهم

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ .

Marfat.com

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّما ؛فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يَدَّعُونَ» .
وقرأ محمد بن كعب القُرَظى «سِلْمٌ» على الآستئناف كأنه قال: ذلك سلم لهم لا يتنازعون فيه،
ويكون «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ» تاما . ويجوز أن يكون «سَلَامٌ» بدلا من قوله : «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ»،
وخبر «مَا يَدَّعُونَ» «لهم» . ويجوز أن يكون «سَلَامٌ» خبرا آخر، ويكون معنى الكلام
أنه لهم خالص من غير منازع فيه . ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولا . أو بقوله
قولا ، ودلّ على الفعل المحذوف لفظ مصدره . ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا ؛
أى عدة من الله . فعلى هـذا المذهب الثانى لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » . وقال
السجستانى : الوقف على قوله « سَلَامٌ » تام ؛ وهـذا خطأ لأن القـول خارج
مما قبـله .

قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ و يقال تميّزوا وآمازوا وآمتازوا بمعنى؛
ومزته فآنماز وآمتاز ، وميّزته فتميّز . أى يقال لهم هـذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر
بأهل الجنة إلى الجنة ؛ أى آخرجوا من جملتهم . قال قتادة : عزلوا عن كل خير . وقال
الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض؛ فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس
فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبـدة الأوثان فرقة . وعنـه أيضا : إن لكل فرقة فى النار بيتا
تدخل فيه و يردّ بابه ؛ فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرى . وقال داود بن الجرّاح: فيمتاز المسلمون
من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين.

قوله تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ؛ أى ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطيعوه فى معصيتى . قال الكسائى : لا للنهى ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل ، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة . ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادتى دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أى أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أى خلقا كثيرا ؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعا كثيرة . الكلبي : أمما كثيرة ؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم : « جِبِلًّا » بكسر الجيم والباء . وأبو عمرو وابن عامر « جُبْلًا » بضم الجيم و إسكان الباء . الباقون « جُبُلًا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وشددها الحسن وابن أبى إسحق وعيسى ابن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلى « جِبْلًا » بكسر الجيم و إسكان الباء وتخفيف اللام . فهذه خمس قراءات . قال المهدوى والثعلبى : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى ؛ والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا « وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ »(1) فيكون « جِبِلًّا » جمع جِبِلَّة ، والاشتقاق فيه كله واحد . وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أى خلقهم . وقد ذُكرت قراءة سادسة وهى : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيَلًا كَثِيرًا » بالياء . وحكى عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ؛ ذكره الماوردى . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التى وعدتم فكذبتم بها . وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادى منادٍ « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " .

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٣٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون مم أضحك؟ — قلنا الله ورسوله أعلم قال — من مخاطبة العبد ربه، يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطق قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل" خرجه أيضا من حديث أبى هريرة . وفيه "ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][(١)] انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" . وخرج الترمذى عن معاوية بن حيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول مايعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفه" الفدام مصفاة الكوز والإبريق ؛ قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق . ثم قيل فى سبب الختم أربعة أوجه : أحدها — لأنهم قالوا

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

« وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » نختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ؛ قاله أبو موسى الأشعري . الثاني — ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ؛ قاله آبن زياد . الثالث — لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق ؛ لخروجه مخرج الإعجاز ، وإن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز . الرابع — ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعوانا في حق نفسه صارت عليه شهودا في حق ربه . فإن قيل : لم قال « وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ » فجعل ما كان من اليد كلاما ، وما كان من الرجل شهادة ؟ قيل : إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل ؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة . وقد روى عن عُقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرِّجل اليسرى " ذكره الماوردي والمهدوي . وقال أبو موسى الأشعري : إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ؛ ذكره المهدوي أيضا . قال الماوردي : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء ؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها . قال : وتقدمت اليسرى ؛ لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها ؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة ، أو كلاهما معاً والكف ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ حكى الكسائي : طَمَس يَطمِس ويَطمُس . والمطموس والطَّميس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينيه شق . قال آبن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق . وقال الحسن والسدي : المعنى لتركناهم عمياً يترددون . فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها . وهذا آختيار الطبري . وقوله : « فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ » أي آستبقوا الطريق ليجوزوا « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أي فمن أين يبصرون . وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم ،

Marfat.com

وأعميناهم عن غيّهم، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى؛ فاهتدوا وأبصروا رشدَهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال: « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية. وقد روى عن عبد الله بن سلَام في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومُدّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فُجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه. ثم ينادي منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. ذكره النحاس وقد كتبناه في التذكرة بمعناه حسب ماذكره ابن المبارك في رقائقه. وذكره القشيري. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده، فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه. والمطموس هو الذي لايكون بين جفنيه شَقّ، مأخوذ من طَمَس الريحُ الأثرَ؛ قاله الأخفش والقتبي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ المسخ: تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة. قال الحسن: أي لأقعدناهم فلايستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة، ثم تلك البهيمة لاتعقل موضعا تقصده فتتحير، فلا تقبل ولاتدبر. ابن عباس رضي الله عنه: المعنى لونشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: المعنى لونشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترءوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط. وقرأ الحسن والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبَيش وعاصم في رواية أبي بكر: « مَكَانَاتِهِمْ » على الجمع، الباقون بالتوحيد. وقرأ أبو حَيْوَة: « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مَضِيًّا » بفتح الميم. والمُضي بضم الميم مصدر يَمضي مُضيًّا إذا ذهب.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة «نُنَكِّسْهُ» بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس . الباقون « نَنْكُسْه » بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أَنْكُسُه نَكْسًا قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الهرم الذى يشبه حال الصبا . وقال سفيان فى قوله تعالى: « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ» إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوته . قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ * وخانه ثِقَتَاه السَّمعُ والبصرُ

فطول العمر يصيّر الشباب هَرَمًا، والقوّة ضعفا، والزيادة نقصا، وهذا هو الغالب . وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر . وقد مضى فى « النحل » بيانه[(١)] . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم . وقرأ نافع وابن ذكوان: « تعقلون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى ، ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — أخبر تعالى عن حال نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعانى فقط صلى الله عليه وسلم . من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة :

ستُبدِى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلًا * ويأتيكَ من لم تزوّده بالأخبار

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذى يقول :

ألم ترياني كلّما جئت طارقاً * وجدتُ بها وإن لم تطيَّب طيباً

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠ فما بعد .

Marfat.com

وأنشد يوما :

أتجعلُ نَهْبِي ونَهبَ العبـ * ـيدِ بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم فى النادر . روى أنه أنشد بيت [عبد الله بن رواحة] :

يَبيتُ يُجافى جَنْبَهُ عن فراشــهِ * إذا آستثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبى الحسن : أنشد النبي عليه السلام :

* كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا *

فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزْتَ غاديا * كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهِياَ

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتّى له .

الثانيــة — إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتى أحيانا من نثر كلامه ما يدخل فى وزن ، كقوله يوم حُنين وغيره :

" هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ * وفى سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ "

وقوله :

" أنا النبيُّ لا كَذِبْ * أنا آبن عبد المطلبْ "

فقد يأتى مثل ذلك فى آيات القرآن ، وفى كل كلام ؛ وليس ذلك شعرا ولا فى معناه ؛ كقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (١) ، وقوله : « نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » (٢) ، وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » (٣) إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكر آبن العربى منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال فى قوله : " أنا النبيّ لا كَذِبْ " ليس بشعر . وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . وروى عنه أنه من منهوك الرَّجز . وقد قيل :

(١) راجع ج ٤ ص ١٣٢ (٢) راجع ج ١٨ ص ٨٨ (٣) راجع ج ١٤ ص ٢٧١

Marfat.com

لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على البـاء من قوله : " لا كذب " ، ومن قوله : " عبد المطلب " . ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال " لا كَذِبُ" الباء مرفوعة ، ويخفض الباء من عبد المطلبِ على الإضافة . وقال النحاس قال بعضهم : إنما الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أوضمها أو نونها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر . وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر . وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره . وأما قوله : " هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ " فقيل إنه من بحر السريع ، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت ، فإن سكن لا يكون شعرا بحال ؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول ، ولا مدخل لفعول فى بحر السريع . ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع . والمعول عليه فى الانفصال على تسليم أن هـذا شعر ، ويسقط الاعتراض ، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالما بالشعر ولا شاعر – أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره ، لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر ، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء ، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا . قال أبو إسحٰق الزجاج : معنى « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » وما علمناه أن يشعر أى ما جعلناه شاعرا ، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى هـذا . وقـد قيل : إنما خبّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا ، وهذا ظاهر الكلام . وقيل فيه قول بيّن ؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغـة ، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شـعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر . وهذا قول بيّن . قالوا : وإنما الذى نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العـلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفا بذلك بالاتفاق . ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر . فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون

Marfat.com

أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر(١) فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم، وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ على ما يأتي بيانه من خبره في سورة «فصلت»(٢) إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْن البلغاء. ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعد شعرا، وإنما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي، ولا يعد هذا شعرا. وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عُرض العامة العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى.

الثالثة — روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه؛ فمن عيبه أن الله يقول: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن اجمع الشعراء قبلك، وسلهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأحضر لبيدًا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيدا فقال: ما قلت شعرًا منذ سمعت الله عز وجل يقول: «الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»(٣) قال ابن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»(٤) من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر. روي أن المأمون قال لأبي علي المنقري: بلغني أنك أميّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة.

---

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.
(٢) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء.
(٣) راجع جـ ١ ص ١٥٤
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

Marfat.com

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى وما ينبغى له أن يقوله . وجعل الله جل وعز ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ؛ فيظن أنه قوى على القرآن بما فى طبعه من القوة على الشعر . ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر؛ ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا ؛ على ما تقدم بيانه . وقال الزجاج : معنى « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاء . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى هذا الذى يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أى حىّ القلب؛ قاله قتادة . الضحاك : عاقلا . وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمنا فى علم الله . هذا على قراءة التاء خطابا للنبى عليه السلام ، وهى قراءة نافع وابن عامر . وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل ؛ أو لينذر محمد صلى الله عليه وسلم ، أو لينذر القرآن . وروى عن ابن السَّمَيْقَع « لِيَنْذَرَ » بفتح الياء والذال . ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أى أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا . ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أى مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة . و « ما » بمعنى الذى وحذفت الهاء لطول الاسم . وإن جعلت « ما » مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء . ﴿أَنْعَامًا﴾ جمع نعم والنعم مذكر . ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون . ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أى سخرناها لهم حتى يقود الصبى الجمل العظيم ويضربه ويصرّفه كيف شاء لا يخرج من طاعته . ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أى مركوبهم ، كما يقال: ناقة

Marfat.com

حَلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمَيْقَع : « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء على المصدر . وروى عن عائشة أنها قرأت : « فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ » وكذا فى مصحفها . والرَّكوب والرَّكوبة واحد ، مثل الحَلوب والحلوبة ، والحَمول والحمولة . وحكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول : آمرأة صَبور وشَكور بغير هاء . ويقولون : شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه ، فحذفوا الهاء ممـا كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا ؛ كما قال (١) :

فيهـا آثنتانِ وأربعون حَلُوبَةً * سُودًا كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم . فأما البصريون فيقولون : حذفت الهاء على النسب . والحجة للقول الأول ما رواه الجرمى عن أبى عبيدة قال : الركوبة تكون للواحد والجماعة ، والرَّكوب لا يكون إلا للجماعة . فعلى هذا يكون لتذكير الجمع . وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء لأنه مصــدر ؛ والرُّكوب ما يركب . وأجاز الفرّاء « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء ، كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحمانها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعنى ألبانها ؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التى لا نظير لها فى الواحد . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعـالى : وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَـةً ﴾ أى قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم آتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل . ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لمـا يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شداد .

Marfat.com

لهم إن نزل بهم عذاب . ومن العرب من يقول: لعله أن يفعل . ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة . وجمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين . ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي للآلهة ، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم . وقال قتادة : أي يغضبون لهم في الدنيا . وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها ؛ فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهم . وقيل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم . وفي الخبر : إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار ؛ فهم لهم جند محضرون .

قلت : ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ أَلَا لِيَتْبَعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمَثَّلُ لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون" وذكر الحديث بطوله . ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغة الفصيحة . ومن العرب من يقول يُحزِنك . والمراد تسلية نبيه عليه السلام؛ أي لا يحزنك قولهم شاعر ساحر . وتم الكلام، ثم استأنف فقال : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ قال ابن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَيّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السَّهمي . وقال الحسن : هو أُبَيّ بن خلف الجُمَحي .

Marfat.com

وقاله ابن إسحق ، ورواه ابن وهب عن مالك . ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء ؛ نطف إذا قطر . ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أى مجادل فى الخصومة مبين للحجة . يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا . وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال : يامحمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " نعم ويبعثك الله ويدخلك النار " فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أى ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة . أى جوابه من نفسه حاضر ؛ ولهذا قال عليه السلام : " نعم ويبعثك الله ويدخلك النار " ففى هذا دليل على صحة القياس ؛ لأن الله جل وعز احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى . « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أى بالية . رمّ العظم فهو رميم ورمام . وإنما قال رميم ولم يقل رميمة ؛ لأنها معدولة عن فاعلة ، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه ؛ كقوله : «وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا»[1] أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن باغية . وقيل : إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن سحقتها وأذريتها فى الريح أيعيدها الله ! فنزلت : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى من غير شيء فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شيء وهو عجْم الذَّنَب . ويقال عجْب الذَّنَب بالباء . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أى كيف يبدئ ويعيد .

(١) راجع جـ ١١ ص ٩٩

Marfat.com

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن فى العظام حياة وأنها تنجس بالموت . وهو قول أبى حنيفة و بعض أصحاب الشافعى . وقال الشافعى رضى الله عنه : لا حياة فيها . وقد تقدّم هـذا فى « النحل »(١) . فإن قيل : أراد بقوله « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ » أصحاب العظام ، و إقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير فى اللغة ، موجود فى الشريعة . قلنا : إنما يكون إذا آحتيج لضرورة وليس ها هنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار ، ولا يفتقر إلى هذا التقدير ، إذ البارى سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذى هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ نبّه تعالى على وحدانيته ، ودل على كمال قدرته فى إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندى الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة ، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة ! فأنزل الله تعالى : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا » أى إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ؛ فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شىء قدير . ويعنى بالآية

(١) هـذا يخالف مذهب الحنفية وما تقـدم للؤلف فى ج ١٠ ص ١٥٥ من أن أبا حنيفـة يقول بطهارة عظم الميتـة .

Marfat.com

ما في المَرْخ والعَفَار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولهم: في كل شجر نار واستمجد المَرْخُ والعَفَار[1]؛ فالعَفَار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المساوكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار. وقال: « مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ » ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: « مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[2] ». ثم قال تعالى محتجا: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلام أبو المنذر و يعقوب الحضرمي: « يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » على أنه فعل. ﴿ بَلَى ﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه « الْخَالِقُ ».

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قرأ الكسائي « فَيَكُونَ » بالنصب عطفا على « يقول » أي إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك. وملكوتُ وملكوتَى في كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جَبَرُوتَى خيرٌ من رَحَمُوتَى. وقال سعيد عن قتادة: « مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » مفاتح كل شيء. وقرأ طلحة بن مصرِّف و إبراهيم التيمي والأعمش، « مَلَكَةُ »، وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تردّون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمِيّ و زِرّ بن حُبيش وأصحاب عبد الله « يُرْجَعُونَ » بالياء على الخبر.

---

(١) استمجد المرخ والعفار: أي استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما. وهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض. (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢١٤.

Marfat.com

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هذه قراءة أكثر القرّاء. وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ . وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها . النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات : إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال، وأخت الزاي الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء . والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى . والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو دابّة وشابّة . ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف . « وَالصَّافَّاتِ » قسم؛ الواو بدل من الباء . والمعنى برب الصّافّات و « الزَّاجِرَاتِ » عطف عليه . ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم . وأجاز الكسائي فتح إن في القسم . والمراد بـ « بالصَّافَّاتِ » وما بعدها إلى قوله : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . تُصَفّ في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة . وقيل : تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد . وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفا . وقال الحسن : « صَفًّا » لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم . وقيل : هي الطير؛ دليله قوله

Marfat.com

تعـالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ »[(١)] . والصف ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة . « وَالصَّافَّاتِ » جمـع الجمع؛ يقال : جماعة صافة ثم يجمـع صافات . وقيـل : الصّافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصـلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري . « فَالزَّاجِرَاتِ » الملائكة في قـول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه . إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السـدّي . وإما لأنهـا تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح . وقال قتادة : هي زواجر القرآن . « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة تقرأ كتاب الله تعـالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسّدى . وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع . وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله تعـالى وكتبه . وقيل : هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعـالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ »[(٢)] . ويجـوز أن يقال لآيات القرآن تاليـات؛ لأن بعض الحروف يتبـع بعضا؛ ذكره القشيري . وذكر المـاوردي : أن المراد بالتّاليات الأنبيـاء يتلون الذكر على أممهم . فإن قيـل : ما حكم الفـاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله[(٣)] :

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلحارِثِ الصـ * ـابِحِ فالغَـانِمِ فالآيِبِ

كأنه قال : الذى صَبّح فغنم فآب . وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل، وآعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم الله المحلِّقين فالمقصِّرين . فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري . « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » جواب القسم . قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا آجعل الآلهة إلهاً واحدا، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٧ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٣١ .

(٣) هو سلمة بن ذهل ويعرف بابن زيابة وزيابة أبوه، وقيل أمه . يقول يا لهف أبي على الحرث إذ صبح قومي بالغارة فغنم وآب سالما ألا أكون لقيته، فقتلته . ويريد يا لهف نفسي . والحرث هو الحرث بن همام الشيباني كما في شرح أشعار الحماسة . وبعد هذا البيت .

والله لو لاقيتــه خاليـا * لآب سـيفانا مع الغـالب

Marfat.com

ونزلت الآية . قال ابن الأنباري : وهو وقف حسن ، ثم تبتدئ ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات . النحاس : ويجوز أن يكون « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » خبرا بعد خبر ، ويجوز أن يكون بدلا من « وَاحِدٌ » .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على « لَوَاحِدٌ » . وحكى الأخفش : « رَبَّ السَّمٰوَاتِ ـ وَرَبَّ الْمَشَارِقِ » بالنصب على النعت لاسم إن . بيّن سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أى خالقهما ومالكهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى مالك مطالع الشمس . ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب ؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوة فى مطلعها ، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية ، تطلع فى كل يوم فى كوة منها ، وتغيب فى كوة ، لا تطلع فى تلك الكوة إلا فى ذلك اليوم من العام المقبل . ولا تطلع إلا وهى كارهة فتقول : ربّ لا تطلعنى على عبادك فإنى أراهم يعصونك . ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد ، وابن الأنبارى فى كتاب الرد عن عكرمة ؛ قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أمية ابن أبى الصلت " آمن شعرهُ وكفر قلبُه " قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمسُ تطلعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبحُ لونُها يتوردُ
ليست بطالعةٍ لهمْ فى رِسْلِهَا * إلا مُعَذَّبَةً وإلا تُجْلَدُ

ما بالُ الشمس تُجْلَدُ؟ فقال : والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف مَلَك ، فيقولون لها اطلعى اطلعى ، فتقول لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فيأتيها ملك فيستقلّ لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما طلعت إلا بين قرنى شيطان ولا غربت إلا بين قرنى شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها " لفظ ابن الأنبارى . وذكر

Marfat.com

عن عكرمة عن ٱبن عباس قال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبى الصلت فى هذا الشعر :

زُحَلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينِه * والنسر للأخرى وليثٌ مُرْصَدُ

والشمسُ تَطلعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ * حمراءَ يصبِحُ لونُها يتَورَّدُ

ليست بطالعة لهم فى رِسْلِها * إلا مُعذَّبةً وإلا تُجلَدُ

قال عكرمة : فقلت لٱبن عباس : يامولاى أتجلد الشمس؟ فقال : إنما ٱضطره الروىّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب . ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »(١) . وخصّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب . وقال فى سورة « الرحمن »(٢) : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الأيام الطوال ، وأقصر يوم فى الأيام القصار على ما تقدّم فى « يس »(٣) والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة : خلقت النجوم ثلاثا ؛ رجوما للشياطين ، ونورا يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا . وقرأ مسروق والأعمش والنخعى وعاصم وحمزة : « بِزِينَةٍ » مخفوض منوّن « الْكَوَاكِبِ » خفض على البدل من « زينة » لأنها هى . وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب « الْكَوَاكِبَ » بالمصدر الذى هو زينة . والمعنى بأن زينا الكواكب فيها . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ؛ كأنه قال : إنا زيناها « بزينة » أعنى « الكواكبَ » . وقيل : هى بدل من زينة على الموضع .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦١
(٣) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

ويجوز « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبُ » بمعنى بأن زينتها الكواكبُ . أو بمعنى هى الكواكب . الباقون « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » على الإضافة . والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب ؛ أى بحسن الكواكب . ويجوز أن يكون كقراءة من نوّن إلا أنه حذف التنوين آستخفافا.

﴿ وَحِفْظًا ﴾ مصدر، أى حفظناها حفظا.﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحى من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن آستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب . والمارد : العاتى من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا .

قوله تعالى:﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ قال أبو حاتم: أى لئلا يسمعوا ثم حذف «أن» فرفع الفعل. الملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمّى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض . الضمير فى « يَسَّمَّعُونَ » للشياطين . وقرأ جمهور الناس « يَسْمَعُونَ » بسكون السين وتخفيف الميم . وقرأ حمزة وعاصم فى رواية حفص « لَا يَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين والميم من التسميع . فينتفى على القراءة الأولى سماعهم وإن كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضده قوله تعالى: « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »[(1)] . وينتفى على القراءة الأخيرة أن يقع منهم آستماع أو سماع . قال مجاهد : كانوا يتسمّعون ولكن لا يسمعون . وروى عن آبن عباس « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ » قال : هم لا يسمّعون ولا يتسمعون . وأصل « يَسَّمَّعُونَ » يتسمعون فأدغمت التاء فى السين لقربها منها . وآختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه.﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أى يُرمَون من كل جانب ؛ أى بالشُّهب . ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدحَرون . دحرته دَحْرًا ودُحُورا أى طردته . وقرأ السُّلَمى ويعقوب الحضرمى « دَحُورًا » بفتح الدال يكون مصدرا على فعول . وأما الفرّاء فإنه قدّره على أنه آسم الفاعل. أى ويقذفون بما يدحرهم أى بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيرا [كما أنشدوا[(1)]] :

* تَمُرُّونَ الديارَ ولَمْ تعوجُوا *

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . والبيت لجرير وتمامه :

* كلامكم على إذن حرام *

Marfat.com

واختُلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين . وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتى من ذكرها فى سورة «الجن»(١) عن ابن عباس . وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال : إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت ؛ أى لم تكن تُرمَى رمياً يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً ، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب . ولعل الإشارة بقوله تعالى : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » إلى هـذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصباً . وإنمـا كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس ، يبلـغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويَسلَمَ واحد ولا يَسلَمَ غيره ، بل يقبض عليه ويعاقب وينكَّل . فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد فى حفظ السماء ، وأعدّت لهم شُهُب لم تكن من قبل ؛ ليُدْحَروا عن جميع جوانب السماء ، ولا يُقَرّوا فى مقعد من المقاعد التى كانت لهم منها ؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء ممـا يجرى فيها ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّـة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة . فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فَلِمَ دام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب ـــ أنه دام بدوام النبوّة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : " ليس منا من تكهّن " فلولم تحرس بعـد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها ، وعادت الكهانة . ولا يجوز ذلك بعد أن بطل ؛ ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنمـا عادت لتناهى النبوّة ، فصحّ أن الحكمة تقضى دوام الحراسة فى حياة النبي عليه السلام ، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أى دائم ؛ عن مجاهـد وقتادة . وقال ابن عباس : شـديد . الكلبي والسدّى وأبو صالح : موجع ؛ أى الذى يصل وجعه إلى القلب ؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ استثناء من قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » وقيل : الاستثناء يرجع إلى غير

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٠

Marfat.com

الوحى ؛ لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة ، مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيُرجمون بالشُّهب حينئذ . وروى فى هذا الباب أحاديث صحاح، مضمّنها : أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، فيقضى الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذى تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه على ما بيّناه . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيّناه فى « الأنعام »[1] . فلما جاء الله بالإسلام حُرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بتّة . والكواكب الراجمة هى التى يراها الناس تنقضّ . قال النقاش ومكى : وليست بالكواكب الجارية فى السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا . وقد مضى فى هذا الباب فى سورة « الحجر »[2] من البيان مافيه كفاية . وذكرنا فى « سبإ »[3] حديث أبى هريرة . وفيه "والشياطين بعضهم فوق بعض" وقال فيه الترمذى حديث حسن صحيح . وفيه عن ابن عباس : "ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرّفونه ويزيدون". قال هذا حديث حسن صحيح . والخطف : أخذ الشىء بسرعة ؛[يقال[4] :] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطِّفَ وخِطَّفَ . والأصل فى المشدّدات اختطف فأدغم التاء فى الطاء لأنها أختها ، وفتحت الخاء ؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها . ومن كسرها فلالتقاء الساكنين . ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى مضىء ؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما . وقيل : المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم فى البحر . وقال ابن عباس فى الشهب : تحرقهم من غير موت . وليست الشُّهُب التى يرجم الناس بها

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٦ . (٤) زيادة يقتضيها السياق، ويدل عليها ما فى إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

من الكواكب الثوابت . يدلّ على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة تجرى ولا ترى حركاتها لبعدها . وقد مضى هذا. وجمع شهاب شهب ، والقياس فى القليل أشهبة وإن لم يُسمع من العرب . و « ثَاقِبٌ » معناه مضىء ؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز . ومنه قوله :

* وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها *

أى أضوأ . وحكى الأخفش فى الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب . وحكى الكسائى : ثَقَبتِ النارُ تَثْقُب ثَقابةً وثقوبًا إذا اتقدت، وأثقبتها أنا . وقال زيد بن أسلم فى الثاقب : إنه المستوقد؛ من قولهم : أَثقِب زَنْدَك أى استوقد نارك؛ قاله الأخفش . وأنشد قول الشاعر :

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ * ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمَدْ

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى سلهم يعنى أهل مكة ؛ مأخوذ من استفتاء المفتى . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ قال مجاهد : أى من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار . وقيل : يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية . يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم «بمَن» قال سعيد بن جبير : الملائكة . وقال غيره : « مَنْ » الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقا منهم . نزلت فى أبى الأشد بن كَلَدَة، وسمى بأبى الأشد لشدّة بطشه وقوته . وسيأتى فى «البلد»(١) ذكره . ونظير هذه : « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »(٢) وقوله : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ »(٣) . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ أى لاصق؛ قاله ابن عباس . ومنه قول علىّ رضى الله عنه :

تعلّمْ فإنّ الله زادكَ بَسطةً * وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٦٤ (٢) راجع ص ٣٢٥ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١

Marfat.com

وقال قتادة وآبن زيد : معنى « لَازِبٍ » لازق . الماوردي : والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق : هو الذي قد لُصق بعضه ببعض ، واللازق : هو الذي يلتزق بما أصابه . وقال عِكرمة : « لَازِبٍ » لزج . سعيد بن جبير : أي جَيِّد حرّ يلصق باليد . مجاهد : « لَازِب » لازم . والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم، تبدل الباء من الميم . ومثله قولهم : لاتب ولازِم. على إبدال الباء بالميم . واللازب الثابت؛ تقول : صار الشيء ضَرْبةَ لازِبٍ ، وهو أفصح من لازم . قال النابغة :

ولا تَحْسَبُونَ الخيرَ لا شرَّ بعدَهُ * ولا تَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتِب بمعنى لازِم . واللاتِب الثابت؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُبُ لَتْبًا ولُتُوبا، مثل لَزَب يَلْزُب بالضم لزوبا؛ وأنشد أبو الجرّاح في اللاتب :

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شربتُهُ * فإنِّي من شربِ النَّبيذِ لَتائبُ
صُداعٌ وتَوْصِيمُ العِظَامِ وفَتْرةٌ * وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الجَوفِ لَاتِبُ[(١)]

واللاتب أيضا : اللاصق مثل اللازب، عن الأصمعي حكاه الجوهري . وقال السدي والكلبي في اللازب : إنه الخالص . مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهي قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال :[(٢)]] إن الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء . وآختارها أبو عبيد والفرّاء، وهي مروية عن عليّ وآبن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : « بَلْ عَجِبْتُ » بضم التاء . ويروى عن آبن عباس . قال الفرّاء في قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » قرأها الناس بنصب

---

(١) قوله : «وغم مع الإشراق» كرواية اللسان. ورواية الطبري : وغَنًى مع الإشراق.
(٢) الزيادة من تفسير الآلوسي .

Marfat.com

التاء ورفعها، والرفع أحبّ إلىّ؛ لأنها عن على وعبد الله وآبن عباس . وقال أبو زكريا الفراء : العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد ؛ وكذلك قوله : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »(١) ليس ذلك من الله كمعناه من العباد . وفى هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها . روى جرير والأعمش عن أبى وائل شَقيق بن سَلَمة قال : قرأها عبد الله يعنى آبن مسعود « بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ » قال شريح : إن الله لا يعجب من شىء إنما يعجب مَن لا يعلم . قال الأعمش : فذكرته لإبراهيم فقال : إن شريحا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيح وكان يقرؤها عبد الله « بَلْ عَجِبْتُ » . قال الهروىّ : وقال بعض الأئمة : معنى قوله « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على عجبهم ؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ »(٢)، وقال : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » ، « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ »(٣) فقال تعالى : « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على التعجُّب .

قلت : وهذا تمام معنى قول الفرّاء وآختاره البيهقى . وقال علىّ بن سليمان : معنى القراءتين واحد، التقدير : قل يامحمد بل عجبت ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن . النحاس : وهذا قول حسن وإضمار القول كثير . البيهقى : والأول أصح . المهدوى : ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به مايقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه — على ماجاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم — على أنه أظهر له من رضاه عنه مايقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازا وآتساعا . قال الهروىّ : ويقال معنى "عَجِبَ رَبُّكُم" أى رضى وأثاب؛ فسمّاه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة؛ كما قال تعالى: « وَيَمْكُرُ اللَّهُ »(٤) معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله فى الحديث "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقنوطكم". وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيما . فيكون معنى قوله : « بَلْ عَجِبْت » أى بل عَظُم فعلهم عندى . قال البيهقى : ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ . (٢) راجع ص ١٤٩ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

Marfat.com

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " عَجِبَ ربك من شاب ليست له صَبْوة(١) " وكذلك ما خرجه البخارى عن [أبى هريرة(٢) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل "] قال البيهقى : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده ، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر فى السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة . وقيل : معنى « بَلْ عَجِبْتُ » بل أنكرت . حكاه النقاش . وقال الحسين بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشىء وتعظيمه ، وهو لغة العرب . وقد جاء فى الخبر " عجب ربكم من إلّكم(٣) وقُنوطكم " . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال ؛ أى عجبت منهم فى حال سخريتهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « بَلْ عَجِبْتَ » ثم ٱستأنف فقال : « وَيَسْخَرُونَ » أى مما جئت به إذا تلوتَه عليهم . وقيل : يسخرون منك إذا دعوتَهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أى وُعظوا بالقرآن فى قول قتادة . ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به . وقال سعيد بن جبير : أى إذا ذُكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أى معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أى يسخرون فى قول قتادة . ويقولون إنها سحر . وٱستسخر وسخر بمعنًى مثل ٱستقر وقر ، وٱستعجب وعجب . وقيل : « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يستدعون السُّخرى من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . وقيل : أى يظنون أن تلك الآية سخرية . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أى إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشىء قالوا هـذا سحر وتخييل وخداع . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أى أنبعث إذا متنا ؟ . فهو ٱستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أى أوَ تبعث آباؤنا . دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف . وقرأ نافع : « أَوْآبَاؤُنَا » بسكون الواو . وقد مضى هـذا فى سورة « الأعراف(٤) » . فى قوله تعالى : « أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى » .

(١) أى ميل إلى الهوى . (٢) الزيادة من البخارى وفى الأصل بياض .
(٣) الإل : شدة القنوط . ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٥٣

Marfat.com

قوله تعالى : قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أى نعم تبعثون . ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى صاغرون أذلاء ؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون . وقيل : أى ستقوم القيامة وإن كرهتم ، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى صيحة واحدة ؛ قاله الحسن . وهى النفخة الثانية . وسمّيت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر ؛ أى يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق . ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قيامٌ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أى ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهم . وقيل : هى مثل قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[1] . وقيل : أى ينظرون إلى البعث الذى أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل ؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم . وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين . وزعم الفرّاء أن تقديره : يا وَىْ لَنا ، ووَىْ بمعنى حُزْن . النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو فى المصحف متصل ، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا . و « يَوْمُ الدِّينِ » يوم الحساب . وقيل : يوم الجزاء . ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض ؛ أى هذا اليوم الذى كذبنا به . وقيل : هو من قول الله تعالى لهم . وقيل : من قول الملائكة ؛ أى هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل . ف « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »[2] .

قوله تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٢ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦

Marfat.com

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا
لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة : « ٱحْشُرُوا » المشركين « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشياعهم فى الشرك ، والشرك الظلم ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »(١) فيحشر الكافر مع الكافر ؛ قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر ابن الخطاب فى قول الله عز وجل : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » قال : الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقال ابن عباس : « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشباههم . وهذا يرجع إلى قول عمر . وقيل : « وَأَزْوَاجَهُمْ » نساؤهم الموافقات على الكفر ؛ قاله مجاهد والحسن ، ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب . وقال الضحاك : « وَأَزْوَاجَهُمْ » قرناءهم من الشياطين . وهذا قول مقاتل أيضا : يحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من الأصنام والشياطين وإبليس . ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى سوقوهم إلى النار . وقيل : « فَاهْدُوهُمْ » أى دُلّوهم . يقال : هديته إلى الطريق ، وهديته الطريق ؛ أى دللته عليه . وأهديتُ الهديّة وهَديتُ العروس ، ويقال أهديتها ؛ أى جعلتها بمنزلة الهديّة .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر « أَنَّهُمْ » بفتح الهمزة . قال الكسائى : أى لأنهم وبأنهم ، يقال : وَقفتُ الدابّة أقفها وَقْفا فوقفت هى وقوفًا ، يتعدى ولا يتعدى ؛ أى آحبسوهم . وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم ؛ وفيه تقديم وتأخير ،

(١) راجع ج ١٤ ص ٦٢

Marfat.com

أى قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . وقيل : يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار . «إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ؛ قاله القرظى والكلبى . الضحاك : عن خطاياهم . ٱبن عباس : عن لا إله إلا الله . وعنه أيضا : عن ظلم الخلق . وفى هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب . وقد مضى فى « الحجر »(١) الكلام فيه . وقيل : سؤالهم أن يقال لهم : «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» إقامة للحجة . ويقال لهم : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ ؛ أى ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله . وقيل : هو إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ »(٢) . وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا . وشدّدا لبزّى التاء فى الوصل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله عز وجل . ٱبن عباس : خاضعون ذليلون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم . والمعنى متقارب . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يعنى الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون . ويقال لا يتساءلون فسقطت لا . النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »(٣) إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم : أسألك بالرحمِ الذى بينى و بينك لما نفعتنى ، أو أسقطت لى حقا لك علىّ ، أو وهبت لى حسنة . وهذا بيّن ؛ لأن قبله «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ» . أى ليس ينتفعون بالأنساب التى بينهم ؛ كما جاء فى الحديث " إن الرجل لَيُسَرّ(٤) بأن يصح له على أبيه أو على ٱبنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات " ، وفى حديث آخر " رحم الله ٱمرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أوعرض فأتاه فٱستحلّه قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب " . و « يَتَسَاءَلُونَ » هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا ويوبخه فى أنه أضلّه أو فتح له بابا من المعصية ؛ يبيّن ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين . قتادة : هو قول الإنس للجن . وقيل : هو من قول

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٤٥ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥١
(٤) فى ك : « يصبح » .

Marfat.com

الأتباع للتبوعين ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » الآية (١) . قال سعيد عن قتادة : أى تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها . وعن ابن عباس نحو منه . وقيل : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح . والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » تأتوننا مجىء من إذا حلف لنا صدقناه . وقيل : تأتوننا من قبل الدين فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها .

قلت : وهذا القول حسن جدا ؛ لأن من جهة الدين يكون الخير والشر ، واليمين بمعنى الدين ؛ أى كنتم تزينون لنا الضلالة . وقيل : اليمين بمعنى القوة ؛ أى تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى : «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ» أى بالقوة وقوة الرجل فى يمينه ؛ وقال الشاعر :

إذا مَا رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ　＊　تلقّاها عَرابةُ باليمينِ

أى بالقوة والقدرة . وهذا قول ابن عباس . وقال مجاهد : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قبل الحق أنه معكم ؛ وكله متقارب المعنى . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم . وقيل : من قول الرؤساء ؛ أى لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة فى ترك الحق . ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أى ضالين متجاوزين الحد . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين ؛ أى وجب علينا وعليكم قول ربنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٢) » . وهذا موافق للحديث " إن الله جل وعز كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " . ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء . ثم قال خبرا عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أى مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠١ فما بعد .　　(٢) راجع جـ ٩ ص ١١٥

Marfat.com

و « يَسْتَكْبِرُونَ » فى موضع نصب على خبر كان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر إنّ ،وكان ملغاة . ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى طالب عند موته وآجتماع قريش " قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم " أبَوْا وأنِفُوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله تعالى فى كتابه فذكر قوما آستكبروا فقال : «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ » " وقال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا (١) » وهى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) آستكبر عنها المشركون يوم الحُدَيْبِيَة يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة ؛ ذكر هذا الخبر البيهقى ، والذى قبله القشيرى .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أى لقول شاعر مجنون ؛ فردّ الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون آستخفافا وخفضت للإضافة . ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فألفيته غيرَ مستعتِب * ولا ذاكرِ الله إلا قليلا

وأجاز سيبويه « وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ » على هذا . ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ آستثناء ممن يذوق العذاب . وقراءة أهل المدينة والكوفة « الْمُخْلَصِينَ » بفتح اللام ؛ يعنى الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته . الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لله العبادة . وقيل : هو آستثناء منقطع ؛ أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٨٨

Marfat.com

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ
مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ
مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ يعنى المخلصين ؛ أى لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة : يعنى الجنة . وقال غيره : يعنى رزق الجنة . وقيل : هى الفواكه التى ذكر . قال مقاتل : حين يشتهونه . وقال آبن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشى ؛ قال الله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »(١) . ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ »(٢) وهى الثمار كلها رطبها و يابسها ؛ قاله آبن عباس . ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أى ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه . ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى فى بساتين يتنعمون فيها . وقد تقدّم أن الجنان سبع فى سورة « يونس »(٣) منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض تواصلًا وتحاببًا . وقيل : الأسرّة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد . وقال آبن عباس : على سرر مكلّلة بالدر والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة . وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم . والكأس عند أهل اللغة آسم شامل لكل إناء مع شرابه ؛ فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢٦ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٢٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٩ .

Marfat.com

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس ؛ فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح ؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة ؛ فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة . قال أبو الحسن ابن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة . وقال الزجاج : « بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » أي من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض . والمعين : الماء الجارى الظاهر. ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة للكأس . وقيل : للخمر . ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضا من اللبن . « لَذَّةٍ » قال الزجاج : أى ذات لذة فحذف المضاف . وقيل : هو مصدر جعل آسما أى بيضاء لذيذة ؛ يقال شراب لَذٌّ ولذيذ، مثل نبات غَضٌّ وغضيض . فأما قول القائل[1] :

ولذٍ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيّ تركتُه * بأرض العِدَا مِنْ خَشيةِ الحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم . وقيل : « بَيْضَاءَ » أى لم يعتصرها الرجال بأقدامهم . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أى لا تغتال عقولهم ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أى لا تذهب عقولهم بشربها؛ يقال : الخمر غَوْل للحِلْم، والحرب غول للنفوس ؛ أى تذهب بها . ويقال : نُزِف الرجلُ يُنْزَف فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر . قال آمرؤ القيس :

وإذ هى تمشى كمشى النـزيـ * ـف يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ[2]

وقال أيضا :

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلت * تُراشِى الفؤادَ الرَّخْصَ ألَّا تَخَتَّرَا[3]

وقال آخر[4] :

فلثمتُ فاهَا آخذًا بقرونها * شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعى . ويروى :

ولذ كطعم الصرخدى طرحته * عشية خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد : موضع ينسب إليه الشراب . أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذار الهم .

(٢) البهر : الكلال وانقطاع النفس . (٣) الختر : ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم . يقول : هى سكرى من الشراب ، إذا قامت به لوجه وجدت فتورا فى عظامها وكسلا ، فهى تدارى فؤادها وتراشيه ألا يعذبها فى مشيتها .

(٤) هو جميل بن معمر . وقيل البيت : لعمر بن أبى ربيعة . والحشرج : نقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

Marfat.com

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي؛ من أنزف القومُ إذا حان منهم النَّزْف وهو السكر. يقال: أحصدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه، وأقطفَ الكرْمُ إذا حان قِطافُه، وأركبَ المهرُ إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرابهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره. قال الحطيئة:

لَعَمْـــرِي لئن أَنزفتم أو صَحَوْتُم * لبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرَا (١)

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى « يُنْزَفُونَ » عنـد جلة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. ومعنى « يُنْزِفُونَ » الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا. وقيل: « لَا يُنْزِفُونَ » بكسر الزاي لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القُشَيري. المهدوي: ولا يكون معناه يسكَرون؛ لأن قبله « لَا فِيهَا غَوْلٌ ». أي لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا؛ ويسوغ ذلك في « الواقعة » (٢). ويجوز أن يكون معنى « لَا فِيهَا غَوْلٌ » لا يمرضون؛ فيكون معنى « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » لا يسكَرون أو لا ينفد شرابهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد « لَا فِيهَا غَوْلٌ » قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس « لَا فِيهَا غَوْلٌ » لا فيها صــداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر والصــداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهـذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبي: « لَا فِيهَا غَوْلٌ » أي إثم؛ نظيره: « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » (٢). وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأْسُ تغتالُنا * وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

---

(١) نسبه الجوهري إلى الأبيردي. وأبجر: هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا.
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ وص ٦٨ فما بعد.

Marfat.com

أى تصرع واحدًا واحدًا . وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم . وقال أهل المعانى : الغول فساد يلحق فى خفاء . يقال : اغتاله اغتيالا إذا أفسد عليه أمره فى خفية . ومنه الغَوْل والغِيلة : وهو القتل خفية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قد قصَرْن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم . عكرمة : « قَاصِرَات الطَّرْف » أى محبوسات على أزواجهنّ . والتفسير الأوّل أبين؛ لأنه ليس فى الآية مقصورات ولكن فى موضع آخر « مقصورات »[(١)] يأتى بيانه . و «قاصرات» مأخوذ من قولهم : قد اقتصر على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره ؛ قال امرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ منها لأثّرا

ويروى : فوق الخد . والأوّل أبلغ . والإتب القميص ، والمحول الصغير من الذر . وقال مجاهد أيضا : معناه لا يَغَرْنَ . ﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء ؛ وقاله السّدى . مجاهد : « عِينٌ » حسان العيون . الحسن : الشديدات بياض العين، الشديدات سوادها . والأوّل أشهر فى اللغة . يقال : رجل أعين واسع العين بيّن العَيَن، والجمع عِين . وأصله فُعْل بالضم فكسرت العين ؛ لئلا تنقلب الواو ياء . ومنه قيل لبقر الوحش عِين، والثور أعين، والبقرة عيناء . ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أى مصون . قال الحسن وابن زيد : شُبّهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة وهو أحسن ألوان النساء . وقال ابن عباس وابن جبير والسدى : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى . وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذى يكون بين القشرة العليا ولباب البيض . وسَحَاةُ كل شيء : قشره والجمع سَحًا ؛ قاله الجوهرى . ونحوه قول الطبرى ، قال : هو القشر الرقيق، الذى على البيضة بين ذلك . وروى نحوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها ؛ قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها * تمتّعت من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٨

Marfat.com

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطّى بالريش .
وقيل : المكنون المصون عن الكسر؛ أى إنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛ كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ »(١) أى فى أصدافه ؛ قاله ابن عباس أيضا . ومنه قول الشاعر :

وهى بيضاءُ مثلُ لؤلؤة الغـ * ـوّاصِ ميزتْ من جوهرٍ مكنونِ

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع ؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم فى الدنيا . وهو من تمام الأنس فى الجنة . وهو معطوف على معنى « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » المعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّراب. قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللذاتِ إلا * أحاديثُ الكرامِ على المُدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ؛ إلا أنه جىء به ماضيا على عادة الله تعالى فى إخباره .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ أى من أهل الجنة ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ أى صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى بالمبعث والجزاء . وقال سـعيد بن جبير : قرينـه شريكه . وقد مضى فى « الكهف » ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى آسميهما مستوفى عند قوله تعـالى : « وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ »(1) وفيهما أنزل الله جل وعز : «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ» إلى «مِنَ الْمُحْضَرِينَ» وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث . وقرئ : « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد . رواه علىّ بن كيسة عن سليم عن حمزة . قال النحاس : ولا يجوز « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » لأنه لا معنى للصدقة هاهنا . وقال القشـيرى : وفى قراءة عن حمزة « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشـديد الصاد . وآعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق . والاعتراض باطل ؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم فلا مجال للطعن فيها . فالمعنى « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بالمـال طلبا فى ثواب الآخرة . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى مجزيون محاسبون بعد الموت فـ﴿قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ . وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين . وقيل : هو من قول الملائكة . وليس « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » بآستفهام ، إنمـا هو بمعنى الأمر ، أى آطّلعوا ؛ قاله آبن الأعرابى وغيره . ومنه لمـا نزلت آية الخمر ، قام عمر قائمـا بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : يارب بيانا أشفى من هذا فى الخمر . فنزلت : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال : فنادى عمر آنتهينا يا ربَّنا . وقرأ آبن عباس : « هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ » بإسكان الطاء خفيفة « فَأُطْلِـعَ » بقطع الألف مخفّفة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل . قال النحاس : « فَأُطْلِـعَ فَرَآهُ » فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا ، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى أن يكون فعلا ماضيا ويكون آطّلعَ وأُطْلِـعَ واحدا . قال الزجاج : يقال طَلَعَ وأَطْلَعَ وآطّلعَ بمعنًى واحد . وقدحكى

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٩ فما بعد .

Marfat.com

« هَـلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ » بكسر النون وأنكره أبوحاتم وغيره . النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لكان هـل أنتم مُطْلِعِيّ ، و إن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثله ، وأنشدا :

هُمُ القـائلونَ الخـيرَ والآمِرونَهُ * إذا ماخَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَمَا

وأنشد الفراء : والفاعلونه . وأنشد سيبويه وحده :

* ولم يَرْتفِق والناس محتضِرونه (١) *

وهذا شاذٌ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هـذا لم يحتجّ به فى كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل فى الفصيح . وقد قيل فى توجيهه : إنه أجرى آسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، فجرى « مُطْلِعُونِ » مجرى يطلعون . ذكره أبو الفتح عثمان بن جنى وأنشد :

أرأيتَ إن جئتُ به أُمْلُودَا * مُرَجَّـلاً ويَلْبَسُ الـبُرُودَا

* أقائلُنّ أحضِروا الشُّهُودَا (٢) *

فأجرى أقائلُنّ مجرى أتقولُنّ . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ » إنّ فى الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها . وكذلك قال كعب فيما ذكر آبن المبارك ، قال : إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكوى ؛ قال الله تعـالى : « فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَـوَاءِ الْجَحِيمِ » أى فى وسط النار والحَسَكُ حواليه ؛ قاله آبن مسعود . و يقال : تعبت حتى آنقطع سَوَائى : أى وسطى . وعن أبى عبيدة : قال لى عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائى . وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لمـا عرفه ، لقد تغيّر حَبْرُه وسِبْرُه (٣) ، فعند ذلك يقول : ﴿ تَاللّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾ « إن » مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

(١) تمـامه :

* جميعا وأيدى المعتفين رواهقه *

يقول : غشيه المعتفون وهم السائلون ، وآحتضره الناس جميعا للعطاء ، يجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق .

(٢) وروى : أحضرى ؛ خطاب للمرأة ، وهو الوجه ، على ما أورده الرضى فى خزانة الأدب حيث قال : ورواه العينى أحضروا بواو الجمع ولا وجه له . والرجز أورده السكرى فى أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ : أقائلون أعجلى الشهودا .

(٣) الحبر والسبر : اللون والهيئة .

Marfat.com

تدخل على كان . ونحوه « إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا » واللام هى الفارقة بينها و بين النافية . ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ فى النار . وقال الكسائى : « لَـتُرْدِينِ » أى لتهلكنى، والردى الهلاك . وقال المبرد : لو قيل « لتردين » لتوقعنى فى النار لكان جائزا . « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي » أى عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السـوء . وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف . « لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » قال الفراء : أى لكنت معك فى النار محضرا . وأحضر لايستعمل مطلقا إلا فى الشر؛ قاله المـاوردى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ وقرئ « بِمَائِتِينَ » والهمزة فى « أَفَمَا » للاستفهام دخلت على فاء العطف ، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخـلّدون منعّمون فما نحن بميتين ولامعذبين . ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ ﴾ يكون آستثناء ليس من الأول و يكون مصدرا ؛ لأنه منعوت . وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت ، ويقال : ياأهل الجنة خلود ولا موت، وياأهل النـار خلود ولا موت . وقيـل : هو من قول المؤمن على جهـة الحديث بنعمة الله فى أنهم لايموتون ولا يعذّبون ؛ أى هذه حالنا وصفتنا . وقيل : هو من قول المؤمن توبيخا للكافر لمـا كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت فى الدنيا . ثم قال المؤمن مشيرا الى ماهو فيه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يكون « هو » مبتدأ وما بعده خبرعنه والجملة خبر إنّ . و يجوز أن يكون « هو » فاصلا . ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لمـا رأى ما أعدّ الله له فى الجنة وما أعطاه قال : « لِمِثْلِ هَـٰذَا » العطاء والفضـل « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . نظير ماقال له الكافر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَـرًا »(1) . ويحتمل أن يكون من قول الملائكة . وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا ؛ أى قد سمعتم مافى الجنة من الخيرات والجزاء، و « لِمِثْلِ هَـٰذَا » الجزاء « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . النحاس : وتقدير الكلام — والله أعلم — فليعمل العاملون لمثل هذا . فإن قال قائل : الفاء فى العربية تدل على أن الثانى بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التاخير؛ لأن حق حروف الخفض ومابعدها أن تكون متأخرة .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز . ﴿ نُّزُلًا ﴾ على البيان ؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ خير نزلا . والنُّزُل في اللغة الرزق الذي له سعة ـــ النحاس ـــ وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة ، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل؛ ومنه أقيم للقوم نُزُلهم، وٱشتقاقه أنه الغذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه . وقد مضى هذا في آخر سورة « آل عمران »(١) . وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتْنها. قال المفسرون : وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء ؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها ، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل . وٱختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين : أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا ٱختلفوا فيها ؛ فقال قطرب : إنها شجرة مُرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثاني : إنها لا تعرف في شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبْد والتمر . فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله في بيوتنا الزقوم . فقال أبو جهل لجاريته : زقّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر . ثم قال لأصحابه : تزقّموا ؛ هذا الذي يخوّفنا به محمد ؛ يزعم أن النار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر !

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين ، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحرق الشجر؟ وقد مضى هـذا المعنى فى « سبحان »(١) وآستخفافهم فى هذا كقولهم فى قوله تعالى: « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(٢) . ماالذى يخصص هذا العدد ؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فاكفونى الباقين . فقال الله تعـالى : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » والفتنة الآختبار ، وكان هـذا القول منهم جهلا ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار . وقيل : هـذا الآستبعاد الذى وقع للكفار هو الذى وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أوعقاب تتخلله الأرواح ، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقـلم على معانى زوّروها فى أنفسهم ، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع ، و إذا ورد خبر الصادق بشىء موهوم(٣) فى العقل ، فالواجب تصديقه و إن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل فى موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء [من غير مصير(٤) إلى علم الباطن . وقيـل إنها فتنة أى عقوبة للظالمين] ؛ كما قال : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ »(٥) .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى قعر النار ومنها منشؤها ثم هى متفرّعة فى جهـنم . ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى ثمرها ؛ سمى طلعا لطلوعه . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ قيل : يعنى الشياطين بأعيانهم شبهها برءوسهم لقبحهم، ورءوس الشياطين متصوّر فى النفوس و إن كان غير مرئىّ . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هى كصورة مَلَك . ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف : « مَاهَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »(٦) وهذا تشبيه تخييلى؛ روى معناه عن آبن عباس والقُرَظى . ومنه قول آمرئ القيس :

* ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنيـابِ أغْوالِ(٧) *

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٣ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٧٧ (٣) فى ك : «بشئ هو موهوم» .
(٤) ما بين المربعين ساقط من ح . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٣٥ (٦) راجع جـ ٩ ص ١٨١
(٧) أراد بالمسنونة الزرق سهاما محددة الأزجة صافية . وصدرالبيت :
* أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى *

Marfat.com

و إن كانت الغولُ لا تعرف ؛ ولكن لمـا تصوّر من قبحها فى النفوس . وقد قال الله تعالى : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ »(١) فمردة الإنس شياطين مرئية . وفى الحديث الصحيح " ولكأن نخلها رءوس الشياطين " وقد آدعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان . وقال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لهـا رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَــرِدٌ تَحْلِفُ حين أحلِف * كمثـلِ شيطانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة . والأعرف الذى له عُرْف . وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْــنَى حَضْرَمِىٍّ كأنّه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوِعٍ قَفْرِ

التَّمَعُّج : الاعوجاج فى السير، وسهم عَمُوج : يتلوى فى ذهابه . وتَعَمَّجت الحية : إذا تلوت فى سيرها . وقال يصف زمام الناقة(٢) :

تُلاعِبُ مَثْــنَى حَضْرَمِىٍّ كأنه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوِعٍ قَفْرِ

وقيل : إنمـا شبه ذلك بنبت قبيح فى اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . الزمخشرى : هو شجر خشن منتن مُرّ منكر الصورة يسمى ثمــره رءوس الشياطين . النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهـذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنـة . وقال فى « الغاشية »(٣) : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وسيأتى . ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أى بعد الأكل من الشجرة ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب الخلط ، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر . قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشىء يشوبهما شوبا وشيابة . فأخبر أنه يشاب لهم . والحميم : المـاء الحار ليكون أشنع ؛ قال الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »(٤) . السّدى : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل : يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٨ . (٢) كذا فى الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق ، وصواب العبارة الأولى « قال الشاعر يصف زمام ناقته » بزيادة لفظ زمام . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٢٩ .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ .

Marfat.com

لبلائهم . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ قيل : إن هـذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم فى عذاب غير النار ثم يردّون إليها . وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »(١) . وقرأ ابن مسعود : « ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون « ثم » بمعنى الواو . القشيرى : ولعل الحميم فى موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم . ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أى يسرعون ؛ عن قتادة . وقال مجاهد : كهيئة الهرولة . قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : « يُهْرَعُونَ » يُستحثّون من خلفهم . ونحوه قول المبرّد . قال : المُهْرَع المستحث ؛ يقال : جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثه البرد إليها . وقيل : يزعجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل . الزجاج : يقال هُرِع وأُهْرِع إذا استحث وازعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى من الأمم الماضية . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى رسلا أنذروهم العذاب فكفروا . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين استخلصهم الله من الكفر . وقد تقدّم(٢) . ثم قيل : هو استثناء من « الْمُنْذَرِينَ » . وقيل هو من قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٧٥ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ من النداء الذى هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(١) . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال الكسائى : أى « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » له كنا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعنى أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ماتقدّم(٢) . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . وقال سعيد بن المسيّب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلّهم من ولد نوح : فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى . وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم . ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان(٣)] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك . وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ؛ بدليل قوله : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »(٤) . وقوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٥) فعلى هذا معنى الآية : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥ .
(٣) فى الأصول : « والأبر » ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم . والذى ذكره المسعودى وغيره « واللان من ولد يافث » . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٣ . (٥) راجع جـ ٩ ص ٤٨ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ، فإنه مُحَبَّب إلى الجميع ؛ حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون . روى معناه عن مجاهد وغيره . وزعم الكسائى أن فيه تقديرين : أحدهما « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » يقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى تركنا عليه هذا الثناء الحسن . وهذا مذهب أبى العباس المبرّد . أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية ؛ يعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له ؛ وهو من الكلام المحكى؛ كقوله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا »(١) . والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه، وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى سلامة له من أن يذكر بسـوء « فِي الْآخِرِينَ » . قال الكسائى : وفى قراءة ابن مسعود « سلاما » منصوب بـ « تركنا » أى تركنا عليه ثنـاء حسنا سلاما . وقيل : « فِي الْآخِرِينَ » أى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالاقتداء به ؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا »(٢) . وقال سعيد ابن المسيّب : وبلغنى أنه من قاله حين يمسى « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تلدغه عقرب . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وفى الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل " . وفيه عن أبى هريرة أن رجلا من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أى شيء " فقال : لدغتنى عقرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك " .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نبقى عليهـم الثناء الحسن . والكاف فى موضع نصب ؛ أى جزاء كذلك . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هـذا بيان إحسانه . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى من كفر . وجمعه أُخَر . والأصل فيه أن يكون معه « من » إلا أنها حذفت ؛ لأن المعنى معروف ، ولا يكون آخرا إلا وقبله شيء من جنسه . « ثمّ » ليس للتراخى ها هنا بل هو لتعديد النعم ؛ كقوله : « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا »(٣) أى ثم أخبركم أنى قد أغرقت الآخرين ، وهم الذين تأخروا عن الإيمان .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٨ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٩ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٧١ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أى من أهل دينه . وقال مجاهد : أى على منهاجه وسنته . قال الأصمعى : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . وقال الكلبى والفراء : المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم . فالهاء فى « شيعته » على هذا لمحمد عليه السلام . وعلى الأول لنوح وهو أظهر ؛ لأنه هو المذكور أولا ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ؛ حكاه الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى مخلص من الشرك والشك . وقال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه . وذكر الطبرى عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج : مسكين أبو محمد! إن عذبه الله فبذنبه ، وإن غفر له فهنيئا له ، وإن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه . قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم؟ قال : أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال هشام بن عروة : كان أبى يقول لنا : يا بَنِيّ لا تكونوا لعّانين ، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، فقال تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين : أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، الثانى عند إلقائه فى النار . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر ، وقد مضى الكلام فيه[1] . ﴿ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون «ما» فى موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره . ويجوز أن تكون

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢ فما بعد .

Marfat.com

«ما» و «ذا» فى موضع نصب بـ«تعبدون» . ﴿ أَئِفْكًا ﴾ نصب على المفعول به ؛ بمعنى أتريدون إفكا . قال المبرّد : والإفك أسوأ الكذب، وهو الذى لا يثبت ويضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض . ﴿ آلِهَةً ﴾ بدل من إفك ﴿ دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ أى تعبدون . ويجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين . ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ فهو تحذير، مثل قوله : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »(١) . وقيل : أى شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه : أرسل إليه ملكهم إنّ غدًا عيدُنا فٱخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى . وكان علم النجوم مستعملا عنـدهم منظورا فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهـة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه ؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظـر فى النجوم . وقال ٱبن عباس : كان علم النجوم من النبوّة ، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيهـا علمًا نبويًّا . وحكى جُوَيبر عن الضحاك : كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منـه ، فقالت لهم مريم : من أين علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم . فدعا ربه عند ذلك فقـال : اللهم لا تفهمهم فى علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد ؛ فصار حكمها فى الشرع محظورا ، وعلمها فى الناس مجهولا . قال الكلبي : وكانوا فى قرية بين البصرة والكوفة يقال لهـا هرمزجرد(٢)، وكانوا ينظرون فى النجوم . فهذا قول . وقال الحسن : المعنى أنهم لمـا كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل . فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى ؛ أى فيما طلع له منـه ، فعلم أن كل حىّ يَسْقَم فقال : « إِنِّي سَقِيمٌ » . الخليل والمبرّد : يقال للرجل إذا فكّر فى الشيء يدبّره : نظر فى النجوم . وقيل : كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحمّى . وقيل : المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لهـا خالقا

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٨ (٢) ذكر هذا الاسم الطبرى فى تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ليدن م ١

Marfat.com

ومدبرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال : « إِنِّي سَقِيمٌ » . وقال الضحاك : معنى « سَقِيمٌ » سأسقم سقم الموت ؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض ؛ كما قال للملك لما سأله عن سارة هي أختي ؛ يعني أخوة الدين . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضا : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدى كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، «فـ»ـلذلك « تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أي فارين منه خوفا من العدوى . وروى الترمذي الحكيم قال : حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن سَمُرة عن الهمداني عن ابن مسعود قال : قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا . فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إني سقيم أشتكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع ؛ فلما مضوا نادى في آخرهم « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ »[1] . قال أبو عبد الله : وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير ؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران .

قلت : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات" الحديث . وقد مضى في سورة « الأنبياء »[1] . وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرض لهم . وقد قال جل وعز : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[2] . فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا، ومنه المثل السائر[3] « كفى بالسلامة داء» وقول لبيد :

فدعوتُ ربي بالسلامةِ جاهدًا * ليُصحني فإذا السـلامةُ داءُ

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقه ! فإبراهيم صادق ، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدّ هذا ذنبا ؛ ولهذا قال : «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[4] وقد مضى هذا كله مبيّنا والحمد لله . وقيل : أراد سقيم النفس لكفرهم . والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٩٦ فما بعد وص ٣٠٠ (٢) راجع ص ٢٥٤ من هذا الجزء .
(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديثا عن ابن عباس بإسناد ضعيف .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ١١٠

Marfat.com

قوله تعالى : فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ قال السّدى : ذهب إليهم . وقال أبو مالك : جاء إليهم . وقال قتادة : مال إليهم . وقال الكلبي : أقبل عليهم . وقيل : عدل . والمعنى متقارب . فراغ يَروغ رَوْغا ورَوَغانا إذا مال . وطريق رائغ أى مائل . وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَـرَفِ اللسانِ حَلَاوة * ويَرُوغ عنـك كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة . وكذا ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ . قيل : كان بين يدى الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم . وقيل : تركوه للسّدنة . وقيل : قرّب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء ؛ فقال : «أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ» . ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس . وقيل : المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال : « وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم » . وقال الفراء وثعلب : ضربًا بالقوة واليمين القوة . وقيل : بالعَدل واليمين ها هنا العدل . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا[(١)] مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ » أى بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال . ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصى عن الشمال والطاعة عن اليمين ؛ ولذلك قال : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ » أى من قِبَل الطاعة . فاليمين هو موضع العدل من المسلم، والشمال موضع الجور . ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق، فالبيعة باليمين ؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه ؛ لأنه وفّى بالبيعة ، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله ؛ لأن الجور هناك . فقوله : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ » أى بذلك العدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا . فجعل تلك الأوثان جُذَاذا، أى فُتاتا كالجذيذة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٥

Marfat.com

وهى السَّوِيق وليس من قبيل القوة؛ قاله الترمذى الحكيم . ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة : « يُزِفُّونَ » بضم الياء . الباقون بفتحها . أى يسرعون ؛ قاله ابن زيد . قتادة والسدى : يمشون . وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء. وقيل: المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعَدْو ؛ ومنه زَفِيف النعامة . وقال الضحاك : يسعون . وحكى يحيى بن سلّام : يُرعَدون غضبا . وقيل : يختالون وهو مشى الخيلاء ؛ قاله مجاهد . ومنه أُخذ زِفاف العروس إلى زوجها . وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إِفَالِهَا * يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهى زُفَّفُ[1]

ومن قرأ : « يُزِفُّونَ » فمعناه يزفون غيرهم أى يحملونهم على التزفيف . وعلى هذا فالمفعول محذوف . قال الأصمعى : أزففت الإبل أى حملتها على أن تزف . وقيل : هما لغتان يقال: زَفّ القوم وأزفّوا، وزففت العروسَ وأزففتها وازدففتها بمعنًى، والمِزَفّة: المحفّة التى تُزَفّ فيها العروس ؛ حكى ذلك عن الخليل. النحاس : «يُزِفُّون» بضم الياء . زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها بقولهم : أطردت الرجل أى صيّرته إلى ذلك . وطردته نحيته ؛ وأنشد هو وغيره :

تَمَنَّى حُصينٌ أن يسودَ جِذَاعَةً * فأمسى حُصينٌ قد أُذِلَّ وأُقهِرَا[2]

أى صُيّر إلى ذلك ؛ فكذلك « يُزِفّون » يصيرون إلى الزفيف . قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع . وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام . وقال أبو حاتم : وزعم الكسائى أن قوما قرءوا « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ» خفيفة؛من وَزَف يَزِف،مثل وَزَن يَزِن . قال النحاس : فهذه حكاية أبى حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائى شيئا . وروى الفراء وهو صاحب الكسائى عن الكسائى أنه لا يعرف « يَزِفُون » مخففة . قال الفراء : وأنا لا أعرفها . قال

---

(١) القريع : الفحل المختار للضراب . الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس ، وهى الناقة التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر يجف لبنها . و إفالها : صغارها . و يزف : يعدو . يريد أن القريع يفر من شدة البرد وكذا الإفال . (٢) البيت للخبل السعدى يهجو الزبرقان وقومه ، وهم المعروفون بالجذاع . والأصمعى يرويه كما فى اللسان مادة قهر: «قد أذل وأقهرا» بالبناء للعلوم ؛ أى صار أمره إلى الذل والقهر .

Marfat.com

أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما [أنه يقال](١) وَزَف يَزِف إذا أسرع . قال النحاس : ولا نعلم أحدا قرأ «يزِفون» .

قلت : هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوى . الزمخشرى : و «يُزَفُّون» على البناء للفعول . و « يُزْفُونَ » من زَفَاه إذا حَدَاه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه . وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْقع : «يَرْفُون » بالراء [من] رفيف النعام ، وهو ركض بين المشي والطيران .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فيه حذف ؛ أى قالوا من فعل هــذا بآلهتنا ، فقال محتجا : «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» أى أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تَنْجُرُونها. والنّحت النجــر والبرى ؛ نحته ينحته بالكسر نحتــا أى براه . والنُّحاتة البُرَاية والمِنْحَت ما يُنحت به . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرهمــا ؛ كقوله : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ »(٢) وقيل : إن «ما» آستفهام ومعناه التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى ، والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه . والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة : أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل وآكتسابٌ للعباد . وفى هــذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خالق كل صانع وصنعته" ذكره الثعلبي . وخرّجه البيهقى من حديث حُذَيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " إن الله عز وجل صــنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه " وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعــالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٩٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا ﴾ أى تشاوروا فى أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدم فى « الأنبياء »[1] بيانه . فـ« قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا » تملئونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم . قال ابن عباس : بنوا حائطا من حجارة طوله فى السماء ثلاثون ذراعا ، وملئوه نارا وطرحوه فيها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار فى البنيان قال : حسبي الله ونعم الوكيل . والألف واللام فى « الجحيم » تدل على الكناية ؛ أى فى جحيمه ؛ أى فى جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبرى : أن قائل ذلك اسمه الهيزن[1] رجل من أعراب فارس وهم الترك ، وهو الذى جاء فيه الحديث " بينما رجل يمشى فى حلة له يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة " والله أعلم . ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا ﴾ أى بإبراهيم . والكيد المكر ؛ أى احتالوا لإهلاكه . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم .

قوله تعالى : وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى » أى مهاجر من بلد قومى ومولدى إلى حيث أتمكن من عبادة ربى فإنه « سَيَهْدِينِ » فيما نويت إلى الصواب . قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة ، إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام . وقيل : ذاهب بعملى وعبادتى ، وقلبى ونيتى . فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن . وقد مضى بيان هذا فى « الكهف »[2] مستوفى . وعلى الأول بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٢　　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ فما بعد .

Marfat.com

وقيل: خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة. ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخًا لهم. وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيبًا. وقيل : قال هذا قبل إلقائه فى النار. وفيه على هذا القول تأويلان : أحدهما — إنى ذاهب إلى ما قضاه علىّ ربى. الثانى — إنى ميّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه فى النار، على المعهود من حالها فى تلف ما يلقى فيها، إلى أن قيل لها: «كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا» (١) فحينئذ سلم إبراهيم منها. وفى قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان : أحدهما — «سَيَهْدِينِ» إلى الخلاص منها. الثانى — إلى الجنة. وقال سليمان ابن صُرَد وهو ممن أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم : لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار جعلوا يجمعون له الحطب؛ فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول : أذهب به إلى هذا الذى يذكر آلهتنا؛ فلما ذُهب به ليطرح فى النار «قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى». فلما طرح فى النار قال : ﴿ حَسْبِىَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فقال الله تعالى : «يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا» فقال أبو لوط وكان ابن عمه : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته منى. فأرسل الله عُنُقًا من النار فأحرقه.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لما عرّفه الله أنه مخلّصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به فى غُربته (٢). وقد مضى فى «آل عمران» القول فى هذا. وفى الكلام حذف؛ أى هب لى ولدا صالحا من الصالحين، وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أى إنه يكون حليما فى كبره فكأنه بُشّر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم فى «هود» (٣). ويأتى أيضا فى «الذاريات» (٤).

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٤ (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٣ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦٢
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٤٦

Marfat.com

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾

فيـــه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أى فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذى يسعى مع أبيــه فى أمور دنياه معينًا له على أعمــاله ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ » أى شبّ وأدرك سـعيُه سعىَ إبراهيم . وقال الفراء : كان يومئذ آبن ثلاث عشرة سنة . وقال آبن عباس : هو الاحتلام . قتادة : مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . آبن زيد : هو السعى فى العبادة . آبن عباس : صام وصلّى، ألم تسمع الله عز وجل يقول : « وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا »(١) .

وآختلف العلمــاء فى المــأمور بذبحه . فقال أكثرهم : الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وآبنه عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثورى وآبن جريج يرفعانه إلى آبن عباس قال : الذبيح إسحق . وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له : يا بن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحـــق بن إبراهيم

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم" . وروى أبو الزبير عن جابر قال : الذبيح إسحق . وذلك مروى أيضا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وعن عبد الله بن عمر : أن الذبيح إسحق . وهو قول عمر رضى الله عنه . فهؤلاء سبعة من الصحابة . وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقمة والشّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبى بَزّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهرىّ والسدىّ وعبد الله بن أبى الهذيل ومالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحق . وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبرى وغيرهما . قال سعيد بن جبير : أُرِىَ إبراهيمُ ذبح إسحق فى المنام ، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من مِنًى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر فى رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى فى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين . وقال آخرون : هو إسمعيل . وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبي و يوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظىّ والكلبي وعلقمة . وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هُديتَ إسمعيلُ * نطَقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا * وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمّتَه فلا تُنْكِرْ لَهُ * شرفاً به قد خصّه التفضيلُ

وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى أين عَزَب عنك عقلك ! ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسمعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الذبيح

(١) فى التهذيب : قال ابن أبى خيثمة : سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط ، ومن قال عبد الرحمن بن سابط فقد أخطأ ؛ وكذا ذكره البخارى . وفى اسم أبيه خلاف .
(٢) فى ش : «النقاش» .

Marfat.com

إسمعيل " والأوّل أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين . وآحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع آمرأته سارة وآبن أخيه لوط فقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » أنه دعا فقال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فقال تعالى : « فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ »[1] ؛ ولأن الله قال : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشّر به إبراهيم وإنما بُشّر بإسحق ؛ لأنه قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ » ،وقال هنا : « بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل ، وليس في القرآن أنه بُشّر بولد إلا إسحق . آحتج من قال إنه إسمعيل : بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى : «وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ»[1] وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ »[1] ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به ؛ ولأن الله تعالى قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا » فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًّا ، وأيضا فإن الله تعالى قال : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ »[2] فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدلّ على أن الذبيح إسمعيل ، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع ؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيًّا ، فإنه يحتمل أن يكون المعنى : وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله آبن عباس . وسيأتي . ولعله أُمر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب . ويقال : لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق . وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم . وقال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وهذا مذهب ثالث .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات . وقال محمد بن كعب :

(١) راجع جـ ١١ ص ١١٣ وص ١١٤ وص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٩

Marfat.com

كان الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا ؛ فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهذا ثابت فى الخبر المرفوع ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا " . وقال آبن عباس : رؤيا الأنبياء وَحْىٌ ؛ وآستدل بهذه الآية . وقال السّدى : لما بُشّر إبراهيم بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذًا لله ذبيح . فقيل له فى منامه : قد نذرت نذرا فَفِ بنذرك . ويقال : إن إبراهيم رأى فى ليلة التروية كأن قائلا يقول : إن الله يأمرك بذبح آبنك ؛ فلما أصبح رَوّى فى نفسه أى فَكّر أهذا الحُلْم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التَّرْوية . فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضا وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسُمّىَ يوم عرفة . ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فَهَمّ بنحره فسُمّى يوم النَّحْر . وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر . فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهيم : الله أكبر والحمد لله ؛ فبقى سُنة . وقد آختلف الناس فى وقوع هذا الأمر وهى :

الثالثة — فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح ، ولو وقع لم يُتصوّر رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من آمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفِداء . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ : أى حققت ما نبهناك عليه ، وفعلت ما أمكنك ثم آمتنعت لما منعناك . هذا أصح ما قيل به فى هذا الباب . وقالت طائفة : ليس هذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته . وآستدل على هذا بقول مجاهد : قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إلىّ فترحمنى ، ولكن آجعل وجهى إلى الأرض ؛ فأخذ إبراهيم السكين فأمَرّها على حلقه فانقلبت . فقال له مالَكَ ؟ قال : آنقلبت السكين . قال آطعنّى بها طعنًا . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم . وقالت طائفة : وجد حَلقه نحاسا أو مغشّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعًا وجد منعًا . وهذا كله جائز فى القدرة الإلٰهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح ، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر . ولو كان قد جرى ذلك لبيّنه الله تعالى تعظيمًا لرتبة إسمعيل

Marfat.com

وإبراهيم صلوات الله عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفـداء . وقال بعضهم : إن إبراهيم ما أُمر بالذبح الحقيـق الذى هو فَرْى الأوداج وإنهـار الدم ، وإنمـا رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيق ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له : « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم . وأيضا لو صحت هذه الأشياء لمـا آحتيج إلى الفداء .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم « مَاذَا تُرِى » بضم التاء وكسر الراء من أرَى يُرِى . قال الفراء : أى فآنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، وإنمـا قال العلماء ماذا تشير؛ أى ما تريك نفسك من الرأى . وأنكر أبو عبيد « تُرِى » وقال : إنمـا يكون هذا من رؤية العين خاصة . وكذلك قال أبو حاتم . النحاس : وهذا غلط ، وهـذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور ، يقال : أريت فلانا الصواب ، وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين . الباقون « تَرَى » مضارع رأيت . وقد روى عن الضحاك والأعمش « تُرَى » غير مسمى الفاعل . ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة فى أمر الله ، وإنمـا شاوره ليعلم صـبره لأمر الله ؛ أو لتقـر عينه إذا رأى من آبنه طاعة فى أمر الله ف﴿ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فَآفعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ *

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى » أى آصطفاهم على ما تقـدّم[(١)] . و « ما » بمعنى الذى . ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لمـا استثنى وفقه الله للصـبر . وقد مضى الكلام فى « يَا أَبَتِ » وكذلك فى « يَا بُنَيَّ »[(٢)] فى « يوسف » وغيرها .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢

(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢١ و جـ ٢ ص ١٣٦

Marfat.com

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي انقاد الأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعلي رضوان الله عليهم « فَلَمَّا سَلَّمَا » أي فوضا أمرهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه. ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة: كبه وحول وجهه إلى القبلة. وجواب «لما» محذوف عند البصريين تقديره « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » فديناه بكبش. وقال الكوفيون: الجواب « نَادَيْنَاهُ » والواو زائدة مقحمة؛ كقوله: « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا (١) » أي أوحينا. وقوله: « وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ (٢) » أي اقترب. وقوله: « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ (٣) » أي قال لهم. وقال امرؤ القيس:

* فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى (٤) *

أي انتحى، والواو زائدة. وقال أيضا:

حتى إذا حملت بطونكم * ورأيتم أبناءكم شبوا
وقلبتم ظهر المجن لنا * إن اللئيم الفاجر الخب

أراد قلبتم. النحاس: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد. وفي الخبر: إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون الموت أهون علي، واقذفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمي فأقرئها مني السلام. فلما جر إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئا، ثم ضرب به على جبينه وحز في قفاه فلم تعمل السكين شيئا؛ فذلك قوله تعالى: « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » كذلك قال ابن عباس: معناه كبه على وجهه فنودي « يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل؛ هذا بهيئة

---

(١) راجع ج ٩ ص ١٤١ (٢) راجع ج ١١ ص ٣٤٢ (٣) راجع ص ٢٨٥ من هذا الجزء.
(٤) تمامه: * بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل *

Marfat.com

الذبح ، وهذا بصورة المذبوح ، أعطيا محلًّا للذبح فداء ولم يكن هناك من سكين . وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدّم . والله أعلم . قال الجوهري : «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أي صرعه ؛ كما تقول : كَبّه لوجهه . الهروي : والتَّلّ الدفع والصرع ؛ ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : "وتركوك لِمَتَلِّكَ" أي لمصرعك . وفي حديث آخر: "فجاء بناقة كَوْماء فتلّها" أي أناخها . وفي الحديث "بينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت في يدي" قال ابن الأنباري : أي فألقيت في يدي ؛ يقال : تَلَلْت الرجل إذا ألقيته . قال ابن الأعرابي : فصبّت في يدي ؛ والتَّلّ الصبّ ؛ يقال : تلّ يَتُلّ إذا صبّ ، وتَلّ يتِلّ بالكسر إذا سقط . قلت : وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ؛ فقال للغلام : " أتأذن لي أن أعطي هؤلاء " فقال الغلام : لا والله ، لا أوثر بنصيبي منك أحدا . قال : فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده ؛ يريد جعله في يده . وقال بعض أهل الإشارة : إن إبراهيم آدعى محبة الله ، ثم نظر إلى الولد بالمحبة ، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة ؛ فقيل له : يا إبراهيم آذبح ولدك في مرضاتي ، فشمّر وأخذ السكين وأضجع ولده ، ثم قال : اللهم تقبله مني في مرضاتك . فأوحى الله إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدك إليك . وقال كعب وغيره : لما أرى إبراهيم ذبح ولده في منامه ، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدًا . فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل ، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين يذهب إبراهيم بآبنك ؟ قالت لا . قال : إنه يذهب به ليذبحه . قالت : كلا هو أرأف به من ذلك . فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه . ثم أتى الغلام فقال : أتدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا . قال : فإنه يذهب بك ليذبحك . قال ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره الله به ، سمعا وطاعة لأمر الله . ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك

Marfat.com

بذبح ٱبنك . فعرفه إبراهيم فقال : إليك عنى يا عدوّ الله ؛ فوالله لأمضين لأمر ربى . فلم يصب ، الملعون منهم شيئا . وقال ٱبن عباس : لما أمر إبراهيم بذبح ٱبنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى . وٱختُلف فى الموضع الذى أراد ذبحه [فيه] فقيل : بمكة فى المقام . وقيل : فى المنحر بمنى عند الجمار التى رمى بها إبليس لعنه الله؛ قاله ٱبن عباس وٱبن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب . وحكى عن سعيد بن جُبير : أنه ذبحه على الصخرة التى بأصل ثَبِير بمنًى . وقال ٱبن جريج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين . والأول أكثر؛ فإنه ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ، فدل على أنه ذبحه بمكة . وقال ٱبن عباس : فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام ، و إن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس . أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد فى الدنيا والآخرة . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى النعمة الظاهرة؛ يقال : أبلاه الله إبلاءً و بَلاءً إذا أنعم عليه . وقد يقال بَلاهُ . قال زهير :

* فأَبْلاهما خيرَ البلاءِ الذى يَبْلُو [(١)] *

فزعم قوم أنه جاء باللغتين . وقال آخرون : بل الثانى من بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا ٱختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه ، ولا يقال من الابتلاء يبلوه . وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [(٢)] » . وقال أبو زيد : هذا من البلاء الذى نزل به فى أن يذبح ٱبنه ؛ قال : وهذا من البلاء المكروه .

---

(١) هذا عجز البيت وصدره : * جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧

Marfat.com

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح ؛ كالطحن اسم المطحون . والذَّبح بالفتح المصدر . « عظيم » أى عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة ، وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ؛ أو لأنه متقبَّل . قال النحاس : عظيم فى اللغة يكون للكبير وللشريف . وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف ، أو المتقبَّل . وقال ابن عباس : هو الكبش الذى تقرب به هابيل ، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل . وعنه أيضا : أنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى فى الجنة أربعين خريفًا . وقال الحسن : ما فدى إسمعيل إلا بتيس من الأَرْوَى هبط عليه من ثبير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه ، وهذا قول على رضى الله عنه . فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه . وقال : يا بنى اليوم وُهبت لى . وقال أبو إسحق الزجاج : قد قيل أنه فِدى بوَعْل ، والوَعْل : التيس الجبلى . وأهل التفسير على أنه فُدِى بكبش .

الثامنة — فى هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر . وهذا مذهب مالك وأصحابه . قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن ، وإناث الضأن أفضل من فحل المعز ، وفحول المعز خير من إناثها ، وإناث المعز خير من الإبل والبقر . وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى ضخم الجثة سمين ، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة . وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل : إنى نذرت أن أنحر ابنى ؟ فقال : يجزيك كبش سمين ، ثم قرأ « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . وقال بعضهم : لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحق . وضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين . وأكثر ما ضُحِّى به الكباش . وذكر ابن أبى شيبة عن ابن عُلَيّة عن الليث عن مجاهد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاسعة — واختلفوا أيما أفضل : الأضحية أو الصدقة بثمنها . فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنًى ؛ لأنه ليس موضع الأضحية ؛ حكاه أبو عمر . وقال ابن المنذر : روينا عن بلال أنه قال : ما أبالى ألا أضحى إلا بديك ولأن أضعه فى يتيم قد ترِب فيه —

Marfat.com

هكذا قال المحدث — أحب إلىّ من أن أضحى به . وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل . وبه قال مالك وأبو ثور . وفيه قول ثان : إن الضحية أفضل ؛ هذا قول ربيعة وأبي الزناد . وبه قال أصحاب الرأى . زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل من الصدقة ؛ لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد . ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل . وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله . قال أبو عمر : وقد روى فى فضل الضحايا آثار حسان؛ فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زَنْبَر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نفقة بعد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم " قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديث مالك . وعن عائشة قالت : يأيها الناس ضَحُّوا وطيبوا أنفساً ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسناتٍ محضراتٍ فى ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع فى التراب فإنما يقع فى حِرْز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة " ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد . وخرجه الترمذى أيضاً عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما عمِل آدمىٌّ من عملٍ يوم النحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفساً " قال : وفى الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أرْقَم . وهذا حديث حسن .

العاشرة — الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف . وقال عكرمة : كان ابن عباس يبعثنى يوم الأضحى بدرهمين أشترى له لحماً ، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية ابن عباس . قال أبو عمر : ومُحمل(١) هذا وما روى عن أبى بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند أهل العلم ؛ لئلا يعتقد فى المواظبة عليها أنها واجبة فرض ، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر فى دينه إليهم ؛ لأنهم الواسطة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، فساغ لهم من الاجتهاد فى ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم . وقد حكى الطحاوى فى مختصره : وقال

(١) لفظة : « ومحمل » ساقطة من ك .

Marfat.com

أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال : ويجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذى يجب عليه عن نفسه . وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها فى تركها . قال : وبه نأخذ . قال أبو عمر : وهذا قول مالك؛ قال : لا ينبغى لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنًى . وقال الإمام الشافعى : هى سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنًى وليست بواجبة . وقد آحتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة . آحتج آخرون بحديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحى" قالوا : فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّى . وهو قول أبى بكر وعمر وأبى مسعود البدرى و بلال .

الحادية عشرة — والذى يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية : وهى الضأن والمعز والإبل والبقر . قال آبن المنذر : وقد حكى عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحى ببقرة الوحش عن سبعة، و بالظبي عن رجل . وقال الإمام الشافعى : لو نزا ثور وحشى على بقرة إنسيّة، أو ثور أنسى على بقرة وحشية لا يجوز شىء من هذا أضحية . وقال أصحاب الرأى : جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه . وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسوبا إلى الأنعام .

الثانية عشرة — قد مضى فى سورة « الحج »(١) الكلام فى وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : "ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما" فى رواية قال : "و يقول بسم الله والله أكبر" وقد مضى فى آخر « الأنعام »(٢) حديث عِمران بن حُصَين، ومضى فى « المائدة »(٣) القول فى التذكية و بيانها وما يُذَكّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفًى . وفى صحيح مسلم

(١) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٥٠ فما بعد .

Marfat.com

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمر بكبش أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأتى به ليضحي به" فقال لها : "يا عائشة هلمّي المدية" ثم قال: "اشحذيها بحجر" ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، ثم قال : "بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحى به . وقد اختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية : بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان . وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن، وإن لم يفعل وسمى الله أجزأه . وقال الشافعي : والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله ، أو صلّى على محمد عليه السلام لم أكرهه، أو قال اللهم تقبل مني، أو قال تقبل من فلان فلا بأس . وقال النعمان : يكره أن يذكر مع اسم الله غيره؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عند الذبح . وقال : لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح . وحديث عائشة يردّ هذا القول . وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه : الله أكبر والحمد لله . فبقي سنة .

الثالثة عشرة — روى البَرَاء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: ماذا يُتّقى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : "أربعا — وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم — العرجاء البيّن ظَلَعُها والعوراء البيّن عَوَرُها والمريضة البيّن مرضُها والعجفاء التي لا تُنْقِي[(1)]" لفظ مالك ولا خلاف فيه . واختلف في اليسير من ذلك . وفي الترمذيّ عن عليّ رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف[(2)] العين والأذن وألّا نضحّي بمقابلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء . قال : والمقابلة ما قطع طرف أذنها، والمدابَرة ما قطع من جانب الأذن، والشّرقاء المشقوقة، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح . وفي الموطأ عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يتّقي من الضحايا والبدن التي لم تُسْنِن والتي نقص من خَلْقها . قال مالك : وهذا أحبّ ما سمعت إلي . قال

(١) النقي : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(٢) نستشرف ؛ يعني نتطلع العين والأذن ، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب .

Marfat.com

القتبي : لم تُسنن أى لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسنانا . وهذا كما يقال : فلان لم يُلبَن أى لم يُعطَ لبنا ، ولم يُسمَن أى لم يعط سمنا، ولم يُعسَل أى لم يُعطَ عسلا (١) . وهذا مثل النهى فى الأضاحى عن الهتماء . قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة؛ فإن كانت ساقطة الأسنان وهى فتية لم يجز أن يضحى بها؛ لأنه عيب غير خفيف. والنقصان كله مكروه، وشرحه وتفصيله فى كتب الفقه . وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم "استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم" ذكره الزمخشرى .

الرابعة عشرة — ودلّت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم ابنه؛ قاله ابن عباس . وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه ؛ روى الروايتين عنه الشعبي . وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين . وقال مسروق : لا شيء عليه . وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها . وقال أبو حنيفة : هى كلمة يلزمه بها فى ولده ذبح شاة ولا يلزمه فى غير ولده شيء . قال محمد : عليه فى الحلف بنحر عبده مثل الذى عليه فى الحلف بنحر ولده إذا حنث . وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال : أنا أنحر ولدى عند مقام إبراهيم فى يمين ثم حنث فعليه هديٌ . قال : ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراد فلا شيء عليه . قال : ومن جعل ابنه هَدْيًا أهدى عنه؛ قال القاضى ابن العربى : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة . وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة؛ لأن الله تعالى قال :

(١) عقب صاحب لسان العرب فى مادة « سنن » على رواية القتبي وتفسيره بقوله : «وقد وهم القتبي فى الرواية والتفسير ؛ لأنه روى الحديث "لم تسنن" بفتح النون الأولى ، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه . وأهل الثبت والضبط رووه "لم تسنن" بكسر النون وهو الصواب فى العربية ، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة ، كما يقال : لم يجلل . وإنما أراد ابن عمر أنه يضحى بأضحية لم تثن ؛ أى لم تصر ثنية ، وإذا أثنت فقد أسنت . ثم قال : وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله : سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح ، وقوله : لم يلبن ولم يسمن أى لم يعط لبنا وسمنا غير صحيح ، وإنما معناهما لم يطعم سمنا ولم يسق لبنا » .

Marfat.com

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » والإيمان التزام أصلى، والنذر التزام فرعى؛ فيجب أن يكون محمولا عليه . فإن قيل : كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز. قلنا : هذا اعتراض على كتاب الله ، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتى فى الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى : « ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » والذى يجلو الإلباس عن قلوب الناس فى ذلك : أن المعاصى والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، و إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عمـا تعلق به النهى من الأفعال ؛ فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسمعيل من إبراهيم صار طاعة وآبتلاء، ولهذا قال الله تعـالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » فى الصبر على ذبح الولد والنفس، ولمـا تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية . فإن قيل : كيف يصير نذرا وهو معصية . قلنا : إنمـا يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوى الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره فى قصده ولا أثر فى نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا .

الخامســـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعـده ؛ فما من أمة إلا تصلى عليـه وتحبه . وقيل : هو دعاء إبراهيم عليـه السلام « وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » (١) . وقال عكرمة : هو السـلام على إبراهيم أى سلاما منا . وقيل : سلامة له من الآفات مثل « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » حسب ما تقـدم . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال آبن عباس : بشر بنبوّته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين (٢) ؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحق بشر بنبوّته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه وآستسلامه له . ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ ﴾ أى ثنّينا عليهما النعمة وقيـل كثرنـ ولدهما ؛ أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحق حين أخرج أنبياء بنى

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ (٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي : بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين .

Marfat.com

إسرائيل من صلبه . وقد قيل : إن الكناية فى « عَلَيْهِ » تعود على إسمعيل وأنه هو الذبيح . قال المفضل : الصحيح الذى يدلّ عليه القرآن أنه إسمعيل، وذلك أنه قص قصّة الذبيح ، فلما قال فى آخر القصّة : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إسمعيل « وَعَلَى إِسْحَقَ » كنى عنه، لأنه قد تقدم ذكره ثم قال : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا » فدلّ على أنها ذرية إسمعيل و إسحق، وليس تختلف الرواة فى أن إسمعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أولا ما يدل على أن إسحق أكبر من إسمعيل، وأن المبشَّر به هو إسحق بنص التنزيل، فإذا كانت البشارة بإسحق نصا فالذبيح لا شك هو إسحق ، و بُشِّر به إبراهيم مرتين، الأولى بولادته والثانية بنبوّته، كما قال ابن عباس . ولا تكون النبوّة إلا فى حال الكبر و « نَبِيًّا » نصب على الحال والهاء فى « عليه » عائدة إلى إبراهيم وليس لإسمعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه . وأما ما روى من طريق معاوية قال : سمعت رجلا يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : يابن الذبيحين ؛ فضحك النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم، وقالوا : افد ابنك ؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، و إسمعيل هو الذبيح الثانى فلا حجة فيه؛ لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه فى كتاب «الأعلام فى معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام» ؛ ولأن العرب تجعل العم أبا، قال الله تعالى : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ »(1) وقال تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ »(2) وهما أبوه وخالته . وكذلك ما روى عن الشاعر الفرزدق عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف وفى الفرزدق نفسه مقال .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ ﴾ لما ذكر البركة فى الذرية والكثرة قال : منهم محسن ومنهم مسىء، وأن المسىء لا تنفعه بنوة النبوّة؛ فاليهود والنصارى

(1) راجع جـ ٢ ص ١٣٨ (2) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤

Marfat.com

و إن كانوا من ولد إسحق، والعرب و إن كانوا من ولد إسمعيل، فلابد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، وفى التنزيل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » الآية ؛ أى أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا . وقد تقدم (١) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ ﴾ لما ذكر إنجاء إسحق من الذبح ، وما منّ به عليه بعد النبوّة ، ذكر ما منّ به أيضا على موسى وهرون من ذلك . وقوله : ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ قيل : من الرق الذى لحق بنى إسرائيل . وقيل من الغرق الذى لحق فرعون . ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء : الضمير لموسى وهرون وحدهما؛ وهذا على أن الاثنين جمع؛ دليله قوله : « وآتَيْنَاهُمَا » « وَهَدَيْنَاهُمَا » . وقيل : الضمير لموسى وهرون وقومهما وهـذا هو الصواب ؛ لأن قبله « وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا » . و ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة ؛ يقال استبان كذا أى صار بيّنا ؛ واستبانه فلان مثل تبيّن الشيء بنفسه وتبيّنه فلانٌ . و ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الدين القويم الذى لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ يريد الثناء الجميل . ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال المفسرون : إلياس نبيّ من بنى إسرائيل . وروى عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس . وقرأ « وَإِنَّ إِدْرِيسَ » وقاله عكرمة . وقال : هو فى مصحف عبد الله « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وانفرد بهذا القول . وقال ابن عباس : هو عمّ اليسع (١) . وقال ابن إسحق وغيره : كان القيّم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل ، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه ، فبعث الله إليهم إلياس نبيًّا وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : اخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شىء فاركبه ولا تَهَبْه . فخرج ومعه اليسع فقال : يا إلياس ما تأمرنى . فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بنى إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به . وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش وألبسه النور ، فطار مع الملائكة ، فكان إنسيًّا مَلَكيًّا سماويًّا أرضيًّا . قال ابن قتيبة : وذلك أن الله تعالى قال لإلياس : « سلنى أعطك » . قال : ترفعنى إليك وتؤخر عنى مذاقة الموت . فصار يطير مع الملائكة . وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبك؟ حرصًا على الدنيا ، أو جزعًا من الموت ، أو خوفًا من النار ؟ قال : لا ، ولاشىء من هذا وعزّتك ، إنما جزعى كيف يحمدك الحامدون بعدى ولا أحمدك ! ويذكرك

(١) قال بعض المفسرين : هو ابن عم اليسع .

Marfat.com

الذاكرون بعدى ولاأذكرك ! ويصوم الصائمون بعدى ولاأصوم ! و يصلّى المصلون ولاأصلى ! ! فقيل له : « يا إلياس وعزتى لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرنى فيه ذاكر » . يعنى يوم القيامة. وقال عبد العزيز بن أبى روّاد: إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم فى كل عام . وذكر ابن أبى الدنيا ؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم : ما شاء الله ماشاء الله ، لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله ماشاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ؛ توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مضى فى « الكهف »[(1)] . وذكر من طريق مكحول عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بفجّ الناقة عند الحجر ، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة ، المغفورلها ، المتوب عليها ، المستجاب لها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أنس، آنظر ما هذا الصوت". فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس، عليه ثياب بيض، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظر إلىّ قال : أنت رسول النبي ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه منى السلام وقل له : هذا أخوك إلياس يريد لقاءك . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريبا منه ، تقدّم النبي صلى الله عليه وسلم وتأخرت ، فتحدّثا طويلا ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السّفرة فدعوانى فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به ؛ فقلت للنبي صلى الله عليه وسلم : بأبى أنت وأمى ! هذا الطعام الذى أكلنا أمن السماء نزل عليه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "سألته عنه فقال يأتينى به جبريل فى كل أربعين يوما أكلة ، وفى كل حول شربة من ماء زمزم ، وربما رأيته على الجبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقانى" .

---

(1) راجع ج ١١ ص ٤٣

Marfat.com

قال ثعلب : اختلف الناس فى قوله عز وجل هاهنا « بَعْلًا » فقالت طائفة : البعل هاهنا الصنم . وقالت طائفة : البعل هاهنا مَلَك . وقال آبن إسحق : آمرأة كانوا يعبدونها . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن آبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن آبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : رَبًّا . النحاس : والقولان صحيحان ؛ أى أتدعون صنما عملتموه ربًّا . يقال : هـذا بعل الدار أى ربها . فالمعنى أتدعون ربًّا آختلقتموه ، و «أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمّون . حكى ذلك سيبويه . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : البعل الربّ بلغة اليمن . وسمع آبن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنًى فقال : منَ بعلُ هـذه ؟ . أى مَن ربها ؛ ومنه سمى الزوج بعلا . قال أبو دؤاد (١) :

ورأيتُ بَعْلَكِ فى الوغَى * مُتقلِّدا سيفًا ورُمْحا

مقاتل : صنم كسره إليـاس وهرب منهم . وقيـل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظّموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلّمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سُميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أى أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون . ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بالنصب فى الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وآبن أبى إسحق وآبن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى . وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى أبو عبيد أنها على النعت . النحاس : وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحلية . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى مما قال — أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . ورأيت على بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا فى الأصول . ونسبه فى الكامل لعبد الله بن الزبعرى ورواه كما فى المعاجم : ياليت زوجك فى الوغى الخ وقد مضى للمصنف .

Marfat.com

أولى وأحسن ؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى . آبن الأنبارى : من نصب أو رفع لم يقف على « أَحْسَنَ الخَالِقِينَ » على جهة التمام ؛ لأن الله عز وجل مترجم عن « أَحْسَنَ الخَالِقِينَ » من الوجهين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى فى العذاب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى من قومه فإنهم نجوا من العذاب . وقرئ « المُخْلِصِينَ » بكسر اللام وقد تقدم . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ تقدم . ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع . وقرأ عكرمة وأبو عمرو وآبن كثير وحمزة والكسائى : « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » . وقرأ الحسن : « سَلَامٌ عَلَى ٱلْيَاسِينَ » بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التى للتعريف . والمراد إلياس عليه السلام ، وعليه وقع التسليم ولكنه آسم أعجمى . والعرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها . قال ابن جنّى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا ؛ فياسين وإلياس والياسين شىء واحد . الزمخشرىّ : وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع . وقرئ : « على إلياسين » و « إِدْرِيسِينَ وإِدْرَسِينَ وَإِدْرَاسِينَ » على أنها لغات فى إلياس وادريس . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى . النحاس : ومن قرأ : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » فكأنه والله أعلم جعل آسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله ؛ أى أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى السلام ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "اللهم صلّ على آل أبى أوفى" وقال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(١) . ومن قرأ « إِلْيَاسِينَ » فللعلماء فيه غير قول . فروى هرون عن ابن أبى إسحق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له . وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جمع جمع التسليم على أنه وأهل بيته سلم عليهم ؛ وأنشد : * قَدْنِىَ من نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِى *(٢)

(١) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء .

(٢) تمامه : * ليس الإمام بالشحيح الملحد *

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويعرض بعبد الله بن الزبير ؛ يرميه بالبخل والإلحاد فى الحرم . وقيل هو لأبى بحدلة .

Marfat.com

يقال : قدنى وقدى لغتان بمعنى حسب . وإنما يريد أبا خُبَيْب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه . وغير أبى عبيدة يرويه : الخُبَيْبَيْن على التثنية، يريد عبد الله ومُصْعَبا . ورأيت علىّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا؛ [قال](١) فإن العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب. قال : فعلى هذا « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » سمّى كل رجل منهم بإلياس . وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة؛ فيقولون: الأشعرون يريدون به النسب . المهدوى : ومن قرأ « إلياسين » فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسىّ فحذفت ياء النسبة؛ كما حذفت ياء النسبة فى جمع المكسّر فى نحو المهالبة فى جمع مهلبىّ، كذلك حذفت فى المسلَّم فقيل المهلّبون . وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين . السهيلىّ : وهذا لا يصح بل هى لغة فى إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل فى المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : « سَلَامٌ على الإلياسين » لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام؛ لا تقول : سلام على زيدين، بل على الزيدين بالألف واللام . فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات . النحاس : واحتج أبو عبيد فى قراءته « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس؛ لأنه ليس فى السورة سلام على « آل » لغيره من الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، فكما سُمّى الأنبياء كذا سُمّى هو . وهذا الاحتجاج أصله لأبى عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه . والقول بأن اسمه « إلياسين » يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع فى الأمر إشكال . قال الماوردى : وقرأ الحسن « سَلَامٌ عَلَى يَاسِينَ » بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان : أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . الثانى أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا فى دخول الزيادة فى ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوى الآى ، كما قال فى موضع : « طُورِسيناء »(٢) وفى موضع آخر « طورِسينين »(٣) فعلى هذا يكون

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .
(٢) راجع جـ ١٢ ص ١١٤
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١١٢

Marfat.com

السلام على أهله دونه، وتكون الإضافة إليه تشريفًا له . الثانى أنها دخلت للجمع فيكون داخلا فى جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلى : قال بعض المتكلمين فى معانى القرآن: آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال فى تفسير « يسٓ » يا محمد . وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام فى قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هى فى قصة إبراهيم ونوح وموسى وهرون وأن التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل فى تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن « يسٓ » و « حمٓ » و « الٓمٓ » ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هى حروف مقطّعة، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبى : لله فى كل كتاب سرّ، وسرّه فى القرآن فواتح القرآن . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لى خمسة أسماء" ولم يذكر فيها « يسٓ » . وأيضا فإن « يسٓ » جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسما للنبى صلى الله عليه وسلم لقال: « يسُ » بالضم؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » (١) وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه؛ فـ«إلياسين» هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مثل إدريس وإدراسين، كذلك هو فى مصحف ابن مسعود . « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ » ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ﴾ تقدم قصة لوط (٢) . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى بالعقوبة . ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠١ فما بعد .

Marfat.com

خاطب العرب : أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مُصْبِحِينَ » وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ تمرون عليهم أيضا . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى تعتبرون وتتدبرون .

قوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متّى ، وهو ابن العجوز التى نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر و يونس صبيّ يرضع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها . ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال ، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت فى إثر إلياس تطوف وراءه فى الجبال حتى وجدته ، فسألته أن يدعو الله لها لعلّه يُحيي لها ولدها؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متى بدعوة إلياس عليه السلام . وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدّم بيانه فى سورة « يونس »(١) ومضى فى « الأنبياء »(٢) قصة يونس فى خروجه مغاضبًا . واختلف فى رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده . قال الطبرى عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم . قال : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : ألتمس حذاء . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر. قال: فتساهموا،

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤　　(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ فما بعد .

Marfat.com

قال : فَسهم ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه ؛ فنودى الحوت : أيا حوت ! إنا لم نجعل لك يونس رزقًا، إنما جعلناك له حرزًا ومسجدًا . قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مَرّ به إلى الأُبُلّة ، ثم آنطلق به حتى مَرّ به على دجلة ، ثم آنطلق حتى ألقاه فى نينوى . حدّثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ؛ واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبًا لربه ، فكان ما جرى منه قبل النبوّة . وقال آخرون : كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه ، وتبليغه إياهم رسالة ربه ، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله ، فلما أظل القومَ العذابُ وغشيهم — كما قال الله تعالى فى تنزيله — تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم ، و بلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدى . فذهب مغاضبًا ربه وكره الرجوع إليهم ، وقد جرّبوا عليه الكذب ؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس . وقد مضى هذا فى « الأنبياء »(1) وهو الصحيح على ما يأتى عند قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . ولم ينصرف يونس ؛ لأنه آسم أعجمى ولو كان عربيا لآنصرف وإن كانت فى أوله الياء؛ لأنه ليس فى الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمّيت بيُعْفُر صرفته(2)؛ وإن سمّيت بيَعْفُر لم تصرفه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد؛ومنه غلام آبق . وقال غيره : إنما قيل ليونس أبق ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من الناس . ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى المملوءة . « والفلك » يذكر و يؤنث و يكون واحد و جمعا وقد تقدّم(3) . قال الترمذى الحكيم : سماه آبقًا لأنه أبق عن العبودية، و إنما العبودية ترك الهوى و بذل النفس عند أمور الله ؛ فلما لم يبذل النفس عندما اشتدّت عليه العَزمة من المَلَك حسبما تقدّم بيانه فى « الأنبياء » ، وآثر هواه لزمه اسم الآبق ، وكانت عزمة الملك فى أمر الله

---

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ فما بعد .

(2) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فإنه على وزن يفعل فمنع الصرف .

(3) راجع جـ ٢ ص ١٩٤

Marfat.com

لا فى أمر نفسه، وبحظ حـق الله لا بحظ نفسه ؛ فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذى عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثـــة : قوله تعـالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع، قال: وأصله من السهام التى تُجال . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ قال: من المغلوبين . قال الفرّاء : دَحَضَتْ حجتُه وأدحضها الله . وأصله من الزلق ؛ قال الشاعر :

قَتَلْنا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ * فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أى المغلوبين .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى أتى بما يلام عليه . فأما الملوم فهو الذى يلام، آستحق ذلك أو لم يستحق . وقيل : المليم المعيب . يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل . ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ قال الكسائى : لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لهـا . النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام فى جواب لولا . «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» أى من المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى عقوبة له ؛ أى يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة . وآختلف كم أقام فى بطن الحوت . فقال السـدىّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما . الضحاك : عشرين يوما . عطاء : سبعة أيام . مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل : ساعة واحدة . والله أعـــلم .

الخامســـة ــ روى الطبرى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمـا أراد الله ــ تعالى ذكره ــ حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما آنتهى به إلى أسفل البحر سمـع يونس حسًّا فقـال فى نفسه ما هــذا؟ فأوحى الله تبارك وتعـالى إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دوابّ البحر " قال : " فسبح وهو فى بطن الحوت " قال: " فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة " قال: " ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا : العبد الصالح الذى كان

Marfat.com

يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم. فشفعوا له عنـد ذلك فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى: «وَهُوَ سَقِيمٌ». وكان سقمه الذى وصفه به الله تعالى ذكره: أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبيّ المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روى: أن الحوت سار مع السفينة رافعـا رأسه يتنفس فيـه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى آنتهوا إلى البر، فلفظه سالمـا لم يتغير منـه شىء فأسلموا؛ ذكره الزمخشريّ فى تفسيره. وقال ابن العربى: أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعـالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى: أنه سئل عن البارى فى جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تفضلونى على يونس بن متّى" فقيل له: ماوجه الدليـل فى هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دَيْنًا. فقام رجلان فقالا: هى علينا. فقال: لا يتبع بها آثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هى علىّ. فقال: إن يونس بن متّى رمى بنفسه فى البحر فآلتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى «لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» كما أخبر الله عنـه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسـلم حين جلس على الرفرف الأخضر وآرتقى به صعدا، حتى آنتهى به إلى موضع يسمع فيه صَريف الأقلام، وناجاه ربه بمـا ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى — بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر.

السادسـة — ذكر الطبرى: أن يونس عليـه السلام لمـا ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتى فألقونى فى البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم. «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبى. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت. وروى أنه لمـا ركب فى السفينة تقنّـع ورقد فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

Marfat.com

ريح كادت السفينة أن تغرق ، فآجتمع أهل السفينة فدعَوْا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح . ثم آنطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فآرتفعت الريح . قال : فبينماهم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : ياقوم ! هذا من أجلى ! فلو طرحتمونى فى البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والرَّوْع . قالوا : لانطرحك حتى نتساهم ، فمن وقعت عليه رميناه فى البحر . قال: فتساهموا فوقع على يونس؛ فقال لهم: ياقوم آطرحونى! فمن أجلى أوتيتم؛ فقالوا : لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى. ففعلوا فوقع على يونس . فقال لهم : ياقوم آطرحونى! فمن أجلى أوتيتم ؛ فذلك قول الله عز وجل : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى وقع السهم عليه ؛ فآنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه فى البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر ، فإذا بالحوت فاتح فاه ؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فآلتقمه الحوت ؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث فى بطن الحوت أربعين ليلة فنادى فى الظلمات « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَآسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » وقد تقدم ويأتى . ففى هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولا بها فى شرع مَن قبلنا ، وجاءت فى شرعنا على ماتقدم فى «آل عمران»[(١)] قال آبن العربى : وقد وردت القرعة فى الشرع فى ثلاثة مواطن : الأول — كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . الثانى — أن النبى صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لامال له غيرهم، فأقرع بينهم؛ فأعتق آثنين وأرقّ أربعة . الثالث — أن رجلين آختصما إليه فى مواريث قد درست فقال : "آذهبا وتوخّيا الحق وآستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه" . فهذه ثلاثة مواطن ، وهى القَسْم فى النكاح، والعتق، والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(١) راجع ج ٤ ص ٨٦

Marfat.com

وحسم داء التشهى . واختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين ؛ الصحيح منهما الإقـراع ؛ وبه قال فقهـاء الأمصار . وذلك أن السـفر بجميعهن لا يمكن ، واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة . وكذلك فى مسألة الأعبد الستة ؛ فإن كل اثنين منهما ثلث ، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت ، وتعيينهما بالتشهى لا يجوز شرعاً ؛ فلم يبق إلا القرعة . وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيـان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة ، فصارت أصلا فى تعيين المستحق إذا أشكل . قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل ، فذلك أبين لها ، وأقوى لفصل الحكم فيها ، وأجلى لرفع الإشكال عنها ؛ ولذلك قلنا : إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السابعـــة — الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لا يجوز . وإنمـا كان ذلك فى يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه ، وزيادة فى إيمانه ؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصيا أن يُقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنمـا تجرى عليـه الحدود والتعزير على مقدار جنايته . وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهـم تخفيفا ؛ وهـذا فاسـد ؛ فإنهـا لا تخفّ برمى بعـض الرجال وإنمـا ذلك فى الأموال ، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل .

الثامنـــة — أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ؛ ولذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبـه إذا عَثَر . قال ابن عبـاس : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين . قال قتادة : كان يصلّى قبل ذلك فحفظ الله عز وجل له فنجّاه . وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح « لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » قال : ومكتوب فى الحكمة — إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر . وقال مقاتل : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين المطيعين قبل المعصية . وقال وهب : من العابدين . وقال الحسن : ما كان له صـلاة فى بطن الحـوت ؛ ولكنه قـدّم عملا صالحا فى حال الرخاء فذكره الله به فى حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عَثَر وجد مُتّكأً .

Marfat.com

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "من آستطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل" فيجتهد العبد، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه . وقد خرّج البخارى ومسلم من حديث آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينما ثلاثة نفر — فى رواية ممن كان قبلكم — يتماشَوْن أخذهم المطر فأوَوْا إلى غار فى جبل فآنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فآنطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض آنظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فآدعوا الله بها لعله يَفْرُجها عنكم " الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه . وقال سعيد بن جبير : لما قال فى بطن الحوت : «لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قذفه الحوت . وقيل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين فى بطن الحوت .

قلت : والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلّ حديث أبى هريرة المذكور قبل الذى ذكره الطبرى . قال : فسبح فى بطن الحوت . قال : فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . وتكون « كان » على هذا القول زائدة؛ أى فلولا أنه من المسبحين . وفى كتاب أبى داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا آستجيب له" وقد مضى هذا فى سورة « الأنبياء » (1) فيونس عليه السلام كان قبل مصلّيا مسبّحا، وفى بطن الحوت كذلك . وفى الخبر : فنودى الحوت : إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حِرْزا ومسجدا . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ روى أن الحوت قـذفه بساحل قرية من الموصـل . وقال ٱبن قُسَيْط عن أبى هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يَقْطِينة ؛ فقلنا : يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أُرْوِيَّةً[(1)] وحشية تأكل من خَشَاش الأرض — أو هَشَاش الأرض — فَتَفَشَّج[(2)] عليـه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : خرج به — يعنى الحوت — حتى لَفَظه فى ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء . وقيل : إن يونس لمـا ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهى فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليـه من اللبن حتى رجعت إليه قوته . ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست ، فحزن وبكى عليها فعوتب ؛ فقيل له : أحزنت على شجرة وبكيت عليهـا ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بنى إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلى ، أسرى فى أيدى العدو ، وأردت إهلاكهم جميعا . وقيل : هى شجرة التين . وقيـل : شجرة الموز تغطى بورقها ، وٱستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها . والأكثر على أنهـا شجرة اليقطين على ما يأتى . ثم إن الله تبارك وتعالى ٱجتباه فجعله من الصالحين . ثم أمره أن يأتى قومه ويخبرهم أن الله تعـالى قد تاب عليهـم ، فعمد إليهم حتى لقى راعيًا فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له : فأخبرهم أنى قد لقيت يونس . فقال : لا أستطيع إلا بشاهد . فسمى له عنزا من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهـذه البقعة التى أنت فيهـا تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهـذه الشجرة تشهـد لك أنك لقيت يونس . وأنه رجع الراعى إلى قومه فأخبرهم أنه لقى يونس فكذبوه وهموا به شرا فقال : لا تعجلوا علىّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التى لقى فيها يونس ، فٱستنطقها فأخبرتهم أنه لقى يونس ، وٱستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقى يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعـد ذلك .

(١) الأروية : الأنثى من الوعول . (٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها .

Marfat.com

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبرى رحمه الله . «فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه . وقيل : تركناه . «بِالْعَرَاءِ» بالصحراء ؛ قاله ابن الأعرابى . الأخفش : بالفضاء . أبو عبيدة : الواسع من الأرض . الفـراء : العراء المكان الخالى . قال: وقال أبو عبيدة : العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعتُ رِجْلًا لا أخافُ عثارها ＊ ونبـذْتُ بالبـلَدِ العَرَاءِ ثيـابِى

وحكى الأخفش فى قوله : «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سقمى و][1] سقامى وسقام . وقال فى هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» وقال فى «نون والقلم»[2]: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» والجواب: أن الله عز وجل خبَّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس . وقوله : «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعنى «عَلَيْهِ» أى عنده ؛ كقوله تعالى : «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ»[3] أى عندى . وقيل: «عَلَيْـهِ» بمعنى له . «شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين : شجـر الدُّبَّاء : وقيـل غيرها ؛ ذكره ابن الأعرابى . وفى الخبر : "الدباء والبطيخ من الجنة" وقد ذكرناه فى كتاب التـذكرة . وقال المبرّد : يقال لكل شجرة ليس لهـا ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحـو الدباء والبطيخ والحنظل، فإن كان لهـا ساق يقلها فهى شجرة فقط ، وإن كانت قائمـة أى بعروق تفترش فهى نجمة وجمعها نجم . قال الله تعـالى : «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ»[4] وروى نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل . قالوا : كل نبت يمتـد ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين . وقال سعيد بن جبير: هو كل شىء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل فى هذا الموز .

قلت : وهو ممـاله ساق . الجوهرى : واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه . الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يفعيل . وقيل: هو اسم أعجمى . وقيـل : إنمـا خص اليقطين بالذكر ؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب . وقيل : ما كان ثَمَّ يقطين

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس ، وهى عبارته عن الأخفش .　(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٣
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٩١ فما بعد .　(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٥٢ فما بعد .

Marfat.com

فأنبته الله في الحال . القشيري : وفي الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل . الثعلبي : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يحزن عليها ؛ فقيل له : يا يونس أنت الذي لم تخلق ولم تسق ولم تُنبت تحزن على شجيرة ، فأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتي يا يونس أنا أرحم الراحمين . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : " إنها شجرة أخي يونس " وقال أنس : قُدِّم للنبيّ صلى الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَدِيد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالى القَصْعة . قال أنس : فلم أزل أحبّ الدّبّاء من يومئذ . أخرجه الأئمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قد تقدّم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت . وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب . النحاس : وأجود منه إسنادا وأصح ما حدّثناه عن عليّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن ابن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِيّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرّقوا بين كل والدة وولدها ، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا ، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا — وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قتل — فخرج يونس مغاضبا ، فأتى قوما في سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا وشمالا ؛ فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندري . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبدا أبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبيّ الله فإنا لا نلقيك . قال : فاقترعوا فمن قُرع فليقع ، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فاقترعوا ثلاثا فمن قُرع فليقع . فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع . وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

Marfat.com

تسبيح الحصى « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال: « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها ؛ فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكى على شجرة يبست ، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى ؛ قال : يا غلام من أنت ؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة فمن يشهد لى؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فآشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان فى منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يُقتل ؛ فقالوا : إن له بيّنة فأرسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنى لقيت يونس ؟ قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجّوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح فى الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه فى غيرهم فى قوله عز وجل : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »(١) وقوله عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ »(٢) الآية .

---

(١) راجع ص ٣٣٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٠ فما بعد .

Marfat.com

وقال بعض العلمــاء : إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا . وهذا لا يمنع ، وقد تقدّم ما للعلماء فى هذا فى سورة « يونس »(١) فلينظر هناك .

قوله تعــالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » قد مضى فى « البقــرة »(٢) محامل « أو » فى قوله تعالى: « أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » . وقال الفراء : « أو » بمعنى بل . وقال غيره : إنها بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

فلما اشتد أمرُ الحربِ فينا * تأمّلنــا رِياحا أو رِزامًا

أى ورزاما . وهــذا كقوله تعــالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »(٣) . وقرأ جعفر بن محمد « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ ويَزِيدون » بغير همز؛ فـ«يزيدون» فى موضع رفع بأنه خبر مبتدإ محذوف أى وهم يزيدون . النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون « أو » بمعنى بل و بمعنى الواو ؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لمــا بعده ، وتعــالى الله عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شىء إلى شىء وليس هــذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى « أو » فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعانى ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلنــاه إلى أكثر من مائتى ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنمــا خوطب العباد على ما يعرفون . وقيــل : هو كما تقول: جاءنى زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب . وقال الأخفش والزجاج : أى أو يزيدون فى تقديركم . قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا . ورواه أبىّ بن كعب مرفوعا . وعن ابن عباس أيضا : ثلاثين ألفا . الحسن والربيع : بضعاً وثلاثين ألفا . وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفا . ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أى إلى منتهى آجالهم .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٣ فما بعد .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥٠

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم احتج على كفار قريش فى قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : « فَاسْتَفْتِهِمْ » . وهو معطوف على مثله فى أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة ؛ أى فسل يا محمد أهل مكة « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ » . وذلك أن جهينة وخزاعة وبنى مُلَيح وبنى سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا سؤال توبيخ . ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى حاضرون لخلقنا إياهم إناثا ؛ وهذا كما قال الله عز وجل : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ »[1] . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم إن لله ولدا وهو الذى لا يلد ولا يولد . و « إنّ » بعد « أَلَا » مكسورة؛ لأنها مبتدأة . وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمَا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أمَا بمعنى حقًّا، والكسر على أن تكون أمَا بمعنى ألَا . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد ألَا تشبيها بأمَا ، وأمّا فى الآية فلا يجوز إلا كسرها ؛ لأن بعدها الرفع . وتمام الكلام « لَكَاذِبُونَ » . ثم يبتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويحكم « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى اختار البنات وترك البنين . وقراءة العامة « أَصْطَفَى » بقطع الألف ؛ لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة على

(١) راجع جـ ١٦ ص ٧١ فما بعد .

Marfat.com

حالهـا مثل : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ »(١) على ما تقدم . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة « آصْطَفَى » بوصـل الألف على الخبر بغـير آستفهام . وإذا آبتـدأ كسر الهمـزة . وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لهـا ؛ لأن بعدها ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهمـا أن يكون تبيينا وتفسـيرا لمـا قالوه من الكذب ويكون «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» منقطعا مما قبله . والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون ــ منهم الفراء ــ أن التوبيخ يكون بآستفهام و بغير آستفهام كما قال جل وعز: « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »(٢) . وقيل : هو على إضمار القول؛ أي و يقولون « آصْطَفَى الْبَنَاتِ » . أو يكون بدلا من قوله : «وَلَدَ اللَّهُ» لأن ولادة البنات وآتخاذهنّ اصطفاء لهنّ ،فأبدل مثال المـاضى من مثال المـاضى فلا يوقف على هذا على «لَكَاذِبُونَ» . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى أنه لا يجوز أن يكون له ولد . ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة و برهان . ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أى بحججكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم .

قوله تعـالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنّـة هاهنا الملائكة . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : قالوا ــ يعنى كفار قـريش ــ الملائكة بنات الله ؛ جل وتعالى . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فمن أمهاتهن . قالوا : مخدّرات الجنّ . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جنة لأنهم لا يُرَوْن . وقال مجاهـد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنّـة . وروى عن ابن عباس . و روى إسرائيل عن السـدى عن أبى مالك قال : إنمـا قيل لهم جِنة لأنهم خُزان على الجنان والملائكة كلهم جِنّـة . « نَسَبًا » مصاهرة . قال قتادة والكلبى ومقاتل : قالت اليهـود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٩٩ فما بعد .

Marfat.com

الملائكة من بينهم . وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضا : القائل ذلك كنانة وخزاعة ؛ قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله فهو النسب الذى جعلوه .

قلت : قول الحسن فى هذا أحسن ؛ دليله قوله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(1) أى فى العبادة . وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا : هو قولهم إن الله تعالى و إبليس أخوان ؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى النار ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : للحساب . الثعلبى : الأول أولى ؛ لأن الإحضار تكرر فى هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزيها لله عما يصفون . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من النار .

قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ «ما» بمعنى الذى . وقيل : بمعنى المصدر ، أى فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام . وقيل : أى فإنكم مع ما تعبدون من دون الله ؛ يقال : جاء فلان وفلان . وجاء فلان مع فلان . ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلين . النحاس . أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل . وقال الشاعر :

فرد بنعمته كيده * عليه وكان لنا فاتنا

أى مضلا .

(1) راجع جـ ١٣ ص ١١٦

Marfat.com

الثانيـــة — فى هذه الآية ردٌّ على القَدَرية . قال عمـرو بن ذرّ : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر ، فقال عمر : لو أراد الله ألّا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، و إن فى ذلك لعلماً فى كتاب الله جل وعز ، عرفه من عَرَفه ، وجهله من جهله ؛ ثم قرأ : «فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ» إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلَى الجحيم . وقال : فصَلَت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعانى أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى ، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدى لحال بينه و بينهم ؛ وعلى هـذا قوله تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ »(١) أى لست تَصِل منهم إلى شىء إلا إلى ما فى علمى . وقال لَبِيد بن ربيعة فى تثبيت القَدَر فأحسن :

إنّ تَقْـوى ربِّنا خير نَفَـلْ * وبإذنِ الله رَيْثِى وعَجَـلْ
أحمَـدُ الله فـلا نِـدَّ لهُ * بِيـديهِ الخيرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخير آهتدى * ناعِمَ البَالِ ومَنْ شاء أَضَلّْ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل ، وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثـــة — روى عن الحسن أنه قـرأ : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ » بضم اللام . النحاس : و جماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ . ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت على بن سليمان يقوله ؛ قال : هو محمول على المعنى ؛ لأن معنى « مَنْ » جماعة ؛ فالتقدير صالون ، لحذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لألتقاء الساكنين . وقيل : أصله فاعل إلا أنه قُلب من صال إلى صايل وحذفت الياء و بقيت اللام مضمومة فهو مثل « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . ووجه ثالث أن تحذف لام «صال» تخفيفا وتجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة . وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ؛ ونظيره قراءة من قرأ ، « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ »(٢) ، « وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ »(٢) أجرى الإعراب على العين . والأصل فى قراءة الجماعة صالِى بالياء لحذفها الكاتب من الخط لسقوطها فى اللفظ .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٩ فما بعدها ص ١٦٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أهنا تفارقني" فقال: ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » الآيات . والتقدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم. فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا ملك إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة ؛ قاله ابن مسعود وابن جبير . وقال ابن عباس : ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي ويسبح. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم". وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد" خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن](١) غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : لوددت أني كنت شجرة تعضد . ويروى عن أبي ذر موقوفا . وقال قتادة : كان يصلي الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية : «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» . قال : فتقدم الرجال وتأخر النساء . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » قال الكلبي : صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد؛ فقال : "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها" فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال ؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

Marfat.com

"يُتمون الصفوف الأُوَل ويتراصُّون فى الصفّ" وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هَدْى الملائكة عند ربها ويقرأ : « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يا فلان تقدّم يافلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد مضى فى سورة « الحِجْر »(١) بيانه . وقال أبو مالك : كان الناس يصلّون متبدّدين فأنزل الله تعالى : «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا . وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملَك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ؛ إن الملائكة لتصلى وتسبح ما فى السماء ملَك فارغ . وقيل : أى لنحن الصافون أجنحتنا فى الهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به . وقيل : أى نحن الصافون حول العرش . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المصلون ؛ قاله قتادة . وقيل : أى المنزهون الله عما أضافه إليه المشركون . والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله . وقيل : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للمشركين ؛ أى لكل واحد منا ومنكم فى الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب . وقيل : أى منّا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص ، ومنّا من له مقام الشكر . إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أى كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عيروا بالجهل قالوا : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى لو بُعث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لاتبعناه. ولمّا خففت « إن » دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفى والإيجاب . والكوفيون

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩ فما بعد .

Marfat.com

يقولون : « إنْ » بمعنى ما واللام بمعنى إلا . وقيل : معنى « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا » أى كتابا من كتب الأنبياء ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله. ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أى بالذكر . والفراء يقدره على حذف ؛ أى فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به . وهذا تعجيب منهم ؛ أى فقد جاءهم نبي وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الزجاج : يعلمون مغبة كفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال الفراء : أى بالسعادة . وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »[(١)] قال الحسن : لم يقتل من أصحاب الشرائع قط أحد . ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة . ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ »[(٢)] . وقال الشيبانى : جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم . ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال قتادة : إلى الموت . وقال الزجاج : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه . وقال ابن عباس : يعنى القتل ببدر . وقيل : يعنى فتح مكة . وقيل : الآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة : سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار . وعسى من الله للوجوب وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر ؛ أى عن قريب يبصرون . وقيل : المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٦ (٢) راجع ص ١٥٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

القيامة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هـذا العذاب ؛ أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أى العذاب . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتـل . ومعنى « بِسَاحَتِهِمْ » أى بدارهم؛ عن السّدّى وغيره . والساحة والسّحْسَة فى اللغة فِناء الدار الواسع . الفرّاء : « نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » ونزل بهم سواء . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب . وفيه إضمار أى فساء الصباح صباحهم . وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيـه . ومنه الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : لمـا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَساحى ، فقالوا : محمد والخميس (١) ، ورجعوا إلى حصنهم ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر خَرِبت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " وهو يبين معنى « فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » يريد النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ كررتأكيدا وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضا .

قوله تعـالى : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فيـه أربع مسـائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. ﴿ رَبِّ الْعِـزَّةِ ﴾ على البـدل . ويجوز النصب على المـدح ، والرفع بمعنى هو ربّ العـزة . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى من الصاحبة والولد . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن معنى « سُبْحَانَ اللهِ » فقال : " هو تنزيه الله عن كل سوء " وقد مضى فى « البقرة » (٢) مستوفى .

الثانيـــة — سئل محمـد بن سُحْنون عن معـنى « رَبِّ الْعِزَّةِ » لِمَ جاز ذلك والعزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز ؟ فقال: العزة تكون

(١) الخميس الجيش .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ و٢٨٥ فما بعدها و جـ ٢ ص ٧٦

Marfat.com

صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله : « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وصفه الفعل نحو قوله : « رَبِّ الْعِزَّةِ » والمعنى ربّ العزّة التي يتعازّ بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل . قال : وقد جاء في التفسير إن العزة ها هنا يراد بها الملائكة . قال : وقال بعض علمائنا : من حلف بعزة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة ، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه . الماوردي : « رَبِّ الْعِزَّةِ » يحتمل وجهين : أحدهما مالك العزّة، والثاني ربّ كل شيء متعزّز من ملك أو متجبّر .

قلت : وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف .

الثالثة — روى من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يُسلّم : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » إلى آخر السورة ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : قرأت على الشيخ الإمام المحدث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد ابن عمروك البكري بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية ، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسمعيل ابن أبي بكر القارئ، قال حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسي، قال حدثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفرايني، قال حدثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدثنا هُشَيم عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخُدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردي : روى الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبي من حديث علي رضى الله عنه مرفوعا .

Marfat.com

الرابعــة — قوله تعـالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى الذين بلّغوا عن الله تعـالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " إذا سلّمتم علىّ فسلّموا على المرسلين فإنمـا أنا رسول من المرسلين " وقيل : معنى « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى أَمْنٌ لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على إرسال المرسلين مبشرين ومنـذرين . وقيل : أى على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أى على هلاك المشركين؛ دليله : « فَقُطِـعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) .

قلت : والكل مراد والحمـد يعم . ومعنى « يَصِفُونَ » يكذبون، والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير الصافات .

ســـورة ص

مكية فى قول الجميع ، وهى ست وثمـانون آية . وقيل ثمـان وثمـانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ صٓ ﴾ قراءة العامة « صٓ » بجـزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل : « الٓمٓ » و « الٓمٓر » . وقرأ أُبَىّ بن كعب والحسن وابن أبى إسحق ونصر بن عاصم « صادِ » بكسر الدال بغير تنوين . ولقراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادى إذا عارض، ومنـه « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » (٢) أى تعرّض . والمصاداة المعارضة، ومنـه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية . فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك؛ أى عارضة بعملك وقابله به ، فاعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن

(١) راجع جـ ١٦ ص ٤٢٧ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢١٢

Marfat.com

الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنه أن المعنى آتله وتعرّض لقراءته . والمذهب الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين . وقرأ عيسى بن عمر « صادَ » بفتح الدال مثله : « قافَ » و « نونَ » بفتح آخرها . وله في ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهن أن يكون بمعنى آتلُ . والثاني أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وآختار الفتح للإتباع؛ ولأنه أخفّ الحركات . والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف؛ كقولك : اللهَ لأفعلنّ، وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوب الخلق وآستمالها حتى آمنوا به . وقرأ آبن أبي إسحق أيضا « صادٍ » بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله . ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع : « صادُ » و « قافُ » و « نونُ » بضم آخرهن؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ . و « صۤ » إذا جعلته آسما للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه . وقال آبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن « صۤ » فقالا : لا ندري ما هي . وقال عكرمة : سأل نافع آبن الأزرق آبن عباس عن « صۤ » فقال : « صۤ » كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار . وقال سعيد بن جبير : « صۤ » بحر يُحيي الله به الموتى بين النفختين . وقال الضحاك : معناه صدق الله . وعنه أن « صۤ » قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقاله السدي، وروى عن آبن عباس . وقال محمد بن كعب : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدُ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد . وقال قتادة : هو آسم من أسماء الرحمن . وعنه أنه آسم من أسماء القرآن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما آستأثر الله تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل . وقد تقدّم جميع هذا في « البقرة »[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو آسم معتل والأصل فيه ذَوَى على فَعَل . قال آبن عباس ومقاتل معنى « ذِي الذِّكْرِ » ذي البيان . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥

Marfat.com

ذى الشرف أى من آمن به كان شرفا له فى الدارين، كما قال تعالى : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ »(١) أى شرفكم . وأيضا القرآن شريف فى نفسه لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره . وقيــل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر ما يحتاج إليــه من أمر الدين . وقيــل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر أسماء الله وتمجيده . وقيل : أى ذى الموعظة والذكر . وجواب القسم محذوف . واختلف فيه على أوجه : فقيل جواب القسم « صٓ » ؛ لأن معناه حق فهى جواب لقوله : « وَالْقُرْآنِ » كما تقول : حقًّا واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ؛ فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله : « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » حسنًا، وعلى « فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » تمــاما . قاله ابن الانبارى . وحكى معناه الثعلبى عن الفراء . وقيــل : الجواب « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » لأن « بل » نفى لأمر سبق وإثبات لغــيره؛ قاله القتبى؛ فكأنه قال : «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وســلم . أو « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصــدق والأمانة بل هم فى تكبر عن قبول الحق . وهو كقوله : « قٓ . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا »(٢) . وقيل : الجواب « كَمْ أَهْلَكْنَا » كأنه قال : والقرآنِ لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخرت « كَمْ » حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا »(٣) ثم قال : «قَدْ أَفْلَحَ» أى لقد أفلح . قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء . ابن الأنبارى : فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله : « فِى عِزَّةٍ وَشِــقَاقٍ » . وقال الأخفش : جواب القسم « إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَــقَّ عِقَابِ » ونحو منه قوله تعالى : « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٤) وقوله : وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ »(٣) . ابن الأنبارى : وهــذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قــوله : « إِنَّ ذَلِكَ لَحَــقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » . ابن الأنبارى : وهذا أقبح من الأول؛ لأن الكلام أشد طولا فيما بين القسم وجوابه . وقيل الجواب قــوله : « إِنَّ هَــذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ » . وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » لتبعثن ونحوه .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٣ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٧٢ و ص ١ و ص ٣

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أى فى تكبر وآمتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز : «وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ»(١) والعزّة عند العرب : الغَلَبة والقَهْر. يقـال : من عَزَّ بَزَّ؛ يعنى من غَلَب سَلَب . ومنه : « وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ » أراد غلبنى . وقال جرير :

يَعُزُّ عَلَى الطـريق بِمَنْكِبيه * كما ٱبْتَرَكَ الخليعُ على القِـداحِ(٢)

أراد يغلب . ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى فى إظهار خلاف ومباينة . وهو من الشَّق كأنّ هذا فى شَقّ وذلك فى شَقّ . وقد مضى فى « البقرة »(٣) مستوفًى .

قوله تعـالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى من قوم كانوا أمنع من هؤلاء . و « كَمْ » لفظة التكثير ﴿فَنَادَوْا﴾ أى بالآستغاثة والتوبة . والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: " ألقِه على بلالٍ فإنه أَنْدَى منك صوتا " أى أرفع . ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » فأما إسرائيل فروى عن أبى إسحق عن التميمى عن آبن عباس « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال : ليس بحين نَزْوٍ(٤) ولا فِرار؛ قال : ضُبِط القوم جميعا قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فآضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أى عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل : «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» قال القشيرى : وعلى هذا فالتقدير : فنادوا مناص لحذف لدلالة بقية الكلام عليـه ؛ أى ليس الوقت وقت ما تنادون به . وفى هذا نوع تحكم ؛ إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليـه . قال القشيرى : وفيـه نظر لأنه لا معنى على هـذا للواو فى « وَلَاتَ حِينَ

(١) راجع جـ ٣ ص ١٨ فما بعد . (٢) البيت فى وصف جمل ؛ يقول : يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق ؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق ، وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله ، والخليع المخلوع المقمور ماله . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٤) النزو : ضرب من العدو .

Marfat.com

مَنَاصٍ» وقال الجرجانى: أى فنادوا حين لا مناص؛أى ساعة لا منجىً ولا فوت. فلما قدم «لا» وأخّر «حين» ٱقتضى ذلك الواو ، كما يقتضى الحال إذا جعل ابتداء وخبرا ؛ مثل قولك : جاء زيد راكبا ؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا ٱقتضى الواو مثل جاءنى زيد وهو راكب؛ فحين ظرف لقوله : « فَنَادَوْا » . والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص ؛ أى نادوا لطلب الخلاص فى وقت لا يكون لهم فيه خلاص . قال الفرّاء :

* أَمِنْ ذكرِ ليلى إذ نأتك تَنُوصُ (١) *

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصا ومَناصا أى فرّ وزاغ . النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضـداد، والنَّوص الحمار الوحشى . وٱستناص أى تأخر؛ قاله الجوهرى . وتكلم النحويون فى « وَلَاتَ حِينَ » وفى الوقف عليه، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلّام فى كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود. فقال سيبويه: «لات» مشبّهة بليس والٱسم فيها مضمر؛ أى ليست أحياننا حين مناص . وحكى أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حِينُ مناصٍ . وحكى أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الٱسم محذوفا فى النصب؛ أى ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقف عليها عند سيبويه والفراء «ولات» بالتاء ثم تبتدئ « حِينَ مَنَاصٍ » وهو قول ٱبن كيسان والزجاج. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات . والوقوف عليها عند الكسائى بالهـاء ولاهْ . وهو قول المبرّد محمد بن يزيد . وحكى عنـه على بن سليمان أن الحجة فى ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ. وقال القشيرى: وقد يقال ثُمَّتْ بمعنى ثُمَّ ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ ؛فكأنهم زادوا فى لاهاء فقالوا لاه ، كما قالوا فى ثُمَّ ثُمَّهْ عند الوصل صارت تاء . وقال الثعلبى : وقال أهل اللغة : و « لَاتَ حِينَ » مفتوحتان كأنهما

---

(١) تمـامه : * فتقصر عنها خطوة وتبوص *

والبوص بالباء الموحدة : التقدّم .

كلمة واحدة ، وإنما هي « لا » زيدت فيها التاء نحو ربّ ورُبّتْ، وثمّ وثُمّتْ . قال أبو زبيد الطائي :

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أَوَانٍ ＊ فأَجَبْنا أَنْ ليس حِينَ بَقَاءِ

وقال آخر :

تذكّرُ حُبَّ ليلى لَاتَ حِينَا ＊ وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ الْقَرِينا

ومن العرب من يخفض بها ؛ وأنشد الفراء :

فَلَتَعْرِفَنّ خَلَائِقًا مَشْمُولَةً ＊ ولَتَنْدَمَنّ ولَاتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن « وَلَاتَ حِينَ » التاء منقطعة من حين ، ويقولون معناها وليست . وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين . وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلّام : الوقف عندي على هذا الحرف « ولا » والابتداء « تَحِينَ مَنَاصٍ » فتكون التاء مع حين . وقال بعضهم : « لات » ثم يبتدئ فيقول : « حين مناص » . قال المهدوي : وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين . ومن حجة أبي عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن ؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعدي :

العاطِفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ ＊ والمُطْعِمون زمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

وأنشد لأبي زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ ＊ فأجبنا أن ليس حين بقاءِ

فأدخل التاء في أوان . قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء في الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فذكر مناقبه ثم قال : اذهبْ بها تَلَانَ معك . وكذلك قول الشاعر (١) :

نَوِّلِي قَبلَ نَأْيِ دَارِي جُمَانَا ＊ وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلَانَا

---

(١) هو جميل بن معمر وبعده :　إن خير المواصلين صفاء ＊ من يوافي خليله حيث كانا

Marfat.com

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إنى تعمدت النظر فى الذى يقال له الإمام — مصحف عثمان — فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين . قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذى أنشده لأبى وجزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه ، كلها على خلاف ما أنشده ؛ وفى أحدها تقديران ؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

* العاطفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفِ *

والرواية الثانية :

* العاطفونَ ولَاتَ حِينِ تَعاطفِ *

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

* العاطفونةَ حِينَ ما مِن عاطِفِ *

جعلها هاء فى الوقف وتاء فى الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث .
الرواية الرابعة :

* العاطفونهُ حِين ما مِن عاطِفِ *

وفى هذه الرواية تقديران ؛ أحدهما وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء فى موضع نصب ؛ كما تقول : الضاربون زيدا فإذا كنّيت قلت الضاربوه . وأجاز سيبويه فى الشعر الضاربونهُ ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه فى إجازته مثله . والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة ، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ فى الوقف ، ثم أجريت فى الوصل مجراها فى الوقف ؛ كما قرأ أهل المدينة : « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ »(١) وأما البيت الثانى فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئا مشكلا ؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض ، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا . وإن كان قد روى عن عيسى بن عمر أنه قرأ « ولاتِ حِينِ مناصٍ »(٢) [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ « ولاتِ حينَ مناص »] فبنى « لاتِ » على الكسر ونصب « حين » . فأما (ولَاتَ أوانٍ) ففيه تقديران ؛ قال الأخفش : فيه مضمر أى ولات حين أوان .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد . (٢) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

Marfat.com

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطإ . والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال : تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانُ) بالرفع . وأما البيت الثالث فبيت مولّد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة . على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الآن) . وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنون . وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تلانَ إلى أصحابك فلا حجة ، فيه ؛ لأن المحدّث إنما يروى هذا على المعنى . والدليل على هذا أن مجاهدا يروى عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه : اذهب فاجهد جهدك . ورواه آخر : اذهب بها الآن معك . وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام « تحين » . فلا حجة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لها فليس بإمام لها ، وفي المصاحف كلها « وَلَاتَ » فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناص مناوص .

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أن » في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله : « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أي في عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا » معترض . وقيل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس ؛ وقيل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أي في دعوى النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ مفعولان أي صيّر الآلهة إلها واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي عجيب . وقرأ السلمي : «عُجّابٌ» بالتشديد . والعُجَاب والعُجّاب

Marfat.com

والعَجَب سواء . وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال : العَجِيب العَجَب ، والعُجَاب الذى قد تجاوز حدّ العَجَب ، والطويل الذى فيه طول ، والطُّوال ، الذى قد تجاوز حدّ الطُّول . وقال الجوهرى : العَجِيب الأمر الذى يتعجّب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عُجَّابٌ» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يابن أخى ماتريد من قومك ؟ فقال : " ياعم إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّى إليهم بها الجزيةَ العجم " فقال : وما هى ؟ قال : " لا إله إلا الله " قال : فقالوا « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » قال : فنزل فيهم القرآن « صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » حتى بلغ « إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ » خرّجه الترمذى أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقيل : لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه شق على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا : اقض بيننا وبين ابن أخيك . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء[1] ، فلا تمل كل الميل على قومك . قال : " وماذا يسألونى " قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أتعطونى كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " فقال أبو جهل : لله أبوك ! لنعطينكها وعشر أمثالها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا إله إلا الله " فنفروا من ذلك وقاموا ؛ فقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد . فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » .

(١) فى ا ، هامش : يسألك ذا السواء . وفى ح ، و ز : « ذا السؤال » . وفى أبي السعود : يسألونك السواء والإنصاف . وفى البيضاوى كما فى الكشاف : يسألونك السؤال . وعلق عليه الشهاب بقوله : والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أى العدل كما وقع فى غيره من التفاسير اهـ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ « الملأ » الأشراف، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أى انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض: « أن امشوا » أى امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾. وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبى طالب فى مرضه كما سبق . وفى رواية محمد بن إسحق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة أبناء ربيعة بن عبد شمس، وأمية بن خلف ، والعاص ابن وائل، وأبو مُعيط؛ جاءوا إلى أبى طالب فقالوا: أنت سيدنا وأنصفنا فى أنفسنا، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفَة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة " فقال أبو جهل وعشرا . قال : " تقولون لا إله إلا الله " فقاموا وقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا » الآيات . « أَنِ ٱمْشُوا » « أن » فى موضع نصب والمعنى بأن امشوا . وقيل : «أن» بمعنى أى ؛ أى « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ . وقيل : المعنى انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : « ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ آلِهَتِكُمْ » أى على عبادة آلهتكم « إِنَّ هَـٰذَا » أى هذا الذى جاء به محمد عليه السلام ﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ أى يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

Marfat.com

وغير تنزل بهم . وقيل : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » كلمة تحذير ؛ أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه . وقال مقاتل : إن عمر لما أسلم وقوى به الإسلام شق ذلك على قريش فقالوا : إن إسلام عمر في قوة الإسلام لشيء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ قال ابن عباس والقرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي : يعنون ملة عيسى النصرانية وهي آخر الملل . والنصارى يجعلون مع الله إلها . وقال مجاهد وقتادة أيضا : يعنون ملة قريش . وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان . وقيل : أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حق . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أي كذب وتخرص ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : خلق واختلق أي ابتدع . وخلق الله عز وجل الخلق من هذا ؛ أي ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار ، والذكر هاهنا القرآن . أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم ؛ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي من وحيي وهو القرآن . أي قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم ، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي إنما اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك ، ولما قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ . و « لَمَّا » بمعنى لم وما زائدة كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ »(١) و « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) .

قوله تعالى . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ قيل : أم لهم هذا فيمنعوا محمدا عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة . و « أم » قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله ؛ كقوله تعالى : « الم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ »(٣) وقد قيل إن قوله : « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » متصل بقوله : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء ؛ لأن خزائن السموات والأرض له ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٧ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٨٤ .

Marfat.com

أى فإن آدعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى فليصعدوا إلى السموات ، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحى على محمد . يقال : رَقِيَ يَرْقَى وآرتقى إذا صعد . ورَقَى يَرْقِي رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِى رَمْيا من الرُّقْيَة . قال الربيع بن أنس : الأسباب أرقّ من الشّعر وأشدّ من الحديد ولكن لا ترى . والسبب فى اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره . وقيل : الأسباب أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة . قال زهير :

* ولو رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[(1)] *

وقيل : الأسباب السموات نفسها ؛ أى فليصعدوا سماء سماء . وقال السدى : « فِي الْأَسْبَابِ » فى الفضل والدين . وقيل : أى فليعلوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو معنى قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب الحبال ؛ يعنى إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا ؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز . ثم وعد نبيّه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ ﴾ « ما » صلة وتقديره هم جند ، فـ« جُندٌ » خبر ابتداء محذوف . ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أى مقموع ذليل قد آنقطعت حجتهم ؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا . ويقال : تهزّمت القربة إذا آنكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته . والكلام مرتبط بما قبل ؛ أى « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » وهم جند من الأحزاب مهزومون ؛ فلا تغمك عزتهم وشقاقهم، فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزهم . وهذا تأنيس للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقد فُعِل بهم هذا فى يوم بدر . قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بَدْر . و « هُنَالِكَ » إشارة لبدر وهو موضع تحزّبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى ذلك فى « الأحزاب »[(2)] . والأحزاب الجند، كما يقال : جند من قبائل شتّى . وقيل : أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفّار . أى هؤلاء جند على طريقة أولئك ؛ كقوله

(1) صدر البيت : * ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

(2) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : «فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي»(١) أى على دينى ومذهبى . وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب ؛ أى ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتبى : يعنى أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم ، فهم لا يقدرون على أن يدعوا الشيء من آلهتهم ، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله ، ولا من ملك السموات والأرض .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له ؛ أى هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم ، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا . وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث ، واختلف أهل العربية فى ذلك على قولين : أحدهما — أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثانى — أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه ، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب فى اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه ؛ كقوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ »(٢) ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره ، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد اختلف فى تأويل ذلك ؛ فقال ابن عباس : المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك : كان كثير البنيان ، والبنيان يسمى أوتادا . وعن ابن عباس أيضا وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلْعَب له عليها . وعن الضحاك أيضا : ذو القوة والبطش . وقال الكلبى ومقاتل : كان يعذّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقيا بين أربعة أوتاد فى الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوار ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أى ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا ؛

(١) راجع ج ٣ ص ٢٥٠ فما بعد . (٢) راجع ج ١٩ ص ٨٩ .

Marfat.com

لأنهم يقوون أمره كما يقوى الوتدِ البيت . وقال ابن قتيبة : العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا . وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد . قال الأسود بن يَعْفُر :

ولقد غَنَوْا فيها بأنعمِ عِيشةٍ ＊ في ظلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

وواحد الأوتاد وتِد بالكسر، وبالفتح لغة . وقال الأصمعي : يقال وتَد واتِد كما يقال: شغل شاغل . وأنشد[1] :

لاقتْ على الماءِ جُذَيْلا واتِدَا ＊ ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدَا

قال : شبَّه الرجل بالجِذل . ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أي الغيضة . وقد مضى ذكرها في « الشعراء »[2] . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر : « لَيْكَةَ » بفتح اللام والتاء من غير همز . وهمز الباقون وكسروا التاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي هم الموصوفون بالقوة والكثرة؛ كقولك فلان هو الرجل . ﴿ إِنْ كُلٌّ ﴾ بمعنى ما كل . ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب . وأثبت يعقوب الياء في « عذابي » و « عقابي » في الحالين وحذفها الباقون في الحالين . ونظير هذه الآية قوله عز وجل : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ »[3] فسمى هذه الأمم أحزابا .

قوله تعالى : وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ « يَنْظُرُ » بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »[4] . « هؤلاء » يعني كفار مكة . « إِلَّا صَيْحَةً

(١) البيت لأبي محمد الفقعسي . والضمير في لاقت ضمير الإبل . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) راجع ص ٣٠٩ فما بعد من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ فما بعد .

Marfat.com

وَاحِدَةً » أى نفخة القيامة . أى ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة . وقيل: ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التى هى النفخة فى الصور، كما قال تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً (١) » وهـذا إخبار عن قرب القيامة والموت . وقيل : أى ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهى النفخة . وقال عبد الله بن عمرو : لم تكن صيحة فى السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد : ما لها رجوع . قتادة : مالها من مثنوية . السدى : مالها من إفاقة . وقرأ حمزة والكسائى : « مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء . الباقون بالفتح . الجوهرى : والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت ، لأنهـا تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ ثم تُحلَب . يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقا؛ وفى الحديث : " العيادة قدر فواق الناقة ". وقوله تعالى: «مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ» يقرأ بالفتح والضم أى مالها من نظرة وراحة وإفاقة . والفِيقة بالكسر آسم اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَـةٌ فى ضَرعها آجتمعتْ * جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعا

والجمع فِيق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق . قال آبن همّام السَّلُولىّ :

وذَمُّوا لنا الدنيا وهُمْ يَرْضَعُونَها * أَفَاوِيقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْـلُ (٢)

والأفاويق أيضا ما آجتمع فى السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة . وأفاقت الناقة إفاقة أى آجتمعت الفِيقة فى ضرعها ؛ فهى مُفيقٌ ومُفيقَةٌ — عن أبى عمـرو — والجمع مفاويق . وقال الفرّاء وأبو عبيـدة وغيرهما : « مِنْ فَوَاقٍ » بفتح الفاء أى راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق المريض والمغشىّ عليه . و « مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء من آنتظار . وقد تقدّم أنهما بمعنًى وهو ما بين الحلبتين .

---

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء .
(٢) البيت فى ذم علماء الدنيا . والثعل زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة ؛ وهو لا يدر وإنما ذكره للبالغة .

Marfat.com

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى طائفة من أصحابه .. الحديث . وفيه " يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول أنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول الله عز وجل: « مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ " وذكر الحديث، خرجه على بن معبد وغيره كما ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد: عذابنا . وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب . الحسن: نصيبنا من الجنة لنتنعم به فى الدنيا . وقاله سعيد بن جُبير . ومعروف فى اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِط . قال الفراء: القِط فى كلام العرب الحظ والنصيب . ومنه قيل للصك قِط . وقال أبو عبيدة والكسائى: القِط الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لَقِيتُــهُ * بِغِبْطتِهِ يُعطِى القُطوطَ وَيَأْفِقُ

يعنى كتب الجوائز . ويروى: بأمّته بدل بغبطته، أى بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح . ويقال: فى جمع قِط أيضا قِططة وفى القليل أقط وأقطاط . ذكره النحاس . وقال السدى: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به . وقال إسمعيل بن أبى خالد: المعنى عجّل لنا أرزاقنا . وقيل: معناه عجل لنا ما يكفينا؛ من قولهم: قَطْنِى؛ أى يكفينى . وقيل: إنهم قالوا ذلك آستعجالا لكتبهم التى يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن . وهو قوله تعالى: « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ »(١) . « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »(٢) . وأصل القطّ القِطّ وهو القطع، ومنه قَطّ القلم؛ فالقِط آسم للقطعة من الشىء كالقِسْم والقَسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره؛ إلا أنه فى الكتاب أكثر آستعمالا وأقوى حقيقة . قال أمية بن أبى الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما * يُجْبَى إليه وَالقِطُّ والقَــلَمُ

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠

Marfat.com

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى قبل يوم القيامة فى الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا آستهزاء منهم .

قوله تعالى : ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لما آستهزءوا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم ، وسلاه بكل ما تقدم ذكره . ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء ؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم ؛ وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيل : المعنى اصبر على قولهم ، وآذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوتك . « ذَا ٱلْأَيْدِ » ذا القوة فى العبادة . وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشد الصوم وأفضله ؛ وكان يصلى نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وكان قويا فى الدعاء إلى الله تعالى . وقوله : « عَبْدَنَا » إظهارا لشرفه بهذه الإضافة . ويقال : الأَيْدُ وَالآدُ كما تقول العيب والعاب . قال (١) :

* لَمْ يَكُ يَنْآدُ فَأَمْسَى آنْآدا *

ومنه رجل أَيِّدٌ أى قوى . وتأيّد الشيء تقوّى ؛ قال الشاعر :

إذَا القوسُ وَتَّرهَا أَيِّدٌ * رَمَى فَأَصابَ الكُلى وَالذُّرا

يقول : إذا الله وتّر القوس التى فى السحاب رَمَى كُلى الإبل وأسمنها بالشحم . يعنى من النبات الذى يكون من المطر . ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك : أى توّاب . وعن غيره : أنه كلما ذكر

---

(١) هو العجاج . وآنآد العود ينآد آنئيادا فهو منآد انثنى : وآعوج . وصدر البيت :

* من أن تبدلت بآدى آدا *

Marfat.com

ذنبه أو خطر على باله آستغفر منه ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة " . ويقال آب يئوب إذا رجع ؛ كما قال[(١)] :

وكُلُّ ذى غَيْبَةٍ يئوبُ * وغائبُ الموت لايئوبُ

فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ « يُسَبِّحْنَ » فى موضع نصب على الحال . ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال . وقال ابن عباس : « يُسَبِّحْنَ » يصلّين . وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه . وقال محمد بن إسحق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن ، وما تصغى لحسنه [الطير[(٢)]] وتصوّت معه ، فهذا تسبيح الجبال والطير . وقيل : سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين . وقد مضى القول فى هذا فى « سبإ[(٣)] » وفى « سبحان[(٤)] » عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال . والله أعلم . ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا آبيضاض الشمس بعد طلوعها . يقال : شَرَقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت . فكان داود يسبّح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانية — روى عن آبن عباس أنه قال : كنت أمرّ بهذه الآية « بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » ولا أدرى ماهى ، حتى حدّثتنى أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ،

(١) هو عبيد بن الأبرص .
(٢) زيادة يقتضيها المعنى .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٥ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٨ .

Marfat.com

فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى ، وقال : "يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق". وقال عكرمة قال آبن عباس : كان فى نفسى شىء من صـلاة الضحى حتى وجدتها فى القرآن « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » . قال عكرمة : وكان آبن عبـاس لا يصـلّى صلاة الضحى ثم صلاها بعد . وروى أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إنى أجد فى كتب الله صـلاة بعـد طلوع الشمس هى صلاة الأوّابين . فقال ابن عباس : وأنا أوجدك فى القرآن ؛ ذلك فى قصة داود « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »

الثالثـــة ـــ صـلاة الضحى نافلة مستحبة ، وهى فى الغـداة بإزاء العصر فى العشىّ، لا ينبغى أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة ؛ ويرتفع كدرها ؛ وتشرق بنورها ؛ كما لا تصلى العصر إذا آصفرت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صـلاة الأوّابين حين تَرْمَض الفصالُ" الفصال والفصلان جمع فَصيل ، وهو الذى يفطم من الرضاعة من الإبل . والرمضاء شدّة الحر فى الأرض . وخصّ الفصال هنـا بالذكر ؛ لأنها هى التى تَرْمَض قبل آنتهاء شدّة الحر التى تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جَلَدها ، وذلك يكون فى الضحى أو بعـده بقليل ، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى . ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك آستعجالا ، لأجل شغله فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها فى الوقت المنهى عنه ويأتى بعمل هو عليه لا له .

الرابعـــة ـــ روى الترمذى من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " من صلّى الضحى ثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنـة" قال حديث غريب . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى". وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شُفْعة الضحى غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زَبَد البحر" . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة

Marfat.com

قال : "أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر" لفظ البخارى . وقال مسلم" و ركعتى الضحى " وخرجه من حديث أبى الدرداء كما خرجه البخارى من حديث أبى هريرة . وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة . والله أعلم . وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل ، ثم آستعمل فى سائر عظام الجسد ومفاصله . وروى من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله وآستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار" قال أبو توبة : وربما قال " يمسى " كذا خرجه مسلم . وقوله : "ويجزى من ذلك ركعتان" أى يكفى من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان . وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد ؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التى عليه فى الأصل . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال . قال الفراء : ولو قرئ « وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ » لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال وآجتمعت إليه الطير فسبحت معه . فآجتماعها إليه حشرها . فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه . وقيل : أى وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور . ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ أى لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أى مطيع ؛ أى تأتيه وتسبح معه. وقيل : الهاء لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى قويناه حتى ثبت . قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه فى القلوب . وقيل : بكثرة الجنود . وقيل : بالتأييد والنصر. وهذا آختيار ابن العربى.

Marfat.com

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطانا . كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبيّ الله . والمُلْك عبارة عن كثرة المِلك ، فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون ملكا حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف فى المنافع التى يفتقر إليها لضرورته الآدمية . وقد مضى هذا المعنى فى « براءة »(١) وحقيقة الملك فى « النمل »(٢) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أى النبوة ؛ قاله السدى . مجاهد : العدل . أبو العالية : العلم بكتاب الله تعالى . قتادة : السنة . شريح : العلم والفقه . ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمى وقتادة : يعنى الفصل فى القضاء . وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس : بيان الكلام . علىّ بن أبى طالب : هو البينة على المدّعى واليمين على من أنكر . وقاله شُرَيح والشَّعبىّ وقتادة أيضا . وقال أبو موسى الأشعرى والشّعبى أيضا : هو قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها . وقيل : « فَصْلُ الْخِطَاب » البيان الفاصل بين الحق والباطل . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وقول علىّ رضى الله عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه فى القضاء ما عدا قول أبى موسى .

الثانيــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فأما علم القضاء فلعَمْرُ إلهك إنه لنوع من العلم مجرد ، وفصل منه مؤكّد ، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففى الحديث : " أقضاكم علىّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل " . وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء . يروى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن حفر قوم زُبْيَة للأسد ،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧١ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٤ فما بعد .

Marfat.com

فوقع فيها الأسد ، وآزدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر ، حتى صاروا أربعة ، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا ، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال ؛ قال فأتيتهم فقلت : أتقتلون مائتى رجل من أجل أربعة أناس ! تعالوا أقض بينكم بقضاء ؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم ، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء . فجعل للأول ربع الدية ، وجعل للثانى ثلث الدية ، وجعل للثالث نصف الدية ، وجعل للرابع الدية ، وجعل الدياتِ على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربعة ؛ فسخط بعضهم ورضى بعضهم ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة ؛ فقال : " أنا أقضى بينكم " فقال قائل : إن عليا قد قضى بيننا . فأخبروه بما قضى علىّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القضاء كما قضى علىّ " فى رواية : فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علىّ . وكذلك يروى فى المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال : إن آبن أبى ليلى — وكان قاضيا بالكوفة — جلد آمرأة مجنونة قالت لرجل يآبن الزانيين حدّين فى المسجد وهى قائمة . فقال : أخطأ من ستة أوجه . قال آبن العربى : وهذا الذى قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء . فأما قضية علىّ فلا يدركها الشادى ، ولا يلحقها بعد التمرن فى الأحكام إلا العاكف المتمادى . وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولين خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها ، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ ، بَيْد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة ، فله الديةُ بما قُتِل ، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم . وأما الثانى فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالآثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة . وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف ؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجارى فيه . وهذا من بديع الآستنباط . وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعانى المتعلقة فرآها ستة : الأول أن المجنون لا حدّ عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف . وهذا إذا كان القذف فى حالة الجنون ، وأما إذا كان يجن مرة ويُفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف فى حالة إفاقته . والثانى قولها يابن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه فى أن حدّ

Marfat.com

القذف يتداخل ، لأنه عنده حق الله تعالى كحد الخمر والزنى . وأما الشافعى ومالك فإنهما يريان أن الحد بالقذف حق للآدمى ، فيتعدد بتعدد المقذوف . الثالث أنه جلد بغير مطالبة المقذوف ، ولا تجوز إقامة حد القذف بإجماع من الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حق لله تعالى ، ومن يقول إنه حق الآدمى . وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حق للآدمى ؛ إذ لو كان حقا لله لما توقف على المطالبة كحد الزنى . الرابع أنه والى بين الحدين ، ومن وجب عليه حدان لم يوال بينهما ، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، [أو يستبل المضروب](١) ثم يقام عليه الحد الآخر . الخامس أنه حدها قائمة ، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : فى زنبيل . السادس أنه أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا . وفى القضاء فى المسجد والتعزير فيه خلاف . قال القاضى : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذى وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات فى الحديث المروى "أقضاكم علي" . وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : "وأوتيت جوامع الكلم" . وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته : "أما بعد" . ويروى أن أول من قالها فى الجاهلية سحبان بن وائل ، وهو أول من آمن بالبعث ، وأول من توكأ على عصا ، وعمر مائة وثمانين سنة . ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم ، وإنما كان بلسانه . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ

(١) الزيادة من ابن العربى .

Marfat.com

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

فيه أربع وعشرون مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ «الخصم» يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر . قال الشاعر :

وَخَصْمٍ غِضَابٍ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ * كَنفضِ البَرَاذِينِ العِرابِ المَخَالِيَا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكان . وقيل : « تَسَوَّرُوا » وإن كان اثنين حملا على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له ، مثل الركب والصحب . تقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصم . ومعنى: « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أتوه من أعلى سوره . يقال : تسوّر الحائط تسلّقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ؛ وكذلك السُّوَر جمع سورة مثل بُسْرة وبُسْر وهي كل منزلة من البناء . ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيان هذا[1] . وقول النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاك سُورةً * ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب

يريد شرفا ومنزلة . فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء . ابن العربي : والسؤر الوليمة بالفارسي . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب: "إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فحيّهلا بكم" . والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها ؛ قاله يحيي ابن سلام . وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد . وقد مضى القول فيه في غير موضع[2] . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ ﴾ جاءت « إذ » مرتين ؛ لأنهما فعلان . وزعم

(١) راجع ج ١ ص ٦٥ فما بعد .
(٢) راجع ج ٤ ص ٧١ و ج ١١ ص ٨٤ فما بعد .

Marfat.com

الفرّاء : أن إحداهما بمعنى لمـا . وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبيينا لمـا قبلها . قيـل : إنهما كانا إنسيين ؛ قاله النقاش . وقيـل : ملَكين ؛ قاله جماعة . وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل . وقيل : ملَكين فى صورة إنسيين بعثهما الله إليـه فى يوم عبادته . فمنعهما الحرس الدخول ، فتسوّروا المحراب عليه ، فما شعر وهو فى الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعـالى : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى علوا ونزلوا عليـه من فوق المحراب ؛ قاله سـفيان الثورى وغيره . وسبب ذلك ما حكاه ٱبن عباس أن داود عليه السلام حدّث نفسه إن ٱبتلى أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حِذرك . فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه ، فبيناهو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه . فهمّ أن يتناوله بيده ، فٱستدرج حتى وقع فى كوّة المحراب ، فدنا منـه ليأخذه فطار ، فٱطلع ليبصره فأشرف على ٱمرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جسدها بشـعرها . قال السدّى : فوقعت فى قلبه . قال ٱبن عباس : وكان زوجها غازيا فى سبيل الله وهو أوريا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها فى حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا ، فقدّمه فيهم فقتل ، فلما ٱنقضت عدّتها خطبها داود ، وٱشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده ، وكتبت عليه بذلك كتابا ، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى إسرائيل ، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشبّ ، وتسوّر الملكان وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه . ذكره المـاوردى وغيره . ولا يصح (١) . قال ٱبن العربى : وهو أمثل ما روى فى ذلك .

---

(١) ما أورده القرطبى هنا فى حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لهـا ، وهو هراء وٱفتراء كما قال البيضاوى ، وممـا يقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول : و يعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ، ضرورة أنا لو جوّزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء ممـا يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فـا حكى الله تعـالى فى كتابه يمر على ما أراده الله تعالى ، وما حكى القصاص ممـا فيه غض من منصب النبوّة طرحناه ؛ ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقـل فى كل شـبهة * إذا آثر الأخبـار جلاس قصاص

والرقاشى مطروح الرواية عند التحقيق . وسيأتى للؤلف أن ينقل عن النحاس فى صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه .

Marfat.com

قلت : ورواه مرفوعا بمعناه الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » عن يزيد الرقاشي ، سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بعثا وأوصى صاحب البعث فقال : إذا حضر العدو قرّب فلانا وسماه ، قال فقرّبه بين يدي التابوت — قال — وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُستنصر به فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوج المرأة ونزل الملَكان على داود فقصّا عليه القصّة" . وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك في حصار عمّان مدينة بلقاء(١) أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر ، فتقدّم فقتل . وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنما آمتحن الله داود بالخطيئة ؛ لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه نحو ما آمتحنهم ، ويعطيه نحو ما أعطاهم . وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوم يقضي فيه بين الناس ، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه ، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله . وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب . فقال : يارب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائي ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنهم آبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها ؛ آبتلي إبراهيم بنمروذ وبالنار وبذبح آبنه ، وآبتلي إسحق بالذبح ، وآبتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره ، ولم تبتل أنت بشيء من ذلك . فقال داود عليه السلام : فابتلني بمثل ما آبتليتهم ، وأعطني مثل ما أعطيتهم . فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة . فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور . فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقف بين رجليه ، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لآبن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت ، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة ، فذهب ليأخذها فطارت ونظر داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها ، فنظر آمرأة في بستان على شط بركة

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء .

Marfat.com

تغتسل ؛ قاله الكلبي . وقال السدى : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقا ، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجابا بها . وكان زوجها أوريا ابن حنان ، فى غزوة مع أيوب بن صوريا آبن أخت داود ، فكتب داود إلى أيوب أن آبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقدِّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد . فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك . قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهى ذلك إلى العرش ، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره . قال : وكان سيوف الله ثلاثة ؛[1] كالب بن يوفنا فى زمن موسى ، وأوريا فى زمن داود ، وحمزة بن عبد المطلب فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن آبعثه فى بعث كذا وقدمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل فى الثالثة شهيدا . فتزوج داود تلك المرأة حين آنقضت عدّتها . فهى أم سليمان بن داود . وقيل : سبب آمتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء . قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء؛ جزءا لنسائه ، وجزءا للعبادة ، وجزءا لبنى إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم ، ويوما للقضاء . فتذاكروا هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك ؛ فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكبّ على قراءة الزبور ، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه . وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : وفى هذا دليل وهى :

الثانيــة ــ على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة . وقد مضى هذا المعنى فى « النساء »[2] . وحكم كعب بذلك فى زمن عمر بحضره رضى الله عنهما . وقد قال عليه السلام

---

(١) فى النسخة الخيرية : وكان سيوف الله هكذا ثلاثة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩ .

Marfat.com

لعبد الله بن عمر : " إن لزوجك عليك حقا " الحديث . وقال الحسن أيضا ومجاهد : إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين استخلف : والله لأعدلن بينكم ، ولم يستثن فابتلي بهذا . وقال أبو بكر الوراق : كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال : هل في الأرض أحد يعمل كعملي . [فأرسل] (١) الله إليه جبريل ، فقال : إن الله تعالى يقول لك : أعجبت بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبت ثانية وكلتك إلى نفسك . قال : يارب كلني إلى نفسي سنة . قال : إن ذلك لكثير . قال : فشهرا . قال : إن ذلك لكثير . قال : فيوما . قال : إن ذلك لكثير . قال : يارب فكلني إلى نفسي ساعة . قال : فشأنك بها . فوكل الأحراس ، ولبس الصوف ، ودخل المحراب ، ووضع الزبور بين يديه ؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه ، فكان من أمر المرأة ما كان . وقال سفيان الثوري : قال داود ذات يوم : يارب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم ، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم . فأوحى الله إليه : يا داود منك ذلك أو مني؟ وعزتي لأكلنك إلى نفسك . قال : يارب اعف عني . قال : أكلك إلى نفسك سنة . قال : لا بعزتك . قال : فشهرا . قال : لا بعزتك . قال : فأسبوعا . قال : لا بعزتك . قال : فيوما . قال : لا بعزتك . قال : فساعة . قال : لا بعزتك . قال : فلحظة . فقال له الشيطان : وما قدر لحظة . قال : كلني إلى نفسي لحظة . فوكله الله إلى نفسه لحظة . وقيل له : هي في يوم كذا في وقت كذا . فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة ، ووكل الأحراس حول مكانه . قيل : أربعة آلاف . وقيل : ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا . وخلا بعبادة ربه ، ونشر الزبور بين يديه ، فجاءت الحمامة فوقعت له ، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان . وأرسل الله عز وجل إليه الملكين بعد ولادة سليمان ، وضربا له المثل بالنعاج ؛ فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخر ساجدا أربعين ليلة على ما يأتي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ لأنهما أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم . وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه . وقيل : لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

(١) في الأصول : « فأوحى » .

Marfat.com

قال ابن العربي : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقى إليه ادمىّ بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع . ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك : « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » إذ لا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازا ؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان ؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلوىّ. قال الثعلبي : وقد قيل: كان المتسوّران أخوين من بنى إسرائيل لأب وأم . فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك ياداود . قال الثعلبي : والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبّها داود على مافعل .

قلت : وعلى هذا أكثر أهل التأويل . فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » وذلك كذب والملائكة عن مثله منزّهون . فالجواب عنه أنه لا بد فى الكلام من تقدير، فكأنهما قالا : قدّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، وعلى ذلك يحمل قولهما : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على مافعل ؛ والله أعلم .

الرابعة — إن قيل : لم فزع داود وهو نبىّ ، وقد قويت نفسه بالنبوّة ، واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ومنهما كان يخاف . ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى »[(١)] فقال الله عز وجل : « لَا تَخَافَا » . وقالت الرسل للوط : « لَا تَخَفْ . إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ »[(٢)] وكذا قال الملكان هنا : « لَا تَخَفْ » . قال محمد بن إسحق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو فى محرابه — مثلا ضربه الله له ولأوريا فرآهما واقفين على رأسه ؛ فقال : ما أدخلكما علىّ ؟ قالا : « لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » لجئناك لتقضى بيننا .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٩ .

Marfat.com

الخامسـة — قال ابن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما ، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأوّل — أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن ، فيكون الجـواب بحسب تلك الأحكام ، وقـد كان ذلك في ابتـداء شرعنا مهملا في هـذه الأحكام ، حتى أوضحها الله تعـالى بالبيان . الثـاني — أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له . الثالث — أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعـلم آخر الأمر منه ، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا ؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه ؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضربه الله في القصة ، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع — أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشـيري ، وهو أنهما قالا : لمـا لم يأذن لنـا الموكلون بالحجاب ، توصلنا إلى الدخول بالتّسور ، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادسـة — قوله تعـالى : « خَصْمَانِ » إن قيل : كيف قال : « خَصْمَانِ » وقبل هذا : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » فقيل : لأن الاثنين جمع ؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين . وقال الكسائي : جمع لمـا كان خبرا ، فلمـا انقضى الخبر وجاءت المخاطبة ، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف ؛ أي يقول : « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز . المـاوردي : وكانا ملكين ، ولم يكونا خصمين ولا باغيين ، ولا يتأتى منهما كذب ؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض . وقيل : أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هـذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنـين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هـذا الفريق خصومة

Marfat.com

مع كل واحد من الفريق الآخر ، لحضروا الخصومات ولكن آبتدأ منهم آثنان ، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر . والبغى التعدّى والخروج عن الواجب . يقال: بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى مايفحش، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تَجُرْ؛ قاله السدّى . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أى جُرت . وفى حديث تميم الدارىّ : (إنّك لشاطّى) أى جائر علىّ فى الحكم . وقال قتادة : لا تَمِل . الأخفش : لا تُسرف . وقيل : لا تُفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيه البعد من شطتِ الدار أى بعدت ؛ شطّتِ الدار تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطوطًا بعدت . وأشطّ فى القضية أى جار، وأَشطّ فى السَّوْم وآشتط أى أبعد، وأشطّوا فى طلبى أى أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر فى كل شىء . وفى الحديث : " لها مهر مثلها لا وَكْسَ ولا شطط " أى لا نقصان ولا زيادة . وفى التنزيل : « لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا »(١) أى جورا من القول وبعدا عن الحق . ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أى قال الملَك الذى تكلم عن أوريا « إِنَّ هَـٰذَا أَخِي » أى على دينى ، وأشار إلى المدّعى عليه . وقيل : أخى أى صاحبى . « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقرأ الحسن : « تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً » بفتح التاء فيهما وهى لغة شاذة ، وهى الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس . والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لما هى عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب . وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة؛ لأن الكل مركوب . قال آبن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنّهْ * رابعةٌ فى البيت صُغْراهُنّهْ
ونعجتى خمسا تُوفّيهِنّهْ * ألا فتًى سَمْحٌ يُغَذّيهِنّهْ
طَىُّ النَّقَا فى الجوع يَطْوِيهِنّهْ * ويلُ الرَّغيف ويلَهُ مِنْهُنّهْ

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٦٥ فما بعد .

Marfat.com

وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَن حَلَّتْ لَهُ * حَرُمَتْ عليَّ وليتها لم تَحْرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبي * فتجسَّسي أخبارها لي وَٱعْلَمِي
قالتْ رأيتُ من الأعادي غِرَّةً * والشاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنّما التفتتْ بجيدِ جدايةٍ * رَشَإٍ من الغِزلانِ حُرٍّ أرْثَمِ

وقال آخر[1] :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عن شاتِهِ * فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحالَها

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء . قال الحسين بن الفضل : هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا ، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق ، كأنه قال : نحن خصمان هذه حالنا . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل في هذا أن المعنى : يقول : خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة ؛ كما تقول : رجل يقول لآمرأته كذا ، ما يجب عليه ؟

قلت : وقد تأوّل المزنيّ صاحب الشافعي هذه الآية ، وقولَهُ صلى الله عليه وسلم في حديث آبن شهاب الذي خرجه « الموطأ » وغيره : " هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَة " على نحو هذا ؛ قال المزني : يحتمل هذا الحديث عندي — والله أعلم — أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا آدعى صاحب فراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول آبنه إنه ولد زنى[2] ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره . وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره . وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة ؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين ، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة ، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم

(١) هو الأعشى .

(٢) قوله : « إنه ولد زنى » . راجع الحديث في « الموطأ » ج ٦ ص ٤ طبعة السلطان عبد الحفيظ .

Marfat.com

حكم في هذه القصة على المسألة ، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث؛ فإنه عندي صحيح . والله أعلم .

التاسعة — قال النحاس : وفي قراءة ابن مسعود «إِنَّ هَذَا أَخِي كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » و « كَانَ» هنا مثل قوله عز وجل : «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»(١) فأما قوله : «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد . وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال: أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها . وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة . قال ابن العربي : إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، وإن كن إماء فذلك شرعنا . والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد ، وإنما الحصر في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار . وقال القشيري : ويجوز أن يقال : لم يكن له هذا العدد بعينه ، ولكن المقصود ضرب مثل ، كما تقول : لو جئتني مائة مرة لم أقض حاجتك ، أي مرارا كثيرة . قال ابن العربي : قال بعض المفسرين : لم يكن لداود مائة امرأة ، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا ؛ المعنى : هذا غني عن الزوجة وأنا مفتقر إليها . وهذا فاسد من وجهين : أحدهما — أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له ، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما في شرعنا . الثاني — أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال : "لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله" وهذا نص .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي امرأة واحدة : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي انزل لي عنها حتى أكفلها . وقال ابن عباس : أعطنيها . وعنه : تحول لي عنها . وقاله ابن مسعود . وقال أبو العالية : ضمها إلي حتى أكفلها . وقال ابن كيسان : اجعلها كفلي ونصيبي . ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي غلبني . قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني . يقال : عزه يعزه (بضم العين في المستقبل) عزا غلبه . وفي المثل : من عز بز؛ أي من غلب سلب . والاسم العزة وهي القوة والغلبة . قال الشاعر:

قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتت ... تجاذبه وقد عَلِق الجَناحُ

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤١ فما بعد .

Marfat.com

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير : « وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ » أي غالبني؛ من المعازّة وهي المغالبة؛ عازّه أي غلبه . قال ابن العربي : واختلف في سبب الغلبة؛ فقيل : معناه غلبني ببيانه . وقيل : غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه . كان ببلادنا أمير يقال له : سير بن أبي بكر[1] فكلمته في أن يسأل لي رجلا حاجة، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها . فقلت : أما إذا كان عدلا فلا . فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي له واستغربه .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن . فهذا قول .

وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى . وقال أبو جعفر النحاس : فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك . قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم . كذا قال : في كتاب « إعراب القرآن » . وقال : في كتاب « معاني القرآن » له بمثله . قال رضي الله عنه : قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها . وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي انزل لي عنها . وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ . قال أبو جعفر : فهذا أجلّ ما روي في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده . اهـ نفح الطيب .

Marfat.com

عز وجل على ذلك ، وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها ، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه . قال ابن العربي : وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعا ؛ فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة ، كانت في الأهل أو في المال . وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ؛ فقال له : بارك الله لك في أهلك . وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه ، وليس في القرآن أن ذلك كان ، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها ، ولا ولادتها لسليمان ، فعمن يروى هذا ويسند ؟ ! وعلى من في نقله يعتمد ، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد . أما أن في سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة ، وذلك قوله : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ[1] » يعني في أحد الأقوال : تزويج داود المرأة التي نظر إليها ، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته ، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها . فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم . ولكن قد قيل : إن معنى « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق . وقيل : أراد بقوله : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره . وهذا أصح الأقوال . وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة ؛ وهذا نص القرآن . وروى أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية ؛ وربك أعلم . وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » الآية : ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر ، أن داود عليه

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠ .

Marfat.com

السلام كان قد أقدم على خِطبة آمرأة قد خطبها غيره، يقال : هو أوريا، فـال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيـه، وزاهدين فى الخاطب الأوّل ، ولم يكن بذلك داود عارفا، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك ، من حيث أعجب بها إما وصفاً أو مشاهدةً على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السـلام من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا آمرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعلَ بمـا كان من تسوّر الملَكَين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكى يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى فى النازلة بعـد السماع من أحد الخصمين ، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول . قال آبن العربى : وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا فى ملّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنمـا تقدير الكلام أن أحد الخصمين آدعى والآخر سلّم فى الدعوى ، فوقعت بعـد ذلك الفتوى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى آعترف صاحبه بذلك . وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك . والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيرى والمـاوردىّ وغيرهما . قال القشيرى : وقوله : « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ » من غير أنْ يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال : إنما قال هذا بعـد مراجعة الخصم الآخر وبعد آعترافه . وقد روى هذا وإن لم تثبت روايته ، فهذا معلوم من قرائن الحال ، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ماتقول، فسكّته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه . قال ويحتمل أن يقـال : كان من شرعهم التعويل على قول المدّعى عند سكوت المدّعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول . وقال الحليمى أبو عبد الله فى كتاب منهاج الدين له : ومـما جاء فى شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أو كانت خافيـة فظهرت : السجود لله عز وجل . قال والأصل فى ذلك قوله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

Marfat.com

الخَصْمِ » إلى قوله : « وَحُسْنَ مَآبٍ » . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام : أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى فى المتكلم مخايل الضعف والهضيمة، لحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول، ودعاه ذلك إلى ألّا يسأل الخصم؛ فقال له مستعجلا : « لَقَدْ ظَلَمَكَ ». مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لى مائة نعجة ولا شىء لهذا، فسرق منى هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له ٱرددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أنى مرافعه إليك، فجرّنى قبل أن أجرّه، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأنى أنا الظالم. ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه فى ذلك الوقت، وهو الفتنة التى ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فٱستغفر ربه وخرّ راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه، بأن ٱقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من انتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصوّر فى القلب أنه ظالم، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة، التى توخاه بها بعد المغفرة، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ فى الحكم، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه . ثم جاء عن ٱبن عباس أنه قال : سجدها داود شكرا، وسجدها النبى صلى الله عليه وسلم ٱتباعا، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أى بسؤاله نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ »(١) أى من دعائه الخير .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يقال : خليط وخلطاء، ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة فى الواو . وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب . الثانى أنهما الشركاء .

(١) راجع ص ٣٧٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد آختلف العلماء فى صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتى كل واحد بغنمه فيجمعهما راع واحد والدّلو والمراح . وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء . وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُجمَع بين مفترق[1] ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية " وروى " فإنهما يترادّان الفضل " ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء؛ فآعلمه . وأحكام الخلطة مذكورة فى كتب الفقه . ومالك وأصحابه و جمع من العلماء لا يرون [الصدقة[2]] على من ليس فى حصته ماتجب فيه الزكاة . وقال الربيع والليث و جمع من العلماء منهم الشافعى : إذا كان فى جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة . قال مالك : و إن أخذ المصَّدِّق بهذا ترادّوا بينهم للآختلاف فى ذلك ، وتكون كحكم حاكم آختلف فيه .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى يتعدّى ويظلم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا . ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ يعنى الصالحين ؛ أى وقليل هم فـ « ما » زائدة . وقيل : بمعنى الذين وتقديره وقليل الذين هم . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول فى دعائه : اللهم آجعلنى من عبادك القليل . فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ . فقال أردت قول الله عز وجل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر !

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى آبتليناه . «وَظَنَّ» معناه أيقن . قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز فى المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين . والقراءة « فَتَنَّاهُ » بتشديد النون دون التاء . وقرأ عمر آبن الخطاب رضى الله عنه « فَتَّنَّاهُ » بتشديد التاء والنون على المبالغة . وقرأ قتادة وعبيد آبن عمير وآبن السَّمَيْقَع « فَتَنَاهُ » بتخفيفهما . ورواه على بن نصر عن أبى عمرو، والمراد به الملَكان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

(١) فى ك : « متفرق » .	(٢) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

السادسة عشرة — قيل : لما قضى داود بينهما فى المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، فلم يفطن داود ؛ فأحبّا أن يعرفهما ، فصعدا إلى السماء حِيال وجهه ، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى آبتلاه بذلك ، ونبهه على ما آبتلاه .

قلت : وليس فى القرآن ما يدل على القضاء فى المسجد إلا هـذه الآية ، وبها آستدل من قال بجواز القضاء فى المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعى لما أقرّهم داود على ذلك . ويقول : آنصرفا إلى موضع القضاء . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون فى المسجد ، وقد قال مالك : القضاء فى المسجد من الأمر القديم . يعنى فى أكثر الأمور . ولا بأس أن يجلس فى رحبته ؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض ، ولا يقيم فيه الحـدود ، ولا بأس بخفيف الأدب . وقد قال أشهب : يقضى فى منزله وأين أحب .

السابعـة عشرة — قال مالك رحمـه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأوّل من آستقضى معاوية . قال مالك : وينبغى للقضاة مشاورة العلماء . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضى حتى يكون عالمـا بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزها . قال : ويكون ورعا . قال مالك : وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالمـا بالشروط ، عارفا بمـا لا بُدّ له منـه من العربية ؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبـارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التى تتضمن حقـوق المحكوم له . وينبغى له أن يقول قبل إنجاز الحكم للطلوب : أبقيت لك حجـة ؟ فإن قال لا حكم عليـه ، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتى بما له وجه أو بينة . وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

الثامنـة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ آختلف المفسرون فى الذنب الذى آستغفر منه على أقوال ستة : الأول أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها . قال سعيد بن جبير : إنمـا كانت فتنته النظرة . قال أبو إسحق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، فصارت الأولى له والثانية عليه . الثانى أنه أغزى زوجها فى حملة التابوت . الثالث

Marfat.com

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوّجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون آمرأة. الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج آمرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله . السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر . قال القاضى آبن العربى : أما قول من قال : إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل . وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندى بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب ! وحكى السدى عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرّما لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حدّ [قاذف] الناس ثمانون وحدّ [قاذف] الأنبياء ستون ومائة . ذكره الماوردى والثعلبى أيضا . قال الثعلبى : وقال الحرث الأعور عن على : من حدّث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقدا جلدته حدّين ؛ لعظم ما آرتكب برمى من قد رفع الله محله ، وآرتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين . قال آبن العربى : وهذا مما لم يصح عن على . فإن قيل : فما حكمه عندكم ؟ قلنا : أما من قال إن نبيًّا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه مادون ذلك من النظر والملامسة ، فقد آختلف [نقل](١) الناس فى ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على آمرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . وأما قولهم : إنه [نوى](١) إن مات زوجها تزوجها فلا شىء فيه إذ لم يعرّضه للموت . وأما قولهم : إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها .

---

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

Marfat.com

وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهي من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت وآتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينيه. قال آبن العربي: وأما قول المفسرين إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه وآتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما آتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه، وإنما ذِكرهم لحسن الطائر خرْقٌ في الجهالة. أما أنه روى أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روى في الصحيح: «إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخرّ عليه رِجل من جراد [من ذهب][1] فجعل يحثي منه ويجعل في ثوبه؛ فقال الله تعالى له: "يا أيوب ألم أكن أغنيتك" قال: "بلى يارب ولكن لا غنى لي عن بركتك"». وقال القشيري: فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى آبن له صغير فطار ووقع على كُوّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضا وقد تقدم.

التاسعة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي خر ساجدا. وقد يعبر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخــرّ على وَجهِــه راكِعاً * وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب

قال آبن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الآنحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته، ثم جاء هـذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمى السجود ركوعا. وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجودا. وقيـل: بل كان سجودهم ركوعا. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل. أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعا على الآنحناء. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله.

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

Marfat.com

وقال الحسين بن الفضـل : سألني عبـد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل : « وَخَرَّ رَاكِعاً » فهـل يقال للراكع خَرّ؟ . قلت : لا . قال : فما معنى الآية ؟ قلت : معناها فخر بعد أن كان راكعا أى سجد .

الموفيـة عشرين — وآختلف فى سجدة داود هـل هى من عزائم السجود المـأمور به فى القرآن أم لا ؟ فروى أبو سعيد الخدرى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشزّن[(1)] الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكنى رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود " ونزل وسجد . وهذا لفظ أبى داود . وفى البخارى وغيره عن آبن عباس أنه قال : « صٓ » ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . وقد روى من طريق عن آبن مسعود أنه قال : « صٓ » توبة نبيّ ولا يسجد فيهـا ؛ وعن آبن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به . قال آبن العربى : والذى عندى أنهـا ليست موضع سجود، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالآقتداء به . ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه ، معترفا بذنبـه ، تائبا من خطيئته ؛ فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذى آتبعه ، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع فى كل أمة لكل أحد . والله أعلم .

الحادية والعشرون — قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : قوله « وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ » فيـه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ؛ وإنمـا الذى يجوز أن يأتى بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فـلا ؛ وذلك أن البشارات كانت تأتى رسـول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا ، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

(1) التشزن : التأهب والتهيؤ للشىء .

Marfat.com

قلت : وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى يوم بُشّر برأس أبى جهل ركعتين . وخرّج من حديث أبى بكرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسرّه — أو يسرّ به — خر ساجدا شكرا لله . وهذا قول الشافعى وغيره.

الثانية والعشرون — روى الترمذى وغيره واللفظ للغير : أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ : « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهى تقول : اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا ، وارزقنى بها شكرا .

قلت : خرّج ابن ماجه فى سننه عن ابن عباس قال : كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل فقال : إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم ، كأنى أصلى إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة [فسجدت] (١) فسجدتْ الشجرة لسجودى ، فسمعتها تقول : اللهم احطط بها عنى وزرا ، واكتب لى بها أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « السجدة » فسجد، فسمعته يقول فى سجوده مثل الذى أخبره الرجل عن قول الشجرة . ذكره الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قلت يا رسول الله رأيتُنى فى النوم كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ « صٓ » فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها ، فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا، وحط عنى بها وزرا ، وارزقنى بها شكرا، وتقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود سجدته . فقال لى النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أفسجدت أنت يا أبا سعيد" فقلت : لا والله يا رسول الله. فقال : "لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة" ثم قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم «صٓ» حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى فغفرنا له ذنبه . قال ابن الأنبارى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ » تام، ثم تبتدئ « وَإِنَّ لَهُ » وقال القشيرى : و يجوز الوقف على « فَغَفَرْنَا لَهُ » ثم تبتدئ « ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ » كقوله : « هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » أى الأمر ذلك .

(١) الزيادة من سنن ابن ماجه .

Marfat.com

وقال عطاء الخراساني وغيره : إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودى : أجائع فتطعَم وأعارٍ فتكسَى؛ فنَحَب نحبة هاج المرعى من حر جوفه، فغفر له وسترها . فقال : يا رب هـذا ذنبي فيما بيني و بينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بنى إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما ، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة . قال : يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة . ثم قيل : ياداود ٱرفع رأسك . فذهب ليرفع رأســه فإذا به قد نَشِب فى الأرض ، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن ٱبن جابر عن عطاء . قال الوليد : وأخبرنى مُنِير بن الزبير ، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله . قال الوليد قال ابن لهيعة : فكان يقول فى سجوده سبحانك هـذا شرابى دموعى ، وهـذا طعامى فى رماد بين يدى . فى رواية : إنه سجد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العُشْب من دموعه . و روى مرفوعا من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلق من بعده فقال له جبريل بعـد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهمّ الذى هممت به" وقال وهب : إنـ داود عليه السلام نودى إنى قد غفرت لك . فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك و ربك قد غفر لك ؟ قال يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا . فقال الله لجبريل : ٱذهب إلى داود فقـل له يذهب إلى قـبر أوريا فيتحلل منـه ، فأنا أسمعه نداءه . فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هـذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى ؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلنى فى حلّ فإنى عرّضتك للقتل؛ قال : عرضتنى للجنة فأنت فى حلّ . وقال الحسن وغيره : كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ، و يقول : تعالوا إلى داود الخطّاء ، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه . وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قَصْعة فلا يزال

Marfat.com

يبكى حتى يبتل بدموعه ، وكان يذرّ عليه الرماد والملح فيأكل و يقول : هذا أكل الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل و يصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله . وقال : يا رب آجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته منقوشة فى كفه . فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شىء إلا رآها فأبكته ، و إن كان ليؤتى بالقـدح ثلثاه ماء ، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه . وروى الوليد بن مسلم : حدّثنى أبو عمرو الأوزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل عينى داود مثل القربتين تنطُفان ولقد خدّد الدموع فى وجه داود (١) خديد المـاء فى الأرض " . قال الوليد : وحدّثنا عثمان بن أبى العاتكة أنه كان فى قـول داود إذ هو خلوٌ من الخطيئة شدّة قوله فى الخطائين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخطائين . ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب آغفر للخاطئين لكى تغفر لداود معهم ؛ سـبحان خالق النور . إلهى ! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى . إلهى ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور . إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت الأرض برحبها علىّ ، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى . وفى الخبر : أن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فآستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته ؛ فكان ينادى : إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت علىّ الأرض برحبها ، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى ؛ ربِّ ! آغفر للخاطئين كى تغفر لداود معهم . وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليـه حتى تنفذ من الأفرشة كلها . وكان إذا كان يوم نوْحه نادى مناديه فى الطرق والأسـواق والأودية والشّعاب وعلى رءوس الجبال وأفواه الغـيران : ألا إن هذا يوم نوح داود ، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده ؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية ، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكَّفٌ ؛ و بنو إسرائيل حول منبره ؛ فإذا أخذ فى العويل والنوح ، وأثارت الحرقات منابع دموعه ، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا و بكاء ، حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم . ومات داود عليه السـلام فيما قيل يوم السبت فجـأة ؛ أتاه ملَك الموت وهو يصعد فى محرابه و ينزل ؛

(١) فى ز : « فى خد » بدل « فى جه » .

Marfat.com

فقال : جئت لأقبض روحك . فقال : دعني حتى أنزل أو أرتق . فقال : مالى إلى ذلك سبيل ؛ نفـدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا . قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحـال . وكان بينـه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة . وقيل : تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى آبنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ قربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود . وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر : الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة . وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده : فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى.قال: ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا؛ ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا، ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا؛ [حتى يقترب فيسكن][1] فذلك قوله عز وجل : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » ذكره الترمذي الحكيم . قال : حدثنا الفضل بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبغ قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى عن عبد الملك بن أبى سليمان عن مجاهد فذكره. قال الترمذي: ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لى المراد والمعنى من قوله : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » والقط الصحيفة في اللغة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ »[2] : وقال لهم " إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم " قالوا : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » أي صحيفتنا « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » قال الله تعالى : « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ » فقص قصة خطيئته إلى منتهاها، فكنت أقول : أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأى شيء أريد من هذا الذكر ؟ وكيف آتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هدانى الله له

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد في آخر القصة . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٩

Marfat.com

يوما فالهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم ، فيها ذنوبهم وخطاياهم آستهزاء بأمر الله ؛ وقالوا : «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» فأوجعه ذلك من آستهزائهم ، فأمره بالصبر على مقالتهم ، وأن يذكر عبده داود ؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة فى كفه ، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها آضطرب وامتلأ القدح من دموعه ، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ(١) سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم ، وأن الله تبارك وتعالى آسمه يستوهبه منه ، وهو حبيبه ووليه وصفيه ؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا ، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه ، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التى عملوها على الكفر والجحود ، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها فى تلك الصحائف ، وقد أخبر الله عنهم فقال : «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا(٢)» فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها . وقد روينا فى الحديث : إذا رآها يوم القيامة منقوشة فى كفه قلق حتى يقال له هاهنا ، ثم يرى فيقلق ثم يقال هاهنا ، ثم يرى فيقلق حتى يُقرَّب فيسكن .

قوله تعالى : يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ﴾ أى ملّكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلُف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين . وقد مضى فى «البقرة»(٣) القول فى الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله .

(١) لعل الأصل : حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٦٣ فما بعد .

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالعدل . وهو أمر على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذى عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا، فاحكم بين الناس بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ أى لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى عن طريق الجنة . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى يحيدون عنها و يتركونها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فى النار ﴿ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أى بما تركوا من سلوك طريق الله ؛ فقوله : « نَسُوا » أى تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة — الأصل فى الأقضية قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » وقوله : « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ »[1] وقوله تعالى : « لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ »[2] وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ »[1] الآية . وقد تقدم الكلام فيه .

الرابعة — قال ابن عباس فى قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : إن ارتفع لك الخصمان فكان لك فى أحدهما هوى ، فلا تشته فى نفسك الحق له ليفلُج[3] على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ اسمك من نبوّتى ، ثم لا تكون خليفتى ولا أهل كرامتى . فدلّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وألّا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما ابتلى سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدم إليه خصمان فهوى أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل ، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٩ وص ٢١٢ (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥

(٣) يفلج على صاحبه : يظفر و يفوز

Marfat.com

أن يجعل بينه و بينه علما ، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك ؛ وإذا هو قصّر عرف ذلك ، فقيل له : آدخل منزلك ، ثم مدّ يدك فى جدارك ، ثم آنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فآخطط عندها خطا ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فآرجع إلى ذلك الخط فآمدد يدك إليه ، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه ، و إن قصّرت عن الحق قصّر بك ، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق ، و إذا قام من مجالسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولم يفض إلى أهله بشى من الأمور حتى يأتى ذلك الخط ، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحلّ الله له من أهل أو مطعم أو مشرب . فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه ، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديقا وخِدْنا ، فتحرّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له ، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه ، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف ، وإذا هو لا يبلغه فخرّ ساجدا وهو يقول : يارب شيئا لم أتعمده ولم أرده فبيّنه لى . فقيل له : أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به ، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره . وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له فى ذلك، فقال : تقدّما إلىّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك له ،ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما . وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبَىّ خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أوّل جورك ؛ أجلسنى و إياه مجلسا واحدا ؛ فجلسا بين يديه .

الخامسة — هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ؛ لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه و يهلك عدوّه إلا آدعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر ؛ قال : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود

Marfat.com

الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيرى . وروى أن آمرأة جاءت إلى عمر فقالت له : آحكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن آبن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه آشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال : " من يشهد لى " فقام خزيمة فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى فى « البقرة »(١) .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى هزلا ولعبا . أى ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا . ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والميم صلة تقديره : أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان فى هذا ردّ على المرجئة؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . وبعده أيضا : ﴿ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أى أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار ؛ قاله آبن عباس . وقيل هو عام فى المسلمين المتقين والفجّار الكافرين وهو أحسن، وهو ردّ على منكرى البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصى إلى شىء واحد .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٠٥ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ أى ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال . وفى هذا دليل على وجوب معرفة معانى القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذّ(١)؛ إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه فى كتاب التذكار . وقال الحسن : تدبر آيات الله آتباعها . وقراءة العامة « لِيَدَّبَّرُوا » . وقرأ أبو جعفر وشيبة : « لِتَدَبَّرُوا » بتاء وتخفيف الدال، وهى قراءة علىّ(٢) رضى الله عنه ، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفا ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول واحدها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤْس على أبؤس، ونُعْم على أنعم؛ قال أبو طالب :

* قلبى إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ *

وربما أظهروا التضعيف فى ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت :

إليكم ذوِى آلِ النّبىّ تطلّعتْ * نوازِعُ من قلبِى ظِماءٌ وأَلْبُبُ

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان . و « أَوَّابٌ » معناه مطيع . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يعنى الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال : قوم أجواد وخيل جِياد، جاد الرجلُ بماله يجود جُودا فهو جواد، وقوم جُود مثال

(١) الهذ : سرعة القراءة .

(٢) وفى الألوسى أن عليا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا فى البحر لأبى حيان .

Marfat.com

قَذَالٍ وقُذُلٍ، و إنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك آمرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر (١) :

صَنَاعٌ بإِشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِهَا * جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبة جَوَادا، وعُقبتين جَوادين، وعُقَبا جِيادا . وجاد الفرس أى صار رائعا يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى، من خيل جِياد وأجياد وأجاويد . وقيل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [فى] الخيل من صفات فَرَاهتها . وفى الصافنات أيضا وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها . قال القتبي والفراء : الصافن فى كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها . ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار" أى يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة :

لنا قُبَّةٌ مضروبةٌ بِفنائها * عِتَاقُ المَهارى والجِياد الصَّوافن

وهذا قول قتادة . الثانى أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزالُ كأَنَّهُ * مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرَا (٢)

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تَرَكْنا الخيلَ عاكِفَةً عَلَيْهِ * مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفُونَا

وهذا قول مجاهد . قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونَصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة . وقال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة . وقاله الضحاك . وأنها كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة . آبن زيد : أخرج

---

(١) هو أبو شهاب الهذلى ورواه آبن السكيت : والعرض وافر . وروى : جواد بزاد الركب والعرق زاخر : وامرأة صناع أى ماهرة حاذقة عمل اليدين . والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفى . والشكر الفرج . والعرق زاخر أراد به الجوع، يعنى تجود بقوتها مع شدة الجوع .

(٢) ورد فى اللسان فى مادة صفن أن قوله : مما يقوم لم يرد من قيامه : وإنما أراد من الجنس الذى يقوم على الثلاث، وجعل « كسيرا » حالا من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور .

Marfat.com

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة . وكذلك قال على رضى الله عنه : كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . وقيل : كانت مائة فرس . وفى الخبر عن إبراهيم التيمى : أنها كانت عشرين ألفا ، فالله أعلم . فقال : ﴿إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى﴾ يعنى بالخير الخيل ، والعرب تسميها كذلك ، وتُعاقب بين الراء واللام؛ فتقول : انهملت العين وانهمرت ، وختلت وخترت إذا خدعت . قال الفراء : الخير فى كلام العرب والخيل واحد . النحاس : فى الحديث "الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة" فكأنها سمّيت خيرا لهذا . وفى الحديث : لما وفد زيد الخيل على النبى صلى الله عليه وسلم، قال له : "أنت زيد الخير" وهو زيد بن مهلهل الشاعر . وقيل : إنما سميت خيرا لما فيها من المنافع . وفى الخبر : إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له : اختر منها واحدا فاختار الفرس ؛ فقيل له : اخترت عزك ؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه . وسمّى خيلا؛ لأنها موسومة بالعز . وسمّى فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شىء خبطا وتناولا . وسمّى عربيا لأنه جىء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، و إسمعيل عربى فصارت له نِحْلة من الله ؛ فسمى عربيا . و « حُبَّ » مفعول فى قول الفراء . والمعنى إنى آثرت حبّ الخير . وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول ؛ أى أحببت الخير حبّا فألهانى عن ذكر ربى . وقيل : إن معنى « أَحْبَبْتُ » قعدت وتأخرت من قولهم : أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر . وأحب فلان أى طأطأ رأسه . قال أبو زيد : يقال : بعير مُحِبٌّ، وقد أحبّ إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت . وقال ثعلب : يقال أيضا للبعير الحسير مُحِبٌّ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربى . و « حُبَّ » على هذا مفعول له . وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب التبيان : أحببت بمعنى لزمت ؛ من قوله[1] :

* مِثْلَ بعيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا *

(١) هو أبو محمد الفقعسى ؛ وصدر البيت : * حلت عليه بالقفيل ضربا * والقفيل السوط . وفى كتب اللغة : ضرب بعير السوء ... الخ .

Marfat.com

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعنى الشمس كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى : « مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ »(١) أى على ظهر الأرض ، وتقول العرب : هاجت باردة أى هاجت الريح باردة . وقال الله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ »(٢) أى بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ »(٣) ولم يتقدم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : « بِالْعَشِيِّ » . والعشي ما بعد الزوال، والتوارى الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل : جبل دون قاف . والحجاب الليل سمّى حجابا لأنه يستر ما فيه . وقيل : « حَتَّىٰ تَوَارَتْ » أى الخيل فى المسابقة . وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل ، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه فى المسابقة ؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان فى صلاة ، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده ، لأنه كان يصلّى حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الاصطبلات ، فلما فرغ من صلاته قال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا » أى فأقبل تمسحها مسحا . وفى معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها ، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله . وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها؟ وفى ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له . وقيل : المسح هاهنا هو القطع أُذن له فى قتلها . قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهى تعرض عليه، وكانت ألف فرس؛ فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم؛ فقال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » فردّت فعقرها بالسيف ؛ قربة لله وبقى منها مائة ، فما فى أيدى الناس من الخيل العتاق اليوم فهى من نسل تلك الخيل . قال القشيرى : وقيل : ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا ، فلم يذكّره أحد ما نسى من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا ، فتذكر سليمان تلك

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٦١ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٠ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٠ فما بعد .

Marfat.com

الصلاة الفائتة ، وقال على سبيل التلهف : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ، إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة . ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار ، ثم ذبحها فى الحال ليتصدق بلحمها ، أو لأن ذلك كان مباحا فى شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله ، حتى يقطع عن نفسه مايشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة فى يوم مايقطع مثله على الخيل فى شهرين غدوا ورواحا . وقد قيل : إن الهاء فى قوله : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » للشمس لا للخيل . قال ابن عباس : سألت عليًّا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها؟ فقلت سمعت كعبا يقول : إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة ، قال : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرت « حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » الآية « رُدُّوهَا عَلَيَّ » يعنى الأفراس وكانت أربع عشرة ، فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما ، لأنه ظلم الخيل . فقال على بن أبى طالب : كذب كعب ، لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ، أى غربت الشمس بالحجاب ، فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : « رُدُّوهَا » يعنى الشمس فردوها حتى صلى العصر فى وقتها ، وأن أنبياء الله لا يظلمون ، لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر فى التفسير أن التى توارت بالحجاب هى الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها و يتعلق بذكرها ، حسب ما تقدم بيانه . وكثيرا ما يضمرون الشمس ، قال لبيد :

حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فى كافِرٍ * وأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغورِ ظَلامُها

والهاء فى « رُدُّوهَا » للخيل ، ومسحها قال الزهرى وابن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها ، ويكشف الغبار عنها حُبًّا لها . وقاله الحسن وقتادة وابن عباس . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم رؤى وهو يمسح فرسه بردائه . وقال : " إنى عوتبت الليلة فى الخيل "

Marfat.com

خرّجه الموطأ عن يحيي بن سعيد مرسلا . وهو فى غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيي ابن سعيد عن أنس . وقد مضى فى « الأنفال »(١) قوله عليه السلام : " وآمسحوا بنواصيها وأكفالها " وروى آبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد آستدل الشبلي وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا . وهو آستدلال فاسد ؛ لأنه لايجوز أن ينسب إلى نبيّ معصوم أنه فعل الفساد . والمفسرون آختلفوا فى معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال : أنت فى سبيل الله ؛ فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز . وقد مضى فى « النحل »(٢) بيانه . وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح . فأما إفساد ثوب صحيح لالغرض صحيح فإنه لايجوز . ومن الجائز أن يكون فى شريعة سليمان جواز مافعل ، ولا يكون فى شرعنا . وقد قيل : إنما فعل بالخيل مافعل بإباحة الله جل وعز له ذلك . وقد قيل : إن مسحه أياها وسْمُها بالكيّ وجعلها فى سبيل الله ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال . وقد يقال : الكيّ على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق . والذى فى الصحاح للجوهرى : عَلَط البعيرَ عَلْطا كواه فى عنقه بسمة العِلَاط . والعِلَاطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء فى « رُدُّوهَا » ترجع للشمس فذلك من معجزاته . وقد آتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم . خرّج الطّحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر عليّ ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أصليت ياعلى " قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فآردد عليه الشمس " قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ماغربت طلعت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْباء فى خيبر . قال الطحاوى : وهذان الحديثان ثابتان ، ورواتهما ثقات .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ فما بعد .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٦ فما بعد .

Marfat.com

قلت : وضعّف أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث فقال : وغلو الرافضة فى حب علىّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليًّا عليه السلام العصر فردّت له الشمس ، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت . ومن قال : إن الهناء ترجع إلى الخيل ، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان فى السباق ، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع . وقد مضى القول فيه فى « يوسف »(1) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشرى . و « فَتَنَّا » أى ٱبتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال : ٱختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة ٱمرأة سليمان ، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم ، ثم قضى بينهما بالحق ، فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام ٱحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد ، ولا ينصف مظلوما من ظالم ؛ فأوحى الله تعالى إليه : «إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادى ، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم» .

---

(1) راجع جـ ٩ ص ١٤٥ فما بعد .

Marfat.com

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبّه : إن سليمان عليه السلام سبي بنت ملك غزاه في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لهـا صيدون . فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه ، لا تنظر إليه إلا شزرا ، ولا تكلمه إلا نزرا، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، وكانت في غاية من الجمال ، ثم إنها سألته أن يصنع لهـا تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر فصنع لهـا فعظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواريها ، وصار صنما معبودا في داره وهو لا يعلم ، حتى مضت أربعون ليـلة ، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سـليمان فكسره ، وحرقه ثم ذرّاه في البحر . وقيل : إن سليمان لما أصاب ٱبنة ملك صيدون وٱسمها جرادة — فيما ذكر الزمخشري — أعجب بهـا ، فعرض عليها الإسلام فأبت ، فخوفها فقالت : ٱقتلني ولا أسـلم ، فتزوجها وهي مشركة ، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أربعين يوما في خفية من سليمان ؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملـكه أربعين يوما . وقال كعب الأحبار : إنه لمـا ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه . وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره . وقيل : إنه أُمِر ألّا يتزوج ٱمرأة إلا من بني إسرائيل ، فتزوج ٱمرأة من غيرهم ، فعوقب على ذلك ؛ والله أعـــلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ قيل : شيطان في قول أكثر أهل التفسير(١)؛ ألقى الله شـبه سليمان عليه السلام عليـه ، وٱسمه صخر بن عمير صاحب البحر ، وهو الذي دل سليمان على المـاس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس ، فصوّتت(٢) الحجارة لمـا صنعت بالحديد ، فأخذوا المـاس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت . قال ابن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سـليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه ، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من ٱمرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمينة ؛ قاله شهر ووهب . وقال ٱبن عباس وٱبن جبير : ٱسمها جرادة . فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب ، حتى ردّ الله عليه الخاتم والمُلْك . وقال سعيد بن المسيِّب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه ، فأخذه الشيطان من تحته .

(١) في أ : « في قول أكثر المفسرين » . (٢) في ح ، ز ، ك : « فضربت » .

Marfat.com

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان آسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطنى خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه ، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان ، متشبها بصورته ، داخلا على نسائه ، يقضى بغير الحق ، ويأمر بغير الصواب[1] . وآختلف فى إصابته لنساء سليمان ، فحكى عن آبن عباس ووهب بن منبّه : أنه كان يأتيهنّ فى حيضهنّ . وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ . وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيّف الناس ، ويحمل سموك الصيادين بالأجر ، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه . قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن آستنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد . قيل : إنه آستطعمها . وقال آبن عباس : أخذها أجرة فى حمل حوت . وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها ، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه ؛ وهى عدد الأيام التى عُبِد [فيها] الصنم فى داره ، وإنما وجد الخاتم فى بطن الحوت ؛ لأن الشيطان الذى أخذه ألقاه فى البحر . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : بينما سليمان على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه ، إذ سقط منه فى البحر وكان ملكه فى خاتمه . وقال جابر بن عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كان نقش خاتم سليمان بن داود لاإله إلاالله محمد رسول الله " . وحكى يحيي بن أبى عمرو الشيبانى أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان ، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى . قال آبن عباس وغيره : ثم إن

---

(١) هذه الأقوال لا تصح قطعا لمنافاتها للعصمة التى هى من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولو صح شيء منها لكان الوحى محل الشك والارتياب ؛ وقد قال أبو حيان فى تفسيره : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هى ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان . إلى أن قال : لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به ، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكره ، كتمثل الشيطان بصورة نبى ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدوا أن ذلك المتصوّر هو النبي . ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبى ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها . وقال الألوسى : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض . الله أكبر ! ! هذا بهتان عظيم ، وخطب جسيم . وسيأتى للآلوسى تضعيف هذا القول أيضا .

Marfat.com

سليمان لما ردّ الله عليه ملكه، أخذ صخرا الذى أخذ خاتمه، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها فى البحر، وقال: هذا محبسك إلى يوم القيامة. وقال على رضى الله عنه: لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطان الذى خلف فى أهله، فأتى جزيرة فى البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا فى الجزيرة فى كل سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليه حتى يسكر! قال: فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمرا، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله إنك لشراب طيب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم عطش عطشا شديدا ثم أتاه فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله، فأروه الخاتم فقال: سمعا وطاعة. فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا: إن الدخان الذى ترون من نفسه، والماء الذى يخرج من الجبل من بوله. وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السدى اسمه حبقيق؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حق، وهم مع الشيطان فى باطل. وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إن عاش له ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله. فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا ابنه فى السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذى قال الله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا».

وحكى النقاش وغيره: إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلبا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك. وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال سليمان لأطوفن الليلة على

Marfat.com

تسعين آمرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله؛ فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعا فلم تحمل منهن إلا آمرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيمُ الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون" وقيل : إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف : إنك مفتون ولذلك لا يتماسك فى يدك، ففِرّ إلى الله تعالى تائبا من ذلك، وأنا أقوم مقامك فى عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب . وقام آصف فى ملك سليمان وعياله، يسير بسيره و يعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى، وردّ الله عليه ملكه؛ فأقام آصف فى مجلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم . وقيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا . وقد يوصف به المريض المضنى فيقال : كالجسد الملقى .

صفة كرسىّ سليمان وملكه

روى عن آبن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة كرسىّ ، ثم يجىء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتى أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتقلّهم ، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر . وقال وهب وكعب وغيرهما : إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور آرتدع وتهيب ؛ فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدر والياقوت والزبرجد، وأن يحفّ بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبتى الكرسىّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

Marfat.com

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ؛ وآتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي . وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسيّ كلّه بما فيه دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ، ويضربان الأرض بأذنابهما . وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا آستوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه ، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . قالوا : ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر ، وهي ألف كرسيّ عن يمينه ، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسيّ ، ثم تحف بهم الطير تظلهم ، ويتقدّم الناس لفصل القضاء . فإذا تقدّمت الشهود للشهادات ، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق . وقيل : إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهبٍ ذلك الكرسي عليه ، وهو عظم مما عمله له صخر الجنيّ ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه ، فإذا وقفن وقَفْن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس ، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر . فلما توفي سليمان بعث بُخْتَنَصَّر فأخذ الكرسيّ فحمله إلى أنطاكية ، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه ؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها ، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا . ومات بُخْتَنَصَّر وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس ، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه ، ولكن لم يدرِ أحد عاقبة أمره ، ولعله رُفع .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى رجع إلى الله وتاب . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ﴾ أى أغفر لى ذنبى ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ يقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعالى ، و بغضه لها ، وحقارتها لديه ؟ . فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، و إقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود فى أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرّح بذلك لملائكته فقال : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) وحوشى سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، و إنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » وهذا فيه نظر . والأوّل أصح . ثم قال له : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة فى نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » الآية .

قلت : وهذا يردّ ما روى فى الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه فى الدنيا . وفى بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا ؛ ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه لأنه من طريق المنّة ، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة ، وهو سبحانه يقول : « وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » . وفى الصحيح : " لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته " الحديث . وقد تقدّم لجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة . ومعنى قوله : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . وقيل : إن سؤاله مُلكا لا ينبغى

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٨

Marfat.com

لأحد من بعده؛ ليكون محلّه وكرامته من الله ظاهرا فى خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس فى المحلّ عنده، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محلّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ» فردّه خاسئا. فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه فى تلك الخصوصية، بعد أن علم أنه شىء هو الذى خُصّ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ أى ليّنة مع قوتها وشدّتها حتى لا تضرّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، كل درجة صنف من الناس، وهو فى أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد ابن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن وهب بن منبّه، قال حدّثنى أبى قال: كان لسليمان ابن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد، فركب الريح يوما فمرّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال: لقد أوتى آل داود ملكا عظيما! فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال: إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك خيرٌ مما أوتى آل داود. فقال الحرّاث: أذهب الله همّك كما أذهبتَ همّى.

قوله تعالى: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى أراد؛ قاله مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصواب وأخطأ الجواب. أى أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابى. وقال الشاعر:

أصابَ الكلامَ فلم يستطِعْ * فأخطا الجوابَ لدَى المفصَلِ

Marfat.com

وقيـل : أصاب أراد بلغة حِمْير . وقال قتادة : هو بلسان هَجَر . وقيل : « حَيْثُ أَصَابَ » حينما قصد ، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود . ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى وسخرنا له الشياطين وما سُخرت لأحد قبله . « كُلَّ بَنَّاءٍ » بدل من الشياطين أى كل بناء منهم ، فهم يبنون له ما يشاء . قال (١) :

إِلَّا سُلَيْمَانَ إذ قال الإِلٰهُ لَهُ * قُمْ فى البرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنى قد أَذِنْتُ لَهُمْ * يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّـفَّاحِ والعُمُدِ

« وَغَوَّاصٍ » يعنى فى البحر يستخرجون له الدرّ . فسـليمان أوّل من استخرج له اللؤلؤ من البحر. ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى وسخرنا له مردة الشياطين حتى قرنهم فى سلاسل الحديد وقيود الحديد ؛ قاله قتادة . السدّى : : الأغلال . ابن عباس : فى وثاق . ومنه قول الشاعر (٢) :

فَآبُوا بالنِّهَابِ و بالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالمـلوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلّام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخّرهم .

قوله تعـالى : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك ، أى هذا الملك عطاؤنا ، فأعطِ من شئت أو امنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما . قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سـليمان عليه السلام ؛ فإن الله تعالى يقول : « هَـذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال قتادة : الإشارة فى قوله تعـالى : « هَذَا عَطَاؤُنَا » إلى ما أعطيه من القوة على الجماع ، وكانت له ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية ، وكان فى ظهره ماء مائة رجل ؛ رواه عكرمة عن ابن عباس (٣) . ومعناه فى البخارى . وعلى هذا « فَامْنُنْ » من المنِىّ ؛ يقال : أَمْنَى يُمْنِى ومَنَى يمْنِى لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ ؛ ويقال : من مَنَى يَمْنِى فى الأمر امنِ ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت امنن . ومن

---

(١) هو النابغة الذبيانى : ويروى إذ قال المليك له . ويروى فازجرها عن الفند . أى الخطإ . وخيس أى ذلل . والصفاح : جمع صفاحة بشدّ الفاء وهى حجارة رقاق عراض . (٢) هو عمرو بن كلثوم : والبيت من معلقته .
(٣) قال أبو حيان فى تفسيره : ولعله لا يصح عن ابن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء ، ولا ما أوتى من القدرة على ذلك .

Marfat.com

ذهب به إلى المِنّة قال : مَنَّ عليه ؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفا فقال آمْنُن . فيروى فى الخبر أنه سخر له الشياطين ، فن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ، ومن شاء أمسكه ؛ قاله قتادة والسّدى . وعلى ما روى عكرمة عن آبن عباس : أى جامع من شئت من نسائك ، وآترك جماع من شئت منهن لاحساب عليك . ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى إن أنعمنا عليه فى الدنيا فله عندنا فى الآخرة قربة وحسن مرجع .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالآقتداء بهم فى الصبر على المكاره . « أَيُّوبَ » بدل . ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «إِنِّى» بكسر الهمزة أى قال . قال الفراء : وأجمعت القراء على أن قرءوا «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف . النحاس : وهذا غلط و بعده مناقضة وغلط أيضا ؛ لأنه قال : أجمعت القراء على هذا ، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ : «بِنَصَبٍ» بفتح النون والصاد فغلط على أبى جعفر ، و إنما قرأ أبو جعفر : «بِنُصُبٍ» بضم النون والصاد ؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن . فأما « بِنَصَبٍ » فقراءة عاصم الجحدرى و يعقوب الحضرمى . وقد رويت هذه القراءة عن الحسن . وقد حكى «بِنَصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد عن أبى جعفر . وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَب ؛ فنُصْب ونَصَب كحُزْن وحَزَن . وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوُثْن ووَثَن . ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة ، فأما « وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ »(١) فقيل : إنه جمع نصاب . وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء ، والنَّصَب التعب والإعياء . وقد قيل فى معنى : «أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» أى ما يلحقه من وسوسته لا غير . والله أعلم . ذكره

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٧

Marfat.com

النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه فى بدنه ، والعذاب ما أصابه فى ماله ؛ وفيه بُعْد .
وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة[1] وكنيته أبو عبـد الله فى قول الواقدى ؛ آصطفاه الله بالنبوّة ، وآتاه جملة عظيمة من الثروة فى أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكرا لأنْعُم الله، مواسيا لعباد الله ، بَرًّا رحيما . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفـر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة فى يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدى أيوب على شيء؟! فقال : يارب ! وكيف أقدر منه على شيء، وقد آبتليته بالمـال والعافية ، فلو آبتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله : قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجـاء أيوبَ فى صـورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسـه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يارب سلطنى على بدنه . قال : قـد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبـه و بصره ، فنفخ فى جسده نفخة آشتعل [منها][2] فصار فى جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب آعترض لامرأته فى هيئة أعظم من هيئة بنى آدم فى القدر والجمال، وقال لها : أنا إله الأرض، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت ، ولو سجدت لى سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندى . وعرض لهـا فى بطن الوادى ذلك كله فى صورته؛ أى أظهره لهـا ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاما طويلا فى [سبب بلائه و][3] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذى

(١) صحح المحققون أنه من بنى إسرائيل كما جزم به الألوسى وغيره . والبثنية بالتحريك وكسر النون و ياء مشددة : قرية بدمشق بينها و بين أذرعات .

(٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبى .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

نزل به ، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك وآعترضوا عليه ؛ وقيـل : آستعان به مظلوم فلم ينصره فآبتلي بسبب ذلك . وقيل : آستضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فآبتلي بذلك . وقيل : كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلي . وقيل : كان الناس يتعـدّون آمرأته و يقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . وآمرأته ليا بنت يعقوب . وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه آبنة لوط . وقيل : كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . ذكر القولين الطبري رحمه الله . قال آبن العربي : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوما من العام فقول باطل ؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول في مقامات الأنبياء ، و يخترق السموات العلى ، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء ، فيقف موقف الخليل ؟ ! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم . وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرت من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعا ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟ . ! وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة ، ولكنه بعيد في هذه القصة . وكذلك قولهم : إنه نفخ في جسده حين سلّطه عليه فهو أبعد ، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تَقِرّ له ـــ لعنةُ الله عليه ـــ عينٌ بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم . وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لي لعافيته ، فآعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلها في الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعافي من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبيّ ؟ ! ولو كانت زوجة سواديّ أو فَدْم[1] بربريّ ما ساغ ذلك عندها . وأما تصويره الأموال والأهل في وادٍ للمرأة فذلك مالا يقدر عليه إبليس بحال ، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه .

(١) الفدم من الناس : القليل الفهم والفطنة .

Marfat.com

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهى فوقنا فى المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه و جريه بين الناس وتصويره . قال القاضى : والذى جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير فى هذه الأقوال . وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها ، فى إيمانها وكفرها ، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له فى خلقه ، ولا فى خلق شىء غيرها ، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا ، و إن كان موجودا منه خَلْقا ؛ أدبًا أدّبنا به ، وتحميدا علّمناه ، وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : " والخير فى يديك والشر ليس إليك " على هذا المعنى . ومنه قول إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »[1] وقال الفتى للكليم : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »[2] وأما قولهم : إنه آستعان به مظلوم فلم ينصره ، فمن لنا بصحة هذا القول . ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره ، فلا يحلّ لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك . أو كان عاجزا فلا شى عليه فى ذلك ، وكذلك قولهم : إنه منع فقيرا من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه ، و إن لم يعلم به فلا شىء عليه فيه . وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى . ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز ؛ نعم و بحسن الكلام . قال آبن العربى القاضى أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ »[2] والثانية فى « ص » « أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » . وأما النبى صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : " بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجل من جراد من ذهب " الحديث . و إذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أىّ لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٢ و ص ٣٢٢

Marfat.com

وفى الصحيح واللفظ للبخارى أن ابن عباس قال : يا معشر المسلمين ! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضا لم يُشَب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ، فقالوا : « هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا »(١) ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الركض الدفع بالرجل . يقال : رَكَض الدابة ورَكَض ثوبه برجله . وقال المبرّد : الرَّكْض التحريك ؛ ولهذا قال الأصمعي : يقال رُكِضَت الدابّة ولا يقال رَكَضت هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . وحكى سيبويه : رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فجَبَر وحزنته فحزن ؛ وفى الكلام إضمار أى قلنا له : «ٱرْكُضْ» قاله الكسائى . وهذا لما عافاه الله . ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أى فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه . وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية ، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه . ونحوه عن الحسن ومقاتل ؛ قال مقاتل : نبعت عين حارّة واغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا . وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء فى جسده . والمغتسل الماء الذى يغتسل به ؛ قاله القتبي . وقيل : إنه الموضع الذى يغتسل فيه ؛ قاله مقاتل . الجوهرى : واغتسلت بالماء ، والغسول الماء الذى يغتسل به ، وكذلك المغتسل ؛ قال الله تعالى : « هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » والمغتسل أيضا الذى يغتسل فيه ، والمَغسِل والمَغسَل بكسر السين وفتحها مغسل الموتى والجمع المغاسل . واختلف كم بقى أيوب فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات . وقال وهب بن منبّه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ فما بعد .

Marfat.com

وعذب بختنصر وحول[1] فى السباع سبع سنين . ذكره أبو نعيم . وقيل : عشر سنين . وقيل : ثمان عشرة سنة . رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردى :

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذى أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيرى . وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ تقدم فى « الأنبياء »[2] الكلام فيه . ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى نعمة منا . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى عبرة لذوى العقول .

قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — كان أيوب حلف فى مرضه أن يضرب آمرأته مائة جلدة؛ وفى سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها — ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال : ويحك ذلك الشيطان . الثانى — ما حكاه سعيد بن المسيب ، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . الثالث — ما حكاه يحيى بن سلام وغيره : أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ ،فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفى مائة . و[الرابع] قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به ،

(١) حول بمعنى مسخ ، راجع قصة دانيال فى قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٣ فما بعد .

Marfat.com

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة . وقيل : الضغث قبضة حشيش مختلطة الرَّطب باليابس . وقال ٱبن عباس : إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثـانيـــة — تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل ٱمرأته تأديبا . وذلك أن ٱمرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ، فأمره الله تعـالى أن يضربهـا بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود . إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب ٱمرأته فوق حد الأدب . وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب ٱمرأته فوق حـد الأدب ؛ ولهـذا قال عليه السـلام : "وٱضربوهنّ ضربا غير مُبَرِّح" على ما تقدم في « النساء »(١) بيانه .

الثالثـــة — وٱختلف العلماء في هـذا الحكم هل هـو عام أو خاص بأيوب وحده ؛ فروى عن مجاهد أنه عام للنـاس . ذكره ٱبن العربي . وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب . وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرّ . وروى نحوه الشافعي . وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة . وقال القشيري : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال : ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبـع . ٱبن العـربي : وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة . وكذلك روى أبو زيد عن ٱبن القـاسم عن مالك : من حلف ليضربنّ عبـده مائة فجمعها فضربه بهـا ضربة واحدة لم يبرّ . قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعـالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »(٢) أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا . قال ٱبن المنذر : وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة . وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل : « فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ »(٣) وهذا مذهب أصحاب الرأي . وقد ٱحتج الشافعي لقـوله بحديث ، وقـد تُكلِّم في إسناده، والله أعلم .

قلت : الحـديث الذي ٱحتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال : حدثنـا أحمد ٱبن سعيد الهَمْدانى، قال حدثنا بن وهب ،قال : أخبرني يونس عن ابن شهاب ، قال : أخبرني

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٢ فما بعد .　(٢) راجع جـ ٦ ص ٢١١　(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٩

Marfat.com

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنه آشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لهـا فوقع عليها، فلما دخل عليـه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: آستفتوا لى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فإنى قـد وقعت على جارية دخلت علىّ. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به؛ لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بهـا ضربة واحدة. قال الشافعي: إذا حلف ليضربنّ فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث. قال آبن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بارّ عنـد الشافعي وأبى ثور وأصحـاب الرأى. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ دليل على أن الآستثناء فى اليمين لا يرفع حكما إذا كان متراخيا. وقد مضى القـول فيه فى « المـائدة »(1) يقال: حنِث فى يمينه يحنث إذا لم يَبَرّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أى فآضرب لا تحنث.

الخامســة — قال ابن العربى: قوله تعـالى: « فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحِنث. والثانى أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معيّنا فلا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة. وقال الشافعي: فى كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليـه السلام لمـا بقى فى البلاء ثمـان عشرة سنة، كما فى حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبا ما أظنّ أحدا بلغه. فقال أيوب صـلى الله عليه وسـلم: ما أدرى ما تقولان، غير أن ربى

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٨٢ فما بعد.

Marfat.com

عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألّا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق[1] فنادى ربه « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وذكر الحديث . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب ، وأن من كفّر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة — آستدل بعض جهّال المتزهدة ، وطَغام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزى : وهذا آحتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال آبن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: «ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ»[2] دلالة على ضرب المحادّ[3] بالقضبان ! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع . وقد آحتج بعض قاصريهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : " أنت منّى وأنا منك " فحَجَل . وقال لجعفر : " أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى " فحَجَل . وقال لزيد : " أنت أخونا ومولانا " فحجل . ومنهم من آحتج بأن الحبشة زَفَنت والنبى صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم . والجواب — أما الحَجْل فهو نوع من المشى يُفعَل عند الفرح فأين هو والرقص ، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشى يفعل عند اللقاء للحرب .

السابعة — قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أى على البلاء . ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أى توّاب رجّاع مطيع . وسئل سفيان عن عبدين آبتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال : كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا؛ فقال فى وصف أيوب : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال فى وصف سليمان : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

(١) فى ح : إلا بحق . (٢) راجع جـ ١ ص ٤١٧ (٣) فى ا ، ك : « بالمخاد » بالخاء المعجمة .

Marfat.com

قلت ؛ وقد ردّ هذا الكلام صاحب «القوت» وٱستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه ، وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » . وخفى عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء و بعده ، و إنما ٱبتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء فى جسده . وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به ٱمتُحِنوا وفُتِنوا . فأيوب عليه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه ؛ وما تغيّر منه حال ولا مقال ، فقد ٱجتمع[1] مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى يفضل فيه بعض الناس بعضا . و بهذا الاعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء . وهو كما قال سفيان . والله أعلم .

وفى حديث ٱبن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فٱغتسل فأعاد الله لحمه وشعره و بشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أوضعف وأنزل الله عليه ثو بين من السماء أبيضين فٱئتزر بأحدهما وٱرتدى بالآخر ثم أقبل يمشى إلى منزله وراث[2] على ٱمرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أى يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى ؟ قال من هو ؟ قالت نبيّ الله أيوب ، أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا . قال فإنى أيوب وأخذ ضِغْثا فضربها به " فزعم ٱبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماما[3] . وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم ، فأقبلت سحابة حتى سجلت[4] فى أندر[5] قمحه ذهبا حتى ٱمتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أندر شعيره وقطانيه[6] فسجلت فيه وَرِقا حتى ٱمتلأ .

---

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام .
(٢) راث : أبطأ .
(٣) الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص .
(٤) السجل : الأنصباب المتواصل .
(٥) الأندر : الموضع الذى يدرس فيه القمح وغيره .
(٦) القطانى : الحبوب التى تدخر كالحمص والعدس واللوبيا وما شاكلها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ابن عباس : « عَبْدَنَا » بإسناد صحيح ؛ رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهي قراءة مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن وابن كثير ؛ فعلى هذه القراءة يكون « إِبْرَاهِيمَ » بدلا من « عَبْدَنَا » و « إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » عطف . والقراءة بالجمع أبين ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ويكون « إِبْرَاهِيمَ » وما بعده على البدل . النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا ، غير أنه قد علم أن قوله : « وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » داخل في العبودية . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحق لا إسماعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب « الإعلام بمولد النبي عليه السلام » . ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ قال النحاس : أما « الْأَبْصَارِ » فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم . وأما « الْأَيْدِي » فمختلف في تأويلها ؛ فأهل التفسير يقولون : إنها القوة في الدين . وقوم يقولون : « الْأَيْدِي » جمع يد وهي النعمة ؛ أي هم أصحاب النعم ؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا . وهذا اختيار الطبري . ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أي الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته . ومصطفَين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في « البقرة »(١) عند قوله : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ » « وَالْأَخْيَارِ » جمع خير . وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣

Marfat.com

وعيسى الثقفى «أولى الأَيْد» بغير ياء فى الوصل والوقف على معنى أولى القوة فى طاعة الله . ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذف الياء تخفيفا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة «بِخَالِصَةٍ» منونة وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» بالإضافة فمن نوّن خالصة فـ «ذِكْرَى الدَّار» بدل منها؛ التقدير إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها . ويجوز أن يكون «خَالِصَةٍ» مصدرًا لخلص و «ذِكْرَى» فى موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار؛ أى تذكير الدار الآخرة . ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة، فيكون «ذِكْرَى» على هذا فى موضع نصب، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار . والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أى ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»[1] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها . ومن أضاف خالصة إلى الدار فهى مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أى بإخلاصهم ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهى الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم . وقال ابن زيد : معنى أخلصناهم أى بذكر الآخرة ؛ أى يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون فى الدنيا . وقال مجاهد : المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١١٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ مضى ذكر اليسع فى « الأنعام »[1] وذكر ذى الكفل فى « الأنبياء »[2] . ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أى ممن آختير للنبوة . ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به فى الدنيا أبدا . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى لهم مع هذا الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى القيامة . ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والعدن فى اللغة الإقامة ؛ يقال : عدن بالمكان إذا أقام . وقال عبد الله ابن عمر : إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن[3] حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[4] لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد . ﴿ مُفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ رفعت الأبواب لأنه آسم ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : أى مفتحة لهم الأبواب منها . وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها . وأجاز الفرّاء : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابَ » بالنصب . قال الفرّاء : أى مفتحة الأبوابَ ثم جئت بالتنوين فنصبت . وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعدهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ[5]

وإنما قال : « مُفَتَّحَةً » ولم يقل مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس . قال الحسن : تُكلَّم : آنفتحى فتنفتح آنغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أى يدعون فى الجنات متكئين فيها . ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أى وشراب كثير لحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى فى « الصافات »[6] . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أى على سن واحد . وميلاد آمرأة واحدة، وقد

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٣٧ .

(٣) تقدمت هذه الرواية فى جـ ٩ ص ٣١١ بهذا اللفظ وهى توافق ما فى تفسير الطبرى وغيره عن عبد الله ابن عمرو ، ولفظ الأصل هنا « جنة عدن قصر فى الجنة » الخ . (٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط . (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظهر بأجب على نية التنوين ؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس فى أسوإ حال وأضيق عيش ، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذى لا سنام له من الهزال . (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

تساوين في الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن عباس: يريد الآدميات. و «أَتْرَابٌ» جمع تِرْب وهو نعت لقاصرات؛ لأن «قَاصِرَاتُ» نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِن القاصراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ مِنها لأَثَّرا[1]

قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء أي ما توعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو و يعقوب بالياء على الخبر، وهي قراءة السلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقوله تعالى: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ» فهو خبر. «لِيَوْمِ الْحِسَابِ» أي في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِينِينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السُّـ * ـوءِ حتى إذا أفاقَ أفاقوا

أي في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»[2] وقال: «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»[3].

قوله تعالى: هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين. قال الزجاج: «هَٰذَا» خبر ابتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على «هذا» قال ابن الأنباري: «هذا» وقف حسن ثم تبتدئ «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ» وهم الذين كذبوا الرسل.

(١) قاله امرؤ القيس. المحول: الصغير. والإتب: درع المرأة. وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب.
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٣ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١١٥ فما بعد.

Marfat.com

﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أى منقاب يصيرون إليه . ثم بيّن ذلك بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى بئس ما مهـدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم . ومنـه مهد الصبي . وقيل : فيـه حذف أى بئس موضع المهاد . وقيـل : أى هذا الذى وصفت لهؤلاء المتقين ، ثم قال : وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على « هذا » أيضا .

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « حَمِيمٌ » على التقديم والتأخير ، أى هذا حميم وغساق فليذوقوه . ولا يوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويجوز أن يكون « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء و « فَلْيَذُوقُوهُ » فى موضع الخبر ، ودخلت الفاء للتنبيه الذى فى «هَٰذَا» فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويرتفع « حَمِيمٌ » على تقدير هذا حميم . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا ، وحميم وغساق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق . والفرّاء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ فى غَلَسٍ (١) * وغُودِرَ البَقْـلُ مَلْوِىٌّ ومَحْصُـودُ

وقال آخر (٢) :

لهـا مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِـهِ * قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ ٱنْسَحَقَا

ويجوز أن يكون « هَٰذَا » فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره « فَلْيَذُوقُوهُ » كما تقول زيدا اضربه . والنصب فى هـذا أولى فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » وتبتدئ « حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » على تقـدير الأمر حميم وغسّاق . وقراءة أهل المدينـة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين فى «وغَسَاق» . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى «وغسّاق» بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد فى قول الأخفش . وقيل : معناهما مختلف ، فمن خفّف فهو آسم مثل عَذاب وجَواب وصَواب ، ومن شدّد قال : هو آسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة ، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق . قال آبن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم

---

(١) رواه السمين : أضاء البرق . (٢) قائله زهير بن أبى سلمى يصف الناقة التى يستق عليها . وقتب وغرب بيان للتاع . والقتب : أداة السانية ، والغرب : الدلو العظيمة . وانسحقا : أى مضى وبعد سيلانه .

Marfat.com

بَرده . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد آنتهى برده . وقال غيرهما . إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرّه . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من فى المغرب ، ولو وقع منه شيء فى المغرب لأنتن من فى المشرق . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن . وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار . وهذا القول أشبه باللغة ؛ يقال : غَسَق الجرح يغسِق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تذكّرتُ الحياةَ وطيبَها * إلىّ جرَى دَمْعٌ من الليلِ غاسِقُ(١)

أى بارد . ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقال السدّى : الغسّاق الذى يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم . وقال آبن زيد : الحميم دموع أعينهم ، يجمع فى حياض النار فيسقونه ، والصديد الذى يخرج من جلودهم . والآختيار على هذا « وغسّاق » حتى يكون مثل سيّال . وقال كعب : الغسّاق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذى حُمَة من عقرب وحيّة . وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد . والغسق أوّل ظلمة الليل ، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق إذا أظلم . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن دَلْوا من غساق يُهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا " .

قلت : وهذا أشبه على الآشتقاق الأول كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمرو: « وَأُخَرُ » جمع أخرى مثل الكبرى والكُبَر . الباقون : «وَآخَرُ» مفرد مذكر . وأنكر أبو عمرو « وَآخَرُ » لقوله تعالى : « أَزْوَاجٌ » أى لا يخبر بواحد عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدرىّ « وَأُخَرُ » قال : ولو كانت « وَأُخَرُ » لكان من شكلها . وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان . « وَآخَرُ » أى وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . « مِنْ شَكْلِهِ » قال قتادة : من نحوه . قال آبن مسعود : هو

---

(١) لعله من العين .

Marfat.com

الزمهرير . وآرتفع « وآخر » بالابتداء و « أَزْوَاجٌ » مبتدأ ثانٍ و « مِنْ شَكْلِهِ » خبره والجملة خبر « آخر » . ويجوز أن يكون « وآخر » مبتدأ والخبر مضمر دل عليه « هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » لأن فيـه دليلا على أنه لهم ، فكأنه قال : ولهم آخر ويكون « مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و « أَزْوَاجٌ » مرفوع بالظرف . ومن قرأ « وَأُخَرُ » أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا لجمع لاختلاف الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا : شابت مفارقه . أو على أنه جمع لمـا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذى هو نهاية البرد بإزاء الجمع فى قوله : « هَـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » والضمير فى « شَكْلِهِ » يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق . أو على معنى : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » ماذكرنا ، ورفع « أُخَرُ » على قراءة الجمع بالابتداء و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة له وفيه ذكر يعود على المبتـدإ و « أَزْوَاجٌ » خبر المبتدإ . ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و « مِنْ شَكْلِهِ » صـفة لأخر و « أَزْوَاجٌ » مرتفعة بالظرف كما جاز فى الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث آرتفع « أَزْوَاجٌ » مفرد؛ قاله أبو علي . و « أَزْوَاجٌ » أى أصناف وألوان من العذاب . وقال يعقوب : الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدلّ[1] .

قوله تعـالى : ﴿ هَـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ قال آبن عبـاس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة : « هَذَا فَوْجٌ » يعنى الأتباع والفوج الجماعة « مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » أى داخل النار معكم ؛ فقالت السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا آتسعت منازلهم فى النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد وغيره . وهو فى مذهب الدعاء فلذلك نصب ؛ قال النابغة :

لَا مَرْحَبًا بِغَـدٍ وَلَا أَهْلًا بِهِ * إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ فِى غَدِ

---

(١) يقال : امرأة ذات شكل (بالكسر) أى ذات دلال ، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة .

Marfat.com

قال أبو عبيدة العرب تقول : لامرحبا بك ؛ أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت .
﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قيل : هو من قول القادة ، أى إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل : هو من قول الملائكة متصل بقولهم : « هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » و « قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » هو من قول الأتباع . وحكى النقاش : إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر ، والفوج الثانى أتباعهم ببدر . والظاهر من الآية أنها عامة فى كل تابع ومتبوع .
﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أى دعوتمونا إلى العصيان ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ لنا ولكم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى الأتباع ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ قال الفراء : من سوّغ لنا هذا وسنّه . وقال غيره : من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصى ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفا . وقال ابن مسعود : معنى عذابا ضعفا فى النار الحيات والأفاعى . ونظير هذه الآية قوله تعالى : " رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ "(1) .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى أكابر المشركين ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين صهيب أين عمار أولئك فى الفردوس ! واعجبا لأبى جهل ! مسكين ؛ أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو ؛ قال :

ونورًا أضاء الأرض شرقًا ومغربًا * وموضع رجلي منه أسود مظلم

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كل ذلك قد فعلوا ؛ اتخذوهم سخريًّا ، وزاغت عنهم أبصارهم فى الدنيا محقرة لهم . وقيل : معنى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » أى أهم معنا فى النار فلا

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٠٤

Marfat.com

نراهم . وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرءون « مِنَ الأَشْرَارِ ٱتَّخَذْنَاهُمْ » بحذف الألف في الوصل . وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرءون « أَتَّخَذْنَاهُمْ » بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل ؛ لأنه قد استغنى عنها ؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على « الأَشْرَارِ » لأن « ٱتَّخَذْنَاهُمْ » حال . وقال النحاس والسجستاني : هو نعت لرجال . قال ابن الأنباري : وهذا خطأ ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا . ومن قرأ : « أَتَّخَذْنَاهُمْ » بقطع الألف وقف على « الأَشْرَارِ » قال الفراء : والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب . « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ » إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية ، و إذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل . وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي : « سُخْرِيًّا » بضم السين . الباقون بالكسر . قال أبو عبيدة : من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير . وقد تقدم . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ « لَحَقٌّ » خبر إن و « تَخَاصُمُ » خبر مبتدإ محذوف بمعنى هو تخاصم . ويجوز أن يكون بدلا من حق . ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر . ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع . أي إن تخاصم أهل النار في النار لحق . يعني قولهم : « لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » الآية وشبهه من قول أهل النار .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَآ أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدم . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ أي معبود ﴿ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الذي لا شريك له ﴿ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ

Marfat.com

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته . ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح . « وَالْعَزِيزُ » معناه المنيع الذى لا مثل له . « الْغَفَّارُ » الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أى وقل لهم يا محمد : « هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ » أى ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغى أن يُستخفّ به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ »(١) . وقال آبن عباس ومجاهد وقتادة : يعنى القرآن الذى أنبأكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول آبن عباس والسّدى آختصموا فى أمر آدم حين خلق فـ « قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا »(٢) وقال إبليس : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »(٣) وفى هذا بيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلٰهى ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » . وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألنى ربى فقال يا محمد فيم آختصم الملأ الأعلى قلت فى الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشى على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء فى السَّبَرات(٤) والتعقيب فى المساجد بآنتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " خرجه الترمذى بمعناه عن آبن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح . وقد كتبناه بكماله فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وأوضحنا إشكاله والحمد لله . وقد مضى فى « يس »(٥) القول فى المشى إلى المساجد، وأن الخُطا تكفّر السيئات ، وترفع الدرجات . وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » لفرقتين . يعنى قول من قال منهم الملائكة بنات الله ،

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٧ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ فما بعد .
(٤) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى شدة البرد . (٥) راجع ص ١٢ فما بعد من هذا الجزء .

Marfat.com

[ومن قال آلهة تعبد](١) . وقيل : الملأ الأعلى هاهنا قريش ؛ يعنى آختصامهم فيما بينهم سرًّا ، فأطلع الله نبيه على ذلك . ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى إن يوحى إلىّ إلا الإنذار . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « إلّا إنّما » بكسر الهمزة ؛ لأن الوحى قول ، كأنه قال : يقال لى إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها فى موضع رفع ؛ لأنها آسم ما لم يسمّ فاعله . قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إلىّ إلا الإنذار . النحاس : ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ «إذ» من صلة «يَخْتَصِمُونَ» المعنى ؛ ما كان لى من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ . وقيل : «إِذْ قَالَ» بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » و « يَخْتَصِمُونَ » يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت آختصامهم . ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ «إذا» تردّ الماضى إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أى خلقته . ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ أى من الروح الذى أملكه ولا يملكه غيرى . فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجوّدا فى « النساء »(٢) فى قوله فى عيسى « وَرُوحٌ مِنْهُ » . ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال . وهذا سجود تحية لا سجود عبادة . وقد مضى فى «البقرة»(٣) . ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أى آمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله آستكبارا كفر ، ولذلك كان من الكافرين بآستكباره عن أمر الله تعالى . وقد مضى الكلام فى هذا فى «البقرة»(٣) مستوفى .

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان فى تفسيره . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ وص ٢٩٦

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ أى صرفك وصدك ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له ، وإن كان خالق كل شيء وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ؛ فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكيد والصلة ؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله : «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ»[1] أى يبقى ربك . وقيل : التشبيه فى اليد فى خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى . وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد . ومالى بالحمل الثقيل يدان . ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع . وقال الشاعر :

تحملت من [عفراء][2] ما ليس لى به * ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل : «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة . ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أى عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أى المتكبرين على ربك . وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة «بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل : «أَمْ يَقُولُونَ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ فما بعد .

(٢) فى الأصول ذلفا وهو تحريف . والبيت لعروة بن حزام .

Marfat.com

ٱفْتَرَاهُ » وشبهه . ومن ٱستفهم فـ« أَمْ » معادلة لهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ . أى ٱستكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم ، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ قال الفرّاء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشرّ منه ؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فَضَّل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس . وقد مضى فى « الأعراف »[1] بيانه . ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ يعنى من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أى طردى و إبعادى من رحمتى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجَب إلى ذلك ، وأُخِّر إلى الوقت المعلوم ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأُخِّر إليه تهاونا به . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم ، فمعنى : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ » لأستدعينهم إلى المعاصى وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة ، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين أخلصتهم لعبادتك ، وعصمتهم منى . وقد مضى فى « الحِجر »[2] بيانه .

قوله تعالى : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ والْحَقَّ أَقُولُ ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائى . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول . وأجاز الفرّاء فيه

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧١ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨

Marfat.com

الخفض . ولا آختلاف فى الثانى فى أنه منصوب بـ«أقول» ونصب الأول على الإغراء أى فآتبعوا الحق وآستمعوا الحق، والثانى بإيقاع القول عليه . وقيل : هو بمعنى أُحِقّ الحقّ أى أفعله . قال أبو على: الحق الأول منصوب بفعل مضمر أى يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجر ؛ كما تقول : اللهِ لأفعلنّ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه . « والحَقَّ أَقُولُ » جملة آعترضت بين القسم والمقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحق منصوبا بإضمار فعل كان «لأملأنّ» على إرادة القسم. وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحق منصوبا بمعنى حقا « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز زيدا لأضربنّ ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه . والتقدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّا . ومن رفع « الحقّ » رفعه بالآبتداء ؛ أى فأنا الحقُّ أو الحقُّ منى . رويا جميعا عن مجاهد . ويجوز أن يكون التقدير هذا الحقّ . وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحقّ لأملأنّ جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم . وفى الخفض قولان وهى قراءة آبن السَّمَيْقَع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذف حرف القسم . هذا قول الفراء قال كما يقول : اللهِ عزّ وجلّ لأفعلنّ . وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض ؛ لأن حروف الخفض لا تضمر ، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم ؛ كما أنشدوا[(1)] :

* فمثلِك حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع *

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أى من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بنى آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .
قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى من جُعْل على تبليغ الوحى وكنى به عن غير مذكور . وقيل هو راجع إلى قوله : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال :

---

(1) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمامه :

* فألهيتها عن ذى تمائم محول *

Marfat.com

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف؛ فإن قوله لا أعلم علم ، وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول مالا يعلم " . وروى الدارقطني من حديث نافع عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مقراة[1] له ، فقال له عمر : يا صاحب المقراة أولغت السباع الليلة في مقراتك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " يا صاحب المقراة لا تخبره هذا متكلف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور " . وفي الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا . وقد مضى القول في المياه في سورة « الفرقان »[2] . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس . ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق « بَعْدَ حِينٍ » قال قتادة : بعد الموت . وقاله الزجاج . وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعني يوم القيامة . وقال الفراء : بعد الموت وقبله . أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول : « بَعْدَ حِينٍ » أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين . قال السدي : وذلك يوم بدر . وكان الحسن يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين . قال : إن من الحين مالا تدركه كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ومنه ما تدركه؛ كقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر . وقد مضى القول في هذا في « البقرة »[3] و « إبراهيم »[4] والحمد لله .

---

(١) المقراة الحوض الذي يجتمع فيه الماء . النهاية لابن الأثير .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٤٠

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد .

(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ فما بعد .

Marfat.com

ســـــورة الزُّمَر

ويقال سورة الغرف . قال وهب بن منبّه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ ســورة الغرف . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » والأخرى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقال آخرون : إلا سبع آيات من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيّ وأصحابه على ما يأتي . روى الترمذي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل . وهي خمس وسبعون آية . وقيل : اثنتان وسبعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هـذا تنزيل ؛ قاله الفـراء . وأجاز الكسائي والفـراء أيضا « تَنْزِيلَ » بالنصب على أنه مفعول به . قال الكسائي : أي اتبعوا واقرءوا « تَنْزِيلَ الْكِتَابِ » . وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله : « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(١) أي الزموا . والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٠

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق؛ أى بالصدق وليس بباطل وهزل . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — « مُخْلِصًا » نصب على الحال أى مُوحِّدا لا تشرك به شـيئا ﴿ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة . وقيـل : العبادة وهو مفعول به . ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى الذى لا يشوبه شيء . وفى حديث الحسن عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أتصدق بالشيء وأصـنع الشيء أريد به وجه الله وثناء النـاس . فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : "والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيـه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[(١)] و « النساء »[(٢)] و « الكهف »[(٣)] مســتوفًى .

الثانيــة — قال ابن العربى : هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان، خلافا لأبى حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفى من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمـان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام والخبر محذوف . أى قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم مَن ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنـا عنـده . قال الكلبى : جواب هـذا الكلام فى الأحقاف « فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً »[(٤)] والزلفى القربة؛ أى ليقربونا إليـه تقريبا ، فوضع « زُلْفَى » فى موضع المصـدر . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

---

(١) راجع ج ٣ ص ٣٠٧　(٢) راجع ج ٥ ص ٤٢٥　(٣) راجع ج ١١ ص ٦٩ فما بعد .
(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٠٩

Marfat.com

زُلْفَى » وفى حرف أُبَىّ « وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » ذكره النحاس . قال : والحكاية فى هذا بينة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أى للدين الذى ٱرتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(1) وفى هذا ردّ على القدرية وغيرهم على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى لو أراد أن يسمى أحدا من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى تنزيها له عن الولد ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هو القادر على الكمال المستغنى عن الصاحبة والولد ، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل . قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ قال الضحاك : أى يلقى هذا على هذا وهذا على هذا . وهذا على معنى التكوير فى اللغة وهو طرح الشىء بعضه على بعض ؛ يقال كوّر المتاع أى ألقى بعضه على بعض ؛

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٤٩ و جـ ٩ ص ٣٤٠

Marfat.com

ومنه كور العمامة . وقد روى عن ابن عباس هذا فى معنى الآية . قال : ما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل . وهو معنى قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ »(١) . وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة . وهو معنى قوله تعالى : « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا »(٢) . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى بالطلوع والغروب لمنافع العباد . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين](٣) تنفطر السماء وتنتثر الكواكب . وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها . قال الكلبي : يسيران إلى أقصى منازلها ، ثم يرجعان إلى أدنى منازلها لا يجاوزانه . وقد تقدم بيان هـذا فى سورة «يس»(٤) . ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ « ألا » تنبيه أى تنبهوا فإنى أنا « الْعَزِيزُ » الغالب « الْغَفَّارُ » الساتر لذنوب خلقه برحمته .

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى ليحصل التناسل وقد مضى هـذا فى « الأعراف »(٢) وغيرها . ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول ، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل . وهذا يسمى التدريج؛ ومثله قوله تعالى : « قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا »(٢) الآية . وقيل : أنزل أنشأ وجعل . وقال سعيد بن جبير : خلق . وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض ، كما قيل فى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »(٥) فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد . وقيل : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى أعطاكم . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل . قال قتـادة : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٠		(٢) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٩ وص ٢٢٧
(٣) فى نسخ الأصل : حتى .		(٤) راجع ص ٣٢ من هذا الجزء .
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٠

Marfat.com

زوج . وقد تقدّم هذا[1] . ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال قتادة والسّدّى : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . ابن زيد : « خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » خلقا في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم . وقيل : في ظهر الأب ثم خلقا في بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع . ذكره الماوردى . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المَشِيمَة . قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير : ظلمة المَشِيمَة وظلمة الرَّحِم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل : ظلمة صُلْب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرَّحِم . وهذا مذهب أبي عبيدة . أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أى الذى خلق هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره . وقرأ حمزة : «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم . والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعالى : إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى أن يكفروا أى لا يحب ذلك منهم . وقال ابن عباس والسّدى : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[2] . وكقوله : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ »[3] أى المؤمنون . وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة . وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده ؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه ، فالإرادة غير الرضا . وهذا مذهب أهل السنة .

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٢٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى يرضى الشكر لكم ؛ لأن « تَشْكُرُوا » يدل عليه . وقد مضى القول فى الشكر فى « البقرة »[1] وغيرها . ويرضى بمعنى يثيب ويثنى ، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وإما ثناؤه فهو صفة ذات . و « يَرْضَهُ » بالإسكان فى الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم . وأشبع الضمة ابن ذكوان وابن كثير وابن محيصن والكسائى وورش عن نافع[2] . واختلس الباقون . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[3] تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أى شدة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى راجعا إليه مخبتا مطيعا له مستغيثا به فى إزالة تلك الشدة عنه . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه وملكه . يقال : خولك الله الشىء أى ملّكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا ✱ وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا[4]

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ فما بعد . وجـ ٢ ص ١٩٢ (٢) فى الأصول : ورش عن نافع . وفى البيضاوى : وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية الخ يعنى ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور فى رواية ورش .

(٣) راجع جـ ٩ ص ١٥٧ . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ (٤) البيت لزهير ، ويروى : هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا . والإخبال الإعارة أى يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها . وإن ييسروا يغلوا : أى إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها .

Marfat.com

وخَوَلُ الرجل : حَشَمُه الواحد خائل . قال أبو النّجم :

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ * كُومَ الذُّرَى مِنْ خَوَلِ الْمُخَوِّلِ

﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى نسى ربه الذى كان يدعوه من قبل فى كشف الضر عنه . فـ « ـما » على هذا الوجه لله عز وجل وهى بمعنى الذى . وقيل : بمعنى من كقوله : «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ»[1] والمعنى واحد . وقيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أى ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أوثانا وأصناما . وقال السّدى : يعنى أندادا من الرجال يعتمدون عليهم فى جميع أمورهم . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى ليقتدى به الجهال . ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ أى قل لهذا الإنسان « تَمَتَّع » وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ بيّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى « أَمَّنْ » بالتشديد . وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : « أَمَنْ هُوَ » بالتخفيف على معنى النداء؛ كأنه قال يامن هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا، تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكى ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوس بن حَجَر :

أَبَنِى لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ * إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمّة :

أَدَارًا بِحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً * فَمَاءُ الْهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ

فالتقدير على هذا « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » يامن هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم، فيا من يُصلى ويَصوم أبشر؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف فى « أمن » ألف استفهام أى « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ » أفضل ؟ أم من جعل لله أندادا؟ والتقدير الذى هو قانت خير . ومن شدد

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٥

Marfat.com

« أَمَّنْ » فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ » فالجملة التى عادلت أم محذوفة ، والأصل أم من فادغمت فى الميم . النحاس : وأم بمعنى بل ، ومَن بمعنى الذى ؛ والتقدير : أم الذى هو قانت أفضل ممن ذكر . وفى قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع ؛ قاله آبن مسعود . الثانى أنه الخاشع فى صلاته ؛ قاله آبن شهاب . الثالث أنه القائم فى صلاته ؛ قاله يحيى ابن سلّام . الرابع أنه الداعى لربه . وقول آبن مسعود يجمع ذلك . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل قنوت فى القرآن فهو طاعة لله عز وجل " وروى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الصلاة أفضل ؟ فقال : " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام . وروى عبد الله عن نافع عن آبن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن . وقال مجاهد : من القنوت طول الركوع وغضّ البصر . وكان العلماء إذا وقفوا فى الصلاة غضُّوا أبصارهم ، وخضعوا ولم يلتفتوا فى صلاتهم ، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين . قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة ، فكل ماقيل فيه فهو طاعة لله عز وجل ، فهذه الأشياء كلها داخلة فى الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لى آبن عمر قم فصلّ فقمت أصلّى وكان علىّ ثوب خَلَق ، فدعانى فقال لى : أرأيت لو وجهتك فى حاجة أكنت تمضى هكذا ؟ فقلت : كنت أتزيّن قال : فالله أحق أن تتزيّن له . وآختلف فى تعيين القانت هاهنا ، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن عباس فى رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وقال آبن عمر : هو عثمان رضى الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر . الكلبي : صُهَيب وأبو ذرّ وآبن مسعود . وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال . ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ قال الحسن : ساعاته ؛ أوله وأوسطه وآخره . وعن ابن عباس : « آنَاءَ اللَّيْلِ » جوف الليل . قال آبن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله فى ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . وقيل : مابين المغرب والعشاء . وقول الحسن عام . ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ قال سعيد بن جبير : أى عذاب الآخرة . ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أى

Marfat.com

نعيم الجنة . وروى عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى فى المعاصى ويرجو فقال: هذا تمنٍّ . ولا يقف على قوله : « رَحْمَةَ رَبِّهِ » من خفف « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ » على معنى النداء ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر فى الكلام حذف وهو أيسر، على ماتقدم بيانه . قال الزجاج : أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول من المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى قل يامحمد لعبادى المؤمنين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم(١) . وقال ابن عباس : يريد جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة . ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يعنى بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب فى الجنة . وقيل : المعنى للذين أحسنوا فى الدنيا حسنة فى الدنيا ، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة . قال القشيرى : والأول أصح ؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

قلت : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم . وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن، وفى الآخرة الجزاء. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصى . وقد مضى القول فى هذا مستوفى فى « النساء »(٢) . وقيل : المراد أرض الجنة ؛ رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها ؛ كما قال : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ »(٣) والجنة قد تسمى أرضا ؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٨ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٠٣

Marfat.com

قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » والأول أظهر فهو أمر بالهجرة . أى آرحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا . المـاوردى : يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الآمتنان .

قلت : فتكون الآية دليـلا على الآنتقال من الأرض الغـالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثورى : كن فى موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم . ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تقدير . وقيل : يزاد على الثواب؛ لأنه لو أعطى بقدر ما عمل لكان بحساب . وقيـل : « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا . و « الصَّابِرُونَ » هنا الصائمون ؛دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل : " الصوم لى وأنا أجزى به " قال أهل العـلم : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يُحثَى حثْوًا ويُغرف غرْفا ؛ وحكى عن على رضى الله عنه . وقال مالك بن أنس فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال : هو الصبر على فجـائع الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك مانهى عنه ، فلا مقدار لأجره . وقال قتـادة : لاوالله ماهناك مكيال ولا ميزان ، حدثنى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تنصب الموازين فيؤتى بأهـل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبّ عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل ". وعن الحسين بن على رضى الله عنهما قال سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يابُنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البـلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يُصبّ عليهم الأجر صبًّا " ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصى ، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا؛ قاله النحاس . وقد مضى فى « البقرة »(1) مستوفى .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ تقدم أول السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم . واللام فى قوله : « لِأَنْ أَكُونَ » صلة زائدة ؛ قاله الجرجانى وغيره . وقيل : لام أجل . وفى الكلام حذف أى أمرت بالعبادة « لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يريد عذاب يوم القيامة . وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه ؛ قاله أكثر أهل التفسير . وقال أبو حمزة الثمالى وابن المسيّب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(2) فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١٧٤ فما بعد . (2) راجع جـ ١٦ ص ٢٦١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ « الله » نصب بـ « أعبد » ﴿ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ طاعتي وعبادتي . ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ ؛ كقوله تعالى : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ »(١) . وقيل : منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس : ليس من أحد إلا و[قد](٢) خلق الله له زوجة في الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله . في رواية عن ابن عباس : فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ سمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظل من تحتهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ »(٣) وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »(٤) . ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال ابن عباس : أولياءه . ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي يا أوليائي خافون . وقيل : هو عام في المؤمن والكافر . وقيل : خاص بالكفار .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ قال الأخفش : الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة . وقد تقدم(٥) . أي تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها . قال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدي : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن . وقيل إنه اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت . وقيل : إنه اسم عربي مشتق من الطغيان ، و « أن » في موضع نصب بدلا من الطاغوت ، تقديره : والذين

(١) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء . (٢) زيادة من ح و ك . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠٥ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٣٥٦ (٦) راجع جـ ٥ ص ٨٠

Marfat.com

آجتنبوا عبادة الطاغوت . ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى رجعوا الى عبادته وطاعته . ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ فى الحياة الدنيا بالجنة فى العقبى . روى أنها نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضى الله عنهم ؛ سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا . وقيل : [نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال آبن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به . وقيل : يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحّد الله قبل الإسلام « لا إله إلا الله » . وقال عبد الرحمن بن زيد[1] :] نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذرّ الغفارى وسلمان الفارسى، آجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها فى جاهليتهم ، وآتبعوا أحسن ما صار من القول اليهم. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لما يرضاه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى الذين آنتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية . قال آبن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . وكرر الآستفهام فى قوله : « أَفَأَنْتَ » تأكيدا لطول الكلام، وكذا قال سيبويه[2] فى قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ » على ما تقدّم . والمعنى : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » أفأنت تنقذه . والكلام شرط وجوابه . وجىء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير . وقال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

(١) ما بين المربعين ساقط من ك . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٢٢

Marfat.com

كلمة العذاب . والمعنى واحد . وقيل : إن فى الكلام حذفا والتقدير : أفمن حـق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده مستأنف . وقال : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ » وقال فى موضـع آخر: « حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ »(١) لأن الفعل إذا تقدم ووقـع بينه وبين الموصـوف به حائل جاز التذكير والتأنيث ، على أن التأنيث هنا ليس بحقيق بل الكلمة فى معنى الكلام والقول ؛ أى أفمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعـالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ لمـا بين أن للكفار ظُللا من النار من فوقهم ومن تحتهم بين أن للمتقين غرفا فوقها غرف ؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و « لَٰكِن » ليس للاستدراك ؛ لأنه لم يأت نفى كقوله : ما رأيت زيدا لكن عمرا ، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يأت . ﴿غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى هى جامعة لأسباب النزهة . ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى « لَهُمْ غُرَفٌ » وعدهم الله ذلك وعدا . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله . ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ أى ما وعد الفريقين .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى إنه لا يخلف الميعاد فى إحيـاء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال المـاء من السماء . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى من السحاب « مَاءً » أى المطر ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ أى فأدخله فى الأرض

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤٠

Marfat.com

وأسكنه فيها ؛ كما قال : « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ »(١) . ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع و ينبَع و ينبِع بالرفع والنصب والخفض . النحاس : وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر:(٢)

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفا ، نبوعا خرج . واليَنْبوع عين الماء والجمع الينابيع . وقد مضى في « سبحان »(٣) . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعًا ﴾ هو للجنس أي زروعا شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونورا . قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس . ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ قال المبرد قال الأصمعي : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى . قال : وكذلك هاج النبت . قال : وكذلك قال غير الأصمعي . وقال الجوهري : هاج النبت هياجا أي يَبِس . وأرض هائجة يَبس بَقْلُها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات ، وهاج هائجه أي ثار غضبه ، وهدأ هائجه أي سكنت فورته . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أي فتاتا مكسرا من تحطم العود إذا تفتت من اليبس . والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة . وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، أي أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين « ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » أي دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع . وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١٢

(٢) قائله عنترة : ويروى « غضوب حرة » . وتمامه : * زيافة مثل الفنيق المقرم *

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ شرح فتح ووسع . قال ابن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . وقال السدى : وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه . ودلّ على هذا المحذوف قوله : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صلُب ، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها . وقلبٌ قاسٍ أى صُلْب لا يرق ولا يلين . والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون علىّ وحمزة رضى الله عنهما . وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال مقاتل : عمار بن ياسر . وعنه أيضا والكلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه . وروى مُرّة[1] عن ابن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعالى : «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » كيف انشرح صدره؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح " قلنا : يارسول الله وما علامة ذلك ؟ . قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله " وخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث ابن عمر : أن رجلا قال يا رسول الله أى المؤمنين أكيس ؟ قال : " أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع " قالوا : فما آية ذلك يا نبىّ الله؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " فذكر صلى الله عليه وسلم خصالا ثلاثة ، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنما هى أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله ثم قال بعقب ذلك : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فالجنة جزاء الأعمال ؛ فإذا انكمش العبد فى أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود ، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولها عن طلبها ، وأقبل على

(١) هو مرة بن شراحيل الهمدانى يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وحذيفة وابن مسعود الخ ... التهذيب .

Marfat.com

ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع ، فقد تجافى عن دار الغرور . وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا فى كل أمر ، واقفا متأدبا متثبتا حذرا يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه ، فقد آستعدّ للموت . فهذه علامتهم فى الظاهر . وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب . وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده، ومعنى : «مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره . وقيل : إن « مِن » بمعنى عن، والمعنى قست عن قبول ذكر الله . وهذا آختيار الطبرى . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تعالى آطلبوا الحوائج من السمحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى" . وقال مالك بن دينار : ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن لما قال : «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» بيّن أن أحسن ما يُسمع ما أنزله الله وهو القرآن . قال سعد بن أبى وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» فقالوا : لو قصصت علينا فنزل : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» [1] فقالوا : لو ذكرتنا فنزل : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» [2] الآية . وعن آبن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا ملّة فقالوا له : حدثنا فنزلت . والحديث ما يحدث به المحدّث . وسمى القرآن حديثا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به

(١) راجع ج ٩ ص ١١٩ (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٤٨

Marfat.com

أصحابه وقومه، وهو كقوله : « فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بعده يُؤْمِنُونَ »[1] وقوله : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ »[2] وقوله : « إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »[3] وقوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا »[4] وقوله : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ »[5] قال القشيرى : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما فى قوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقد قالوا : إن الحـدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسمـاء الربّ تعـالى . ﴿ كِتَابًا ﴾ نصب على البدل من « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » ويحتمل أن يكون حالا منه . ﴿ مُتَشَابِهًا ﴾ يشبه بعضه بعضا فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا ، ليس فيه تناقض ولا آختلاف . وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيـل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لمـا يتضمّنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل . ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف ممـا فيه من الوعيد . ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ أى عند آية الرحمة . وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به . وقيل : « إِلَى ذِكْرِ اللهِ » يعنى الإسلام .

الثانيـــة — عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : كان أصحاب النبي صلى الله عليــه وسلم ، إذا قرئ عليهم القـرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيًّا عليه . فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مرّ آبن عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال : ما بال هـذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال آبن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند آبن سيرين الذين يُصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال : بيننا و بينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه، ثم يقرأ عليــه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق . وقال أبو عمران

(١) راجع ج ٧ ص ٣٣٠ فما بعد . (٢) راجع ج ١٧ ص ٣٥٣ فما بعد .
(٣) راجع ج ١٠ ص ٣٥٣ فما بعد . (٤) راجع ج ٥ ص ٣٠٥ فما بعد . (٥) راجع ج ١٨ ص ٢٥١

Marfat.com

الجونى : وعظ موسى عليه السلام بنى إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإنى لا أحبّ المبذرين ؛ يشرح لى عن قلبه .

الثالثـة — قال زيد بن أسلم : قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فرقّوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة". وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتّت عنه خطاياه كما يتحاتّ عن الشجرة البالية ورقُها " . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرّمه الله على النار " . وعن شهر بن حَوْشَب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل فى قلب الرجل كاحتراق السعفة ، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى ؛ قالت : فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب . وعن ثابت البُنَانى قال قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . يقال : اقشعر جلد الرجل اقشعرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم ، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة . قال امرؤ القيس :

فبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَـا(١) * مِ والقلبُ مِن خشيـةٍ مُقْشَعِرّْ

وقيل : إن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، اقشعرت الجلود منه إعظامًا له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »(٢) فالتصدع قريب من الاقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه . ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ أى القرآن هدى الله . وقيل : أى الذى وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خذله فلا مرشد له . وهو رد على القَدَرية وغيرهم . وقد مضى معنى هذا كله مستوفى فى غير موضع والحمد لله . ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله : « هادٍ » فى الموضعين بالياء ، الباقون بغير ياء .

(١) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالى الشتاء . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٤٤

Marfat.com

قوله تعالى : أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ قال عطاء وابن زيد : يُرْمَى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه في النار . وقال مقاتل : هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار في الحجر وهو معلّق في عنقه ، لحرها ووهجها على وجهه ؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال . والخبر محذوف . قال الأخفش : أي « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ » أفضل أم من سعد ، مثل : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) . ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي جزاء كسبكم من المعاصي . ومثله : « هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) تقدّم معناه . وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لها . قال : والخزي من المكروه والخزاية من الاستحياء ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٩ . (٢) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثـل يحتاجون إليه ؛ مثل قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »(١) وقيـل : أى ماذكرناه من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحـال . قال الأخفش : لأن قوله جل وعز : « فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ » معرفة . وقال على ابن سليمان : « عَرَبِيًّا » نصب على الحال و «قُرْآنًا» توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال . وقال الزجاج : « عَرَبِيًّا » منصوب على الحال و « قُرْآنًا » توكيد . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك ، قال : غير مختلف . وهو قول ابن عباس ، ذكره الثعلبي . [وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق، ذكره المهدوى وقاله السدى فيما ذكره الثعلبي](٢) . وقال عثمان بن عفان : غير متضاد . وقال مجاهد : غير ذى لَبْس . وقال بكر بن عبد الله المزنى : غير ذى لَحْن . وقيل : غير ذى شك . قاله السدى فيما ذكره المـاوردى . قال :

وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذى عِوَجٍ * من الإلهِ وقـولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعـالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائى : نصب « رَجُلًا » لأنه ترجمة للمثـل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه : ضرب الله مثـلا برجل « فِيـهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرد : أى متعاسرون من شَكُسَ يَشْكُسُ شُكْسًا [بوزن قفـل](٣) فهو شَكِسٌ مثل عَسُرَ يَعْسُرُ عُسْرًا فهو عسير ؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ . ويقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أى

(١) راجع ج٦ ص ٤١٩ (٢) ما بين المربعين ساقط من ا ، ز . (٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

Marfat.com

شرِسٌ عسِر شَكِسٌ ؛ قاله الجوهري . الزمخشري : والتشاكس والتشاخس الاختلاف . يقال : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه . ويقال : شاكسني فلان أي ماكسني وشاحّني في حق . قال الجوهري : رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق . قال الراجز :

* شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ *

وقوم شُكْسٌ مثال رَجُلٍ صَدْق وقوم صُدْق . وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً . وحكى الفراء : رجل شَكِسٌ . وهو القياس، وهذا مَثَل مَن عبد آلهة كثيرة . ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا لسيد واحد ، وهو مَثَل مَن يعبد الله وحده . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه ؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم . وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة : « وَرَجُلًا سَلَمًا » وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: « وَرَجُلًا سَالِمًا » واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه . قال : لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، والسَّلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا . النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر ؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك . ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره ؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به . والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة . واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة « سَلَمًا » قال وهذا الذي لا تنازع فيه . وقرأ سعيد ابن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر « سِلْمًا » بكسر السين وسكون اللام . وسِلْمًا وسَلَما مصدران ، والتقدير: ورجلا ذا سلم لحذف المضاف و « مَثَلًا » صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما . وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيتبعونه .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحق « إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ » وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير . النحاس : ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و« مائت » في المستقبل كثير في كلام العرب ؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لمارض من هذا الطعام . وقال الحسن والفراء والكسائي : الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ؛ والمَيْت بالتخفيف من فارقته الروح؛ فلذلك لم تخفف هنا . قال قتادة : نُعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسُه، ونُعيت إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُنَاني : نَعى رجلٌ إلى صلة بن أَشْيَم أخًا له فوافقه يأكل، فقال : ٱدْنُ فَكُلْ فقد نُعِي إلى أخي منذ حين؛ قال : وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر . قال إن الله تعالى نعاه إليّ فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة . الثاني أن يذكره حثًّا على العمل . الثالث أن يذكره توطئة للموت . الرابع لئلا يختلفوا في موته كما ٱختلفت الأمم في غيره ، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته ٱحتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك . الخامس ليعلمه أن الله تعالى قد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وفي خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد . وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : " نعم ليكررنّ عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذي حق حقه " فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد . وقال ٱبن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت

Marfat.com

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها فينا نزلت . وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة . فلما كان يوم صِفِّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هـذا . وقال إبراهيم النَّخَعى : لما نزلت هـذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هـذه خصومتنا بيننا . وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفى من حسنات الظالم بقدر مظلمته، و يردّها فى حسنات من وجبت له . وهـذا عام فى جميع المظالم كما فى حديث أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون من المفلس " قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار " خرجه مسلم . وقد مضى المعنى مجوّدا فى « آل عمران »(1) وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له مظلمة لأحد من عِرْضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته و إن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه " وفى الحديث المسند " أول ما تقع الخصومات فى الدنيا " وقد ذكرنا هذا الباب كله فى « التذكرة » مستوفى .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ آستفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مقام للجاحدين، وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْوِى ثَوَاء وثُوِيًّا مثل مَضَى مَضاء ومُضِيًّا، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى . وهذا يدلّ على أن ثَوَى هى اللغة الفصيحة . وحكى أبو عبيد أَثْوَى، وأنشد قول الأعشى :

أَثْوَى وقَصَّـر لَيْـلَةً لِيُزَوَّدَا * ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْـلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعى لا يعرف إلا ثَوَى ، و يروى البيت أَثَوَى على الآستفهام . وأَثْوَيْتُ غيرى يتعدى ولا يتعـدّى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ فى موضع رفع بالأبتداء وخبره ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وآختلف فى الذى جاء بالصِّدق وصَدَّق به ؛ فقال على رضى الله عنه : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » أبو بكر رضى الله عنه . وقال مجاهد : النبي عليه السلام وعلىّ رضى الله عنه . السّدى : الذى جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذى صدق به محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن زيد ومقاتل وقتـادة : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » المؤمنون . وآستدلوا على ذلك بقوله : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » كما قال : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(١) . وقال النّخعى ومجاهد : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون : هذا الذى أعطيتمونا قد آتبعنا ما فيه؛ فيكون « الَّذِي » على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع . وقيل : بل حذفت منه النون لطول الآسم ، وتأوله الشعبى على أنه واحد . وقال : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » محمد صلى الله عليه وسـلم فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله آبن عباس وغيره، وآختاره الطبرى . وفى قراءة آبن مسعود « وَالَّذِي جَاءُوا(٢) بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ » وهى قراءة على التفسير . وفى قراءة أبى صالح الكوفى « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ » مخففا على معنى وصدق بمجيئه

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ (٢) فى ك، ل، « والذين ».

Marfat.com

به ، أى صدق فى طاعة الله عز وجل ، وقد مضى فى « البقرة »(١) الكلام فى « الَّذِى » وأنه يكون واحدا و يكون جمعا . ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى من النعيم فى الجنة، كما يقال: لك إكرام عندى ؛ أى ينالك منى ذلك . ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الثناء فى الدنيـا والثواب فى الآخــرة .

قوله تعـالى : ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أى صدقوا « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ » . ﴿أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ أى يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام . ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أى يثيبهم على الطاعات فى الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهى الجنة .

قوله تعـالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ حذفت الياء من « كاف » لسكونها وسكون التنوين بعـدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف فى الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك فى الوصل . ومن العرب من يثبتها فى الوقف على الأصل فيقول : كافى . وقراءة العامة « عَبْدَهُ » بالتوحيد يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم . وقرأ حمـزة والكسائى « عِبَادَهُ » وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهـم . واختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ » . ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ »(٢) وعلى هـذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانيـة . والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام. « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ »(٣) . وقال الجرجانى : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٩
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مَضَرَّة الأوثان، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها : أُحَذِّرُكَها يا خالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الذى وجه خالدا . ويدخل فى الآية تخويفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ »(١) . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم . ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ أى ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التى هى مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذى خلقها وخلق السموات والأرض . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا « أَفَرَأَيْتُمْ » ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة و بلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعنى هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِي

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٤٥ .

Marfat.com

بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لاتدفع شيئا قدّره الله ولكنها تشفع . فنزلت : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعنى فسيقولون لا [أى لا تكشف ولا تمسك][1] فـ « قُلْ » أنت « حَسْبِيَ اللَّهُ » أى عليه توكلت أى اعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يعتمد المعتمدون . وقد تقدّم الكلام[2] فى التوكل . وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ماعدا عاصما « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » بغير تنوين . وقرأ أبو عمرو وشيبة وهى المعروفة من قراءة الحسن وعاصم « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ » . « مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ » بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لأنه اسم فاعل فى معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود . قال الشاعر :

الضاربون عُمَيْرًا عن بيوتهم * بالليل يوم عُمَيرٍ ظالمٌ عادى

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثانى بالإضافة . وحذف التنوين كثير فى كلام العرب موجود حسن ؛ قال الله تعالى : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ »[3] وقال : « إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ »[4] قال سيبويه : ومثل ذلك « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ »[3] وأنشد سيبويه :

هـل أنتَ باعِثُ دِينـارٍ لحاجتِنا * أو عَبْدَ رَبٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغـــة :

احْكُمْ كَحُكْمِ فتـاةِ الحَيِّ إذ نظَرتْ * إلَى حَمَـامٍ شِـرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَـدِ[5]

معناه واردٍ الثَّمَدَ فحذف التنوين ؛ مثل « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ أى على مكانتى أى على جهتى التى تمكنت عندى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[6] . وقرأ أبو بكر « مَكَانَاتِكُمْ » وقد مضى فى « الأنعام » .

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ و ٢٥٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣١٤ وص ٣١ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٤٠
(٥) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجدا عليه : كن حكيما فى أمرى كحكم زرقاء اليمامة فى حزرها الحمام التى مرت طائرة بها . وخبرها مشهور . والشراع : الموضع الذى ينحدر منه إلى الماء . والثمد : الماء القليل على وجه الأرض .
(٦) راجع جـ ٧ ص ٨٩ .

Marfat.com

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهينه ويذله أى فى الدنيا وذلك بالجوع والسيف . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أى فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١) تقدم الكلام فى هذه الآية مستوفى فى غير موضع .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أى يقبضها عند فناء آجالها ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ آختلف فيــه . فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقــاء أرواحها فى أجسادها ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ وهى النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها ؛ قاله آبن عيسى . وقال الفــراء : المعنى ويقبض التى لم تمت فى منامها عند آنقضاء أجلها . قال : وقد يكون توفيها نومها ؛ فيكون التقدير على هذا والتى لم تمت وفاتها نومها . وقال آبن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتق فى المنــام فتتعارف ماشاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يعيدها . قال على رضى الله عنه : فما رأته نفس النــائم وهى فى السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعــد إرسالها وقبل آستقرارها فى جسدها تلقيها الشياطين ، وتخيل إليهــا الأباطيل فهى الرؤيا الكــاذبة .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٨ فما بعد .

Marfat.com

وقال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون" . وقال عمر : النوم أخو الموت . وروى مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل : يارسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا ، النوم أخو الموت والجنــة لاموت فيها" خرجه الدارقطني . وقال ابن عباس : فى ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتميز ، والروح التى بهــا النفس والتحريك ، فإذا نام العبــد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه . وهــذا قول ابن الأنبارى والزجاج . قال القشيرى أبو نصر : وفى هــذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالين شىء واحد ؛ ولهــذا قال : « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فإذًا يقبض الله الروح فى حالين فى حالة النــوم وحالة الموت ، فــا قبضه فى حال النــوم فمعناه أنه يغمره بمــا يحبسه عن التصرف فكأنه شىء مقبوض ، وما قبضــه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . وقوله : « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يزيل الحابس عنه فيعود كما كان . فتوفى الأنفس فى حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة فى محل الإدراك . وتوفيها فى حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية . « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَــا الْمَوْتَ » بألا يخــلق فيها الإدراك كيف وقــد خلق فيها الموت ؟ « وَيُرْســِلُ الْأُخْرَى » بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانيـــة — وقد آختلف الناس من هذه الآية فى النفس والروح ؛ هل هما شىء واحد أو شيئان على ماذكرنا . والأظهر أنهما شىء واحد ، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح على مانذكره فى هذا الباب . من ذلك حديث أم سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سلمة وقد شــقّ بصرُه[1] فأغمضه ، ثم قال : "إن الروح إذا قُبِض تَبِعه البصرُ" وحديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصرُه" قال : فذلك حين يَتْبَع بَصَرُه نَفْسَه" خرجهما مسلم . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) شق بصره : أى آنفتح .

Marfat.com

" تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا آخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيّب آخرجى حميدة وأبشرى برَوْح وريحان وربّ راضٍ غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء " وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه آبن ماجه ؛ وقد ذكرناه فى « التذكرة » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها ". وذكر الحديث . وقال بلال فى حديث الوادى : أخذ بنَفْسى يارسول الله الذى أخذ بنفسك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلا له فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى : " يأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا فى حين غير هذا ".

الثالثة — والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة ، يُجذَب ويُخرَج وفى أكفانه يُلَف ويُدرَج ، وبه إلى السماء يُعرَج ، لا يموت ولا يفنى ، وهو مما له أوّل وليس له آخر ، وهو بعينين ويدين ، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة ؛ كما فى حديث أبى هريرة . وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض ؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله فى كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ »[1] يعنى النفس إلى خروجها من الجسد ؛ وهذه صفة الجسم . والله أعلم .

الرابعة — خرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسمّ الله فإنه لا يعلم ما خلَفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقّه الأيمن وليقل سبحانك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نَفْسى فآغفر لها " . وقال البخارى وآبن ماجه والترمذى : " فآرحمها " بدل " فاغفر لها " " وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " زاد الترمذى " وإذا آستيقظ فليقل الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىّ روحى وأذن لى بذكره ". وخرج البخارى عن حُذَيْفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ، ثم يقول : " اللهم باسمك أموت وأحيا " وإذا آستيقظ قال " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٠ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ هـذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل « ٱلْمَوْتَ » نصبا ؛ أى قضى الله عليها وهو آختيار أبى حاتم وأبى عبيد؛ لقوله فى أول الآية : « ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ » فهو يقضى عليها . وقـرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمـزة والكسائى « قُضِىَ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتُ » على ما لم يسم فاعله . النحاس ، والمعـنى واحد غير أن القـراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قـد أجمعوا على « وَيُرْسِلُ » ولم يقرءوا « ويُرسَل » . وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته وآنفـراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيى ويميت ، لا يقـدر على ذلك سـواه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعنى فى قبض الله نفس الميت والنائم ، وإرساله نفس النائم وحبسه نفس الميت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقال الأصمعى سمعت معتمرا يقـول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغَزْل(١) ، فترسل الروح ، فيمضى ثم تمضى ثم تطوى فتجيء فتدخل ؛ فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء فى حال النوم ومعظمها فى البدن متصل بمـا يخرج منها آتصالا خفيا ، فإذا آستيقظ المرء جذب معظم روحه ما آنبسط منها فعاد . وقيـل غير هذا ؛ وفى التنزيل : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى لا يعلم حقيقته إلا الله . وقد تقدم فى « سبحان »(٢) .

قوله تعـالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى بل آتخذوا يعنى الأصنام وفى الكلام ما يتضمن لم ؛ أى « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » لم يتفكروا ولكنهم آتخذوا آلهتهم شفعاء . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل : ما جمع منه . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ فما بعد .

Marfat.com

لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات . وهذا استفهام إنكار . ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده كما قال : « مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[1] فلا شافع إلا من شفاعته « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » . « جَمِيعاً » نصب على الحال . فإن قيل : « جَمِيعًا » إنما يكون للاثنين فصاعدا والشفاعة واحدة . فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدّى عن الاثنين والجميع ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس . ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ قال المبرد : انقبضت . وهو قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت . وقال المؤرّج أنكرت . وأصل الاشمئزاز النفور والازورار . قال عمرو بن كلثوم :

إذا عضّ الثِّقَافُ بها اشْمَأَزَّتْ * وولّتهم عَشَوْزَنَةً زَبُونَا[2]

وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور . وكان المشركون إذا قيل لهم «لا إله إلا الله» نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان حين ألقى الشيطان فى أمنية النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة « والنجم » تلك الغرانيقُ العُلَى وإن شفاعتهم تُرْتَجى[3] . قاله جماعة المفسرين . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى يظهر فى وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨

(٢) الثقاف ما تقوم به الرماح . وعشوزنة صلبة شديدة . والزبون الدفوع . والبيت فى وصف قناة ، وقبله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا . ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفى صحيح مسلم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضى الله عنها بأى شيء كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل آفتتح صلاته " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » آهدنى لما آختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم " ولما بلغ الربيع بن خُثَيْم قتل الحسين بن على رضى الله عنهم قرأ : «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . وقال سعيد بن جبير : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أى من سوء عذاب ذلك اليوم . وقد مضى هذا فى سورة « آل عمران » (١) و « الرعد » (٢) . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجل ما روى فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات . وقاله السدى . وقيل : عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة . ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ«بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» من دخول النار . وقال سفيان الثورى فى هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٧

Marfat.com

أخاف آية من كتاب الله « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ قيل : إنها نزلت فى حُذَيفة بن المغيرة . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : « عَلَى عِلْمٍ » عندى بوجوه المكاسب ، وعنه أيضا « عَلَى عِلْمٍ » على خير عندى . وقيل : « عَلَى عِلْمٍ » أى على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : « عَلَى عِلْمٍ » أى بعلم علمنى الله إياه . وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى بل النعم التى أوتيتها فتنة تختبر بها . قال الفراء : أنث « هى » لتأنيث الفتنة ، ولو كان بل هو فتنة لجاز . النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون إن أعطاءهم المال آختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة . ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « ما » للجحد أى لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقيل :

Marfat.com

أى فما الذى أغنى أموالهم؟ فـ « ما » ٱستفهام . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم . وقد يسمى جزاء السيئة سيئة . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بالجوع والسيف . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين الله ولا سابقيه . وقد تقدّم[(1)] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر ؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها . ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا وٱستدراجا ، وتقتيره رفعة وإعظاما .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وإن شئت حذفت الياء ؛ لأن النداء موضع حذف . النحاس : ومن أجلّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحق عن نافع عن ٱبن عمر عن عمر قال : لما ٱجتمعنا على الهجرة ، ٱتعدتُ

(1) راجع جـ ٧ ص ٨٨ و جـ ٨ ص ٣٥١ .

Marfat.com

أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهمى ، وعيَّاش بن أبى ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة(١) بنى غفار ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة وحُبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم آفتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل فى كتابه : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » إلى قوله تعالى : « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طُوًى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : كان قوم من المشركين قَتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فقالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أَوَ تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » ذكره البخارى بمعناه . وقد مضى فى آخر « الفرقان »(٢) . وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة ، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال آبن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه : وروى آبن جريج عن عطاء عن آبن عباس قال : أتى وَحْشىّ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد كنت أحبّ أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله " قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت

(١) الأضاة : غدير . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ فما بعد .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ » إلى آخر الآية فتلاها عليه ؛ فقال أرى شرطا فلعلي لا أعمل صالحا ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[(١)] » فدعا به فتلا عليه ؛ قال : فلعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت : «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» فقال : نعم الآن لا أرى شرطا . فأسلم . وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ : «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ولا يبالي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» . وفي مصحف ابن مسعود « إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ » . قال أبو جعفر النحاس : وهاتان القراءتان على التفسير ، أي يغفر الله لمن يشاء . وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده « وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا ، يدل على ذلك « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ[(٢)] لِمَنْ تَابَ » فهذا لا إشكال فيــه . وقال عليّ ابن أبي طالب : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وقد مضى هــذا في « سبحان[(٣)] » . وقال عبد الله بن عمر : وهذه أرجى آية في القرآن فردّ عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » وقد مضى في « الرعد[(٤)] » . وقرئ « وَلَا تَقْنِطُوا » بكسر النون وفتحها . وقد مضى في « الحجر[(٥)] » بيانه .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليــه بالطاعة . لمــا بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليــه ، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص . ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ في الدنيــا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٦		(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٢٩
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٢ فما بعد .		(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ فما بعد .
(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ فما بعد .

Marfat.com

﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أى لا تمنعون من عذابه . وروى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطاعة ويرزقه الإنابة ، وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله " .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن وكله حسن ، والمعنى ما قال الحسن : التزموا طاعته ، واجتنبوا معصيته . وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه . وقال ابن زيد : يعنى المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقال : أنزل الله كتبا التوراة والإنجيل والزبور ، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة . وقيل : يعنى العفو ؛ لأن الله تعالى خيّر نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص . وقيل ما علّم الله النبيّ عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن ؛ وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا ﴾ «أنْ» فى موضع نصب أى كراهة « أَنْ تَقُولَ » وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر « أَنْ تَقُولَ » . وقيل : أى من قبل « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » لأنه قال قبل هذا : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ » . الزمخشرى : فإن قلت لم نكّرت ؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس ، إمّا بلجاج فى الكفر شديد ، أو بعقاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى :

ورُبَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ * أتانى كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا ، ونظيره : رُبَّ بلدٍ قطعت ، ورُبَّ بطلٍ قارعت ، ولا يقصد إلا التكثير . « يَا حَسْرَتَا » والأصل « يَا حَسْرَتِى » فأبدل من الياء ألف ؛ لأنها أخف وأمكن فى الاستغاثة بمد الصوت ، وربما ألحقوا بها الهاء ؛ أنشد الفراء :

يا مَرْحباهُ بحمارِ ناجِيَهْ[1] * إذا أتَى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ

---

(١) الناجية : المسرعة . وفى تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روى فى اللسان وشرح القاموس فى مادة سنا . والسانية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء ؛ أراد قربته للسانية .

Marfat.com

ور بما ألحقوا بها الياء بعد الألف ؛ لتدل على الإضافة . وكذلك قرأها أبو جعفر : «يَا حَسْرَتَايَ» والحسرة الندامة . ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال الحسن : في طاعة الله . وقال الضحاك : أي في ذكر الله عز وجل . قال : يعني القرآن والعمل به . وقال أبو عبيدة : « في جنب الله » أي في ثواب الله . وقال الفراء : الجنب القرب والجوار ؛ يقال فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره ؛ ومنه «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ»(١) أي على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة . وقال الزجاج : أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه . والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنبا ؛ تقول : تجرعت في جنبك غصصا ؛ أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك . وقيل : « فِي جَنْبِ اللَّهِ » أي في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه ، والعرب تسمي الجانب جنبا ، قال الشاعر :

قُسِمَ مَجْهُودًا لِذَاكَ الْقَلْبُ * النَّاسُ جَنْبٌ وَالأَمِيرُ جَنْبُ

يعني الناس من جانب والأمير من جانب . وقال ابن عرفة : أي تركت من أمر الله ؛ يقال ما فعلت ذلك في جنب حاجتي ؛ قال كُثَيِّر :

أَلَا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ * له كَبِدٌ حَرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد ؛ أي ضيعت من أمر الله . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما جلس رجل مجلسا ولا مشى ممشى ولا اضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تِرَةً(٢) يوم القيامة " أي حسرة ؛ خرجه أبو داود بمعناه . وقال إبراهيم التيمي : من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره ، قد ورثه وعمل فيه بالحق ، كان له أجره وعلى الآخر وزره ، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل ، أو يرى رجلا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو . ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا وبأولياء الله [تعالى] : قال قتادة : لم يكفه أن ضيع

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٩ فما بعد . (٢) فسرها ابن الأثير في النهاية بالنقص أو التبعة .

Marfat.com

طاعة الله حتى سخر من أهلها . ومحل « إن كنت » النصب على الحال ؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر؛ أى فرطت فى حال سخريتى . وقيـل وما كنت إلا فى سخرية ولعب و باطـل؛ أى ما كان سعيى إلا فى عبادة غير الله تعـالى .

قوله تعـالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَـدَانِي ﴾ أى أرشدنى إلى دينه ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى الشرك والمعاصى . وهـذا القول لو أن الله هـدانى لاهتديت قول صـدق . وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهـم فى قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا »(1) فهى كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال علىّ رضى الله عنه لمـا قال قائل من الخوارج لا حـكم إلا لله . ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعنى هـذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أى رجعة . ﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمنى ،و إن شئت كان معطوفا على « كَرَّةً » لأن معناه أن أكر ؛ كما قال الشاعر(2) :

لَلُبْسُ عَبَـاءَةٍ وتَقَـرَّ عَيْنِي * أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء :

فَمَالَكَ مِنها غَيْرُ ذِكْرَى وخَشْيَةٍ * وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى ؛ لأن معنى الكلام فـالك منها إلا أن تذكر . ومنه للبس عباءة وتقر ؛ أى لأن ألبس عباءة وتقر . وقال أبو صالح : كان رجل عالم فى بنى إسرائيل وجد رقعة : إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النـار ، و إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة ؛ فقال : ولأى شيء أتعب نفسى فترك عمله وأخذ فى الفسوق والمعصية، وقال له إبليس : لك عمـر طويل فتمتع فى الدنيا ثم تتوب ، فأخذ فى الفسوق وأنفق ماله فى الفجور، فأتاه ملك الموت فى ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله؛ ذهب عمرى فى طاعة الشيطان ، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره فى القرآن . وقال

(1) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ (2) قائله ميسون بنت بحدل الكلبية .

Marfat.com

قتادة : هؤلاء أصناف ؛ صنف منهم قال : « يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ » . وصنف منهم قال : « لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وقال آخر : « لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فقال الله تعالى ردًا لكلامهم : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : « بَلَى » جواب النفي وليس في الكلام لفظ(١) النفي ، ولكن معنى « لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي » ما هداني ، وكأن هذا القائل قال ما هديت ؛ فقيل : بلى قد بيّن لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن . « آيَاتِي » أي القرآن . وقيل : عنى بالآيات المعجزات ؛ أي وضح الدليل فأنكرته وكذبته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال : « اسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ » وهو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى . يقال : ثلاثة أنفس . وقال المبرد ؛ تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد . وروى الربيع بن أنس عن أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « قَدْ جَاءَتْكِ آيَاتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وقرأ الأعمش « بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي » وهذا يدل على التذكير . والربيع ابن أنس لم يلحق أم سَلَمة إلا أن القراءة جائزة ؛ لأن النفس تقع للذكر والمؤنث . وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال : يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ ألا ترى أن قبله « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » ثم قال : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ » ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات . والتقدير في العربية على كسر التاء « وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ » من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين [أو من القوم الساخرين](٢) .

قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

(١) كلمة « لفظ » ساقطة من ل .　　(٢) ما بين المربعين ساقط من ل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أى مما حاط بهم من غضب الله ونقمته . وقال الأخفش : « تَرَى » غير عامل فى قوله : « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » إنما هو ابتداء وخبر . الزمخشرى : جملة فى موضع الحال إن كان «تَرَى» من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : " سفهُ الحقِّ وغَمْصُ النـاس " أى احتقارهم . وقد مضى فى «البقرة»[1] وغيرها . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم " يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذر يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن[2] جهنم " .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وقرئ : « وَيُنْجِي » أى من الشرك والمعاصى . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر . وقرأ الكوفيون : « بِمَفَازَاتِهِمْ » وهو جائز كما تقول بسعاداتهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة ، قال : " يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعْب أو خَوْف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنىّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفنى أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك فهى التى قال الله : « وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » " . ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وقائم به . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ واحدها مِقليد . وقيل : مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد . والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره . وقال السدى : خزائن السموات والأرض . وقال غيره : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات . وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد . قال الجوهرى : والإقليد المفتاح ، والمِقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القَتّ إذا جعل حِبالا[3] ؛ أى يفتل والجمع المقاليد . وأُقلِد البحرُ على خلق كثير أى غرّقهم كأنه أغلق عليهم . وخرج البيهقى عن ابن عمر أن عثمان بن عفان

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ (٢) كلمة «سجن» ساقطة من ل . (٣) فى ل : «حبل» بالحاء والباء .

Marfat.com

رضى الله عنـه سأل رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن تفسير قوله تعـالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما سألنى عنها أحد، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قـدير " ذكره الثعلبي فى تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال : أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره اثنـا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة ، والخامسة يزوجه الله من الحور العين ، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كمن حج واعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا . وروى الحارث عن علىّ قال : سألت رســول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : " ياعلىّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأوّل والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيـده الخير وهو على كل شيء قدير " من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا : أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليـه سلطان، والثـانية يعطى قنطارا فى الجنة هو أثقل فى ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين ، والخامسة يشهده اثنا عشر ألف مَلَك يكتبونها له فى رق منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج واعتمر فقبل الله حجته وعمرته، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء . وقيــل : المقاليد الطاعة يقـال ألق إلى فلان بالمقاليد أى أطاعه فيا يأمره ؛ فمعنى الآية له طاعة من فى السموات والأرض .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى بالقرآن والحجج والدلالات . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك . و « غير » نصب بـ « أَعْبُدُ » على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني . ويجوز أن ينتصب بـ « تَأْمُرُونِّي » على حذف حرف الجر؛ التقدير : أتأمروني بغير الله أن أعبده، لأن أن مقدرة وأن والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير : أتأمروني بعبادة غير الله . وقرأ نافع : « تَأْمُرُونِيَ » بنون واحدة مخففة وفتح الياء . وقرأ ابن عامر : « تَأْمُرُونَنِي » بنونين مخففتين على الأصل . الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة . وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع . وقد مضى في «الأنعام»(١) بيانه عند قوله تعالى : « أَتُحَاجُّونِّي » . « أَعْبُدُ » أي أن أعبد فلما حذف « أن » رفع؛ قاله الكسائي . ومنه قول الشاعر :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى(٢) *

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ « أَعْبُدَ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ قيل : إن في الكلام تقديما وتأخيرا؛ والتقدير : لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك . وقيل : هو على بابه؛ قال مقاتل : أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف . ثم قال : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ » يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبي

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩

(٢) البيت من معلقة طرفة وتمامه :
* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي *

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيـل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك . والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري : فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر ؛ ولهذا قال : « مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » فالمطلق ها هنا محمول على المقيد ؛ ولهذا قلنا: من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعي . وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في « البقرة »[1] بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ النحاس : في كتابي عن أبي إسحق لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ « اعْبُدْ » قال : ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين . قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل . وحكاه المهدوي عن الكسائي . فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة . وقال الأخفش : هي زائدة . وقال ابن عباس : « فاعْبُدْ » أي فوحّد . وقال غيره : « بَلِ اللَّهَ » فأطع ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد : ما عظّموه حقّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر . قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ . ثم نزّه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ .

Marfat.com

فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الترمذى عن عبد الله قال : جاء يهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" . وفى الترمذى عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » قالت : قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" فى رواية "على الصراط يا عائشة" قال : حديث حسن صحيح . وقوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » "و يقبض الله الأرض" عبارة عن قدرته و إحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال : ما فلان إلا فى قبضتى، بمعنى ما فلان إلا فى قدرتى، والناس يقولون الأشياء فى قبضته يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى إفناء الشىء و إذهابه فقوله جل وعز : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانيــة يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان : قوله « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا » ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتض للبالغة . وقوله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ليس يريد به طيًّا بعلاج وآنتصاب ، و إنمــا المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد آنطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره . وآنطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب . واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك ؛ ومنه قوله تعــالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَــانُكُمْ »(١) يريد به الملك؛ وقال « لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ »(٢) أى بالقوة والقدرة أى لأخذنا قوته وقدرته . قال الفــرّاء والمبرد : اليمين القوة والقدرة . وأنشدا :

(٣)
إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْــدٍ * تَلَقَّـاهَا عَرابــةُ بِالْيَمِــينِ

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١١ فــا بعد . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٥ فــا بعد .
(٣) قائله الحطيئة . وقيل هو للشماخ .

Marfat.com

وقال آخــــر :

ولمـا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نورُها * تَنـاولتُ مِنهـا حاجـتِي بِيَمينِ
قتلتُ شُنَيْفًا ثم فاران[1] بَعده * وكان على الآياتِ غـيرَ أمينِ

وإنمـا خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضـا؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِـذٍ لِلَّهِ »[2] وقال: « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » حسب ما تقدم فى « الفاتحة »[3] ولذلك قال فى الحـديث : " ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " وقد زدنا هذا الباب فى « التذكرة » بيانا، وتكلمنا على ذكر الشمال فى حديث ٱبن عمر قوله : " ثم يطوى الأرض بشماله " .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء وهو النفخ فى الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية وقد مضى الكلام فى هذا فى « النمل »[4] و « الأنعام »[5] أيضا. والذى ينفخ فى الصور هو إسرافيل عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريل لحديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن صاحبي الصور بأيديهما — أو فى أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران" خرجه ٱبن ماجه فى السنن . وفى كتاب أبى داود عن أبى سعيد الخدرى قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصُّور ، وقال: " عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل". وٱختلف فى المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعا من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى، ومن حديث عبـد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى . وقيـل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت [عليهم السلام . وروى من حديث أنس أن النبي صـلى الله عليه وسـلم تلا « وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَعِقَ مَنْ

(١) فى ح : « قاران » بالقاف بدل الفاء ولم نعثر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع . (٢) جـ ١٩ ص ٢٤٧
(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٢ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٠

Marfat.com

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » فقالوا : يا نبيّ الله من هم الذين آستثنى الله تعالى؟ قال: "هم جبريل وميكائيل و إسرافيل ومَلَك الموت] (١) فيقول الله تعالى لمَلَك الموت يا مَلَك الموت من بقي من خلق وهو أعلم فيقول يارب بقي جبريل وميكائيل و إسرافيل وعبدك الضعيف (٢) مَلَك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرائيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا مَلَك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت (٣) الفاني فيقول الله تعالى ياجبريل لابدّ من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطّود العظيم على الظّرِب (٤) من الظّراب " ذكره الثعلبي. وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله جل وعز : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » قال: " جبريل وميكائيل وحملة العرش ومَلَك الموت و إسرافيل " وفي هذا الحديث: " إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام " وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح على ما تقدّم في « النمل » (٥). وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزّبانية. وقيل : عقارب أهل النار وحياتها. وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت. وقال قتادة : الله أعلم بثنياه. وقيل : الآستثناء في قوله : « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أي فيموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته ؛ لأنهم كانوا قد ماتوا. وفي الصحيحين وآبن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي آصطفى موسى على البشر ؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك.
(٢) كلمة : « الضعيف » ساقطة من ك.
(٣) كلمة : « الميت » ساقطة من ك.
(٤) الظرب ككتف : الجبل الصغير والجمع ظراب. وقد يجمع في القلة على أظرب.
(٥) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١

Marfat.com

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "قال الله عز وجل: « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أو كان ممن آستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب" وخرجه الترمذى أيضا وقال فيه : حديث حسن صحيح. قال القشيرى : ومن حمل الآستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله . فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزه العقل، والأمر فى وقوعه موقوف على خبر صدق .

قلت : جاء فى بعض طرق أبى هريرة أنه عليه السلام قال : "لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش[1] بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن آستثنى الله" خرجه مسلم. ونحوه عن أبى سعيد الخدرى؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة . والله أعلم .

قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » أى فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذى وعدوا به . وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار ؛ أى ينتظرون ما يفعل بهم . وأجاز الكسائى قياما بالنصب ؛ كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا .

قوله تعالى : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(١) باطش بجانب العرش : أى متعلق به بقوة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت وشَرَقت إذا طلعت . ومعنى: « بِنُورِ رَبِّهَا » بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد؛ أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض . وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتى لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذى يقضى فيه بين خلقه؛لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير : « وأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ » على مالم يسم فاعله وهى قراءة على التفسير . وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن [مشابهة](١) المحسوسات، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا و إنشاء . وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح " تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامون فى رؤيته " وهو يروى على أربعة أوجه : لا تُضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارُّون؛ فمعنى "لا تضامُون" لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم فى الدنيا فى النظر إلى الملوك . و "لا تضارُون" لا يلحقكم ضير . و "لا تضامُّون" لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه . و "لا تضارُّون" لا يخالف بعضكم بعضا ؛ يقال : ضارّه مُضارّة(٢) وضرارا أى خالفه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ أى جىء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم . ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾(٣) الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) فى الأصول : « مباينة المحسوسات » وهو تحريف . (٢) فى ا ، ك ، ل : « ضارته ... خالفته » .
(٣) فى ا ، ح ، ك ، ل : « يشهدون » .

Marfat.com

محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » (١) . وقيل : المراد بالشهداء الذين آستشهدوا فى سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدى . قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . قال الله تعالى : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتى بيانه فى « قاف » (٢) . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق والعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود (٣) إلزاما للحجة .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة . والزُّمَر : الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « زُمَرًا » جماعات متفرقة بعضها إثر بعض . قال الشاعر :

وتَرَى النَّاسَ إلى مَنْزِلِه　＊　زُمَرًا تَنْتَابُه بَعْدَ زُمَرْ

وقال آخر :

حتّى آحْزَأَلَّتْ　＊　زُمَرٌ بعد زُمَرْ

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٣　　(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٤
(٣) كلمة : « والشهود » ساقطة من الأصل المطبوع .

Marfat.com

وقيل : دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جواب إذا، وهى سبعة أبواب . وقد مضى فى « الحجر »(١) . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ واحدهم خازن نحو سدنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى الكتب المنزلة على الأنبياء . ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ ﴾ أى يخوفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى ﴾ أى قد جاءتنا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وهى قوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »(٢) . ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا جهنم . وقد مضى الكلام فى أبوابها . قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع فى الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم بيانه(١) .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ يعنى من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال فى حق الفريقين : « وَسِيقَ » بلفظ واحد ، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزى والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ فما بعد وص ١٠٠

(٢) راجع جـ ٩ ص ١١٤

Marfat.com

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف . قال المبرد : أى سعدوا وفتحت ، وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب . وأنشد[1] :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ٭ وَلٰكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح . وقال الزجاج : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا » دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : الواو زائدة . قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى ، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة ، بدليل قوله : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ[2] » وحذف الواو فى قصة أهل النار ؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم . ذكره المهدوى وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول ، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وهو أنه لما قال الله عز وجل فى أهل النار : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال فى أهل الجنة : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها ؛ والله أعلم . وقيل : إنها واو الثمانية . وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية ، فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية . قاله أبو بكر بن عياش . قال الله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ[3] » وقال : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ » ثم قال فى الثامن : « وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وقال : « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ » وقال « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا[3] » وقد مضى القول فى هذا فى « براءة[4] » مستوفى وفى « الكهف[5] » أيضا .

---

(١) البيت لامرئ القيس . « وتموت جميعة » بمعنى أنه مريض فنفسه لا تخرج بمرة ، ولكنها تموت شيئا بعد شىء ، وهو معنى تساقط أنفسا . (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٥٩ ٢ وص ١٩٤

(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٧١ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ فما بعد .

Marfat.com

قلت : وقد آستدل بهـذا من قال إن أبواب الجنـة ثمـانية ؛ وذكروا حديث عمـر ابن الخطاب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "ما منكم من أحد يتوضأ فَيُبْلغ — أو فَيُسْبِـغ الوضوء[1] — ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمـانية يدخل من أيها شاء" خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذى حديث عمر هـذا وقال فيه : "فتح له من أبواب الجنة ثمـانية أبواب يوم القيـامة" بزيادة مِن ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وآنتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هنالك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد فى الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هنالك . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أى فى الدنيا . قال مجاهد : بطاعة الله . وقيـل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقـاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتَص لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : «سَلَامٌ عَلَيْـكُمْ» بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

قلت : خرج البخارى حديث القنطرة هذا فى جامعه من حديث[2] أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَخْلُص المؤمنون من النـار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيـا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا" وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[3]» ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» وهذا يروى معناه عن علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى إذا دخلوا الجنة

(١) يبلغ الوضوء : يوصل الوضوء إلى مواضعه ؛ فالوضوء فيه مفتوح الواو . ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المسنون ؛ فالوضوء فيه مضـموم الواو . (هامش مسلم) . (٢) فى الأصل المطبوع : «فى جامعه عن أبى سعيد...» .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥

Marfat.com

قالوا هـذا . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الجنة . قيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدى وأكثر المفسرين وقيل : إنهـا أرض الدنيا على التقديم والتأخير . قوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ قيل : هو من قولهم أى نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أى نعم ثواب المحسنين هذا الذى أعطيتهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ يا محمد ﴿ حَافِّينَ ﴾ أى محـدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أى يصلّون حول العرش شكرا لربهم . والحافون أخذ من حافات الشىء ونواحيه . قال الأخفش : واحدهم حاف . وقال الفراء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين . ودخلت « مِن » على « حَوْل » لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظرف بحرف وبغير حرف . وقال الأخفش : « مِنْ » زائدة أى حافين حول العرش . وهو كقولك : ما جاءنى من أحد، فمن توكيد . الثعلبي: والعرب تدخل الباء أحيانا فى التسبيح وتحذفها أحيانا ، فيقولون : سبح بحمد ربك، وسبح حمدًا لله؛ قال الله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » [1] وقال : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » [2] . ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بين أهل الجنة والنار . وقيل : قضى بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل . ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقال قتادة فى هذه الآية : افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » [3] وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلزم الاقتداء به ، والأخذ فى ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده . وقيل : إن قول « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه . ورُوِى من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قرأ على المنبر آخر سورة « الزمر » فتحرك المنبر مرتين .

تم تفسير سـورة « الزمر »

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٢ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٣

Marfat.com

تفسير سورة غافر ، وهى سورة المؤمن ، وتسمى سورة الطول

وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» والتى بعدها . وهى خمس وثمانون آية؛ وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفى مسند الدارمى قال : حدّثنا جعفر بن عون عن مِسعر عن سعد بن إبراهيم قال : كنّ الحواميم يسمين العرائس. وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحواميم ديباج القرآن" وروى عن ابن مسعود مثله . وقال الجوهرى وأبو عبيدة : وآل حم سور فى القرآن. قال ابن مسعود: آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم ؛ قال الكُمَيْت :

وَجَدْنا لكم فى آلِ حَامِيمَ آيةً * تَأَوَّلَها مِنَّا تَقِيّ ومُعْرِبُ (١)

قال أبو عبيدة: هكذا رواها الأموى بالزاى، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب . وقال أبو عبيدة : الحواميم سور فى القرآن على غير قياس ؛ وأنشد :

* وبالحواميم التى قد سُبِّعت (٢) *

قال : والأولى أن تجمع بذوات حم . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لكل شىء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحبّ أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم" . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : "مثل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب" ذكرهما الثعلبى . وقال أبو عبيد : وحدّثنى حجاج بن محمد عن أبى معشر عن محمد بن قيس قال : رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات فى النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم .

---

(١) الآية التى ذكرها هى قوله تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» يقول الشاعر : من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم ، وإبداء المودة . وتقى : ساكت عنه للتقية . ويروى : ثقى معرب ، كتكلم أى مبين لما فى نفسه . (٢) صدره : * وبالطواسين التى قد ثلثت . *

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿٢﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿٣﴾ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ اختلف فى معناه؛ فقال عكرمة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "« حم » اسم من أسماء الله تعالى وهى مفاتيح خزائن ربك" قال ابن عباس : « حم » اسم الله الأعظم. وعنه : « الر » و« حم » و « ن » حروف الرحمن مقطعة. وعنه أيضا : اسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وقال قتادة : إنه اسم من أسماء القرآن . مجاهد : فواتح السور . وقال عطاء الخراسانى : الحاء افتتاح اسمه حميدٌ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاح اسمه ملكٌ ومجيدٌ ومنّانٌ ومتكبرٌ ومصوّرٌ؛ يدلّ عليه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما « حم » فإنا لا نعرفها فى لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بدء أسماء وفواتح سور[(١)]" . وقال الضحاك والكسائى : معناه قُضِى ما هو كائن . كأنه أراد الإشارة إلى تهجى « حم » ؛ لأنها تصير حُمّ بضم الحاء وتشديد الميم ؛ أى قُضِى ووقع . قال كعب بن مالك :

فلما تلاقيناهم ودارت بنا الرحى * وليس لأمرٍ حمّه الله مدفع

وعنه أيضا : إن المعنى حُمّ أمر الله أى قرب ؛ كما قال الشاعر :

قد حُمّ يومى فسُرّ قومٌ * قومٌ بهم غفلةٌ ونومٌ

ومنه سميت الحُمَّى ؛ لأنها تقرّب من المنية . والمعنى المراد قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه كيوم بدر . وقيل : حروف هجاء ؛ قال الجَرْمى[(٢)] : ولهذا تقرأ ساكنة الحروف

(١) فى ح، ل : «سوره» . (٢) فى ل : «الجوهرى» .

Marfat.com

لخرجت مخرج التهجى ، وإذا سميت سورة بشىء من هذه الحروف أعربت ؛ فتقول : قرأت « حمَ » فتنصب ؛ قال الشاعر[١] :

يُذَكِّرنى حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ * فهلَّا تلا حاميمَ قَبلَ التقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفى : « حمَ » بفتح الميم على معنى آقرأ حم أو لالتقاء الساكنين . آبن أبى إسحق وأبو السَّمّال بكسرها ، والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين ، أو على وجه القسم . وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم . الباقون بالوصل . وكذلك فى حمٓ . عٓسٓقٓ » . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى وخلف وآبن ذكوان بالإمالة فى الحاء . وروى عن أبى عمرو بين اللفظين وهى قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة . الباقون بالفتح مشبعا .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ آبتداء والخبر ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون « تَنْزِيلُ » خبرا لمبتدإ محذوف؛ أى هذا « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » . ويجوز أن يكون«حم» مبتدأ و« تَنْزِيلُ » خبره والمعنى: أن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذّب به .

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ قال الفراء : جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة . وقال الزجاج : هى خفض على البدل . النحاس : وتحقيق الكلام فى هذا وتلخيصه أن « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين ، ويجوز أن يكونا للاستقبال والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل ، ويجوز النصب على الحال ، فأما « شَدِيدِ الْعِقَابِ » فهو نكرة ويكون خفضه على البدل . قال آبن عباس : « غَافِرِ الذَّنْبِ » لمن قال: «لا إله إلا الله» «وَقَابِلِ التَّوْبِ » ممن قال : « لا إله إلا الله » « شَدِيدِ الْعِقَابِ » لمن لم يقل : « لا إله إلا الله » . وقال ثابت البُنَانى : كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب ، قال : فآستفتحت « حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » فمر علىّ رجل على دابة فلما قلت « غَافِرِ الذَّنْبِ » قال : قل ياغافر الذنب آغفر لى ذنبى، فلما قلت : « قَابِلِ التَّوْبِ » قال :

(١) قاله شريح بن أوفى العبسى . وقيل هو للأشتر النخعى .

Marfat.com

قل يا قابل التوب تقبل توبتي ، فلما قلت : « شَدِيدِ الْعِقَابِ » قال : قل يا شديد العقاب آعف عني ، فلما قلت : « ذِي الطَّوْلِ » قال : قل يا ذا الطول طُلْ عليّ بخير ، فقمت إليه فأُخِذَ ببصري ، فآلتفت يمينا وشمالا فلم أر شيئا . وقال أهل الإشارة : « غَافِرِ الذَّنْبِ » فضلا « وَقَابِلِ التَّوْبِ » وعدا « شَدِيدِ الْعِقَابِ » عدلا « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » فردا . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه آفتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : آكتب من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذّرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمرُه قال : هكذا فآصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد[1] زلّ زلّة فسدّدوه وآدعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه . و « التَّوْبِ » يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا ، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم[2] ؛ ومنه قوله :

* فَيَخْبُو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا *

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة . قال أبو العباس : والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدرا ؛ أي يقبل هذا الفعل ، كما تقول قال قولا ، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات . ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ على البدل وعلى النعت ؛ لأنه معرفة[3] . وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه : اللهم طُلْ علينا أي أنعم وتفضل . قال آبن عباس : « ذِي الطَّوْلِ » ذي النعم . وقال مجاهد : ذي الغنى والسّعة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا[4] » أي غنى وسعة . وعن آبن عباس أيضا : « ذِي الطَّوْلِ » ذي الغنى عمن[5] لا يقول لا إله إلا الله . وقال عكرمة :

(١) لفظة : « قد » ساقطة من المطبوع . (٢) قائله القطامي وصدره :

* وكنا كالحريق أصاب غابا *

(٣) في المطبوع : « والتفضل » . (٤) راجع جـ ٥ ص ١٣٥ فما بعد . (٥) في نسخ الأصل : « عمن يقول » .

Marfat.com

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذى المنّ . قال الجوهرى : والطَّوْل بالفتح المنّ ؛ يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا آمتن عليه . وقال محمد بن كعب : « ذِي الطَّوْلِ » ذى التفضل ؛ قال الماوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب . والتفضل إحسان غير مستحق . والطول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدّة إنعامه . ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سجل سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر ، والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق ، و إطفاء نور الله تعالى . وقد دل على ذلك فى قوله تعالى (١) : « وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » . فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم فى آستنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » عند قوله تعالى (٢) : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ » مستوفى . ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ وقرئ : « فَلَا يَغُرَّكَ » ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ أى تصرفهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ فإنى و إن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال آبن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام و إلى اليمن . وقيل : « لَا يَغْرُرْكَ » ما هم فيه من الخير والسعة فى الرزق فإنه متاع قليل فى الدنيا . وقال الزجاج : « لَا يَغْرُرْكَ » سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن : قوله : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » ، وقوله (٣) : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) فى ل : « قوله تعالى » بإسقاط « فى » . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ .

Marfat.com

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أى كذبت الرسل . ﴿ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم . ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى ليحبسوه ويعذبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك؛ كقوله : « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ »(١) . والعرب تسمى الأسير الأخيذ؛ لأنه مأسور للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر :

فإمّا تأخذونى تقتلونى * فكم من آخذٍ يهوى خلودى(٢)

وفى وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم . الثانى عند نزول العذاب بهم . ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا . ومنه مكان دَحْض أى مَزْلَقة؛ والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر . قال يحيى بن سلّام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان . ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى عاقبة الأمم المكذبة . أى أليس وجدوه حقا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ ﴾ أى وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم . ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد . وقرأ نافع وابن عامر : « كَلِمَاتُ » جمعا .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٣ . (٢) فى تفسير السمين : * وكم من واحد يهوى خلودى *

Marfat.com

﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ ﴾ قال الأخفش : أى لأنهم وبأنهم . قال الزجاج : ويجوز إنهم بكسر الهمزة . ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أى المعذبون بها وتم الكلام . ثم ٱبتدأ فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويروى : أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم . ففى الحديث : " أن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة ". ويقال : خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد(1) إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وقرأ ٱبن عباس : « الْعُرْشُ » بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشرى رحمه الله . وقيل : ٱتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى — والله أعلم — « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى . وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به؛ كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به وٱستقباله فى الصلاة . وروى ٱبن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام " ذكره البيهقى وقد مضى فى « البقرة »(2) فى آية الكرسى عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات . وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقا أعظم منى؛ فٱهتز فطوقه الله بحية، للحية

(1) فى ل : « ما منهم من أحد » . (2) راجع جـ ٣ ص ٢٧٦ فما بعد .

Marfat.com

سبعون ألف جناح ، فى الجناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشـة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان . يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية به[(1)] . وقال مجاهد : بين السماء السابعة و بين العرش سبعون ألف حجاب ، حجاب نور وحجاب ظُلْمة ، وحجاب نور وحجاب ظلمة . ﴿ رَبَّنَـا ﴾ أى يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير . ﴿ فَٱغْفِـرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى من الشرك والمعاصى ﴿ وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أى دين الإســلام . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أى آصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم[(2)] . قال إبراهيم النخعى : كان أصحاب عبـد الله يقولون الملائكة خير من آبن الكَوّاء، هم يستغفرون لمن فى الأرض وآبن الكَوّاء يشهد عليهم بالكفر، قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الآستغفار عن أحد من أهل القبلة . وقال مطرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هـذه الآية . وقال يحيى بن معاذ الرازى لأصحابه فى هذه الآية : آفهموها فما فى العالم جنة أرجى منها؛ إن مَلَكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحَمَلة العرش يستغفرون للمؤمنين . وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ثم قال : ياخلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائمـا على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَـا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن . قال : قصـور من ذهب فى الجنـة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل . ﴿ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ « التى » فى محل نصب نعتا للجنات . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ « مَنْ » فى محل نصب عطفا على الهاء والميم فى قوله : « وَأَدْخِلْهُمْ » . « وَمَنْ صَلَحَ » بالإيمان

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التى يحشرها أهل القصص وليس مما يصح .
(٢) فى ح، ز، ل : « عنهم لا يصل » .

Marfat.com

﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ وقد مضى فى « الرعد »[1] نظير هذه الآية . قال سعيد ابن جُبير : يدخل الرجل الجنة ، فيقول : يارب أين أبى وجدّى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك ؛ فيقول : يارب كنت أعمل لى ولهم ؛ فيقال أدخلوهم الجنة . ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » . ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال قتادة : أى وقهم ما يسوءهم ، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمر[3] من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر ؛ أى حفظه . ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أى بدخول الجنة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى النجاة الكبيرة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال الأخفش : « لَمَقْتُ » هذه لام الابتداء وقعت بعد « يُنَادَوْنَ » لأن معناه يقال لهم والنداء قول . وقال غيره : المعنى يقال لهم : « لَمَقْتُ اللَّهِ » إياكم فى الدنيا ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ « أَكْبَرُ » من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة ؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة ، فأذعنوا عند ذلك ، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبى : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يانفس ؛ فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت الله

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ فما بعد . (٢) فى ا ، ح ، ل : « والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم » وهى قراءة . راجع جـ ١٧ ص ٦٦ . (٣) بل هو دعاء لأنه من الخلق إلى الخالق .

Marfat.com

إياكم إذ أنتم فى الدنيا وقد بعث إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون « لَمَقْتُ اللَّهِ » إياكم فى الدنيا « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » اليوم . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : المعنى « لَمَقْتُ اللَّهِ » لكم « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » إذ عاينتم النار . فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان : أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت . الثانى أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى ، وعلموا أن نفوسهم هى التى أبقتهم فى المعاصى مقتوها . وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل النار لما يئسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك : « إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » على ما يأتى . قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون ، فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا ، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم ، ثم جزعوا فنادوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » أى من ملجإ ؛ فقال إبليس عند ذلك : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » إلى قوله : « مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ » يقول : بمغن عنكم شيئا « إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ » فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم . قال[(١)] : فنودوا « لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » إلى قوله : « فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » قال فرد عليهم : « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ذكره ابن المبارك .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى قولهم : « أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله[(٢)] تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسألة ، ثم أميتوا ثم أحيوا فى الآخرة . وإنما صار إلى هذا ؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على

---

(١) لفظ « قال » ساقط من ح . (٢) فى ا ، ح ، ز ، ل : « كقوله » .

Marfat.com

النطفة . وٱستدل العلماء من هـذا فى إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، وهو حىّ لنفسه لا يتطرّق إليه موت ولا غشية ولا فناء . وقال ٱبن زيد فى قوله : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ » الآية قال : خلقهم فى ظهر آدم وأخرجهم[1] وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. وقد مضى هذا فى «البقرة»[2].

﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ ٱعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم . ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أى هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظيره : « هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ »[3] وقوله : « فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا »[4] وقوله : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ »[5] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ « ذَٰلِكُمْ » فى موضع رفع أى الأمر « ذَٰلِكُمْ » أو « ذَٰلِكُم » العذاب الذى أنتم فيه بكفركم . وفى الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد . وذلك لأنكم « إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ » أى وُحِّد الله « وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ » وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله . قال الثعلبى : وسمعت بعض العلماء يقول : ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان [به][6] ﴿ تُؤْمِنُوا ﴾ تصدقوا المشرك ؛ نظيره : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ». ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

(١) ا، ح، ز، ل : «وراءنخرجهم» . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٩٥ . (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٠٨ . (٦) من « ح » .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان. وهذه الآيات هي السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يرجع إلى طاعة الله. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أي آعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة. وقيل: الطاعة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ «ذُو الْعَرْشِ» على إضمار مبتدأ. قال الأخفش: ويجوز نصبه على المدح. ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» أي رفيع الصفات. وقال آبن عباس والكلبي وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع. وقال يحيى بن سلام: هو رفعة درجة أوليائه في الجنة فـ «رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع فعيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذي لا أرفع قدرا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمي. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» والحمد لله. «ذُو الْعَرْشِ» أي خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان أي زال ملكه وعزه، فهو سبحانه «ذُو الْعَرْشِ» بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي الوحي والنبوة «عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»، وسمي ذلك روحا لأن الناس يحيون به؛ أي يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح. وقال آبن زيد: الروح القرآن؛ قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»[(1)]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»[(2)] وقال: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»[(3)]. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي من قوله. وقيل: من قضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء أي بأمره. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة.

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٨ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٧٦ .

Marfat.com

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أى إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث . فقوله : «لِيُنذِرَ» يرجع إلى الرسول . وقيل : أى لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق « يَوْمَ التَّلَاقِ » . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْقَع «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطابا للنبي عليه السلام . «يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ابن عباس وقتادة : يوم تلتقى أهل السماء وأهل الأرض . وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل : يلتقى[1] فيه الخلق والخالق . وقيل : العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : يلقى كل إنسان جزاء عمله . وقيل : يلتقى الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روى معناه عن ابن عباس . وكله صحيح المعنى . ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلا من يوم الأول . وقيل : « هُمْ » فى موضع رفع بالابتداء و « بَارِزُونَ » خبره والجملة فى موضع خفض بالإضافة ؛ فلذلك حذف التنوين من « يَوْمَ » وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛ تقول لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ . فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ . ومعنى : « بَارِزُونَ » خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدم[2] فى « طه » بيانه . ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ قيل : إن هذا هو العامل فى « يَوْمَ هُم بَارِزُونَ » أى لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم « يَوْمَ هُم بَارِزُونَ » . ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وذلك عند فناء الخلق . وقال الحسن : هو السائل تعالى وهو المجيب ؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه سبحانه[3] فيقول: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . النحاس : وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر مناد ينادى «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فيقول المؤمنون هذا [الجواب][4] سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا . فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيه ، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

(١) فى الأصول : « يلتق » ما عدا الأصل المطبوع « يلق » . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ فما بعد .

(٣) فى ا ، ح ، ز ، ل : « فيجيب نفسه لمن الملك فيقول ... » . وجملة « لمن الملك » مقحمة .

(٤) ما بين المربعين من حاشية الجمل نقلا عن القرطبى .

Marfat.com

قلت : والقول الأول ظاهر جدا؛ لأن المقصود إظهار ٱنفراده تعالى بالملك عند ٱنقطاع دعاوى المدّعين وٱنتساب المنتسبين ؛ إذ قد ذهب كلّ مَالِك ومُلْكه ومتكبّر وملكه وٱنقطعت نسبهم ودعاويهم ، ودلّ على هـذا قوله الحق عند قبض [الأرض](١) والأرواح وطيّ السماء : " أنا الملك أين ملوك الأرض " كما تقـدّم في حديث أبي هريرة وفي حديث ٱبن عمر ، ثم يطوي الأرض بشماله [والسموات بيمينه](١)، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون . وعنه قوله سبحانه : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» هو ٱنقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر . قال محمد بن كعب قوله سبحانه : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» [يكون](١) بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» لأنه بقي وحده وقهر خلقه . وقيل : إنه ينادي منادٍ فيقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فيجيبه أهل الجنة : «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» فالله أعلم . ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده «الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» من خير أو شر . ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحسّاب ؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمـه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة . وقـد مضى هذا المعنى في «البقرة»(٢) . وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ

(١) ما بين المربعين من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ .

Marfat.com

لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أى يوم القيامة. سميّت بذلك لأنها قريبة؛ إذ كل ما هو آتٍ قريب . وأزِف فلانٌ أى قرب يأزَف أَزَفًا؛ قال النابغة :

أزِف التّرحُّلُ غيرَ أنّ ركابَنا * لمّا تزلْ برحالنا وكأنْ قدِ

أى قرب. ونظير هذه الآية : «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ»(1) أى قربت الساعة. وكان بعضهم يتمثل و يقول :

أزِفَ الرّحيلُ وليس لى من زادِ * غيرُ الذُّنُوب لشِقْوتى ونَكادى

﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى . قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس «لَدَى الْحَنَاجِرِ» فى حال كظمهم. وأجاز الفراء أن يكون التقدير «وأَنْذِرْهُمْ» كَاظِمِينَ. وأجاز رفع « كَاظِمِينَ » على أنه خبر للقلوب . وقال : المعنى إذ هم كاظمون. وقال الكسائى : يجوز رفع ﴿ كاظمين ﴾ على الابتداء. وقد قيل : إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب . وكذا ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ عند حضور المنية . والأوّل أظهر . وقال قتادة: وقعت فى الحناجر من المخافة فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾(2) . وقيل ، هذا إخبار عن نهاية الجزع ؛ كما قال : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾(3) وأضيف اليوم إلى ﴿ الآزِفَةِ ﴾ على تقدير يوم القيامة ﴿الآزِفَةِ﴾ أو يوم المجادلة ﴿الآزِفَةِ﴾ . وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشىء إلى

---

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٢١ . (2) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦ .

(3) راجع جـ ١٤ ص ١٤٤ فما بعد .

Marfat.com

نفسه مثل مسجد الجامع وصـلاة الأولى . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى من قريب ينفع ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة . وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها . وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفـلة تدسّس بالنظر ، فإذا نظر إليـه أصحابه غضّ بصره ، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ[1] لو نظر إلى عورتها . وقال مجاهد : هى مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . وقال قتادة : هى الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى . وقال الضحاك : هى قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى . وقال السدى : إنها الرمز بالعين . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . وقال الفراء : « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » النظرة الثانية « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » النظرة الأولى . وقال ابن عباس : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى هل يزنى بها لو خلا بها أو لا . وقيل : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » تكنّه وتضمره . ولمـا جىء بعبد الله بن أبى سرح[2] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضى الله عنه ، صمت رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : "ما صمتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار فهلّا أومأتَ إلىّ يا رسول الله ؛ فقال : "إن النبي لا تكون له خائنة أعين" . ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى يجازى من غضّ بصره عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك . وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وهشام : « تَدْعُونَ » بالتاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ « هو » زائدة فاصلة . ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن .

(١) فى ا ، ز ، ل ، ن « أن يوده » .
(٢) عبد الله بن أبى سرح : كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة . راجع جـ ٧ ص ٤٠ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ فى موضع جزم عطف على « يَسِيرُوا » ويجوز أن يكون فى موضع نصب على أنه جواب ، والجزم والنصب فى التثنية والجمع واحد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ اسم كان والخبر فى « كَيْفَ » . و ﴿ وَاقٍ ﴾ فى موضع خفض معطوف على اللفظ . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى غير موضع(1) فأغنى عن الإعادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » وقد مضى تعيينها(2) . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة واضحة بينة ، وهو يذكر و يؤنث . وقيل : أراد بالسلطان التوراة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

---

(1) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ فما بعد .

(2) راجع ج ١٠ ص ٣٣٥ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُوا ٱقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقمّل والدّم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي في خسران وهلاك ، و إن الناس لا يمتنعون من الإيمان و إن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ « أَقْتُلْ » جزم ؛ لأنه جواب الأمر « وَلْيَدْعُ » جزم ؛ لأنه أمر و « ذَرُونِي » ليس بمجزوم و إن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبني . وقيل : هذا يدلّ على أنه قيل لفرعون : إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أي لا يهولنّكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي عبادتكم لي[(1)] إلى عبادة ربه ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض[(2)] الفساد . أي يقع بين الناس بسببه الخلاف . وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو : « وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وقراءة الكوفيين « أَوْ أَنْ يَظْهَرَ » بفتح الياء « الْفَسَادُ » بالرفع وكذلك هي في مصاحف الكوفيين : « أو » بألف و إليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن « أو » تكون بمعنى الواو . النحاس : وهذا عند حُذّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن في ذلك بطلان المعاني ، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لما ٱحتيج إلى هذا ها هنا ؛ لأن معنى الواو « إِنِّي أَخَافُ » الأمرين جميعا ومعنى « أَوْ » لأحد الأمرين أي « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ » فإن أعوزه ذلك أظهر في الأرض الفساد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لما هدده فرعون بالقتل ٱستعاذ موسى بالله ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي متعظم عن الإيمان بالله ، وصفته أنه ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

(١) لفظة « لي » ساقطة من ل ، ز . (٢) لفظة « في الأرض » ساقطة من أ ، ز ، ل .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ » ذكر بعض المفسرين : أن آسم هذا الرجل حبيب . وقيــل : شمعان بالشين المعجمة . قال السُّهيلي : وهو أصح ما قيل فيــه . وفى تاريخ الطبرى رحمه الله : آسمه خبرك(١) . وقيل : حزقيل . ذكره الثعلبي عن آبن عباس وأكثر العلماء . الزمخشرى : وآسمه سمعان أو حبيب . وقيل خربيل أو حزبيل . وآختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقــال الحسن وغيره : كان قبطيا . ويقــال : إنه كان آبن عم فرعون ؛ قاله السدى . قال : وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » وهذا الرجل هو المراد بقوله تعالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى »(٢) الآية . وهذا قول مقاتل . وقال آبن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير آمرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى فقال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

[وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم"(٣)] وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم أى لا تعجب من مشركى قومك . وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء . وقيل : كان هذا الرجل من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ؛ عن السّدى أيضا . ففى الكلام على هــذا تقديم وتأخير ، والتقدير : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون . فمن جعل الرجل قبطيا

---

(١) فى هامش الطبرى طبع أوربا « خبرك » وجبرك . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦٦ .

(٣) الزيادة أوردها الجمل فى حاشيته عن القرطبى .

Marfat.com

ف« مِن » عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أى من أهله وأقاربه . ومن جعله إسرائيليا ف«مِن» متعلقة ب«يكتم» فى موضع المفعول الثانى ل« يكتم » . القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه . قال الله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا »(1) وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول .

الثانيـة ـ قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أى لأن يقول ومن أجل « أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ » ف« أَنْ » فى موضع نصب بنزع الخافض . ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى الآيات التسع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه فى رسالته وصدقه ، ولكن تلطفا فى الاستكفاف واستنزالا عن الأذى . ولو كان و« إِنْ يكن » بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبى العباس . ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أى إن لم يصبكم إلا بعض الذى يعدكم به هلكتم . ومذهب أبى عبيدة أن معنى « بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » كل الذى يعدكم وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكنـةٍ إذا لم أرضَها * أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمَامُها(2)

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله فى الوعيد، وهذا ترقيق الكلام فى الوعظ . وذكر الماوردى : أن البعض قد يستعمل فى موضع الكل تلطفا فى الخطاب وتوسعا فى الكلام ؛ كما قال الشاعر(3) :

قَدْ يُدْرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجتِه * وقد يكون مع المستعجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضا : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع . وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين . وقيل : أى يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا

(1) راجع جـ ٥ ص ١٩٩ (2) ويروى : أو يعتلق بدل يرتبط كما فى اللسان . (3) هو عمر القطامى .

Marfat.com

وهو بعض الوعيد ، ثم يترادف العذاب فى الآخرة أيضا . وقيل : وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا ، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ [على نفسه][1] ﴿ كَذَّابٌ ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هـذا من قول المؤمن . وقيل : « مُسْرِفٌ » فى عناده « كَذَّابٌ » فى آدعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ قال القـاضى أبو بكر بن العربى : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمـانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا بآعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه . فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك ، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه ؛ بمـا لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا وإن لم يتلفظ بلسانه ، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره ، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف ، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعـــة ــ روى البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ماصنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » لفظ البخارى . خرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : آجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فأقبل هذا يجؤه[2] وهـذا يتلتله ، فاستغاث النبى صلى الله عليه وسـلم يومئذ فلم يغثه[3] أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا

(١) ساقط من ل . (٢) وجاه يجؤه وجأ ضربه . والتلتلة التحريك والإقلاق والزعزعة .
(٣) فى ح « يومئذ فلم يغثه يومئذ أحد » .

Marfat.com

ويقول بأعلى صوته : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ » والله إنه لرسول الله ؛ فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ . فقال علي : والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قلت : قول علي رضي الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد في أول أمره بخلاف الصديق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه . في « نوادر الأصول » أيضا عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها : ما أشد شيء رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا في المسجد ، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم، فقالوا : ألست تقول كذا في آلهتنا قال : "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال له : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام .

قوله تعالى : يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

Marfat.com

وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفى قوله « يَا قَوْمِ » دليل على أنه قبطى، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال : « يَاقَوْمِ » ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه « لَكُمُ الْمُلْكُ » فاشكروا الله على ذلك . ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى غالبين وهو نصب على الحال أى فى حال ظهوركم . والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره؛ كقوله : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ »(١) أى فى أرض مصر . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى من عذاب الله تحذيرا لهم من نقمه إن كان موسى صادقا ، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فى تكذيب موسى والإيمان بى .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ﴾ زادهم فى الوعظ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد .

قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ زاد فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ . وقراءة العامة ﴿ التَّنَادِ ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة ؛ قال أمية بن أبى الصلت :

وبثَّ الخلق فيها إذ دحاها * فهم سكانها حتى التَّنَاد

سمى بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا ؛ فينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار : ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾(٢) وينادى أصحاب النار [أصحاب الجنة](٣): ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾(٢) وينادى المنادى أيضا بالشقوة

(١) راجع جـ ٩ ص ٢١٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ (٣) ما بين المربعين ساقط من ز، ل، ن .

Marfat.com

والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادي الملائكة أصحاب الجنة : « أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(١) وينادى حين يذبح الموت : يأهل الجنة خلود لا موت و يأهل النار خلود لا موت . وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء . وقرأ الحسن وابن السميقع و يعقوب وابن كثير ومجاهد : « التَّنَادِي » بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل . وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة « يوم التَّنَادِّ » بتشديد الدال . قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ إذا مَرَّ على وجهه هاربا ؛ كما قال الشاعر(٢) :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخافتي　　＊　　نَوادِيَها أَسْعَى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا في القيامة . قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ؛ فذلك قوله : « يَوْمَ التَّنَادِّ » . وقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية(٣) . وقوله : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا »(٤) ذكره ابن المبارك بمعناه . قال : وأخبرنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال : حدثنا عبدالجبار بن عبيدالله بن سلمان في قوله [تعالى] : « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح . قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين . وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع . ذكره علي بن معبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة ، وفيه " فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨　　(٢) هو طرفة . في اللسان : نواديه أمشي . يقول : إبل باركة نيام ، ونواديها أي ما ندّ منها . و يروى هواديها أي أوائلها . أي أثارت مخافتي نوادي هذا البرك حال مشي إليه بالسيف .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٨　　(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٥

Marfat.com

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها و يولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى : « يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » الحديث بكماله . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك . وروى عن علىّ بن نصر عن أبى عمرو إسكان الدال من « التَّنَادْ » فى الوصل خاصة . وروى أبو معمر عن عبد الوارث زيادة الياء فى الوصل خاصة وهو مذهب ورش . والمشهور عن أبى عمرو حذفها فى الحالين . وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدّم . وقيل : سمّى يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادى فيه بالويل والثبور والحسرة . قاله ابن جريج . وقيل : فيه إضمار أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ والله أعلم . ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ على البدل من « يَوْمِ التَّنَادِ » ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خلق الله فى قلبه الضلال فلا هادى له . وفى قائله قولان : أحدهما موسى . الثانى مؤمن آل فرعون وهو الأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قيل : إن هذا من قول موسى . وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف ابن يعقوب جاءهم بالبينات « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »(١) قال ابن جريج : هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا . وقال ابن عباس : هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٢

Marfat.com

عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك : أن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف . وقال وهب بن منبّه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر . وغيره يقول : هو آخر . النحاس : وليس فى الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدّقوه بها . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أى أسلافكم كانوا فى شك . ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أى من يدعى الرسالة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أى مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاك فى وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى فى حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى بغير حجة و برهان و « الَّذِينَ » فى موضع نصب على البدل من « مَنْ » وقال الزجاج : أى كذلك يضل الله الذين يجادلون فى آيات الله فـ « الَّذِينَ » نصب . قال : و يجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ . ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون . وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى . « مَقْتًا » على البيان أى « كَبُرَ » جدالهم « مَقْتًا » ؛ كقوله : « كَبُرَتْ كَلِمَةً »[(1)] ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم و إحلال العذاب بهم . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أى يختم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق . وقراءة العامة « عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ » بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد . وفى الكلام حذف والمعنى : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ » على كل « مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » فحذف « كُلّ » الثانية لتقدّم ما يدلّ عليها . و إذا لم يقدر حذف « كلّ » لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . و إنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا . ومما يدل على حذف « كُلّ » قول أبى دُؤَاد[(2)] :

أكُلَّ امرئٍ تحسبين امرأً * ونارٍ توقَّدُ بالليلِ نارا

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ . (2) هو جارية بن الحجاج الإيادى . وقيل اسمه حنظلة بن الشرقى ، وكان فى عصر كعب بن مامة الإيادى الذى يضرب به المثل فى الجود . « الشعر والشعراء لابن قتيبة » .

Marfat.com

يريد وكل نارٍ . وفى قراءة ابن مسعود « عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وٱبن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام « قلبٍ » منون على أن « متكبرٍ » نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أى على كل ذى قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم ، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح . وقد مضى فى « القصص »[1] ذكره . ﴿ لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ « أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ » بدل من الأول . وأسباب السماء أبوابها فى قول قتادة والزهرى والسدى والأخفش ؛ وأنشد :

ومَنْ هاب أَسْبَابَ المنايا يَنَلْنَهُ * ولَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[2]

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التى تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيما؛ لأن الشىء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه[3] . والله أعلم . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ فأنظر اليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٨٨ فما بعد . (٢) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى .
(٣) فى ح « لبيانه » .

Marfat.com

يدعى الألوهية و يرى تحقيقها بالجلوس فى مكان مشرف . وقراءة العامة « فَأَطَّلِعُ » بالرفع نسقا على قوله : « أَبْلُغُ » وقرأ الأعرج والسُّلَمىّ وعيسى وحفص « فَأَطَّلِعَ » بالنصب ؛ قال أبو عبيدة : على جواب « لعل » بالفاء . النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب ٱطلعت . ومعنى الرفع « لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » ثم لعلى أطلع بعد ذلك ؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أى و إنى لأظن موسى كاذبا فى ٱدعائه إلها دونى، و إنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة . وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله . وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أى وأنا أتيقن أنه كاذب ، و إنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [أى كما قال هذه المقالة وارتاب زين له الشيطان أو زين الله سوء عمله](١) أى الشرك والتكذيب . ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ قراءة الكوفيين « وصُدَّ » على ما لم يسم فاعله وهو ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ ويجوز على هذه القراءة « وصِدّ » بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد ؛ وهى قراءة يحيى بن وثاب وعلقمة . وقرأ ٱبن أبى إسحق وعبد الرحمن بن بكرة « وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ » بالرفع والتنوين . الباقون «وَصَدَّ» بفتح الصاد والدال . أى صد فرعون الناس عن السبيل . ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ أى فى خسران وضلال،ومنه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ »(٢)وقوله : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ »(٣) وفى موضع « غَيْرَ تَخْسِيرٍ »(٤) فهذا الله صرحه وغرّقه هو وقومه على ما تقدّم(٣) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

(١) ما بين المربعين ساقط من المطبوع . وفى ن « وزين له سوء عمله » .	(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٩٥ وص ٥٩ .	(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ فما بعد .

Marfat.com

حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ
دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى
ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون؛ أى اقتدوا بى فى الدين . ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى طريق الهدى وهو الجنة . وقيل : من قول موسى . وقرأ معاذ بن جبل « الرَّشَّادِ » بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشد ولا يكون فَعَّال من أفعل إنما يكون من الثلاثى ، فإن أردت التكثير من الرباعى قلت : مِفْعال . قال النحاس : يجوز أن يكون رشّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ، ولكن كما يقال لآّل من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه . ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أى صاحب رشّاد ؛ كما قال :

* كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ (1) *

الزمخشرى : وقرئ «الرَّشَّاد» فَعَّال من رَشِد بالكسر كعَلّام أو من رَشَد بالفتح كعبّاد . وقيل : من أرشد كجبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجىء إلا فى عدة أحرف : نحو دراك وسآر وقصّار وجبّار . ولا يصح القياس على هذا القليل . ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج وبتّات (2) غير منظور فيه إلى فعل . ووقع فى المصحف «اتَّبِعُونِ»

(1) البيت للنابغة الذبيانى وتمامه : * وليل أقاسيه بطىء الكواكب *

(2) العواج : بياع العاج ؛ والبتات : بياع البت وهو كساء غليظ .

Marfat.com

بغير ياء . وقرأها يعقوب وآبن كثير بالإثبات فى الوصل والوقف . وحذفها أبو عمرو ونافع فى الوقف وأثبتوها فى الوصل ، إلا ورشا حذفها فى الحالين ، وكذلك الباقون ؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول . ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى الاستقرار والخلود . ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان . بيّن ذلك بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعنى الشرك ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال آبن عباس : يعنى لا إله إلا الله . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء . ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وهى قراءة آبن كثير وآبن مُحَيْصن وأبى عمرو ويعقوب وأبى بكر عن عاصم ، يدل عليه ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ أى إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ بيّن أن ما قال فرعون من قوله : « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » سبيل الغىّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى آتباعه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ . ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ تقدّم الكلام فيه (١) ، ومعناه حقا . ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ « مَا » بمعنى الذى ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال الزجاج : ليس له آستجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ . وقال الكلبي : ليس له شفاعة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكان فرعون أوّلا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تُعبَد ما كانت شابة ، فإذا هَرِمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى . ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ قال قتادة وآبن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبي : هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها . وقال عِكرمة : الجبارون

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٠

Marfat.com

والمتكبّرون. وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله . وهذا جامع لما ذكر. و«أنّ» فى المواضع فى موضع نصب بإسقاط حرف الجر . وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن « لاجَرَمَ » رد لكلام يجوز أن يكون موضع « أنّ » رفعا على تقدير وجب أن ما تدعوننى إليه ، كأنه قال : وجب بطلان ما تدعوننى إليه ، والمردّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد . و «ما» يجوز أن تكون بمعنى الذى أى الذى أقوله لكم . ويجوز أن تكون مصدرية أى فستذكرون قولى لكم إذا حلّ بكم العذاب . ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقد قيل : القائل موسى . والأظهر أنه مؤمن آل فرعون ؛ وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فوض أمره إلى الله . قال قتادة : كان قبطيا فنجاه الله مع بنى إسرائيل . فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون . وقيل : إنها لموسى على ما تقدّم من الخلاف . ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ قال الكسائى : يقال حاق يحيق حَيْقا وحُيُوقا إذا نزل ولزم . ثم بين العذاب فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعا على البدل من «سُوءُ» . ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء . وقال الفراء : يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون ، فهذه أربعة أوجه فى الرفع، وأجاز الفراء النصب ؛ لأن بعدها عائدا وقبلها ما يتصل به ، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من « الْعَذَابِ » . والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ . واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت

Marfat.com

عذاب القبر بقوله : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » ما دامت الدنيا . كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقـاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القـبر في الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿وَيَوْمَ تَقُـومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . وفي الحديث عن ابن مسعود : أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النـار بالغداة والعشي فيقال هذه داركم . وعنـه أيضا : إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها . وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت ميمون بن [مهران](١) يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي : أصبحنا والحمد لله وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوّذ بالله من النار. وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشيّ" ثم تلا « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وإن المؤمن إذا مات عُرِض روحه على الجنة بالغَدَاة والعشي" وخرّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنـة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة" . قال الفراء : في الغداة والعشيّ بمقادير ذلك في الدنيا . وهو قول مجـاهد . قال : « غُدُوًّا وَعَشِيًّا » قال : من أيام الدنيـا . وقال حماد بن محمد الفزاريّ : قال رجل للأوزاعي رأينـا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب، بيضا صغارا فوْجا فوْجا لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا . قال : تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون ، يعرضون على النار غدوّا وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل رياشها بيضا وتتناثر السود، ثم تغدو فتعرض على النار غدوّا وعشيا، ثم ترجع إلى وَكْرها فذلك دأبهـا ما كانت في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَـذَابِ » وهو الهاوية . قال الأوزاعي: فبلغنا أنهم

(١) في نسخ الأصل : « ميمون بن ميسرة » وهو تحريف ، والتصويب عن « التهذيب » .

Marfat.com

ألفا ألف وستمائة ألف . و «غُدُوًّا» مصدر جعل ظرفا على السعة . و «عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام . ثم تبتدئ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » على أن تنصب يوما بقوله : « أَدْخِلُوا » ويجوز أن يكون منصوبا بـ « يُعْرَضُونَ » على معنى « يُعْرَضُونَ » على النار فى الدنيا « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » فلا يوقف عليه . وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائى : « أَدْخِلُوا » بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهى آختيار أبى عبيد؛ أى يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم؛ ودليله « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » . الباقون « ٱدْخُلُوا » بوصل الألف وضم الخاء من دخل أى يقال لهم : « ٱدْخُلُوا » يا « آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو آختيار أبى حاتم . قال : فى القراءة الأولى : «آل» مفعول أول و «أشدّ» مفعول ثان بحذف الجر، وفى القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف . وآل فرعون : من كان على دينه وعلى مذهبه، و إذا كان من كان على دينه ومذهبه فى أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك . وروى آبن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : "إن العبد يولد مؤمنا و يحيا مؤمنا و يموت مؤمنا منهم يحيي بن زكريا ولد مؤمنا وحيي مؤمنا ومات مؤمنا و إن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيي كافرا ومات كافرا" ذكره النحاس . وجعل الفرّاء فى الآية تقديما وتأخيرا مجازه : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » بجعل العرض فى الآخرة ، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من آنتظام الكلام على سياقه على ما تقدّم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أى يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك فى الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أى جزءا من العذاب . والتبع يكون واحدا ويكون جمعا فى قول البصريين واحده تابع . وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى فى جهنم . قال الأخفش : « كُلٌّ » مرفوع بالابتداء . وأجاز الكسائى والفراء « إِنَّا كُلًّا فِيهَا » بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر فى « إِنَّا » وكذلك قرأ ابن السَّمَيْقَع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا . ومنع ذلك سيبويه ؛ قال : لأن « كُلًّا » لا تنعت ولا ينعت بها . ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره ؛ وقال معناه المبرد قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا ؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما ؛ هذا نص كلامه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ؛ فكل منا كافر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من الأمم الكافرة . ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب ، ومن قال : « الَّذِينَ » فى الرفع بناه كما كان فى الواحد مبنيا . وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذى فأشبه خمسة عشر فبنى على الفتح . ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال : خُزّان وخُزّن . ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ « يُخَفِّفْ » جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا ؛ إلا أن الأكثر فى كلام العرب فى جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال[1] :

* قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

قال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أو ذكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ؛ فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فسألوا يوما

(١) هو امرؤ القيس والبيت من معلقته ، وتمامه :

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

Marfat.com

واحدا يخفف عنهم فيه العذابُ فردّت عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ الخبر بطوله . وفى الحديث عن أبى الدرداء خرجه الترمذى وغيره قال: يلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئا، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغَصُّون به، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثوا بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع فى بطونهم قطّع أمعاءهم وما فى بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبوهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى خسار وتبار .

قوله تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال : «رُسْلَنَا» والمراد موسى عليه السلام . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى موضع نصب عطف على الرسل، والمراد المؤمن الذى وعظ . وقيل: هو عام فى الرسل والمؤمنين، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها فى قول أبى العالية . وقيل: بالانتقام من أعدائهم . قال السدى: ما قَتَل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى يوم القيامة . قال زيد بن أسلم : «الْأَشْهَادُ» أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد . وقال مجاهد والسدى : «الْأَشْهَادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب . وقال قتادة : الملائكة والأنبياء . ثم قيل :

Marfat.com

« الْأَشْهَادُ » جمع شهيد مثل شريف وأشراف . وقال الزجاج : « الْأَشْهَادُ » جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعا أُدِّي[1] كما سمع ، وكان على حذف الزائد . وأجاز الأخفش والفراء : « وَيَوْمَ تَقُومُ الْأَشْهَادُ » بالتاء على تأنيث الجماعة . وفي الحديث عن أبي الدرداء و بعض المحدثين يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقا على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم " ثم تلا : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وعنه عليه السلام أنه قال : " من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال "[2] . ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأول . ﴿ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون « يَنْفَعُ » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ « اللَّعْنَةُ » البعد من رحمة الله و« سُوءُ الدَّارِ » جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة . وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور ؛ وفي التنزيل : « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ »[3] . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة جعلناها لهم ميراثا . ﴿ هُدًى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى ؛ يعني ذلك الكتاب . ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعالى : فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ

(١) في ا ، ح ، ز : « ما جاء به مسموعا أدى على ما يسمع » .
(٢) رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه . النحاس . (٣) راجع جـ ٦ ص ١٨٨ .

Marfat.com

خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، كما صبر من قبلك « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » بنصرك وإظهارك ، كما نصرت موسى وبنى إسرائيل . وقال الكلبي : نسخ هذا بآية السيف . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ قيل : لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء . ومن قال لا تجوز قال : هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء ؛ كما قال تعالى : « وآتنا ما وعدتنا »(1) والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده . وقيل : فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ يعنى صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : هى صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدوة وركعتان عشيّة . عن الحسن أيضا ذكره الماوردى . فيكون هذا مما نسخ والله أعلم . وقوله : « بِحَمْدِ رَبِّكَ » بالشكر له والثناء عليه . وقيل : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى استدم التسبيح فى الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن استعجال النصر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ يخاصمون ﴿ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ﴿ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه . قدره على الحذف . وقال غيره : المعنى ما هم ببالغى الكبر على غير حذف ؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ارتفاعهم ، ونقصت أحوالهم ، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا ، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذى أملوه بالتكذيب . والمراد المشركون . وقيل : اليهود ؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة .

(1) راجع ج ٤ ص ٣١٦ .

Marfat.com

والمعنى : إن تعظموا عن آتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيردّ الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه (١)] فنزلت الآية فيهم . قاله أبو العالية وغيره . وقد تقدم في « آل عمران (٢) » أنه يخرج و يطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب « التذكرة » . وهو يهودي وآسمه صاف و يكنى أبا يوسف . وقيل : كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم . وهذا حسن ؛ لأنه يعم . وقال مجاهد : معناه في صدورهم عظمة ماهم ببالغيها والمعنى واحد . وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل ونحوه ، ولا يبلغون ذلك . أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود . وعلى القول الآخر من شر الكفار . وقيل : من مثل ما آبتلوا به من الكفر والكبر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ « هُوَ » يكون فاصلا و يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ماتقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره . قال أبو العالية : أي أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو آحتجاج على منكري البعث ؛ أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم آعتقدوا عجزي عنها ؟ . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي . ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيءُ ﴾ الذي يعمل السيئات . ﴿ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده . وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٩ وص ١٠٠ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ هذه لام التأكيد دخلت فى خبر إن وسبيلها أن تكون فى أول الكلام، لأنها توكيد الجملة إلا أنها تزحلق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه . تقول : إن عمرا لخارج ؛ و إنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها و بين إنّ؛ لأنهما يؤدّيان عن معنى واحد، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين . وأجاز هشام إنّ أنّ زيدا منطلق حقّ؛ فإن حذفت حقّا لم يجز عند أحد من النحويين علمته؛ قاله النحاس . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك ولا مرية . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصى .

قوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية؛ روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة . وكذا قال أكثر المفسرين ؛

Marfat.com

وأن المعنى : وحّدونى واعبـدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيـل : هو الذكر والدعاء والسؤال . قال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع" ويقال الدعاء : هو ترك الذنوب . وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطِيَتْ هـذه الأمة ثلاثا لم تُعطهن أمة قبلهم إلا نبيّ : كان إذا أرسل نبيّ قيل له أنت شاهد على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وكان يقال للنبيّ : ليس عليك فى الدين من حرج، وقال لهـذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان يقال للنبيّ ادعنى أستجب لك، وقال لهذه الأمة : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

قلت : مثل هـذا لا يقال من جهة الرأى . وقـد جاء مرفوعا ؛ رواه ليث عن شهر ابن حَوْشَب عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أعطيت أمتى ثلاثا لم تُعطَ إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبيّ قال ادعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وكان الله إذا بعث النبيّ قال : ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(١) وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » . وكان خالد الربعى يقول: عجِبت لهذه الأمة! قيل لها: « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »(٢) فهاهنا شرط، وقوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ »(٣)، فليس فيه شرط العمل؛ ومثل قوله : « فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فهاهنا شرط، وقوله تعالى: « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ليس فيه شرط. وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها فى حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك . وقد قيل: إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدم فى « البقرة »(٢) بيانه . أى « أَسْتَجِبْ لَكُمْ » إن شئت؛ كقوله : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »(٤) . وقد تكون الاستجابة فى غير عين المطلوب على حديث أبى سعيد الخدرى على ما تقدم

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٩ .		(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ و جـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٥ .		(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٣ .

Marfat.com

فى «البقرة» (١) بيانه فتأمله هناك . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورُوَيس عن يعقوب وعيّاش عن أبى عمرو وأبو بكر والمفضّل عن عاصم «سَيُدْخَلُونَ» بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسمّ فاعله . الباقون «يَدْخُلُونَ» بفتح اليـاء وضم الخاء . ومعـنى «دَاخِرِينَ» صاغرين أذلاء وقد تقدّم (٢) .

قوله تعـالى : «اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» «جَعَلَ» هنا بمعنى خلق ؛ والعرب تفرّق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق و بين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق ؛ فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، و إذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين ؛ نحو قوله : «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع (٣) . «وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا» أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا فى طلب معائشكم . «إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» فضله و إنعامه عليهم .

قوله تعـالى : «ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» بيّن الدلالة على وحدانيته وقدرته . «لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمـان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك ؛ أى كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ «كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ» يصرف عن الحق «الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ» .

قوله تعـالى : «اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا» زاد فى تأكيد التعريف والدليل ؛ أى جعل لـكم الأرض مستقرا لـكم فى حياتكم و بعد الموت . «وَالسَّمَاءَ بِنَـاءً» تقـدّم (٤) . «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» أى خلقكم فى أحسن صورة . وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلى «صِوَرَكُمْ» بكسر الصاد؛ قال الجوهرى : والصِّور بكسر الصاد لغة فى الصُّوَر جمع صورة ، و ينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشْبَهْنَ مِن بَقَـرِ الخَلْصَاءِ أعْيُنَهـا * وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِوَرَا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣١٠ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ و جـ ١٣ ص ٢٤٢ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٨٦ . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٢٩ .

Marfat.com

[والصِّيران جمع صُوَار وهو القطيع من البقر والصُّوار أيضا وعاء المسك][1] وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاحَ الصُّوارُ ذكرتُ لَيْلَى * وأذكُرها إذا نَفَح الصُّــوَارُ

والصِّيارُ لغة فيه . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدّم[2] . ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ أى الباقى الذى لا يموت ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة والعبادة . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أى ادعوه واحمدوه . وقد مضى هذا كله مستوفى فى «البقرة»[3] وغيرها . وقال ابن عباس : من قال : « لا إله إلا الله » فليقل « الحمد لله رب العالمين » .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أى قل يا محمد : نهانى الله الذى هو الحى القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره . ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ أى دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا .

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى لا يتم الكلام إلا بها .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٢٣ . وجـ ١ ص ١٣٦ .

(٣) مضى هذا الكلام للصنف فى تفسير الفاتحة جـ ١ ص ١٣٦ فليراجع هناك لا فى البقرة ولعل ما فى الأصل تحريف .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أى أطفالا . وقد تقدّم هذا[1] . ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهى حالة اجتماع القوة وتمام العقل . وقد مضى فى « الأنعام[2] » بيانه . ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءة نافع وابن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو : قَلْب وقُلُوب ورأس ورءوس . وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفى العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة فى الياء ثقيلة . وقرئ « شَيْخًا » على التوحيد؛ كقوله : « طِفْلًا » والمعنى كل واحد منكم؛ واقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس . وفى الصحاح : جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشِيخان ومَشْيخة ومَشايخ ومَشْيوخاء، والمرأة شَيخة . قال عَبيد[3] :

* كأنّها شَيْخَةٌ رَقُوبُ[4] *

وقد شاخ الرجلُ يَشيخ شَيخًا بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فعْلول . وشَيَّخ تَشْيِيخا أى شاخ . [وشَيَّخته[5]] دعوته شيخا للتبجيل . وتصغير الشيخ شُيَيخ وشِيَيخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شُوَيخ . النحاس : وإن اضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن فى عين؛ لأنها مؤنثة . والشيخ من جاوز أربعين سنة . ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ قال مجاهد : أى من قبل أن يكون شيخا ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا . ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ قال مجاهد : الموت للكل . واللام لام العاقبة . ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .

(٣) هو عبيد بن الأبرص .

(٤) الرقوب : التى ترقب ولدها خوف أن يموت . والبيت فى وصف فرسه؛ وتمامه :

* باتت على أرم عذوبا *

(٥) الزيادة من كتب اللغة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة . ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي أراد فعله قال : ﴿ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ونصب « فيكون » ابن عامر على جواب الأمر . وقد مضى في « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى
يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ
شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٨ فما بعد .

Marfat.com

فلا أدرى فيمن نزلت . قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا . وقال عقبة بن عامر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت هذه الآية في القدَرية" ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم . قال التيمى : لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وضع على جبل لوهَصه حتى يبلغ الماء الأسود . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفا على الأغلال . قال أبو حاتم : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ مستأنف على هذه القراءة . وقال غيره : هو في موضع نصب على الحال، والتقدير : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » مسحوبين . وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود « والسَّلاسِلَ » بالنصب « يَسْحَبُونَ » بفتح الياء والتقدير في هذه القراءة ويسحبون السلاسل . قال ابن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم . وحكى عن بعضهم « والسلاسِلِ » بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى؛ لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : ومن قرأ « والسلاسِلِ يسحبون » بالخفض فالمعنى عنده وفي « السلاسِلِ يُسْحَبُونَ » . قال ابن الأنبارى : والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد في الدار لم يحسن أن تضمر «في» فتقول زيد الدارِ، ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل ، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلال في تأويل الخفض؛ كما تقول : خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين . ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء :

قد سَالَمَ الحياتِ منه القدَمَا * الأفعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَمَا (١)

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم . فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها . و «الحميم» المتناهى في الحر . وقيل : الصديد المغلى . ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ

(١) الشجعم : الضخم من الحيات .

Marfat.com

يُسْجَرُونَ ﴾ أى يطرحون فيهـا فيكونون وقودا لها ؛ قاله مجاهد . يقال : سجرت التنور أى أوقدته، وسجرته ملأته ؛ ومنه « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »[1] أى المملوء . فالمعنى على هذا تملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً * تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّمْسَمَا

أى عينا مملوءة . ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى هلكوا وذهبوا عنا وتركونا فى العذاب ؛ من ضلّ المـاءُ فى اللبن أى خفى . وقيـل : أى صاروا بحيث لا نجدهم . ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أى شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وليس هـذا إنكارا لعبادة الأصنام ، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصى يقال لهم ذلك توبيخا . أى إنمـا نالكم هذا بمـا كنتم تظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المـال والأتباع والصحة . وقيـل إن فرحهم بهـا عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذب . وكذا قال مجاهد فى قوله جل وعز : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أى تبطرون وتأشرون . وقد مضى فى « سبحان »[1] بيانه . وقال الضحاك : الفرح السرور ، والمرح العدوان . وروى خالد عن ثور عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحَمِين ويبغض كل حبر سمين "[2] فأما أهل بيت لحَمِين : فالذى يأكلون لحوم الناس بالغيبة . وأما الحبر السمين : فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه النـاس ؛ يعنى المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس . ذكره المـاوردى . وقـد قيل فى

---

(١) راجع ﺟ ١٧ ص ٥٨ . (٢) راجع ﺟ ١٠ ص ٢٧٠ فما بعد .

(٣) الحديث فى النهاية " إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين " .

Marfat.com

اللحِمين (١) : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، ذكره المهدوى . والأول قول سفيان الثورى . ﴿ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ » . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم جميعه (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا تسلية للنبي عليه السلام ؛ أى إنا لننتقم لك منهم إما فى حياتك أو فى الآخرة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ فى موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبنى الفعل على الفتح . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ الجواب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾ عزاه أيضا بما لقيت الرسل من قبله . ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم . ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ أى من قبل نفسه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أى إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن فى أصلابهم من المؤمنين . وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر . ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أى الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل . ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن

(١) الضراوة فى قول عمر: العادة فى النفس الطلابة لأكل اللحم ، وهى حال ناشئة من الأعتياد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وص ١٠٠ فما بعد .

Marfat.com

الله عز وجل قال في الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال في الخيل : « وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ولم يذكر إباحة أكلها . وقد مضى هذا في « النحل »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ في الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك .﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي تحمل الأثقال والأسفار. وقد مضى في « النحل »(١) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته . ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعني الأنعام في البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ في البحر ﴿ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر. ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ نصب « أيا » بـ « تنكرون » ، لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ماقبله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في « أيّ » الرفع ، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب ، أي إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع ؛ يقال : دلوت بفلان إليك أي استشفعت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ فما بعد وص ٧١ فما بعد .

Marfat.com

به إليك . وعلى هذا « ما » للجحد أى فلم يغن عنهم ذلك شيئا . وقيـل : « ما » للاستفهام أى أىّ شىء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف « أَكْثَرَ » ؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجـوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه فى شعر(١) ولا غيره إذا كانت معه من . قال أبو العباس : ولو كانت من المـانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منك(٢) و] من عمرو .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِـلْمِ ﴾ فى معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بمـا عندهم من العلم قالوا : نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحـو « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا(٣) » . وقيل : الذين فرحوا الرسل لمـّا كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ « فَرِحُوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى بالكفار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب آستهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى عاينوا العذاب . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَـا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى بالأوثان التى أشركناهم فى العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَـانُهُمْ ﴾ بالله عنـد معاينة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سنّ يسن سنّا وسُنّة ؛ أى سنّ الله عز وجل فى الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هـذا مبينا فى « النساء(٤) » و « يونس(٥) » وأن التوبة لا تقبل بعـد رؤية العذاب وحصول العـلم الضرورى . وقيـل : أى آحذروا يأهل مكة سـنّة الله فى إهلاك الكفرة فـ « سنّة الله » منصوب على التحذير والإغراء . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن لنا الخسران لمـا رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى « لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَـانُهُمْ لَمَّـا رَأَوْا بَأْسَنَا » « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » كسنّتنا فى جميـع الكافرين فـ « سنة » نصب بنزع الخافض أى كسـنّة الله فى الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة « غافر » والحمد لله .

---

(١) عبارة الأصول : « فى معرفة ولا غيره » . والتصويب من النحاس . (٢) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٧ . (٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ .

Marfat.com

سورة فصلت مكية فى قول الجميع

وهى أربع وخمسون ، وقيل : ثلاث وخمسون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين . وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا . ويجوز أن يقال : « كِتَابٌ » بدل من قوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : نعت لقوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : « حمٓ » أى هذه « حمٓ » كما تقول باب كذا ، أى هو باب كذا فـ « حمٓ » خبر ابتداء مضمر أى هو « حمٓ » ، وقوله « تَنْزِيلٌ » مبتدأ آخر ، وقوله : « كِتَابٌ » خبره . « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بُيِّنت وفسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته . الحسن : بالوعد والوعيد . سفيان : بالثواب والعقاب . وقرئ « فَصَلَتْ » أى فرقت بين الحق والباطل ، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ؛ من قولك فصل أى تباعد من البلد . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فى نصبه وجوه ؛ قال الأخفش : هو نصب على المدح . وقيل : على إضمار فعل ؛ أى أذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على إعادة الفعل ؛ أى فصلنا « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على الحال أى « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » فى حال كونه « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : لما شغل « فُصِّلَتْ » بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب « قُرْآنًا » لوقوع البيان عليه . وقيل : على القطع . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك : أى إن

Marfat.com

القرآن منزل من عند الله . وقال مجاهد : أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل . وقيل : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله . ولو كان غير عربي لما علموه .

قلت : هذا أصح ، والسورة نزلت تقريعا وتوبيخا لقريش في إعجاز القرآن . ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات والعامل فيه « فُصِّلَتْ » . وقيل : هما نعتان للقرآن « بَشِيرًا » لأولياء الله « نَذِيرًا » لأعدائه . وقرئ « بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » صفة للكتاب . أو خبر مبتدإ محذوف . ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعا ينتفعون به . وروى أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبة ابن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى علي إن كان كذلك . فقالوا : إيته فحدثه . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصي بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك . والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : " قد فرغت يا أبا الوليد[1] " ؟ قال : نعم . فقال : "يا ابن أخي اسمع" قال : أسمع . قال : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » إلى قوله : «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي صلى الله عليه وسلم ، وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل ، فقال :

(١) كذا في « ن » . والذي في أ : « ... فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال أسمع ، بسم الله ... » . وفي ح ، ل : « . . . فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال بسم الله . . . » .

Marfat.com

أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ماهو بشعر ولا كهانة ولاسحر ؛ ثم تلا عليهم ماسمع منه إلى قوله : « مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » وأمسكت بفيه وناشدته بالرَّحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعنى الصاعقة . وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد له عن محمد بن كعب القرظى ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « حمٓ. فُصِّلَتْ » حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع ، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره . فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : " يا أبا الوليد قد . سمعتَ الذى قرأتُ عليك فأنت وذاك " فانصرف عتبة إلى قريش فى ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم. ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ؛ خلُّوا محمدا وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن مُلْكه مُلْككُم وشرفه شرفُكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد ياأبا الوليد . وقال : هذا رأيى لكم فاصنعوا ماشئتم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ الأكنة جمع كِنان وهو الغطاء . وقد مضى فى « البقرة »(١) . قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل . ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أى صَمم ؛ فكلامك لايدخل أسماعنا ، وقلوبنا مستورة عن فهمه . ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ أى خلاف فى الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل . قال معناه الفراء وغيره . وقيل : ستر مانع عن الإجابة . وقيل : إن أباجهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يامحمد بيننا وبينك حجاب . استهزاء منه . حكاه النقاش وذكره القشيرى . فالحجابُ هنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥

Marfat.com

الثوب . ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى اعمل فى هلا كنا فإنا عاملون فى هلا كك[1]؛ قاله الكلبى . وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذى أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : اعمل بما يقتضيه دينك ، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل خامساً[2] : فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى لست بملك بل أنا من بنى آدم . قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع . ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى من السماء على أيدى الملائكة ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ فـ ﴾ آمنوا به و ﴿ اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أى وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه ، كما يقول الرجل : استقم إلى منزلك ؛ أى لا تعرج على شىء غير القصد إلى منزلك . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى من شرككم . ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قال ابن عباس : لا يشهدون « أن لا إله إلا الله » وهى زكاة الأنفس . وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . قرّعهم بالشح الذى يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه . وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

---

(١) فى ح ، ل : « فإنا عاملون فى مثل ذلك » . (٢) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ماذكره الكشاف : « فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك » .

Marfat.com

الزمخشري : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته](١) ألا ترى إلى قوله عز وجل : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ(٢) » أي يثبتون أنفسهم، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة(٣) من الدنيا ، فقويت عصبتهم ولانت شكيمتهم؛ وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته؛ ومنه قول ذي الإصبع :

إني لَعَمْرُكَ مابابي بِذِي غَلَقٍ　＊　على الصَّدِيقِ ولا خَيْرِي بِمَمْنُونِ(٤)

وقال آخر :

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ　＊　ـعِ مَنِينًا كأنَّهُ أَهْبَاءُ

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف . وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : غير منقوص . ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّةَ الإنسان أي قوته؛ وقاله قطرب؛ وأنشد قول زهير :

فَضْلَ الجِيادِ على الخَيلِ البِطاءِ فَلا　＊　يُعْطِي بِذلكَ مَمْنُونًا ولا نَزِقَا(٥)

قال الجوهري : والمَنّ القطع، ويقال النقص؛ ومنه قوله تعالى: « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » . وقال لبيد :

＊ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا(٦) ＊

---

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري .　　(٢) راجع جـ ٣ ص ٣١٤ .
(٣) اللمظة في اللغة : النكتة من بياض أو سواد ، والمراد بها هنا الشيء اليسير من حطام الدنيا .
(٤) ويروى : ولازادي بممنون .　　(٥) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان .
(٦) صدر البيت :　＊ لمعفر قهد تنازع شلوه ＊
وقد وقع هذا البيت غلطا في بعض نسخ الجوهري فراجع تحقيقه في اللسان مادة « من » .

Marfat.com

وقال مجاهد : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » غير محسوب . وقيـل : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » عليهم به . قال السدى : نزلت فى الزَّمْنى والمَرْضَى والهَرْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ « أَئِنَّكُمْ » بهمزتين الثانية بين بين و « آئِنَّكُمْ » بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ . أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم، أى لِمَ تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض ؟ ! « فِى يَوْمَيْنِ » الأحد والاثنين . ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى أضدادا وشركاء ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أى فى الأرض ﴿ رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ يعنى الجبال . وقال وهب : لمـا خلق الله الأرض مادت على وجه المـاء، فقال لجبريل : ثَبِّتها ياجبريل . فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال : يارب أنت أعلم لقد غُلِبت فيها فثبّتها بالجبال وأرساها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ بما خلق فيها من المنافع . قال السدى : أنبت فيها شجرها . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ قال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك : معنى « قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » أى أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

Marfat.com

التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة مالم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مِثلا بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابرى من سابور، والطيالسة من الرى، والحبر اليمانية من اليمن .
﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعنى فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام، وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ؛ أى فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه ابن الأنبارى وغيره . ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبرى . وقرأ الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى « سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ » بالجر . وعن ابن القعقاع « سَوَاءٌ » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سَوَاءً » بمعنى استواء أى استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أى « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » مستوية تامة . والرفع على الابتداء والخبر « لِلسَّائِلِينَ » أو على تقدير هذه « سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ » . وقال أهل المعانى : معنى « سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » ولغير السائلين ؛ أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطى من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها . والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ؛ يدل عليه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » وقد مضى القول هناك[1] . وروى أبو صالح عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » يعنى صعد أمره إلى السماء ؛ وقاله الحسن . ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال : استوى فى الأزل بصفاته . و « ثُمَّ » ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ على ما مضى فى « البقرة »[1] عن ابن مسعود وغيره . ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقى . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٤

Marfat.com

وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقِّى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وفى الكلام حذف أى أتينا أمرك « طَائِعِينَ » . وقيل : معنى هذا الأمر التسخير؛ أى كونا فكانتا كما قال تعالى : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما . وهو قول الجمهور . وفى قوله تعالى لهما وجهان : أحدهما أنه قول تكلم به . الثانى أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام فى بلوغ المراد ؛ ذكره الماوردى . « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » فيه أيضا وجهان : أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ؛ ومنه قول الراجز :

آمْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِى * مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلأْتُ بَطْنِى

يعنى ظهر ذلك فيه . وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى ؛ قال أبو نصر السكسكى : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله تعالى فيه حرمه . وقال : « طَائِعِينَ » ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما . وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراها فى الكناية مجرى من يعقل ؛ ومثله : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » وقد تقدم(٢) . وفى حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما « ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما . قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : فى مَرْج من مُرُوجى . قال : يا رب وأين ذلك المرج ؟ قال عِلْم من علمى . ذكره الثعلبى . وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة « آتِيَا » بالمد والفتح . وكذلك قوله : « آتَيْنَا طَائِعِينَ » على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما « قَالَتَا » أعطينا « طَائِعِينَ » فحذف المفعولين جميعا . ويجوز وهو أحسن أن يكون « آتَيْنَا » فاعلنا فحذف مفعول واحد . ومن قرأ « آتَيْنَا » فالمعنى جئنا بما فينا؛ على ما تقدم بيانه فى غير ما موضع والحمد لله .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٦ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ و جـ ٩ ص ١٢٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أكملهن وفرغ منهن . وقيل : أحكمهن كما قال[(١)] :

وَعَلَيْهِما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا * دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما تقدم فى « الأعراف[(٢)] » بيانه . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله الأرض فى يومين ، وقدّر فيها أقواتها فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ؛ خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة فى يوم الجمعة خلق الله آدم فى عَجَل ، وهى التى تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[(٣)] . على هذا أهل التفسير ؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : " خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وقد تكلمنا على إسناده فى أول سورة «الأنعام[(٤)]» . ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسّدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج . وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذى فى السماء الدنيا هو البيت المعمور . وقيل : أوحى الله فى كل سماء ؛ أى أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها . والإيحاء قد يكون أمرا ؛ لقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا[(٥)] » وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[(٤)] » أى أمرتهم وهو أمر تكوين . ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أى بكواكب تضىء . وقيل : إن فى كل سماء كواكب تضىء . وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أى وحفظناها حفظا ؛ أى من الشياطين الذين يسترقون السمع . وهذا

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . والصنع بفتحين : الحاذق . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩
(٣) فى ا ، ز ، ل : «الإنس والشياطين» . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ وص ٣٦٣ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٨

Marfat.com

الحفظ بالكواكب التى تُرجم بها الشياطين على ما تقدّم فى « الحجـر »(١) بيانه . وظاهر هـذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبـل السماء . وقال فى آية أخرى : « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا »(٢) ثم قال : « وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » وهذا يدل على خلق السماء أوّلا . وقال قوم : خلقت الأرض قبـل السماء ؛ فأما قوله : « وَالأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » فالدَّحْوُ غير الخلق ، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أى مدّها وبسطها ؛ قاله ٱبن عبـاس . وقد مضى هذا المعنى مجوّدا فى « البقرة »(٣) والحمد لله . ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعـالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْـلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُـودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُـلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّـا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُـمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَـا عَلَيْهِمْ رِيحًـا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُـمْ عَذَابَ ٱلْخِـزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَـا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعنى كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أى خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود. ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُـلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعنى من أرسـل إليهم و إلى من قبلهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ موضع «أن» نصب بإسقاط الخافض أى بـ«أَلَّا تَعْبُدُوا» و ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بدل الرسل ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل : هذا ٱستهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ (٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب ، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا . وذلك أنهم كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم . وقد مضى فى « الأعراف »(١) عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا . فقال الله تعالى ردًّا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة ، وإنما يقدر العبد بإقدار الله ؛ فالله أقدر إذًا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التى أرسلها عليهم ، أى ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب . ويقال : أصلها صَرَّرَ من الصِّر [وهو البرد](٢) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كَبْكَبوا أصله كَبَّبوا ، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف . أبو عبيدة : معنى صَرْصَر : شديدة عاصفة . عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد . وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة :

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ * والحاملون إذا آستُودُوا على النَّاسِ

آستودوا : إذا سئلوا الدية . مجاهد : الشديدة السموم . وروى معمر عن قتادة قال : باردة ، وقاله عطاء ؛ لأن «صَرْصَرًا» مأخوذ من صرّ والصرّ فى كلام العرب البرد كما قال(٣) :

لها عُذَرٌ كقُرون النسا * ء رُكِّبْنَ فى يوم ريح وصِرّ

وقال السدى : الشديدة الصَّوت . ومنه صَرَّ القلمُ والباب يصِرّ صريرا أى صَوَّت . ويقال : درهم صَرِّىٌّ وصِرِّىٌّ للذى له صوت إذا نُقِد . قال ابن السِّكِّيت : صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صرير الباب ، ومن الصَّرة وهى الصيحة . ومنه « فَأَقْبَلَتِ آمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ »(٤) . وصَرْصَر آسم نهر بالعراق . ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أى مشئومات ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ فما بعد .　(٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له .
(٣) هو آمرؤ القيس يصف فرسه .　(٤) راجع جـ ١٧ ص ٤٦

Marfat.com

قاله مجاهد وقتادة . كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً »(١) قال ابن عباس : ماعذب قوم إلا في يوم الأربعاء . وقيل : «نَحِسَاتٍ» باردات ؛ حكاه النقاش . وقيل : متتابعات ؛ عن ابن عباس وعطية . الضحاك : شداد. وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ابن عيسى . ومنه قول الراجز :

قد اغتدى قبل طلوعِ الشمسِ * للصيدِ في يومٍ قليلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم في غير مطر، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد(٢) ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم ، وكلهم معظّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى . وقال جابر بن عبد الله والتيمي : إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح، و إذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « نَحْسَاتٍ » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به . الباقون : « نَحِسَاتٍ » بكسر الحاء أي ذوات نحس. ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ »(٣) ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه ؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته ؛ واختاره أبو حاتم . واختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال : لا تصح حجة أبي عمرو ؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن، و إنما كان يكون حجة لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛فقال : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه . وقال المهدوي : ولم يسمع في « نَحْسٍ » إلا الإسكان . قال الجوهري : وقرئ في قوله : « فِي يَوْمٍ نَحِسٍ » على الصفة ، والإضافة أكثر وأجود . وقد نحس الشيء بالكسر فهو نحس أيضا ؛ قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولخما أن إخوتهم * طيًّا وبهراء قوم نصرهم نحس

ومنه قيل : أيام نَحِسَاتٍ . ﴿ لِنُذِيقَهُمْ ﴾ أي لكي نذيقهم ﴿ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالريح العقيم . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أي أعظم وأشد ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٨ (٢) في ا ، جـ ، ز ، ل : «للعاد» . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٣٤ فما بعد.

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أى بينا لهم الهدى والضلال ؛ عن ابن عباس وغيره . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق وغيرهما « وَأَمَّا ثَمُودَ » بالنصب وقد مضى الكلام فيه فى « الأعراف »[1] . ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ أى اختاروا الكفر على الإيمان . وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان . السدى : اختاروا المعصية على الطاعة . ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ « الْهُونِ » بالضم الهوان . وهون بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس ابن مُضَر أخو كنانة وأسد . وأهانه : استخف به . والاسم الهوان والمهانة . وأضيف الصاعقة إلى العذاب ، لأن الصاعقة اسم للبيد المهلك ، فكأنه قال مهلك العذاب ؛ أى العذاب المهلك . والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب ، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر ؛ فكأنه قال : صاعقة الهون . وهو كقولك : عندى علم اليقين ، وعندى العلم اليقين . ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون ؛ يقال : عذاب هون أى مُهين ؛ كما قال : « مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ »[2] . وقيل : أى صاعقة العذاب ذى الهون . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة ، على ما تقدم . ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى صالحا ومن آمن به ؛ أى ميزناهم عن الكفار ، فلم يحل بهم ما حل بالكفار ، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمنى قومك وكفارهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨　　(٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٧

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قرأ نافع « نَحْشُرُ » بالنون « أَعْدَاءَ » بالنصب. الباقون « يُحْشَرُ » بياء مضمومة « أَعْدَاءُ » بالرفع ومعناهما بيّن . وأعداء الله : الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره . « فَهُمْ يُوزَعُونَ » يساقون ويدفعون إلى جهنم . قال قتادة والسدى : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ؛ قال أبو الأحوص : فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما . وقد مضى فى « النمل »(١) الكلام فى « يُوزَعُونَ » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ « ما » زائدة ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الجلود يعنى بها الجلود بأعيانها فى قول أكثر المفسرين . وقال السدى وعبيد الله بن أبى جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج ؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جُؤَيّة :

المرءُ يسعى للسلا * مةِ والسلامةُ حسبه(٢)
أو سالم من قد تثـ * ـنّى جلدُه وابيضّ رأسه

وقال : جلده كناية عن فرجه . ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى الكفار ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لما خاطبتْ وخوطبتْ أُجريتْ مُجرى من يعقل . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا ، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجلود وغيرها من الأعضاء . وقيل : « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ابتداء كلام من الله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : " هل تدرون ممّ أضحك " قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : " من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تُجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا(٣) و بالكرام الكاتبين شهودا قال فيُختَم على فيه فيقال لأركانه انطقى فتَنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه و بين الكلام قال فيقول بُعْدًا لكنّ وسُحقًا فعنكنّ كنت أناضل " وفى حديث أبى هريرة ثم يقال : " الآن نبعث شاهدنا

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٧ (٢) كذا فى الأصول ، ولم نعثر على هذين البيتين .

(٣) فى ا ، ز ، ر ، ح ، ل « عليك حسيبا » .

Marfat.com

عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيُختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه](١) انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذِر(٢) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى سخط الله عليه " خرجه أيضا مسلم .

قوله تعالى : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم : ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفيّ أو ثقفيان وقرشيّ ؛ قليلٌ فقهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم : فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ » الآية ؛ خرجه الترمذى فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر . ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدثنا هنّاد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عِمارة ابن عُمَير عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قال عبد الله : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) ليعذر من نفسه : على بناء الفاعل من الإعذار، والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه ، ولشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر . (هامش مسلم) .

Marfat.com

نفـرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فقهُ قلوبهم، قرشيّ وختَناه ثقفيّان، أو ثقفيّ وختَناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه؛ فقـال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هـذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله! فقال عبـد الله: فذكرت ذلك للنبي صـلى الله عليه وسـلم فأنزل الله تعـالى: «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ» إلى قوله: «فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الثعلبي: والثقفي عبدُ ياليل، وختَناه ربيعة وصفوان بن أمية. ومعنى «تَسْتَتِرُونَ» تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفى من نفسه عملَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ» أي تظنون «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ» بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت مالا يجوز من المعـاصي «وَلَا أَبْصَارُكُمْ» فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجـوز «وَلَا جُلُودُكُمْ» تقدّم. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم لجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ» قال: "إنكم تُدعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخِـذه وكفه" قال عبـد الله بن عبد الأعلى الشامى (١) فأحسـن.

العُمرُ يَنْقُصُ والذُّنوب تزيـدُ • وتُقالُ عَثَراتُ الفـتى فيعـودُ
هل يستطيعُ جُحُودَ ذنبٍ واحدٍ • رجـلٌ جوارِحُه عليـه شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيه فيشتهي • تقليلَهـا وعن الممـاتِ يحيـدُ

(١) كذا في الأصول وفي كتاب «أدب الدنيا والدين»: عبد الأعلى بن عبد الله الشامي.

Marfat.com

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من يوم يأتى على آبن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل فىّ خيرا أشهد لك به غدا فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبدا ويقول الليل مثل ذلك " ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » فى باب شهادة الأرض والليالى والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدنى شَهيدا معدَّلا * ويومُك هذا بالفِعال شهيدُ
فإنْ تكُ بالأمسِ آقترفت إساءةً * فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخير منك إلى غدٍ * لعلّ غدًا يأتِى وأنت فَقيدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أى أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم " فذلك قوله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وقال قتادة : من آستطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن آثنان ظنّ ينجى وظنّ يردى . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصى ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى فإن يصبروا فى الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم . نظيره : « فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ » على ما تقدم[1] . ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ فى الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ . وقيل : المعنى « فَإِنْ يَصْبِرُوا »

(١) راجع ج ٢ ص ٢٣٦ فما بعد .

Marfat.com

فى النار أو يجزعوا « فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى لا محيص لهم عنها ، ودل على الجزع قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » ؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه ؛ قال النابغة :

فإنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه * وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

أى مثلك من قِبَل الصلح والمراجعة إذا سُئل . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة . تقول : عاتبته معاتبة ، و بينهم أُعتوبة يتعاتبون بها . يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبنى فلان : إذا عاد إلى مَسَرَّتى راجعا عن الإساءة، والاسم منه العُتْبَى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . واستعتب وأعتب بمعنى ، واستعتب أيضا طلب أن يُعتَب؛ تقول : استعتبته فأعتبنى أى استرضيته فأرضانى . فمعنى « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » أى طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لابد لهم من النار . وفى التفاسير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين . وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية « وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا » بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ » بكسر التاء أى إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم فى علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ[1] » ذكره الهروى . وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قال النقاش: أى هيأنا لهم شياطين . وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزيّنون عندهم المعاصى ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا ؛ أى سبّبنا لهم قرناء ؛ يقال : قيّض الله فلانا لفلان أى جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى : «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» . القشيرى : و يقال قيّض الله لى رزقا أى أتاحه كما كنت أطلبه ، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ، قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيّضان كما تقول بيّعان . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ حسّنوا لهم ما بعد مماتهم[2] ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد . وقيل : المعنى « قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » فى النار « فَزَيَّنُوا لَهُمْ » أعمالهم فى الدنيا ؛ والمعنى قدّرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم . وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران ؛ أى أحوجنا

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٩٠ . (٢) فى ا ، ح ، ز ، ل « حسنوا لهم من بعد مماتهم » .

Marfat.com

الفقير إلى الغنى لينال منه، والغنى إلى الفقير ليستعين به فزيّن بعضهم لبعض المعاصي . وليس قوله : « وَمَا خَلْفَهُمْ » عطفا على « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار . قال ابن عباس : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » تكذيبهم بأمور الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » التسويف والترغيب فى الدنيا . الزجاج : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ما عملوه « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما عزموا على أن يعملوه . وقد تقدم قول مجاهد . وقيل : المعنى لهم مثل ماتقدّم من المعاصى « وما خلفهم » ما يعمل بعدهم . ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ ﴾ أى وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم . وقيل : « فى » بمعنى مع ؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه . وقيل : « فِي أُمَمٍ » فى جملة أمم ، ومثله قول الشاعر[(١)] :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ * فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قد أُفِكُوا

يريد فأنت فى جملة آخرين لست فى ذلك بأوحد . ومحل « فِي أُمَمٍ » النصب على الحال من الضمير فى « عَلَيْهِمْ » أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أعمالهم فى الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) هو عمرو بن أذينة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيـهِ ﴾ لمـا أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا : « لَا تَسْمَعُوا » . وقيـل : معنى « لَا تَسْمَعُوا » لا تطيعوا ؛ يقال : سمعت لك أى أطعتك . « وَالْغَوْا فِيهِ » قال آبن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول. وقيل : إنهم فعلوا ذلك لمـا أعجزهم القرآن . وقال مجاهد : المعنى « وَالْغَوْا فِيهِ » بالمُكَاء والتَّصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصـير لَغْوًا . وقال الضحاك : أكثِروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية وآبن عباس أيضا : قِعُوا فيه وعَيِّبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر[1] ولا يستميل القلوب. وقرأ عيسى بن عمر والجحدرى وآبن أبى إسحٰق وأبو حَيْوَة وبكر بن حبيب السهمى « وَالْغُوا » بضم الغيـن وهى لغة من لغا يلغو . وقراءة الجمـاعة من لَغِيَ يَلْغَى . قال الهروى : وقوله : « وَالْغَـوْا فِيهِ » قيل : عارِضوه بكلام لا يفهم . يقال : لغوت ألغو وألْغَى، ولغِى يَلْغَى ثلاث لغات . وقـد مضى معنى اللغـو فى « البقرة »[2] وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَـدِيدًا ﴾ قد تقـدّم أن الذوق يكون محسوسا، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل : هو العذاب فى جميع أجزائهم. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء قبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا . وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ ﴾ أى ذلك العذاب الشديد، ثم بينه بقوله « النَّارُ » . وقرأ آبن عباس « ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ » فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية . و « ذَٰلِكَ » آبتداء و « جَزَاءُ » الخبر و « النَّارُ » بدل من « جَزَاءُ » أو خبر مبتدإ مضمر، والجملة فى موضع بيان للجملة الأولى .

(١) فى ا ، ح ، ز ، « فلا تظهر ولا تستميل القلوب » . (٢) راجع ج ٣ ص ٩٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى فى النار فذكره بلفظ الماضى والمراد المستقبل ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ يعنى إبليس وآبن آدم الذى قتل أخاه . عن آبن عباس وآبن مسعود وغيرهما؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : " ما من مسلم يُقتل ظلما إلا كان على آبن آدم الأوّل كفل من ذنبه لأنه أوّل من سنّ القتل " خرّجه الترمذى ، وقيل : هو بمعنى الجنس وبُنى على التثنية لآختلاف الجنسين . ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ فى النار وهو الدرك الأسفل . سألوا أن يُضعّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس . وقرأ آبن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل ﴿ أَرْنَا ﴾ (١) بإسكان الراء، وعن أبى عمرو أيضا بآختلاسها . وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدّم فى ﴿ الأعراف ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قال عطاء عن آبن عباس : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه؛ وذلك أن المشركين قالوا ربُّنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربُّنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله؛ فآستقام . وفى الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قال : " قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن آستقام " قال : حديث غريب . و يروى فى هذه الآية عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ معنى ﴿ آستقاموا ﴾؛ ففى صحيح مسلم

(١) هكذا فى نسخ الأصل وصوابه فى البقرة فى جـ ٢ ص ١٢٧ .

Marfat.com

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — وفى رواية — غيرك . قال : " قـل آمنت بالله ثم آسـتقم " زاد الترمذى قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال : " هذا " . وروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ لم يشركوا بالله شيئا . وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون فى هاتين الآيتين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ و ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (١) فقالوا : آستقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة ؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل ﴿قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم﴾ بشرك ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وروى عن عمر رضى الله عنـه أنه قال على المنـبر وهو يخطب : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ فقال : آستقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يَرُغُوا روغان الثعالب . وقال عثمان رضى الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله . وقال علىّ رضى الله عنه : ثم أدوا الفرائض . وأقوال التابعين بمعناها . قال آبن زيد وقتادة : آستقاموا على الطاعة لله . الحسن : آستقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وآجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : آستقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال سفيان الثورى : عملوا على وِفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانيـة ورغبوا فى الباقية . وقيل : آستقاموا إسرارا كما آستقاموا إقرارا . وقيل : آستقاموا فعـلا كما آستقاموا قولا . وقال أنس : لمـا نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتى وربِّ الكعبة " . وقال الإمام آبن فُورك : السين سين الطلب مثـل آستسقى أى سألوا من الله أن يثبتهم على الدين . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فآرزقنا الآستقامة .

قلت : وهذه الأقوال و إن تداخلت فتلخيصها : آعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا ، وداموا على ذلك . ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ قال آبن زيد ومجاهد : عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث . وقال آبن عباس : هى بشرى تكون لهم من

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٠ .

Marfat.com

الملائكة فى الآخرة . وقال وكيع وابن زيد : البشرى فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى القبر وعند البعث . ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى بـ « بِأَلَّا تَخَافُوا » فحذف الجار . وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم . وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » قال مجاهد : أى نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة . وقال السدى : أى نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا وأولياؤكم فى الآخرة . ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى؛ والله ولى المؤمنين ومولاهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أى من الملاذ . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى رزقا وضيافة . وقد تقدم فى « آل عمران »[1] وهو منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلا . وقيل : على الحال . وقيل : هو جمع نازل ، أى لكم ما تدعون نازلين ، فيكون حالا من الضمير المرفوع فى « تَدَّعُونَ » أو من المجرور فى « لَكُمْ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا
وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾
وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ هذا توبيخ للذين تواصَوْا باللغو فى القرآن . والمعنى: أىّ كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن سيرين والسدى وآبن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولىّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه . وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذّنين . قال فضيل بن رفيـدة : كنت مؤذنا لأصحاب عبـد الله بن مسعود، فقال لى عاصم بن هبيرة : إذا أذّنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال ابن العربى : الأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدنى؛ وإنمـا يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه[(1)] كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ »[(2)] وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها؛ قال الحسن : هـذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم قال : نزلت فى كل مؤمن . قال : ومعنى « وَعَمِلَ صَالِحًا » الصـلاة بين الأذان والإقامة . وقاله أبو أمامة؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام . وقال الكلبي : أدى الفرائض .

قلت : وهـذا أحسنها مع آجتناب المحارم وكثرة المندوب . والله أعلم . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال آبن العربى : وما تقدّم يدل على الإسلام، لكن لمـا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص، دل على أنه لابدّ من التصريح بالاعتقاد لله فى ذلك كله، وأن العمل لوجهه .

مسـألة ـــ لمـا قال الله تعـالى : « وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ولم يقل له آشترط إن شاء الله، كان فى ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله .

---

(١) فى ا ، ل : « لأنه كان ... » . (٢) راجع ص ٣٠٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ قال الفراء : «لَا» صلة أى «ولَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ » وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ * والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عُمَرُ

أراد أبو بكر وعمر؛ أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك. قال ابن عباس : الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك . وقيل : الحسنة الطاعة، والسيئة الشرك . وهو الأول بعينه . وقيل : الحسنة المداراة، والسيئة الغلظة . وقيل : الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك : الحسنة العلم، والسيئة الفحش . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول، والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف، وبقى المستحب من ذلك : حسن العشرة والاحتمال والإغضاء . قال ابن عباس : أى ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك . وعنه أيضا : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لى (1)، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وكذلك يروى فى الأثر : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال ذلك لرجل نال منه . وقال مجاهد : « بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » يعنى السلام إذا لقى من يعاديه ؛ وقاله عطاء . وقول ثالث ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى الأحكام وهو المصافحة . وفى الأثر : " تصافحوا يذهب الغِلّ " . ولم ير مالك المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص . فقال له سفيان : ما خصّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا، وما عمّه يعمّنا، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها . وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وهو حديث صحيح . وفى الأثر : " من تمام المحبة الأخذ باليد " . ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم، عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه — والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده — فاعتنقه وقبّله .

(1) فى ب ، ز ، ل ، ن : « إن كنت صادقا على نغفر ... » .

Marfat.com

قلت : قد روى عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من[1] العلماء . وقد مضى ذلك في « يوسف[2] » وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي قريب صديق . قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوًا بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميا بالقرابة . وقيل : هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام ، كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ؛ ذكره الماوردي . والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قنبرًا مولى عليّ ابن أبي طالب فناداه عليّ : يا قنبر ! دع شاتمك ، وآله عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . وأنشدوا :

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا * أضرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شيءٌ أحبُّ إلى سفيهٍ * إذا سبَّ الكريمَ مِنَ الجوابِ
مُتَارَكَةُ السفيهِ بلا جوابٍ * أشدُّ على السفيهِ من السِّبابِ

وقال محمود الوراق[3] :

سأُلزم نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنبٍ * وإن كثُرتْ منه لديَّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثةٍ * شريفٌ ومشروفٌ ومِثْلٌ مقاوِمُ

(١) لفظة : « من » ساقطة من ا ، ح ، ز ، ل . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٦٦ .

(٣) الأبيات التالية معزوة في كتاب « أدب الدنيا والدين » ص ٢٥٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن أحمد .

Marfat.com

فأما الذى فوقى فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن * إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أوهفا * تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعنى هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الخير ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل : الكناية فى « يُلَقَّاهَا » عن الجنة؛ أى مايلقاها إلا الصابرون ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ تقدم فى آخر « الأعراف »[(1)] مستوفى . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالك وأقوالك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وقد مضى فى غير موضع[(2)] . ثم نهى عن السجود لهما ؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما فى أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله ؛ لأن خالقهما هو الله

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧
(2) راجع جـ ٢ ص ١٩٢

Marfat.com

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما . ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وصورهنّ وسخرهنّ ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار . وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع . وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل . ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى لا يملون عبادته . قال زهير :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانينَ حَوْلًا لا أبالَكَ يَسْأَمِ

مسألة — هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ؛ واختلفوا في موضع السجود منها . فقال مالك : موضعه « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » ؛ لأنه متصل بالأمر . وكان علىّ[1] وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله « تَعْبُدُونَ » . وقال ابن وهب والشافعي : موضعه « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال . وبه قال أبو حنيفة . وكان ابن عباس يسجد عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة[2] منهما . وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب وطلحة وزبيد اليامييّن[3] والحسن وابن سيرين . وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . قال ابن العربي : والأمر قريب .

مسألة — ذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ؛ فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما . واختلفوا في كيفيتها اختلافا كثيرا ، لاختلاف الآثار ، وحسبك ما في صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة في الباب . والله الموفق للصواب .

---

(١) في ح : « وكان علي يسجد عند قوله . . » . (٢) في ا ، ز ، ل : « السجدة بالآخرة . . » .
(٣) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أى « وَمِنْ آيَاتِهِ » الدالة على أنه يحيي الموتى « أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى يابسة جدبة؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ قال النابغة :

رمادٌ كَكُحْلِ العَيْنِ لَأْيًا أُبِينُه * وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِع [1]

والأرض الخاشعة : الغبراء التي تنبت . وبلدة خاشعة : أى مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى بالنبات؛ قاله مجاهد . يقال : آهتز الإنسان أى تحرك؛ ومنه :

تراه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى * إذا لم تَجِدْ عِند آمرئ السَّوْء مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى آنتفخت وعلت قبل أن تنبت؛ قاله مجاهد . أى تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت وآهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها آرتفاعها . ويقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد فى جسمه بالكبر طولا وعرضا . وقرأ أبو جعفر وخالد « وَرَبَأَتْ » ومعناه عظمت؛ من الربيئة . وقيل : « آهْتَزَّتْ » أى استبشرت بالمطر « وَرَبَتْ » أى آنتفخت بالنبات . والأرض إذا آنشقت بالنبات : وُصِفت بالضحك، فيجوز وصفها بالآستبشار أيضا . ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد؛ وهى حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى فى « الحج » [2] ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] تقدم فى غير موضع .

---

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده؛ فإنه يسود متى تقادم عهده وإصابته الأمطار . والنؤى : حفير حول الخيمة . والجذم : الأصل . وأثلم : مهدوم . وخاشع : تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأى؛ أى بعد جهد ومشقة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣ .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أى يميلون عن الحق فى أدلتنا . والإلحاد : الميل والعدول . ومنه اللحد فى القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال : ألحد فى دين الله أى حاد عنه وعدل . ولَحَد لغة فيه . وهـذا يرجع إلى الذين قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » وهم الذين ألحدوا فى آياته وماوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن . قال مجاهد : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى عند تلاوة القرآن بالمُكاء والتَّصْدِيَة واللغو والغناء . وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه فى غير موضعه . وقال قتادة : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » يكذبون فى آياتنا . وقال السدى : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون . والمعنى متقارب . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل . وقيل : الآيات المعجزات، وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز . ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهو أبو جهل فى قول ابن عباس وغيره . ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : النبى صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مقاتل . وقيل : عثمان . وقيل : عمار ابن ياسر . وقيل : حمزة . وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : المؤمنون . وقيل : إنها على العموم ؛ فالذى يلقى فى النار الكافر، والذى يأتى آمنا يوم القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر . ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد؛ أى بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعد .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الذكر ها هنا القرآن فى قول الجميع؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام . والخبر محذوف [تقديره](١) هالكون أو معذبون . وقيل : الخبر « أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » واعترض قوله : « مَا يُقَالُ لَكَ » ثم رجع إلى الذكر فقال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » ثم قال : « أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ » والأول الاختيار؛ قال النحاس : عند النحويين جميعا فيما علمت . ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه : عزيز من عند الله . وقيل : كريم على الله . وقيل : «عَزِيزٌ» أى أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل . وقيل : ينبغى أن يعز ويُجَلّ وألا يلغى فيه . وقيل : «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يبدّله ؛ قاله السدى . مقاتل : منع من الشيطان والباطل . السدى : غير مخلوق فلا مثل له . وقال ابن عباس أيضا : « عَزِيزٌ » أى ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله. ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله و ينسخه ؛ قاله الكلبي . وقال السدى وقتادة : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » يعنى الشيطان ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص . وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب « مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . ابن جريج : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون . وعن ابن عباس : « مِن بَيْنِ يَدَيْهِ » من الله تعالى « وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل صلى الله عليه وسلم، ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ابن عباس : « حَكِيمٍ » فى خلقه « حَمِيدٍ » إليهم . قتادة : « حَكِيمٍ » فى أمره « حَمِيدٍ » إلى خلقه .

قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أى من الأذى والتكذيب ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لك ولأصحابك ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يريد لأعدائك وجيعا . وقيل : أى ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك ، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد ، وهو كقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»[1] أى لم تدعهم الا إلى ما تدعو[2] إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو آستفهام، أى أىّ شىء يقال لك «إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ». وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا. وقيل: هو متصل بـ «مَا يُقَالُ لَكَ». «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» أى إنما أمرت بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أى بلغة غير العرب ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا. وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان.

الثانية — وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربى، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى «أأعجمى وعربى» بهمزتين مخففتين، والعجمى الذى ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح، والأعجمى الذى لا يفصح كان من العرب أو من العجم. فالأعجم ضد الفصيح وهو الذى لا يبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه "صلاة النهار عجماء" أى لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد، لأن الرجل العجمى الذى ليس من العرب قد يكون

(١) راجع ص ٢٧٦ من هذا الجزء. (٢) فى ح، ز، ل، ن «إلى ما دعوا إليه».

Marfat.com

فصيحا بالعربية، والعربي قد يكون غير فصيح ؛ فالنسبة إلى الأعجمي آكد في البيان . والمعنى أقرآن أعجمي، ونبي عربي ؟ وهو ٱستفهام إنكار . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ٱبن عامر « أَعْجَمِيٌّ » بهمزة واحدة على الخبر . والمعنى « لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » فكان منهم عربي يفهمه العرب، وأعجمي يفهمه العجم . وروى سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا وبعض آياته عربيا فنزلت الآية . وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه « السجِّيل » وهي فارسية وأصلها سنك كِل ؛ أي طين وحجر، ومنه « الفِرْدَوْس » رومية وكذلك « القِسْطَاس » وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وٱبن ذكوان وحفص على الٱستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم . والقراءة الصحيحة قراءة الٱستفهام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي صمم عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللغو فيه. ونظير هذه الآية : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » وقد مضى مستوفى (١) . وقراءة العامة ﴿ عَمًى ﴾ على المصدر . وقرأ ٱبن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة « وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ » بكسر الميم أي لا يتبين لهم . وٱختار أبو عبيد القراءة الأولى ؛ لإجماع الناس فيها ؛ ولقوله أولا : « هُدًى وشِفَاءٌ » ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر في « عَمًى » أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره : « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم « وقر (٢) وَهُوَ » يعني القرآن « عَلَيْهِمْ » ذو عمى ، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف . وقيل المعنى والوقر عليهم عمى . ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل . وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم : أنت تسمع من قريب . ويقال للذي لا يفهم : أنت تنادَى من بعيد . أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ (٢) لفظ « وقر » ساقطة من أ ، ح ، ز ، ل .

Marfat.com

ولا يفهمه . وقال الضحاك : « يُنَادَوْنَ » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم . وقيل : أى من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادى عنه وهو لم يسمع . وقال على رضى الله عنه ومجاهد : أى بعيد من قلوبهم . وفى التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى آمن به قوم وكذب به قوم . والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا يحزنك اختلاف قومك فى كتابك ، فقد اختلف من قبلهم فى كتابهم . وقيل : الكناية ترجع إلى موسى . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فى إمهالهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بتعجيل العذاب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى شديد الريبة . وقد تقدم[(١)] . وقال الكلبي فى هذه الآية : لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم . وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها ، دليله قوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا[(٢)] » وروى العدول الثقات،

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦

Marfat.com

والأئمة الأثبات ، عن الزاهد العدل ، عن أمين الأرض ، عن أمين السماء ، عن الرب جل جلاله : « ياعبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا » الحديث. وأيضا فهو الحكيم[(١)] المالك ، وما يفعله المالك فى ملكه لا آعتراض عليه ؛ إذ له التصرف فى ملكه بما يريد .

قوله تعالى : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ج وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ج وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ صلے وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى حين وقتها . وذلك أنهم قالوا : يامجد إن كنت نبيّا فخبّرنا متى قيام الساعة فنزلت : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ ﴾ « مِنْ » زائدة أى وما تخرج ثمرة . ﴿ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أى من أوعيتها ، فالأكمام أوعية الثمرة ، واحدها كُمّة وهى كل ظرف لمال أوغيره ؛ ولذلك سمى قشر الطّلع أعنى كُفُرّاه الذى ينشق عن الثمرة كُمّة ؛ قال آبن عباس : الكُمّة الكُفُرّى قبل أن تنشق ، فإذا آنشقت فليست بكمة . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الرحمن »[(٢)] . وقرأ نافع وآبن عامر وحفص « مِنْ ثَمَرَاتٍ » على الجمع . الباقون « ثَمَرَةٍ » على التوحيد والمراد الجمع ، لقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ﴾ والمراد الجمع ، يقول : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » كما يرد إليه علم الثمار والنتاج . ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله المشركين ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ الذين زعمتم فى الدنيا أنها آلهة تشفع . ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى الأصنام . وقيل : المشركون . ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿ آذَنَّاكَ ﴾ أسمعناك وأعلمناك . يقال : آذن يؤذن : إذا أعلم ، قال[(٣)] :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(١) فى ح ، ن « الحليم » . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٥٦ (٣) هو الحرث بن حلزة ، والبيت مطلع معلقته .

Marfat.com

﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أى نعلمك مامنا أحد يشهد بأن لك شريكا . لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدم فى غير موضع (١) . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا وعلموا ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى فرار عن النار . و « مَا » هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى؛ تقديره : وظنوا أنهم مالهم محيص ولا مهرب . يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب . وقيل : إن الظن هنا الذى هو أغلب الرأى ، لا يشكون فى أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها . وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أى لا يمل من دعائه بالخير . والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان هاهنا يراد به الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف . وفى قراءة عبد الله « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ » . ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الفقر والمرض ﴿ فَيَئُوسٌ ﴾ من روح الله ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من رحمته . وقيل : « يَئُوسٌ » من إجابة الدعاء « قَنُوطٌ » بسوء الظن بربه . وقيل : « يَئُوسٌ » أى يئس من زوال مابه من المكروه « قَنُوطٌ » أى يظن أنه يدوم؛ والمعنى متقارب .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٠٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ عاقبة و رخاء وغنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر . ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي ﴾ أى هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملى ؛ فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : « هَـٰذَا لِي » أى هذا من عندى . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى الجنة ، واللام للتأكيد . يتمنى الأمانى بلا عمل . قال الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : للكافر أمنيتان أما فى الدنيا فيقول : « لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » ، وأما فى الآخرة فيقول : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[1] و « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا »[2] . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . وقال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه . ومعنى « نَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله . وقيل : « نَأَىٰ » تباعد . يقال : نأيته ونايت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه ، وأنايته فانتأى : أبعدته فبعد ، وتناءوا تباعدوا ، والمنتأى الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مُدرِكى * وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنك واسعُ

وقرأ يزيد بن القعقاع و « نَاءَ بِجَانِبِهِ » بالألف قبل الهمزة . فيجوز أن يكون من « ناء » إذا نهض . ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة . يقال : أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء إذا أكثر . وقال ابن عباس : « فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فذو تضرع واستغاثة . والكافر يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٨

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٨٦

Marfat.com

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد « أَرَأَيْتُمْ » يامعشر المشركين ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أى فأى الناس أضل، أى لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم . وقيل : قوله : « إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » يرجع إلى الكتاب المذكور فى قوله : « آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » والأول أظهر وهو قول آبن عباس .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ أى علامات وحدانيتنا وقدرتنا « فِي الْآفَاقِ » يعنى خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض . وقال آبن زيد : « فِي الْآفَاقِ » آيات السماء[(1)] « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » حوادث الأرض . وقال مجاهد : « فِي الْآفَاقِ » فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفى ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، و إجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » فتح مكة . وهذا آختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى . وقال قتادة والضحاك : « فِي الْآفَاقِ » وقائع الله فى الأمم « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » يوم بدر . وقال عطاء وآبن زيد أيضا « فِي الْآفَاقِ » يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

(١) فى ا ، ح ، ز ، ل : « آفاق السماء » .

Marfat.com

والأشجار والجبال والبحار وغيرها (١) . وفي الصحاح : الآفاق النواحي ، واحدها أُفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقِيّ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول : أُفُقِيّ بضمهما وهو القياس . وأنشد غير الجوهري :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

« وَفِي أَنْفُسِهِمْ » من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . وقيل : ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم في «المؤمنون» (٢) بيانه . وقيل : المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن . والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق . والرابع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل بـ « يكف » و ﴿أَنَّهُ﴾ بدل من « ربك » فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع، وجر « أن » قدرته بدلا على اللفظ . ويجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وإذا شهده جازى عليه . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » في معاقبته الكفار . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما يفعله العبد « شَهِيدٌ » والشهيد بمعنى العالم؛ أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة . وقال السدي : أي من البعث . ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء .

(١) في ن : « وغير ذلك » .		(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩

Marfat.com

قاله السدى . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء . وقال الخطابي : هو الذى أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذى أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجيء فى معرض الوعيد ، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، وٱستئصال المحاط به ، وأصله مُحْيِط نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة؛ ومن ذلك حائط الدار، يحوطها أهلها . وأحاطت الخيل بفلان : إذا أُخذ مأخذا حاصرا من كل جهة ، ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ »(١) والله أعلم بصواب ذلك .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩

حققه
أحمد عبد العليم البردونى

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر، وأوله :
« ســورة الشورى »

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس عشر

يطلب من
المكتبة الإسلامية
طهران

Marfat.com

فهرس الجزء السادس عشر

ســـورة الشـــورى

صفحة

تفسير قوله تعـالى : « حم . عسق » وبيان ماجاء فى معنى هذه الحروف ١

تفسير قوله تعـالى : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ ... » الآيات . الكلام على معنى استغفار الملائكة للؤمنين ٤

تفسير قوله تعـالى : « فاطر السموات والأرض ... » الآيات . القول فى معنى « ليس كمثله شىء » ٧

تفسير قوله تعـالى : « شرع لكم من الدين ... » الآيات . بيان ماشرعه الله لعباده ٩

تفسير قوله تعـالى : « الله الذى أنزل الكتاب ... » الآيات . اختلاف العلمـاء فى معنى « الميزان » ١٥

تفسير قوله تعـالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشـاء ... » الآيات . معـنى لطف الله بعباده . وأن فى تفضيل قوم بالمـال حكمة ١٦

تفسير قوله تعـالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ... » الآية . القول فى حرث الآخرة وحرث الدنيـا ١٨

تفسير قوله تعـالى : « ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا ... » الآية . الكلام على قوله تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى» وهل الخطاب لقريش أو لغيرهم . وهل « القربى » هنا قرابة الرسول أو التقرّب إلى الله تعالى بالطاعة . بيان ماورد فى حب آل البيت . اختلاف العلمـاء فى سبب نزول هذه الآية ٢٠

تفسير قوله تعـالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده ... » الآية . فيـه مسألتان : الأولى — سبب نزولها . الثانية — بيان أن أفعال الرب سبحانه لاتخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ٢٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ... » الآيات . ٢٨
تفسير قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ... » الآيات .
القول فى أن معاصى الإنسان سبب فى مصائبه ٣٠
تفسير قوله تعالى : « ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام ... » الآيات... ... ٣٢
تفسير قوله تعالى : « والذين يجتنبون كبائر الإثم ... » فيه مسألتان : معنى كبائر الإثم . سبب نزول هذه الآية ٣٥
تفسير قوله تعالى : « والذين استجابوا لربهم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : من هم الذين استجابوا إلى الإيمان بالرسول . الكلام فى الشورى وماورد فيها من آثار... ... ... ٣٦
تفسير قوله تعالى : «والذين إذا أصابهم البغى ... » الآيات . فيه إحدى عشرة مسألة : القول فى الانتصار من الباغى ، وبيان حد الانتصار . جعل الله تعالى المؤمنين صنفين : صنف يعفو عن الظالم ، وصنف ينتصر من ظالمه . بيان أن العفو من الأعمال الصالحة . بيان أن المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه . بيان الحقوق التى يجب فيها الانتصار . اختلاف العلماء فى السلطان يضع على أهل بلد مالا معلوما يؤدونه على قدر أموالهم ، هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل . اختلافهم فى التحليل من المال والعرض . هل تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ، بيان أن العفو مندوب إليه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ٣٨
تفسير قوله تعالى : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ... » الآية . بيان أن المشركين تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم . مايقوله المؤمنون فى الجنة حين يعاينون ما حل بالكفار ٤٥
تفسير قوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ... » الآيات فيه أربع مسائل : بيان أن من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر . معنى « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » . معنى العقيم . قول العلماء : اذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أخواله وأذكرا . واذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أعمامه وآنثا . أقوال العلماء فى توريث الخنثى... ... ... ٤٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ... » الآية . فيه مسألتان : سبب نزول هذه الآية . اختلاف العلماء فى الرجل يحلف ألا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ٥٢

تفسير قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... » الآيات . فيه أربع مسائل : معنى « روحا » . القول فى عصمة الأنبياء قبل النبوّة . هل كان نبينا صلى الله عليه وسلم متعبدا بدين قبل الوحى أم لا . اختلاف العلماء فى تأويل قوله تعالى : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » ٥٤

سورة الزخرف

تفسير قوله تعالى : « حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا ... » الآيات . هل المراد بالكتاب جميع الكتب أم القرآن ٦١

تفسير قوله تعالى : « وكم أرسلنا من نبيّ فى الأوّلين ... » الآيات ٦٣

تفسير قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ... » الآيات . بيان أن الكفار إذا سئلوا عن الخالق أقرّوا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم ٦٤

تفسير قوله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها ... » الآيات . فيه خمس مسائل : اختلاف العلماء فى معنى «الأزواج» . مايقوله الراكب إذا ركب دابة أو سفينة ٦٥

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءا ... » الآية . بيان أن الكفار أقرّوا بأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى ثم جعلوا له شريكا أو ولدا . اختلافهم فى معنى « جزءا » ٦٩

تفسير قوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية ... » الآيات . فيه مسألتان : معنى « ينشأ » . المراد بالحلية . الرد على الكفار وبيان جهلهم فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله ٧١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمة ... » الآيات . فيه مسألتان :
معنى « على أمة » . الدليل على إبطال تقليد الكفار لآبائهم 74

تفسير قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى الكلمة الباقية فى عقب إبراهيم عليه السلام . أقوال العلماء فى معنى « العقب » وأن هذه الكلمة ترد على أحد عشر لفظا 76

تفسير قوله تعالى : « بل متعت هؤلاء وآباءهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى متع الكفار بالإمهال فى الدنيا . تعنتهم وتمنيهم أن ينزل القرآن على أحد رجلين منهم . من هو أحد الرجلين 82

تفسير قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ... » الآية . فيه خمس مسائل : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها عند الله تعالى . أقوال العلماء فى « سقفا ومعارج » وما فيهما من اللغات . استدلال العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حق فيه لصاحب العلو واختلافهم فى السفل . ذكر شىء من أحكام العلو والسفل 84

تفسير قوله تعالى : « ولبيوتهم أبوابا وسُرُرًا ... » الآيات . الكلام على التزهيد فى الدنيا 87

تفسير قوله تعالى : « ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن ... » الآيات . بيان أن من أعرض عن ذكر الله تعالى قيض الله له شيطانا يأمره بالمعصية . الفرق بين العَشْو والعَشَا ، وما فيهما من اللغات 88

تفسير قوله تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ... » الآية . بيان أن الله تعالى منع أهل النار التأسى كما يتأسى أهل المصائب فى الدنيا 91

تفسير قوله تعالى : « فاستمسك بالذى أوحى إليك ... » الآيات . بيان أن القرآن شرف لمن عمل به ، كان من قريش أو من غيرهم 93

تفسير قوله تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ... » الآية . بيان أن هذا السؤال كان ليلة أسرى به صلى الله عليه وسلم . القول فى أن الأمر

Marfat.com

صفحة

بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ عليه السلام : إن ما جئت به مخالف
لمن كان قبلك ٩٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ... » الآيات .
ذكر قصة موسى وفرعون . ما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به
وبقومه من الإغراق ٩٦

تفسير قوله تعالى : « ولما ضُرب ابن مريم مثلا ... » الآيات . مناظرة عبد الله
ابن الزِّبَعْرَى حالة كفره مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن موسى عليه السلام
وهل هو من حصب جهنم والرد عليه ١٠٢

تفسير قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة ... » الآيات . بيان أن خروج عيسى
عليه السلام من أشراط الساعة ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات ... » الآيات ١٠٧

تفسير قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم ... » الآيات . اختلاف
أهل الكتاب فى عيسى هل هو ابن الله ، أو هو الله ، أو ثالث ثلاثة ١٠٨

تفسير قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ... » الآية . الكلام
على سبب نزول هذه الآية... ... ... ١٠٩

تفسير قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ... » الآيات . الكلام على
نعيم أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون . النهى عن لبس الحرير والديباج ،
وعن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة . اختلاف العلماء فى استعمالها
فى غير ما ذكر . إذا كان الإناء مُضَبَّبًا بهما أو فيه حلقة منهما . القول فى أن
ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه . الكلام على الصحاف والأكواب... ... ... ١١٠

تفسير قوله تعالى : « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ... » الآيات .
بيان أحوال أهل النار . واستغاثتهم بالخزنة فلما يئسوا نادوا مالكا فسكت
عنهم مدة ثم أجابهم . الكلام على ترخيم الاسم فى النداء... ... ... ١١٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أم أبرموا أمرا ... » الآيات . ما أراده المشركون بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة حين استقرّ أمرهم على أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه صلى الله عليه وسلم ١١٨

تفسير قوله تعالى : « قل إن كان للرحمن ولد ... » الآيات . بيان أن هذا مبالغة فى الاستبعاد . معنى « العابدين » وما فيها من اللغات ١١٩

تفسير قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا و يلعبوا ... » الآيات . تكذيب المشركين فى أن لله تعالى شريكا أو ولدا ١٢١

تفسير قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ... » الآية . فيه مسألتان : بيان أن آلهة المشركين لا يملكون الشفاعة . شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام ... » الآية ١٢٤

سورة الدخان

بيان فضلها ١٢٥

تفسير قوله تعالى : « حم . والكتاب المبين ... » الآيات . الكلام على الليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن . ما جاء فى فضل ليلة النصف من شعبان . ما يكون فى ليلة القدر ١٢٥

تفسير قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ... » الآيات . بيان الدخان ومتى حصوله . دعاء الكفار أن يكشفه عنهم ليؤمنوا ثم عودهم إلى الكفر بعد كشفه . بيان البطشة الكبرى ١٣٠

تفسير قوله تعالى : « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ... » الآيات ١٣٤

تفسير قوله تعالى : « فأسر بعبادى ليلا ... » الآية . فيه مسألتان : أمر موسى أن يسرى ليلا بمن آمن من بنى إسرائيل . الترفق بالدواب فى حالة السفر . الكلام على قوله « واترك البحر رهوا » وما فيه من اللغات ١٣٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض... » الآية . القول فى بكاء السماء والأرض ١٣٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد نجينا بنى إسرائيل ... » الآيات . استعباد القبط لبنى إسرائيل بأمر فرعون . الكلام على تفضيل بنى إسرائيل على العالمين . ابتلاء بنى إسرائيل بالآيات ، والمعنى المراد من الآيات ١٤٢

تفسير قوله تعالى : « إن هؤلاء ليقولون . إن هى إلا موتتنا الأولى ... » الآيات : قول الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا فابعث رجلين من آبائنا أحدهما قصى لنسأله عما يكون بعد الموت الخ ١٤٣

تفسير قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تُبَّع ... » الآيات . الاختلاف فى « تُبَّع » هل هو رجل بعينه ، أو المراد به ملوك اليمن . ذكر التبابعة . القول فى أنه رجل بعينه هو أبو كرب والآثار الواردة فيه . اختلف هل كان نبيا أو ملكا ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم... » الآيات . هل يجوز إبدال الكلمة من القرآن بغيرها إذا كانت مؤدية معناها . الكلام على شجرة الزقوم ... ١٤٨

تفسير قوله تعالى : « ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم ... » بيان أن هذه الآية نزلت فى أبى جهل على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ١٥١

تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى مقام أمين ... » الآيات . الكلام على نزل المؤمنين ونعيمهم ، وعلى الحور العين . والاختلاف فى أيهما أفضل فى الجنة : نساء الآدميات أم الحور العين . الكلام على الموتة الأولى ١٥٢

سورة الجاثية

تفسير قوله تعالى : « حم . تنزيل الكتاب من الله ... » الآيات . بيان أوجه الإعراب فى قوله « آيات » ١٥٦

تفسير قوله تعالى : « ويل لكل أفاك أثيم ... » الآيات . بيان أن هذا وعيد لكل من ترك الاستدلال بآياته ١٥٨

Marfat.com

صفحة
تفسير قوله تعالى : « الله الذى سخر لكم البحر ... » الآيات ١٦٠
تفسير قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ...» الآية .
الاختلاف فى سبب نزول هذه الآية ١٦٠
تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب ... » الآيات ١٦٢
تفسير قوله تعالى : «ثم جعلناك على شريعة من الأمر ...» الآية. فيه مسألتان :
بيان معنى الشريعة ، وأن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع فى التوحيد والمصالح ،
وإنما خالف بينها فى الفروع . الرد على من قال إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ١٦٣
تفسير قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ... » الآية . القول
فى سبب نزول هذه الآية ١٦٥
تفسير قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ... » الآية . أقوال العلماء
فى ذم الهوى . بيان أن هذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم
فى الاعتقاد ١٦٦
تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا ... » الآية . إنكار الكفار
للبعث وقولهم إن الدهر هو الذى يهلكنا . أقوال العلماء فى الدهر والنهى عن
سبه . بيان أنه حدث فى الإسلام أقوام يتأولون ويرون أن القيامة موت البدن ،
ويردّون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم... ... ... ١٧٠
تفسير قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ... » الآيات . الرد على
المشركين فى إنكارهم البعث ١٧٢
تفسير قوله تعالى : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ... » الآية .
تأويل العلماء فى معنى جاثية ، وهل هذا خاص بالكفار ، أم عام للمؤمن والكافر ١٧٤
تفسير قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ... » الآية . بيان
ما تستنسخه الحفظة من أعمال العباد ١٧٥
تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق ... » الآيات ١٧٦

Marfat.com

ســورة الأحقـاف

صفحة

تفسير قوله تعالى : « حم . تنزل الكتاب من الله ... » الآيات ١٧٨

تفسير قوله تعـالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ... » الآية . فيـه خمس مسائل : تو بيـخ المشركين . معنى « أو أثارة من علم » . بيان أن الله تعالى نهى عن التخرص وادعاء الغيب . كيفية خطهم فى الرمل . القول فى أن الرؤيا جزء من النبوة ... الكلام على الفأل والطيرة ١٧٩

تفسير قوله تعـالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله ... » الآيات : بيان أنه لا أحد أضـل من المشركين : بيان أن الآلهة التى يعبـدها الكفار تكون لهم أعداء يوم القيامة ١٨٣

تفسير قوله تعـالى : « قـل ما كنت بِدْعًا من الرسل ... » الآية . معنى البـدع ومافيه من اللغات . أقوال العلماء فى معنى قوله «وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم» هل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ، وهل الآية منسوخة أم لا ١٨٥

تفسير قوله تعـالى : « قل أرأيتم إن كان من عنـد الله وكفرتم به ... » الآية . شهادة عبد الله بن سلام للنبي صلى الله عليه وسلم أنه مذكور فى التوراة وأنه نبيّ القول فى أن الشاهد غير ابن سـلام ١٨٨

تفسير قوله تعـالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنـوا ... » الآية . اختلف فى سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال ١٨٩

تفسير قوله تعـالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ... » الآية . فيـه سبع مسائل : وجه اتصال هذه الآية بمـا قبلها . بيان مدّة الحمل والفطام . صحبة أبى بكر للنبي صلى الله عليـه وسلم وهم يريدون الشام للتجارة وقصـة الراهب . الكلام على بلوغ الأشُد . نسب أبى بكر رضى الله عنه وفضله . لم يكن أحد من الصحابة أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر ١٩٢

تفسير قوله تعـالى : « أولئك الذين نَتَقَبَّل عنهم أحسن ما عمـلوا ... » الآية . بيان أن الله تعالى وعد أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصـدق ١٩٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « والذى قال لوالديه أف لكما ... » الآيات . القول فيمن نزلت فيه هـذه الآية . بيان أن لكل واحد من المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم ١٩٧

تفسير قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ... » الآية . توبيخ الكفار على قضاء شبابهم فى المعاصى واتباع الشهوات ولم يعملوا للآخرة . الحض على الزهد وقول عمر رضى الله عنه فى ذلك . معنى : الصلاء ، والصناب ، والصلائق ، والكراكر ١٩٩

تفسير قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ... » الآية . ذكر قصة هود مع قومه . الكلام على الأحقاف والعارض . ما فُعل بقوم عاد من التدمير والهلاك ٢٠٣

تفسير قوله تعالى : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً ... » الآية . التهكم بالمشركين حيث لم تنصرهم آلهتهم التى تقربوا بها إلى الله لتشفع لهم . بيان أوجه القراءات فى قوله « إفكهم » ٢٠٩

تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن ... » الآية . توبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالقرآن فى حالة أن الجنّ لما سمعوه آمنوا به وعلموا أنه من عند الله تعالى . خروج الرسول عليه السلام إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة وقصة عداس معه . بيان ما جاء فى جنّ نصيبين واستماعهم للقرآن وإسلامهم وأسمائهم وعددهم . من حضر من الصحابة ليلة الجنّ ٢١٠

تفسير قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ... » الآيات . ما قاله الجنّ عند رجوعهم إلى قومهم . بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الجنّ والإنس ، وهذا خاصة له ولم تكن لنبىّ غيره . القول فى أن هذه الآى تدل على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . ٢١٦

تفسير قوله تعالى : « أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ... » الآية . بيان أن هذه الآية احتجاج على منكرى البعث . معنى « ولم يَعْىَ » وتصريفها ٢١٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ... » الآية . أقوال العلماء فى أولى العزم من الرسل وعدّتهم وأسمائهم وما صبروا عليه . فائدة تكتب إذا عسر على المرأة ولادتها ٢٢٠

سورة القتال

تفسير قوله تعالى : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ... » الآية . بيان أن الله تعالى أبطل أعمال الكافرين . القول فى سبب نزول هذه الآية ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ... » الآيات ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرْب الرقاب ... » الآية . فيه أربع مسائل : الأمر بجهاد الكفار . جواز المنّ على الأسارى أو المفاداة . اختلاف العلماء فى تأويل هذه الآية على خمسة أقوال ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ... » الآية . القول فى أن نصرة دين الله سبب فى النصر على الكفار ٢٣١

تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا فتعسًا لهم ... » الآيات . بيان أن سبب إضلال الكفار وإتعاسهم كونهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع . فى معنى « التعس » عشرة أقوال ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « مثل الجنة التى وُعِد المتقون ... » الآية . بيان صفة الجنة المعدّة للتقين ، وبيان الأنهار التى فيها . معنى « آسن » ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك ... » الآية . بيان أن الله تعالى طبع على قلوب الكفار لاتباعهم أهواءهم وإعراضهم عن الحق . معنى « آنفا » . القول فى الذين اهتدوا للإيمان ؛ ومعنى الهدى الذى زادهم ٢٣٨

تفسير قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ... » الآية . الكلام على أمارات الساعة ، ومعنى أشراطها ٢٤٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ... » الآيات... ... ... ٢٤١

تفسير قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ... » الآيات. فيه أربع مسائل : بيان المعنى المراد فى قوله « إن توليتم » . القول فى حرمة قطع الرحم ووجوب صلتها . بيان أن الرحم على وجهين : خاصة وعامة ، والكلام على كل منهما ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم ... » الآيات . بيان حال الكفار ، وأن الله تعالى أملى لهم حتى يتمادوا فى الكفر . الكلام على أضغان المشركين . معنى « الضغن » . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف المنافقين بسيماهم ويعرفهم إذا سمع كلامهم . القول فى معنى اللحن ٢٤٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... » الآية . الأمر بلزوم الطاعة فى أوامر الله تعالى والرسول فى سننه . القول فى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصى تخرج عن الإيمان . احتجاج العلماء بهذه الآية على أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى الوهن . اختلاف العلماء فى حكم هذه الآية . معنى « يتركم » ٢٥٥

تفسير قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ... » الآيات ٢٥٧

سورة الفتح

بيان الوقت الذى نزلت فيه سورة الفتح، وأنها نزلت فى شأن الحديبية. بيان فضلها ٢٥٩

تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » اختلف العلماء فى هذا الفتح ماهو ٢٦٠

تفسير قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ... » الآية . اختلاف أهل التأويل فى معنى الآية . المعنى المراد بالذنب بالنسبة للرسول عليه السلام... ... ٢٦١

تفسير قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا ... » الآية . القول فى زيادة الإيمان ٢٦٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ... » الآيات . الكلام على شهادة الرسول عليه السلام على أمته . الأمر بتوقير الرسول وتعزيره . معنى التعزير . اختلف فى الضمائر هل هى راجعة إلى الله تعالى أو إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ... ٢٦٦

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ... » الآية . بيان أن هذه المبايعة هى بيعة الرضوان ... ٢٦٧

تفسير قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب ... » الآيات . الكلام على الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان استنفرهم واعتلوا باشتغالهم بأموالهم وأهليهم . الكلام على معنى « البور » . بيان ما وعده الله تعالى أهل الحديبية من مغانم خيبر وطلب المخلفين اشتراكهم فى القتال طمعا فى المغانم... ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على القوم أصحاب البأس الشديد . الدليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . حكم المشرك أن تؤخذ منه الجزية أو يسلم ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » الآية . بيان أنه لا إثم على أهل الزمانة فى التخلف عن الجهاد ... ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ... » الآية . الكلام على بيعة الرضوان وما حصل فيها ... ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ... » الآية . بيان ما وعده الله المؤمنين من المغانم ... ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم ... » الآيات . الكلام على ما حصل من المشركين فى الحديبية . منعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام حين أحرم مع أصحابه بعمرة . القول فى الهدى . الكلام على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ... ٢٨٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ... » الآية .
الكلام على معنى الحمية . المعنى المراد من « كلمة التقوى » ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ... » الآية . الكلام
على رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة ٢٨٩

تفسير قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ... » الآية .
فيه خمس مسائل : الكلام فى إعرابها . القول فى سيما السجود . معنى
« الشطء » . الكلام على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم ينبتون
نبات الزرع، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. النهى عن الطعن فى أحد
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنقيصه . انتصاف عمر بن حبيب
للصحابة فى مجلس هارون الرشيد وقصته معه ٢٩٢

سورة الحجرات

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنو لا تقدّموا بين يدى الله ورسوله ... »
الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن السورة نزلت فى الأمر بمكارم الأخلاق
ورعاية الآداب . اختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة . النهى عن التعرض
لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، ووجوب اتباعه والاقتداء به ٣٠٠

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ... »
الآية . فيه ست مسائل : النهى عن رفع الصوت والجهر بالقول فى حضرة
الرسول. بيان أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا، و إنما نهوا عن جهر مخصوص،
وهو الجهر المنعوت بمماثلة ماقد اعتادوه منهم فيما بينهم . القول فى أن الآية أمر
بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره وخفض الصوت بحضرته وعند
مخاطبته . القول فى أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا ، وكلامه
المأثور بعد موته فى الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه . ليس الغرض
برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ، و إنما الغرض صوت
ليس مناسبا لما يهاب به العظماء و يوقر الكبراء... ... ... ٣٠٣

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكيّة في قول الحسن وعِكْرِمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »[1] إلى آخرها . وهي ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾ قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل[2] : لم قطع « حمٓ » من « عٓسٓقٓ » ولم تقطع « كهيعص » و « المٓر » و « المٓص » ؟ فقال : لأن « حمٓ . عسق » بين سُوَرٍ أوّلها « حمٓ » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكأن « حمٓ » مبتدأ و « عٓسٓقٓ » خبره . ولأنها عدّت آيتين ، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة . وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد ، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام ؛ ذكره الجُرْجَانِي . وكتبت « حمٓ . عٓسٓقٓ » منفصلا و « كهيعص » متصلا لأنه قيل : حمٓ ؛ أى حمّ ماهو كائن ، ففصلوا بين مايقدّر فيه فعل وبين ما لا يقدّر . ثم لو فُصل هذا ووُصل ذاجاز ؛ حكاه القُشيرى . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « حمٓ . سق » قال ابن عباس :

---

(١) راجع ص ٢١ من هذا الجزء .

(٢) فى ز : « الحسن بن المفضل » وفى ل : « الحسن بن الفضل » .

Marfat.com

وكان علىّ رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنـذر ، قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمـان : أخبرنى عن تفسير قوله تعالى : « حمٓ . عسٓقٓ » ؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه[1] ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمـان : أنا أ نبئك بها ، قد عرفت لِم تركها ؛ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله ينزل على نهر من أنهـار المشرق ، يبنى عليه مدينتين يشـق النهر بينهما شـقا ، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها؛ فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت ! فـا هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها[2] كل جبار عنيد ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ؛ فذلك قوله : « حمٓ . عسٓقٓ » أى عزمة من عزمات الله ، وفتنة وقضاء حُم : حمٓ . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقـع فى هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ماروى جرير بن عبد الله البَجَلىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[3] والصَّراة، يجتمع فيهـا جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها — وفى رواية بأهلها — فَلَهِىَ أسرع ذهابا فى الأرض من الوَتِد الجيِّد فى الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس « حمٓ . سٓقٓ » بغيرعين . وكذلك هو فى مصحف عبـد الله بن مسعود ؛ حكاه الطبرى . وروى نافع عن ابن عباس : « الحـاء » حلمه[4] ، و « الميم » مجده ، و « العين » علمه ، و « السين » سَنَاه، و « القاف » قدرته ؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن ، و «الميم» من المجيد ، و « العين » من العليم ، و « السين » من القدّوس ، و « القاف » من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبد الله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيرى ، واللفظ للثعلبىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت هذه الآية عُرِفت الكآبة فى وجهه ؛

(١) لفظة : « عليه » ساقطة من ز ، ل . (٢) أى حق من حقوقه .
(٣) وروى بفتح أوله وثانيه . (٤) فى أ ، ح ، ز ، ه : «حكمه» وفى ك «حكمته» .

Marfat.com

فقيل له : يارسول الله، ما أحزنك ؟ قال : " أخبرت ببلايا تنزل بأمتي من خَسْف وقذف ونارٍ تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآياتٍ متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال " . والله أعلم . وقيل : هذا في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود، و « الميم » ملكه الممدود ، و « العين » عزه الموجود، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه في المقام المحمود، وقربه في الكرامة[1] من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : « حمٓ . عٓسٓقٓ » ؛ فلذلك قال : « يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدويّ : وقد جاء في الخبر أن " « حمٓ . عٓسٓقٓ » معناه أوْحيت إلى الأنبياء المتقدّمين " . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير ومجاهد « يُوحَى » (بفتح الحاء) على مالم يُسَمَّ فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل ، ويجوز أن يكون اسم مالم يسمّ فاعله مضمرا ؛ أي يوحى إليك القرآن الذى تضمنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل، التقدير : يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ »[2] أي يسبحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ بخصومة * وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح[3]

فقال : لِيُبْكَ يزيد ، ثم بيّن من ينبغى أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أى الموحى الله . أو يكون مبتدأ والخبر « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وقرأ الباقون « يُوحِي إِلَيْكَ » بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدّم في غير موضع[4] .

(١) في ح : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » . وفي ك : « وقربه من الملك ... » .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧٥ .

(٣) رواية البيت كما في كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حرىّ في مرثية يزيد . (راجع الشاهد الخامس والأربعين) .

(٤) راجع جـ ٢ ص ٦٩ . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائيّ بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء(١)، وهي قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « يَنْفَطِرْنَ » من الانفطار؛ كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ(٢) » وقد مضى في سورة « مريم » بيان هذا(٣) . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أي تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا(٤) » . وقال الضحاك والسدي : « يَتَفَطَّرْنَ » أي يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن .

وقيل : « فوقهن » : فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهونه عما لا يجوز في وصفه، وما لا يليق بجلاله . وقيل يتعجبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح في موضع التعجّب . وعن عليّ رضي الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما(٥) يرون من عظمة الله . ومعنى « بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » : بأمر ربهم؛ قاله السُّدّي . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي . بيانه في سورة المؤمن : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ . وقال وهب ابن منبه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » . قال المهدويّ : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين . وقال أبو الحسن الماوَرْديّ عن الكلبيّ : إن الملائكة لما رأت الملكين اللّذين اختُبرا وبُعثا إلى الأرض ليحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرة

(١) في ح، ن : « قراءة نافع وغيره » . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٢ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٤) راجع جـ ٢ ص ٨٥ . (٥) في ك : « مما يرون » .

Marfat.com

وهربا إلى إدريس — وهو جدّ أبي نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم وآستغفرت لبنى آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن ، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للؤمنين خاصة ، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض . الماوردىّ : وفى استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا ؛ وهو ظاهر قول مقاتل . الثانى — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم ؛ قاله الكلبىّ .

قلت : وهو أظهر ، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد روى فى هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبى عثمان عن سَلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله فى السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدمىّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى فى السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله فى السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة: صوت منكر من آدمى كان لا يذكر الله فى السراء فنزلت به الضراء فلا يستغفرون الله له . وهذا يدل على أن الآية فى الذاكر لله[(١)] تعالى فى السراء والضراء، فهى خاصّة ببعض مَن فى الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا[(٢)] — إلى أن قال — إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ[(٣)] » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزمخشرىّ . وقال مُطَرِّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم[(٤)] . ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هيّب وعظّم جلّ وعزّ فى الابتداء ، وألطف وبشّر فى الانتهاء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

(١) فى ل : « فى الذاكرين الله » . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٥٦ (٣) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف . وفى الخبر : " أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط " أى صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله ؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا بيّناه بلغة العرب . قيل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك ؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد .(1) ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هُدى . ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء ، والخبر ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « وَلَا نَصِيرٌ » بالرفع على الموضع و « مِنْ » زائدة .

(1) فى ل : تقديم وتأخير لسياق هذه الجملة ولم تخرج عن اللفظ والمعنى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى وليك يا محمد وولى من اتبعك،[لا ولىّ سواه](١). ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين ، فقولوا لهم حُكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره . وأمور الشرائع إنما تُتَلَقّى من بيان الله . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجر على البدل من الهاء فى « عَلَيْهِ » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدّم(٢) . ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيل معناه إناثا . وإنما

(١) ما بين المربعين من ح ، ل ، ه .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩٧ ، جـ ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ ، جـ ١٤ ص ٢٤ و ٣١٩ .

Marfat.com

قال : « مِنْ أَنْفُسِكُمْ » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهـد : نَسْلًا بعد نسـل . ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمـانية التى ذكرها فى « الأنعام »(١) ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم و ينشئكم «فِيهِ» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وآبن كيسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » يكثركم به ؛ أى يكثركم بجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيل : إن الهـاء فى « فِيهِ » للجعل ، ودلّ عليه « جَعَلَ » ؛ فكأنه قال : يخلقكم و يكثركم فى الجعل . آبن قتيبة : « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » أى فى الزوج ؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : و يكون « فِيهِ » فى الرحم ، وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لها ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أى ليس مثله شيء . قال :

* وصاليات كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ(٢) *

فأدخل على الكاف كافا تأكيدا للتشبيه . وقيـل : المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شيء ؛ نحو قوله تعـالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا »(٣) . وفى حرف ابن مسعود « فَإِنْ آمَنُوا بِمَـا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا » قال أوس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخـ ـيـل يغشاهم مطـر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هـذا الباب أن الله جل آسمـه فى عظمتـه وكبريائه وملكوته وحسنى أسمـائه وعلىّ صـفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشـبَّه به ، وإنمـا جاء ممـا أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفات القـديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمـائه و بصفاته على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المائة وكتاب سيبويه) .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٤٢

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزُّمَر »(١) بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للفتاح : إقليد، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم أيضا فى غير موضع(٢) .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٧٤ .　　(٢) راجع ج ١ ص ٢٦١ . و ج ٩ ص ٣١٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليـد السـموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقـوم نوح و إبراهيم ومـوسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعـالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته، والإيمـان برسله وكتبه و بيوم الجزاء ، و بسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرِد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسن أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » وقد تقدّم القول فيــه[1] . ومعنى « شَرَعَ » أى نهج وأوضح و بيّـن المسالك . وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ[2] . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزلُ إذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أَنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا أن أقيموا الدّين، و يوقف على هـذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به »؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . و يجوز أن تكون « أن » مفسرة ؛ مثل : أن امشوا، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانيــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ثبت فى الحـديث الصحيح أن النـبىّ صلى الله عليـه وسلم قال فى حديث الشـفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أوّل نبىّ[3] بغير إشكال؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نبوّة[4] ، ولم تفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، و إنمـا كان تنبيها على بعض

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١١ (٢) فى ل : « أى بين » .
(٣) فى ح ، ك ، ل ، هـ : « كما أن آدم أوّل رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .
(٤) فى ز ، ك ، ل ، هـ : « لم يكن معه إلا بنوه » .

Marfat.com

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ؛ واستقر المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب في الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء[(١)] — صلوات الله عليهم — واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا ؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات ؛ فهذا كله مشروع دينًا واحدا وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أي اجعلوه قائما ؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث ؛ « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ »[(٢)] . واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيًّا قطُّ إلا وصّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذي شرع لهم ؛ وقاله الوالبي عن ابن عباس ، وهو قول الكلبي . وقال قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخصّ نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي عظم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كَبُرَ على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من

---

(١) في ابن العربي : « ويتناصر » .	(٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه . ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبيّ ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ »(1) يريد نبيا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »(2) على ما تقدّم بيانه هناك . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى(3) ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال ابن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المنفكّين : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »(4) . فالمشركون قالوا : لِمَ خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾(5) فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(6) . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين مَن كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : « إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ » قريش . « مِنْ بَعْدِهِمْ » من بعد اليهود النصارى . « لَفِي شَكٍّ » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « مِنْ بَعْدِهِمْ » من قبلهم ؛ يعنى من قبل مشركى مكة ، وهم اليهود والنصارى .

---

(1) راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧ .

(2) راجع جـ ٢ ص ٢٧ .

(3) لفظة : « المدى » ساقطة من ك .

(4) راجع جـ ١٧ ص ١٤٦ .

(5) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٣ .

(6) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ ﴾ لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى ، أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ﴾ أي فتبينت شكهم فادع إلى الله؛ أي إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »(١) أي إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدم أول « البقرة »(٢) . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها ؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أي إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أي استقم على أمر الله . وقال سفيان : أي استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي أن أعدل؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) . وقيل : هي لام كي، أي لكي أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوي بينكم في الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل في جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل في الأحكام . وقيل في التبليغ . ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود؛ أي لنا ديننا ولكم دينكم . قال: ثم نسخت بقوله : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »(٤) الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل: ليس بمنسوخ،

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩　　(٢) راجع جـ ١ ص ١٥٨
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٩　　(٤) راجع جـ ٨ ص ١٠٩

Marfat.com

لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدال .
قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتج عليكم [1] يقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحوّل القبلة : لا تصل إلى الكعبة ، ثم حوّل الناس بعد ؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا إذا صرنا إليه ، ويجازى كُلًّا بما كان عليه .
وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش ، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوجه شيبة بابنته .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ ﴾ رجع إلى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » [2] فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ » أى لا ثبات لها كالشىء الذى يزل عن موضعه . والهاء فى « لَهُ » يجوز أن يكون لله عز وجل ؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

---

(1) فى ك، ل : « لا تصل » وفى ز : « لا يصل » .
(2) راجع جـ ١١ ص ١٤٢

Marfat.com

(بالتحريك) أى زَل . ودَحَضت رجله تَدْحَض دَحْضًا زَلقت . ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يريد فى الدنيا . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بيّن فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلّم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » (١) . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها . يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسويّة ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجىء اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفّى لمن أوفى ويطفّف لمن طفف . فـ « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قَرِيبٌ » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجىء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قَرِيبٌ » نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظ واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » (٢) . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة * فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٠   (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

Marfat.com

قوله تعـالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظناً منهم أنهـا غير آتيـة ، أو إيهاما للضَّعَفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة ؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »[(١)] . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار ؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يبعثهم .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عبـاس : حَفِيّ بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السدّى : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبرّ والفاجر ؛ حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظى : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ * يسائلهم فيـه الجليــل و يلطف

وقال جعفر بن محمـد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهـم فى الرزق من وجهين : أحدهما — أنه جعل رزقك من الطيبات . والثـانى — أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة فتبذره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٣٢

Marfat.com

بأوليائه حتى عرفوه ، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن علي الكتاني : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه ، فحينئذ يقبله و يقبل عليه . وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جل وعز امحت آثارهم واضمحلت صورهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خففوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب" . قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه :

أمر بأفناء القبور كأنني * أخو فطنة والثوب فيه نحيف
ومن شق فاه الله قدر رزقه * وربي بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ؛ وعلى هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا من أظهر الجميل وستر القبيح" . وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة ؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(١) ، « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٣) ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »(٤) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة . وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه . وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيل : هو الذي يعفو عمن يهفو . وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجا ، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا(٥) . وقد مضى في « الأنعام » قول أبي العالية والجنيد أيضا . وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف ، والحمد لله . ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمال حكمة ؛ ليحتاج

(١) راجع ج ٩ ص ٣٦٧	(٢) راجع ج ١٤ ص ٧٣	(٣) راجع ج ١٢ ص ١٠٠
(٤) راجع ج ٥ ص ١٤٨ .	(٥) راجع ج ٧ ص ٥٧

Marfat.com

البعض إلى البعض؛ كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »(١)، فكان هـذا لطفا بالعباد . وأيضا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغني؛ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » على ما تقدّم بيانه(٢) . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعـالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمـر : وآحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا وآعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . ومنـه سمى الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بمـا رزقناه حرثا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق فى إعزاز الدِّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أى طلب بالمـال الذى آتاه الله ريـاسـة الدنيا والتوصل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له فى الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَـا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »(٣) . وقيـل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليـه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . قيل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » أى نعطه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية فى الغزو؛ أى من أراد بغزوه الآخرةَ أوتى الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتى منها . قال القُشيرى : والظاهر أن الآية فى الكافر ؛ يوسع له فى الدنيا ؛ أى لا ينبغى له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : " من عمل لآخرته زدناه فى عمله وأعطيناه من الدنيـا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبا فى الآخرة

(١) راجع ص ٨٣ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ١٨ .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ .

Marfat.com

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار". وروى جُوَيْبِر عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ» من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة «نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ» أى فى حسناته. «وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا» أى من كان من الفُجّار يريد بعمله الحسن الدنيا «نُؤْتِهِ مِنْهَا» ثم نسخ ذلك فى سبحان: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ». والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت". وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا فى «هود»[1] أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل فى الأخبار. والله المستعان.

مسألة: هذه الآية تبطل مذهب أبى حنيفة فى قوله: إنه من توضأ تبرّدًا أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أى ألهم! والميم صلة والهمزة للتقريع. وهذا متصل بقوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا»، وقوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك، فمن أين يدينون به. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤.

Marfat.com

القيامة حيث قال : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(١) . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا ، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي المشركين . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا القتلُ والأسر والقهر ، وفي الآخرة عذاب النـار . وقرأ ابن هُرْمُز « وأنّ » بفتح الهمزة على العطف على « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ » والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب « لَوْلَا » جائز . ويجوز أن يكون موضع « أنّ » رفعا على تقـدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعا ممـا قبله كقراءة الكسر ؛ فآعلمه .

قوله تعـالى : تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي من جزاء ما كسبوا . والظالمون هاهنا الكافرون ؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر . ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي نازل بهم . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ الروضة : الموضع النّزه الكثير الخضرة . وقد مضى في « الروم »(٢) . ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي من النعيم والثواب الجزيل . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي لا يوصف ولا تهتـدي العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٤٦ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١١ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ قرئ « يُبَشِّر » من بَشَّره، « وَيُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور و يزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يامجد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ﴾ قال الزجاج : « إِلَّا الْمَوَدَّةَ » استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عبـاس وعكرمة ومجاهـد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكثَرَ الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط النـاس فى قريش ، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَدَه ؛ فقال الله له : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا مابينى و بينكم فتصدّقونى . فـ « الْقُرْبَى » هاهنا قـرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِـل أرحامها فلمـا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقـال : " صِلُونى كما كنتم تفعلون " . فالمعنى على هـذا : قل لا أسألكم عليـه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على اسـتثناء ليس من الأول ؛ ذكره النحاس . وفى البخارى عن طاوس عن ابن عباس أنه سـئل عن قوله تعالى : « إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » فقال سعيد بن جُبير : قـربى آل محمد ؛ فقـال ابن عبـاس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصِلوا ما بينـكم من القرابة . فهـذا قول . وقيـل : القربى قرابة الرسول صـلى الله عليـه وسـلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهـل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القـربى . وهـذا قـول على بن حسين وعمـرو بن شعيب والسُّدّى . وفى رواية سـعيد بن جبير عن ابن عباس : لمـا أنزل الله عز وجل : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » قالوا : يا رسول الله ، من

Marfat.com

هؤلاء الذين نَوَدُّهم ؟ قال : " علىّ وفاطمة وأبناؤهما " . ويدل عليه أيضا ما روى عن علىّ رضى الله عنه قال : شكوت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى . فقال : " أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا " . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " حرمت الجنة على من ظلم أهــل بيتى وآذانى فى عِترتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقينى يوم القيامة " . وقال الحسن وقتادة : المعــنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقرّبوا إليــه بطاعته . فـ « الْقُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلْفة والزُّلْفى . وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم " قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن تَوادّوا وتقرّبوا إليــه بالطاعة " . وروى منصور وعوف عن الحسن « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْــهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُــرْبَى » قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقرّبون منــه بطاعته .

• وقال قوم : الآية منسوخة وإنمـا نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رســول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودّة نبيه صلى الله عليه وسلم وصِلة رحمه، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا : « وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِــينَ (1) » ، فأنزل الله تعالى : « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُــوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ (2) » فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْــهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُــتَكَلِّفِينَ (3) » ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ (4) » ، وقــوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْــرَمٍ مُثْقَلُونَ (5) » ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضــل . ورواه جُــوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبى : وليس بالقوىّ ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيه صلى الله عليــه وسلم وأهل بيته منسوخ؛ وقد

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٩ و ١٢٢ و ١٢٦ .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣١٢ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٠ .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٤١ .
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٧٤ و جـ ١٨ ص ٢٥٢ .

Marfat.com

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُب آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حُب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة . ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بغض آل محمد لم يرح (١) رائحة الجنة . ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزّمَخْشريّ فى تفسيره بأطول من هـذا فقال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حُب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمـان . ألا ومن مات على حُب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير . [ألا ومن مات على حُب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت (٢) زوجها] ألا ومن مات على حب آل محمد فُتح له فى قـبره بابان إلى الجنـة . ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال : كانوا يصلون أرحامهم فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البخاريّ والشعبيّ عنه بعينه ؛ وعليه لا نسخ . قال النحاس : وقول الحسن حسن ، و يدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى قال أخبرنا أسد ابن موسى قال حدثنا قَزَعة (٣) — وهو ابن يزيد البصرى — قال حدّثنا عبدالله بن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا أسألكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُـدَى أجرا إلا أن توادُّوا الله عز وجل وأن تتقربوا إليه بطاعته " . فهذا المبيّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبله : « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » .

(١) أى لم يشم ريحها ؛ يقال : راح يريح ، وأراح يراح ، وأراح يريح . والثلاثة قد روى بها الحديث .
(٢) ما بين المربعين زيادة من ك ، ن . وفى ل : يزف فى الجنة كما يزف العروس .
(٣) تقدم أنه قزعة بن سويد ؛ وهو ممن يروى عن ابن أبى نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

Marfat.com

الثانيـة ــ واختلفوا فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبىّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم ، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها مافى يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مِقْسم عن ابن عباس قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فخطب فقال للأنصار : " ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بى . ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ألا تردّون علىّ " ؟ فقالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : " تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ... " فعدّد عليهم . قال فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك ؛ فنزلت : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » . وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبى : وهذا أشبه بالآية ، لأن السورة مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب . وأصل القرف الكسب ؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله ، أى يكسب . والاقتراف الاكتساب ، وهو مأخوذ من قولهم رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقد مضى فى « الأنعام »(1) القول فيه . وقال ابن عباس : «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : « غَفُورٌ » للذنوب ، « شَكُورٌ » للحسنات . وقال السّدى : « غَفُورٌ » لذنوب آل محمد عليه السلام ، « شَكُورٌ » لحسناتهم .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٧٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى . واتصل الكلام بما قبل؛ لأن الله تعالى لما قال : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ »(١)، وقال : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ »(١) قال إتماما للبيان : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » يعنى كفار قريش قالوا : إن محمدا اختلق الكذب على الله . ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به فى هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : « إِنْ يَشَإِ اللَّهُ » يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم . وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك . وقيل : المعنى لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب . فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيرى . ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ ﴾ [قال ابن الأنبارى : « يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » تام . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والله يمحو الباطل](٢)؛ فحذف منه الواو فى المصحف، وهو فى موضع رفع . كما حذفت من قوله : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »(٣)، « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ »(٤) ولأنه عطف على قوله : « يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » . وقال الزجاج : قوله : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » تمام؛ وقوله : « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ » احتجاج على من أنكر ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم؛ أى لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته فى المفترين . ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أى الإسلام فيثبته(٥) ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بما أنزله من القرآن . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ عام، أى بما فى قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

(١) راجع ص ١٣ و ١٥ من هذا الجزء . (٢) « ما بين المربعين ساقط من ل » .
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٦ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٥ (٥) فى ا، ح، ز، ه : « فيبينه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : « قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثّنا على أقاربه من بعده ؛ فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد اتهموه فأنزل : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله ، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته . والآية عامة . وقد مضى الكلام فى معنى التوبة وأحكامها (١) ؛ ومضى هذا اللفظ فى « براءة » (٢) .

﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عن الشرك قبل الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف بالتاء على الخطاب ، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه بين خبرين : الأول « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » والثانى « وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ج وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

« الَّذِينَ » فى موضع نصب ؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا ، أى يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى ، وقد مضى فى « البقرة » (٣) . وقال ابن عباس : « وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » يشفّعهم فى إخوانهم . « وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ » قال : يشفّعهم فى إخوان إخوانهم . وقال المبرِّد : معنى « وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ « الَّذِينَ » فى موضع رفع .

﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥٠ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل : إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأرَتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة و بنى قَيْنُقَاع فتمنيناها فنزلت . ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . و بسط الشيء نشره . و بالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا . وقال ابن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل : أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه، لقوله : "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا" وهذا هو البَغْىُ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع . وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبض تارة ليتضرّعوا و يبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمخشرىّ : « لَبَغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : "أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها" . ولبعض العرب :

وقد جعل الوَسْمِيّ يُنْبِت بيننا * و بين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحَطا[(١)]

يعنى أنهم أحيَوْا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذَخ والكبر ؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلوّ فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ » يجعل من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيرًا .

(١) الوسمى : مطر أول الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسىّ . وفى نسخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

Marfat.com

الثانيــة — قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح و إن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوى عنه الدنيا؛ مصلحة له . فليس ضيق الرزق هوانا ولا سعة الرزق فضيلة؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوض إلى مشيئته[1] ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : "من أهان لى وليّا فقد بارزنى بالمحاربة و إنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى و إنى لأغضب لهم كما يغضب الليث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولابدّ له منه . وما تقرّب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت له سمعًا و بصرًا ولسانًا و يدًا ومؤيّدًا فإن سألنى أعطيته و إن دعانى أجبته . و إن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة و إنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده . و إن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . و إن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . و إنى لأدبر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير". ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحَيصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو و يعقوب وابن وثّاب والأعمش وغيرهما والكسائى « يُنزل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قنِطوا » بكسر النون؛ وقد تقدّم جميع هذا[2] . والغيث المطر؛ وسمى الغيث غيثا لأنه يغيث

(١) فى ح : «والأمر على الجملة مسبب إلى مسببه» . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٦٧ وجـ ١٤ ص ٣٤ .

Marfat.com

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثًا . وغِيثت الأرض تُغاث غَيْثًا فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعي قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثًا ؛ أى مُطِرنا . وقال ذو الرمّة : قاتل الله أَمَة بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا . ذكر الأول الثعلبي والثاني الجوهري . وربما سمى السحاب والنبات غَيْثًا . والقنوط الإياس؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكر أنّ رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط الناس؟ فقال : مطرتم إن شاء الله؛ ثم قرأ : « وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته ، والمطر قد يكون نافعا وضارًّا فى وقته وغير وقته ؛ قاله الماوردي . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطر ؛ وهو قول السدى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر ؛ ذكره المهدوى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيرى ، والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ «الْوَلِيُّ» الذى ينصر أولياءه . «الْحَمِيدُ» المحمود بكل لسان .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال الفراء أراد ما بث فى الأرض دون السماء؛ كقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(٢) وإنما يخرج من الملح دون العذب . وقال أبو علي : تقديره وما بث فى أحدهما؛ فحذف المضاف . وقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٨٠ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦٣ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بِمَا كَسَبَتْ » بغير فاء . الباقون « فَبِمَا » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوى : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والإثبات أحسن . وإن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى رواد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك ، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شىء . ومما يحقق ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشىء من القرآن حتى يذكره ؛ من ذلك حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : " ماله رحمه الله ! لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " . وقيل : « ما » بمعنى الذى، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال على رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . وإذا كان يكفّر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » الآية : " يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ .

Marfat.com

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه ". وقال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نَكبة حجر إلّا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر ". وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحِبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[1] فهذا مما كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عما بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُرَيح قُرحة فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا ؟ قال : هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سيرين لما ركبه الدَّين اغتم لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوَارِى[2] قيل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » . وقال عِكرمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بها ؛ ففعل موسى ؛ فلما نزل إذ هو بالرجل قد مزّق السَّبُع لحمه وقتله ؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : " ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة " . فكان أبو سليمان الدّارانى إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ » وقد مضى القول فيه[3] . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار ، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد ؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(١) ف ح ، وه : « أكبر » . (٢) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحواريين (شرح القاموس) .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ .

Marfat.com

بشؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنانيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما — أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم ، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم . الثانى — أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود ؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى بفائتين الله ؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه (١) ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال ، وواحد الجوارى جارية ، قال الله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ » (٢) . سُمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : هى المرأة الشابة ؛ سُميت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصور ، واحدها علم ؛ ذكره الثعلبى . وذكر الماوَرْدى عنه أنها الجبال . وقال الخليل : كل شىء مرتفع عند العرب فهو علم . قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإنّ صخرا لتأتمّ الهُداة به * كأنه علَمٌ فى رأسه نار

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينة « الرِّياح » بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد الماء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة ، والشمس إذا قام قائم الظهيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهو راكد . وركد

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٩ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٢ .

Marfat.com

الميزان آستوى . وركد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التى يركد فيها الإنسان وغيره . وقرأ قتادة « فيظللن » بكسر اللام الأولى على أن يـ ـن لغة، مثل ضللت(١) أضل . وفتح اللام وهى اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبار على البلوى شكور على النعماء . قال قطرب : نعم العبد الصبار الشكور، الذى إذا أعطى شكر وإذا آبتلى صبر . قال عون بن عبد الله : فكم من منعم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن ؛ أى يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردى . وقيل : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » أى ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القشيرى : والقراءة الفاشية « وَيَعْفُ » بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف « يعف » على هذا لأنه يصير المعنى(٢) : إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهى جيدة فى المعنى . ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ يعنى الكفار، أى إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع(٣)، ومضى القول فى ركوب البحر فى « البقرة(٤) » وغيرها بما يغنى عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

(١) فى الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف . (٢) فى ح : « لأنه إن يشأ يعف » . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وجـ ١٣ ص ٢٢٣ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٥

Marfat.com

« وَيَعْـلَمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعـد الشرط والجزاء ؛ كقوله فى سورة التوبة : « وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ »(١) ثم قال : « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » رفعا . ونظيره فى الكلام : إن تأتى آتك و ينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف ؛ كقوله تعـالى : « وَلَمَّـا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(٢) صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافا كراهيةً لتوالى الجزم ؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يهلِكْ * ربيـعُ الناس والشهرُ الحرامُ(٣)
ويُمْسِكْ بعده بذِناب عَيْش * أَجَبَّ الظَّهْرِ ليس له سَنام(٤)

وهـذا معنى قول الفرّاء ، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار « أن » لأن قبلها جزما ؛ تقول : ماتصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك . وإن شئت قلت : وأكرمْك بالجزم . وفى بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو على والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأوّل فى تقدير المصدر ؛ أى ويكون منـه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حمله على الاسم أضمر أن ، كما تقول : إن تأتنى وتعطينى أكرمك ، فتنصب تعطينى ؛ أى إن يكن منك إتيـان وأن تعطينى . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السدى : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أى يميل عنه .

قوله تعـالى : فَمَـا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٨٦ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ (٣) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر ؛ يريد أنه كان كالربيع فى الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ؛ أى لا يوصـل إلى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيـا لأنها كانت تعمر به و بجوده وعدله ونفعـه للناس ، ومن كان فى ذمته وسلطانه فهـو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس فى الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذناب كل شىء : عقبـه ومؤخره . وأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا فى طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه ، وقد بقى منه ذنبه .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسـعة فى الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أى فإنما هو متاعٌ فى أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِنْـدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صـدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِـمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . وجاء فى الحديث أنه : أنفق ثمـانين ألفا .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُـمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيـه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين فى موضع جرّ معطوف على قوله : « خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول فى الكبائر فى « النساء »[(١)] . وقرأ حمزة والكسائى « كَبِيرَ الإِثْمِ » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[(٢)] ، وكما جاء فى الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفى « النجم »[(٣)] . ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعنى الزنى . وقاله ابن عباس، وقال : كبير الإثم الشرك . وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عنـد اجتنابها . والفواحش داخلة فى الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيـل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد، فكرر لتعـدد اللفظ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنهـا كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِـبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلُمون عمن ظلمهم . قيـل : نزلت فى عمر حين شُتِم بمكة . وقيل : فى أبى بكر حين لامه الناس على

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٨	(٢) راجع جـ٩ ص ٣٦٧ وجـ ١٠ ص ٩٣	(٣) راجع جـ١٧ ص ١٠٦

Marfat.com

إنفاق ماله كله وحين شُتم فحلُم . وعن على رضى الله عنه قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة ، فتصدق به كله فى سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت : « فَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — إلى قوله وَ إِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئا ؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم و يصفحون لمن جهل عليهم ؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى فى آل عمران : «وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »[1] . وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إنى عفوت لظالمى ظلمى * ووهبت ذاك له على علمى

ما زال يظلمنى وأرحمه * حتى بكيت له من الظلم

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة ؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أى يتشاورون فى الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته ؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أى إنهم لانقيادهم إلى الرأى فى أمورهم متفقون لا يختلفون ؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم . وقال

(١) راجع ج ٤ ص ٢٠٦

Marfat.com

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء(١) إليهم حتى اجتمع رأيهم فى دار أبى أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربى : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو مشورة حازم(٢)
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخَوَافى(٣) قوة للقوادم

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة . وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبى بكر والأنصار ما سبق بيانه(٤) . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فاستقر رأى أبى بكر على القتال . وتشاوروا فى الجَدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب ؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فمُر المسلمين فلينفروا إلى كسْرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حَزَبَنى أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون؛ فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون .

---

(١) فى ح ، ك : « وورود النقباء » . (٢) البيتان لبشار بن برد . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش .
(٣) فى الأصول « نافع » . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢٤ .

Marfat.com

الثالثــة — قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشورى من الأحكام عنـد قوله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »(١) . والمَشُورة بركة . والمَشْوَرة : الشُّورَى ، وكذلك المشُورة (بضم الشين)؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : "إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمرُكم شُـورَى بينكم فظَهْر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمورُكم إلى نسـائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهـرها " . قال حديث غريب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى وممـا أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

فيـه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ أى أصابهـم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوا على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة، فأذن الله لهم بالخروج ومكن لهـم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ، وذلك قوله فى سورة الحج : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ .
(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ .

Marfat.com

لقدير. الذين أخرجوا ... » الآيات كلها[1] . وقيل : هو عام فى بغى كل باغ من كافر وغيره، أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه . وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وقحا فى الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النخعى : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت : « وأن تعفوا أقرب للتقوى »[2] . وقوله : « فمن تصدق به فهو كفارة له »[3] . وقوله : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم »[1] .

قلت : هذا حسن، وهكذا ذكر الكيا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النخعى أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » . ويقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . وهو محمول على الغفران عن غير المصر، فأما المصر على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع إلى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦٧ و ٦٨ وص ٢٠٧ وص ٢٠٨ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٠٨ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٠٨ .

Marfat.com

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين؛ صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وصنف ينتصرون من ظالمهـم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سب أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأول الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه؛ واستشهد فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان : "خذى من ماله ما يكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفى فى « البقرة »[1] . وقال ابن أبى نجيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . وإذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدِّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسُمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها؛ فالأول ساء هذا فى مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »[1] مستوفى .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »[2] فى هذا مافيه كفاية؛ والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجنـة؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا من أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حلمنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧ .

Marfat.com

وإذا ظُلمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عفونا ؛ قالوا آدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وذكر الحديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن آنتصر الظالم[1] من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليه إن آستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ؛ وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ[2] ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمى فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فإن كان قطعا فى سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال آبن جريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

---

(١) فى ل : « انتصر المظلوم » وفى هـ : « انتصر ظالم من مسلم » .
(٢) فى ز ، ل : « مطالب بفعله مؤاخذ به » .

Marfat.com

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال ؛ فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحدّ قال آبن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعــة — قال آبن العربى : هذه الآية فى مقابلة الآية المتقدّمة فى « براءة »[2] وهى قوله : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ »[1] ؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنــة — وآختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهــل بلد مالاً معلوما يأخذهم به و يؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هــل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص ؛ و إليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى. قال : ويدل عليــه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحــد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره ، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاســعة — وآختلفت العلمــاء فى التحليل ؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يحلل أحــدا من عِرض ولا مال . وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يحللان من العِرض والمــال . ورأى مالك التحليل من المــال دون العرض . روى آبن القاسم وآبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يأبا عبــد الله ، الرجلُ يسلف الرجلَ فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فإن الله تعــالى يقول : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ »[3] . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٢٧ . (٢) فى ابن العربى : « أختها » . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٤ .

Marfat.com

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندى مخالف للأول ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » ويقول تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » فلا أرى أن يجعله من ظلمه فى حِلّ . قال ابن العربى : فصار فى المسألة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحال ؛ قاله سعيد ابن المسيّب . الثانى — يحلّله ؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلّله وإن كان ظلما لم يحلله ؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألّا يحلل ما حرّم الله ؛ فيكون كالتبديل لحكم الله . ووجه الثانى أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعِرْضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تحلله ، وإن كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا(1) فى أفعالهم القبيحة . وفى صحيح مسلم حديثُ أبى اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج إلىّ ، فقد علمت أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن اختبأت منى ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدّثك فأكذبك ، وأن أعِدك فأخلفك ، وكنتَ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتُ والله مُعْسرًا . قال قلت : آلله ؟ قال اللهِ(2) ؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فاقض ، وإلا فأنت فى حِلّ ... وذكر الحديث . قال ابن العربى : وهذا فى الحى الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل(3) ، فكيف بالميت الذى لا محالة له ولا ذِمّة معه .

العاشرة — قال بعض العلماء : إن مَن ظُلم وأُخذ له مال فإنما له ثواب ما احتبس عنه إلى موته ، ثم يرجع الثواب إلى ورثته ، ثم كذلك إلى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودى المالكى : هذا صحيح فى النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

(1) فى ن : « ويستسرون » . وفى ا ، ح ، ز ، ل : « ويستشرون » . (2) قال النووى : « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثانى بلا مد ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا ، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » . (3) فى ابن العربى : « التحلل » وقد كتب على هامش « ه » بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهرى » . وفى ح ، ز : « ورجاء التحمل » .

Marfat.com

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى صبر على الأذى و « غفر » أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى ؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم و يعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . و بالجملة العفو مندوب إليه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا إليه كما تقدّم ؛ وذلك إذا آحتيج إلى كفّ زيادة البغى وقطع مادّة الأذى ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت(١) عائشة رضى الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهى ، فقال لعائشة : " دونك فانتصرى " خرجه مسلم فى صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبَرَ » عن المعاصى وستر على المساوئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى من عزائم الله التى أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التى وفق لها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ثلاث آيات قبلها ، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهى المدنيات من هذه السورة . وقيل : هذه الآيات فى المشركين ، وكان هذا فى ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال ؛ وهو قول آبن زيد ، وقد تقدّم . وفى تفسير آبن عباس « وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا و جميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعلياً رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود ، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظلم والكفر . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير و جميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

(١) فى ل ، ز : « شتمت » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُردّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون . وقيل : آل فرعون خصوصا ، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم ، ويعرضون على العذاب فى قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خَاشِعِينَ » . وقوله : « مِنَ الذُّلِّ » متعلق بـ « يَنْظُرُونَ » . وقيل : متعلق بـ « خَاشِعِينَ » . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تاما ؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفيّ . وقال قتادة والسدّى والقُرَظيّ وسعيد بن جبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

Marfat.com

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « مِن » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى، ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لما عاينوا ما حلّ بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العذاب المخلّد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه وبينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنة من الحور العين . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل[1] النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ» " . وقد تقدّم[2] . وفى مسند الدارمى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهنّ واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهىّ وله ذكر لا ينثنى " . قال هشام ابن خالد : " مِن ميراثه من أهل النار " يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت آمرأة فرعون . ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين ، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة .

(١) فى ز ، ل : « فاذا مات الرجل ودخل النار » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ (٤٧)

قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنًى ؛ وقد تقدم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ يريد يوم القيامة؛ أى لا يردّه أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ؛ وقاله الكلبي . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها . وقيل : « مِنْ نَكِيرٍ » أى إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل : موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الإيمان . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطربها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم .

Marfat.com

قوله تعالى : لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهن، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ » فبدأ بالإناث . ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توءما ، غلاما وجارية ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . قال القتبي : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أي لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمت المرأة تعقَم عقْما ؛ مثل حَمِد يحمَد . وعقُمت تعقُم ، مثل عظُم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم ؛ أي لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم ؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقْم وعُقُم ؛ قال الشاعر[(1)] :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه * إن النساء بمثله عُقْمُ

---

(١) في لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومي . وقيل هو لحزين الليثي » .

Marfat.com

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وَهَب لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت في الأنبياء ، ثم عمت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعني لوطا عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربي : قال علماؤنا « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا » يعني لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ» يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله : «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا » يعني آدم، كانت حواء تلد له في كل بطن توأمين ذكرا وأنثى، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله التحريم في شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[1] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففي الحديث : " إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[2] ، فتقول قَطِ قَطِ[3] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر " .

الثانيـــة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قدوس

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وإبراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية .

(٢) قال القسطلاني : « أي يذللها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط في يده » .

(٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسبي حسبي قد اكتفيت .

Marfat.com

عن الحاجات سلام عن الآفات؛ كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا فى الجنين بالوضع؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا"(١). وكذلك فى الصحيح أيضا "إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله".

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا آحتلمت وأبصرت الماء؟ فقال: "نعم" فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت(٢)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعيها وهل يكون الشبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه". قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضى الشبه؛ وقد جاء فى حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودى: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا بإذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله..." الحديث. فجعل فى هذا الحديث أيضا العلو يقتضى الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذى يتعين تأويله الذى فى حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقنى فلان فسبقته أى غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

(١) روى بالمد وبتخفيف النون وبالقصر وتشديد النون. (٢) قوله: «تربت يداك» معناه: ما أصبت! وهو فى الأصل بمعنى صار فى يدك التراب ولا أصبت خيرا أى افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ إلى غير ذلك. وقوله «وألّت»: أى صاحت لما أصابها من شدّة هذا الكلام. وروى بضم الهمزة مع التشديد؛ أى طعنت بالآلة وهى الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

Marfat.com

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين، قيل عليه[1] : علا . ويؤيد هذا التأويل قوله فى الحديث : " إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا " . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال : إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا، الثانى أن يخرج ماء المرأة أولا، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا ويكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا ويكون أكثر . ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس ؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة . وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث ، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأتى به فريض العرب ومعمرها[2] عامر بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه ؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقضّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجىء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قُصدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأمة : ورّثه من حيث يبول ؛ فعقلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهد علىّ رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث؟ قال : من حيث يبول . وروى

(١) فى ل ، ه : «قيل غلبه» . (٢) فى ابن العربى : «ومعتمدها» . ويقال أنه عاش ثلثمائة عام .

Marfat.com

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورثوه من أول ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علىّ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المزنى عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة فى البول ؛ فإن خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحكى عن علىّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه ، فإن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى آية المواريث فى « النساء »(1) مجوّدا والحمد لله .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم ؛ وأما ظاهر القرآن فلا ينفى وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا » فهذا إخبار عن الغالب فى الموجودات ، وسكت عن ذكر(2) النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برباط أبى سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربُّك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، و بودّى اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١)

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٦٥ .

(2) لفظة « ذكر » ساقطة من ح ، ز ، ل .

Marfat.com

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلّمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث فى قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث فى رُوعِي(1) إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ماحلّ ودَعُوا ماحَرُم " . ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى . ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إِلَّا وَحْيًا » رؤيا يراها فى منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » كما كلم موسى . « أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا » قال زهير : هو جبريل عليه السلام . ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما فى المنام . وقيل : « إِلَّا وَحْيًا » بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى . «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أَوْ يرسلُ رسولا فيوحِي » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل : « يرسل » بالرفع فى موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون فى موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أَوْ يُرْسِلَ » بالنصب على « أَنْ يُكَلِّمَهُ » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ماكان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(1) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

Marfat.com

الثانيـة – احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلّم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث؛ لأن المرسل قد سُمّى فيها مكلّما للمرسَل إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا فى الرجل يحلف ألا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا؛ فقال الثّورى : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى: لا يبين أن يحنَث . وقال النّخَعى : والحكم فى الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث فى الكتاب والرسول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث فى الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث فى الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألّا يكلّم رجلا فسلّم عليه عامدا أو ساهيا، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث فى ذلك كله عند مالك . و إن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه فى الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث فى الرسول إلا أن ينوى المشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجِشُون . وقد مضى فى أول « سورة مريم »[1] هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أى نبوة؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّى : وحيًا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٦ .

Marfat.com

مالك بن دينار . وسماه روحا لأن فيه حياةً من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ »(١) على القرآن أيضا « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أي يسألونك من أين لك هذا القرآن، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك ابن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القُشَيْرى : وهو من مجوّزات العقول(٢) ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن(٣) قبل النبوّة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوّة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شيء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا »(٤) قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب! فقال : أللعب خُلقت! وقيل فى قوله : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ »(٥) صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله : « أَلَّا تَحْزَنِي »(٤) على قراءة من قرأ « مَنْ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ .　　(٢) فى ل : « معجزات » وفى ن : « تجوزات » .
(٣) كذا فى الأصل .　　(٤) راجع جـ ١١ ص ٨٧ و ٩٤ .　　(٥) راجع جـ ٤ ص ٧٦ .

Marfat.com

تحتها» ، وعلى قول من قال : إن المنادى عيسى ونصّ على كلامه فى مهده فقال : «إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا» [1] . وقال : «ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» [1] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبى يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبىّ ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى [عليه السلام] مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى : «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل» [1] : أى هديناه صغيرا ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل إبداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ ؛ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة [2] . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ماهمّ إخوته بإلقائه فى الجُبّ بقوله تعالى : «وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا» [3] الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : "لما نشأت بُغّضت إلىّ الأوثان وبُغّض إلى الشعر ولم أهُمّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد" . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : «ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما» [4] . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّىء واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠١ وص ٣٠٧ وص ٢٩٥ . راجع جـ ٧ ص ٢٥ .
(٢) فى الأصول : «خمسة عشر شهرا» .
(٣) راجع جـ ٩ ص ١٤٢ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٨ .

Marfat.com

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما آفترته ، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وآختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه في معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا : « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا »(١) كما حكاه الله عنهم .

الثالثة — وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوحي أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى : بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا آستبان عندها(٢) في أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبي المعالي . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ؛ ثم آختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لابد أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعزّ وأنه

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤٧ . (٢) في الأصول : « عندهما » .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمـر ، ولا شهد السامر(١) ولا حضر حلف المطر(٢) ولا حلف المطيبين(٣) ؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك . فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثا بسـنده عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًا وقال : هذا موضوع أوشبيه بالموضوع . وقال الدَّارَقُطْنى : إن عثمان وَهِمَ فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ، والمعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله : " بُغِّضت إلىّ الأصنام " وقوله فى قصة بحيرا حين استحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم باللات والعزى إذ لقِيَه بالشام فى سَفْرته مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علامات النبوة فاختبره بذلك ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " لاتسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطّ بُغْضَهما " فقال له بَحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، فقال : " سل عما بدا لك " . وكذلك المعروف من سيرته عليـه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلِفة فى الحج، وكان يقف هو بعرفة ، لأنه كان

---

(١) الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه . (٢) كذا فى الأصول . (٣) فى الأصول : « المطيب » قال ابن الأثير : « أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذى ورد النهى عنه فى الإسلام بقوله صلوات الله عليه : "لاحلف فى الإسلام" . وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وماجرى مجراه فذلك الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : " وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شـدة " يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق ؛ وبذلك يجتمع الحديثان ، وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ماخالف حكم الإسلام » .

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم : "شهدت غلاما مع عمومتى حلف المطيبين" . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم فى دار ابن جدعان فى الجاهلية وجعلوا طيبا فى جفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم ؛ فسموا المطيبين . وقال عليه السلام : " شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت " . قال ابن الأثير : يعنى حلف الفضول . (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف ، طيب ، فضل) .

Marfat.com

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »(١) وقال : « أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »(٢) وقال : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ »(٣) الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبدا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ » . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ»(١) أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين ابن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى مَن الذى يؤمن ؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ، وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٩ وص ١٥٧ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨
(٣) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : [الصحيح](١) أنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدّم . وقيل : «مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» أى كنت من قوم أُمِّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(٢) روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السدى : القرآن وقيل الوحى ؛ أى جعلنا هذا الوحى ﴿ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوة ؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»(٣) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزله الفعل فى الاسم الواحد ؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك وإدبارك يعجبنى ؛ فتوحّد ، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى ﴾ أى تدعو وترشد ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجحدرى وحَوْشب «وَإِنَّكَ لَتُهْدَى» غير مسمى الفاعل ؛ أى لتُدْعَى . الباقون «لتهدى» مسمى الفاعل . وفى قراءة أبى «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو» . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال : «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى» أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى : «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» قال : «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»(٤) . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النواس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا . ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله : «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» وغرق مصحف فانمحى كله إلا قوله : «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» .

والحمد لله وحده .

---

(١) كذا فى جميع الأصول . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١ (٣) راجع جـ ٢ ص ٦١
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥

Marfat.com

ســـورة الزخـــرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »[1] ، وهي تسع وثمـانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ تقدّم[2] الكلام فيه . وقيل : « حمٓ » قسم . « وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بمـا شاء . والجواب « إِنَّا جَعَلْنَـاهُ » . وقال ابن الأنبارى : من جعل جواب « وَالْكِتَابِ » « حمٓ » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على « الْكِتَابِ الْمُبِينِ » . ومن جعل جواب القسم « إِنَّا جَعَلْنَاهُ » لم يقف على « الْكِتَابِ الْمُبِينِ » . ومعنى : « جَعَلْنَاهُ » أى سمّيناه ووصفناه ؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين ؛ كقوله تعالى : « مَا جَعَـلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »[3] . وقال السُّـدّى : أى أنزلناه قرآنا . مجاهـد : قلناه . الزجاج وسـفيان الثّورى : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى أنزلناه بلسان العـرب ؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربىّ . وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبيـاء ؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية فى قوله : « جَعَلْنَاهُ » ترجع إلى القرآن وإن لم يجرله ذكر فى هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[4] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم ؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون ؛ فعلى هذا يكون خطابا عامّا[5] للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بيّن فيه أحكامه وفرائضه ؛ على ماتقدّم فى غير موضع .

(١) راجع ص ٩٤ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ .
(٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩ . (٥) لفظة « عاما » ساقطة من ح ، ز ، ك ، هـ .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ؛ قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ »[1] وقال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »[2] . وقال ابن جريج : المراد بقوله تعالى : « وَإِنَّهُ » أى[3] أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . « لَعَلِيٌّ » أى رفيع عن أن ينال فيبدّل « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القـلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق ؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » . وكسرَ الهمزةَ من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون ، وقد تقدّم[4] .

قوله تعـالى : أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب ؛ [أى أفنضرب عنكم العذاب][5] ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؛ قاله مجاهـد وأبو صالح والسدى ، ورواه العوفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم العـذاب ولمـا تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طَيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيـل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال : أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين ؛ فى قراءة من فتح . ومن كسر جعلها للشرط

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٦ . (٣) لفظة « أى » ساقطة من جميع النسخ ما عدا « ا » . (٤) راجع جـ ٥ ص ٧٢ . (٥) ما بين المربعين ساقط من ل .

Marfat.com

وماقبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل فى اللفظ. ونظيره: «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»(١) وقيل: الجواب محذوف دلّ عليه ما تقدم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عند الزجاج الحال؛ لأن فى الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضا؛ يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أى وليته صفحة عنق. قال الشاعر(٢):

صَفُوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً　*　فمن مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ

وانتصب «صَفْحًا» على المصدر لأن معنى: «أَفَنَضْرِبُ» أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين؛ كما يقال: جاء فلان مشيا. ومعنى: ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح فى «أن» وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر؛ قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قوله تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ «كَمْ» هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»(٣) أى ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أى لم يكن يأتيهم نبي ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسليه. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى قوما أشد منهم قوة. والكناية فى «مِنْهُمْ» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم. و «أشدّ» نصب على الحال. وقيل هو مفعول؛ أى فقد أهلكنا

(١) راجع ج ٣ ص ٣٦٢.　　(٢) هو كثير عزة.　　(٣) راجع ص ١٣٨ من هذا الجزء.

Marfat.com

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة وقيل : صفحة الأولين ؛ نخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم ؛ حكاه النقاش والمهدوى . والمَثَل : الوصف والخبر .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يعنى المشركين . ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبار منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض ﴿ مِهَادًا ﴾ فراشا وبساطا . وقد تقدم (٢) . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فى أسفاركم؛ قاله ابن عيسى . وقيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٩ .

Marfat.com

يكون معاشا لكم ولأنعامكم . ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ أي أحيينا . ﴿ بِهِ ﴾ أي بالماء . ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ أي مقفرة من النبات . ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي من قبوركم ؛ لأن من قدر على هـذا قدر على ذلك . وقد مضى في «الأعراف»[١] مجوّدا . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر « يَخْرُجُونَ » بفتح الياء وضم الراء . الباقون على الفعل المجهول .

قوله تعالى : وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ أي والله الذي خلق الأزواج . قال سعيد بن جبير : أي الأصناف كلها . وقال الحسن : الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار . وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : أراد أزواج النبات ؛ كما قال تعالى : « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[٢] و « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »[٣] . وقيل ما يتقلّب فيه الإنسان من خير وشر ، وإيمان وكفر ، ونفع وضر ، وفقر وغنى ، وصحة وسقم .

قلت : وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه . ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في البر والبحر . ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ ذكر الكناية لأنه ردّه إلى ما في قوله : « ما تَرْكَبُونَ » ؛ قاله أبو عبيد . وقال الفرّاء : أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ؛ فلذلك ذكر ، وجمع الظهور ، أي على ظهور هذا الجنس .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥ (٣) راجع جـ ١٣ ص ٩٠

Marfat.com

الثانيــة — قال سعيد بن جبير : الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ : الإبل وحدها ؛ وهو الصحيح لقوله عليه السلام : " بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أُخلق لهذا إنما خلقت للحرث فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر" (١) . وما هما في القوم . وقد مضى هذا في أول سورة « النحل » (٢) مستوفى والحمد لله .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا ، ولأن الفلك إنما تركب بطونها ، ولكنه ذكرهما جميعا في أول الآية وعطف آخرها على أحدهما . ويحتمل أن يجعل ظاهرها باطنها ؛ لأن الماء غمره وستره وباطنها ظاهرا ؛ لأنه انكشف للظاهرين وظهر للبصرين .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي ركبتم عليه وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر . ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب . وفي قراءة عليّ بن أبي طالب « سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ لَنَا هَذَا » . ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين ؛ في قول ابن عباس والكلبي . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « مُقْرِنِينَ » ضابطين . وقيل : مماثلين في الأيد والقوة ؛ من قولهم : هو قِرن فلان إذا كان مثله في القوة . ويقال : فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له . وأقرنت كذا أي أطقته . وأقرن له أي أطاقه وقوي عليه ؛ كأنه صار له قِرْنا . قال الله تعالى : « وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أي مطيقين . وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب :

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ * لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر :

ركبتم صَعْبتي أَشَرًا وحَيْفًا * ولستم للصِّعاب بمقرنينا

والمُقْرِن أيضا : الذي غلبته ضَيعته ؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها ، أو يكون يسقي إبله ولا ذائد له يذودها . قال ابن السِّكِّيت : وفي أصله قولان : أحدهما — أنه مأخوذ من الإقران ؛ يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق . وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته ؛ كأنه جعله

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢ .

Marfat.com

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامســـة — علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن؛ وهى قوله تعالى : « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحّمت[2] أو طاح من ظهرها فهلك[3] . وكم من راكبين فى سفينة انكسرت بهم فغرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور واتصالا بأسباب من أسباب التلف أمر ألّا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم — وهى التى لا تتحرك هزالا، [الرازم من الإبل : الثابت على الأرض لا يقوم من الهزال . أو قد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورزاما : قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك؛ فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح][4] . فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرن، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت به القعود[5] حتى صرعته فاندقّت عنقه . ذكر الأوّل الماوردى والثانى ابن العربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان؛ فيقول متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور، وسوء المنظر فى الأهل والمال؛ يعنى بـ « بالحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعد اجتماعه . وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦ (٢) تقحم الفرس براكبه : ألقاه على وجهه .
(٣) فى ا ، ح : « فهلكت » وفى ز « فأهلكته » . (٤) الزيادة من هـ ، ى .
(٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول : ويلاحظ أن القعود مذكر .

Marfat.com

على جمل صَعْب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر — ثلاثا — اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ، وقال كما قلت ، ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد — أو قال — عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب(١) غيره " . خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْدَاد فى أحكامه . وذكر الثعلبيّ نحوه مختصرا عن عليّ رضى الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله فى الركاب قال : " باسم الله — فإذا استوى قال — الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين " . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » قال له الشيطان تَغَنَّهْ ؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس . ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالَوْا نتنزه على الخيل أو فى بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم(٢) وهم على ظهور الدواب أو فى بطون السفن وهى تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزمخشريّ : ولقد بلغنى أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به فى هذه الآية ! ؟

(١) فى ح ، ن ، هـ : « الذنب » .
(٢) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء يريد بذلك تحسين اسمها .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ أى عِدْلا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنـا البنات ؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هـو الله ثم جعلوا له شريكا[(1)] أو ولدا ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به ؛ لأن هذا من صفات النقص . قال المـاوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ؛ قال الشاعر :

إن أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عجبٌ * قد تجزئ الحُرَّةُ المذكار أحيانا

الزمخشرى : ومن بِدع التفاسير تفسـير الجزء بالإناث ، وآدّعاء أن الجزء فى لغـة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضـع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا ، و بيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فـلا عجب *

* زُوِّجْتُهَا من بنات الأوس مُجْزِئَةً[(2)] *

و إنما قوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله ؛ فجعلوهم جزءا له وبعضـا[(3)] ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقـرئ « جزؤا » بضمتين . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب و ينسى النعم . « مُبِينٌ » مظهر الكفر .

(١) فى ل : « شركاء » .
(٢) وتمـامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *
(٣) فى ز : « بضعا » .

Marfat.com

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميم صلة ؛ تقديره اتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أي اختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفيته بكذا ؛ أي آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ، وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين ! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس ؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بأنه ولدت له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ أي صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل ببطلان مثله الذي ضربه . وقيل : بما بُشّر به من الأنثى ، دليله في سورة النحل « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى »(٢) . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له(٣) أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لأبي حمزة(٤) لا يأتينا * يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا * وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرئ « مسودٌ ، ومسوادٌ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم « ظَلّ » و « مُسْوَدًّا » خبر « ظَلّ » . ويجوز أن يكون في « ظَلّ » ضمير عائد على أحد وهو اسمها ، و « وَجْهُهُ »

(١) راجع جـ ١٧ ص ٩٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) في ك : « ولدت لك » .
(٤) في رواية « جمزة بالجيم . وفي بلوغ الأرب للآلوسي : « لأبي الذلفاء » .

Marfat.com

بدل من الضمير . و «مُسْوَدًّا» خبر « ظَلَّ » . ويجوز أن يكون رفع « وَجْهُهُ » بالابتداء، ويرفع « مُسْوَدًّا » على أنه خبره، وفى « ظَلَّ » ٱسمها والجملة خبرها . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبي حاتم؛ وذلك لفساد مثله و بطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شِبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بمـا يضاف إليه ممـا لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجلّ منـه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية (١) .

قوله تعـالى : أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ ﴾ أى يُرَبَّى و يَشِبّ . والنُّشوء : التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْتَ فيهـم . ونُشِّيء وأُنشِيء بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمـزة والكسائى وخلف « يُنَشَّأُ » بضم اليـاء وفتح النون وتشديد الشين ؛ أى يربى ويَكْبَر فى الحِلْيـة . وآختاره أبو عبيد ، لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح اليـاء و إسكان النون، وآختاره أبو حاتم ، أى يرسخ و ينبت ، وأصله من نشأ أى ارتفع ، قاله الهروى . ف « يُنَشَّأ » متعد ، و « ينشأ » لازم .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فِى الْحِلْيَةِ ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هنّ الجوارى زِيُّهن غيرزىّ الرجال . قال مجاهد: رخص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية . قال الكيا : فيه دلالة على إباحة الحُلِيّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لاتحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ .

Marfat.com

قلت — روى عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّي بالذهب ! فإني أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي في المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة ، ماتكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفي مصحف عبد الله « وهو في الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله مَن هذا وصفه ! أي لا يجوز ذلك . وقيل : المنشّأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » على هذا القول : أي ساكت عن الجواب . و « من » في محل نصب ، أي اتخذوا لله من ينشأ في الحلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر ؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أوّل الكلام وهو قوله : « بِمَا ضَرَبَ » ، أو على « ما » في قوله : « مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ » . وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ قرأ الكوفيون « عِبَادُ » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذّبهم في قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا بناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبَّادُ الرَّحْمَنِ » ، فقال سعيد بن جبير : إن في مصحفي « عبد الرحمن » فقال : آمحها واكتبها « عِبَادُ الرَّحْمَنِ » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »[(1)] . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ »[(1)] . وقوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »[(2)] . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »[(2)] وقوله : « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »[(1)] . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ وص ٦٥ ، وص ٢٧٧ .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٢ . وص ٣٥٦ .

Marfat.com

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذِكر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة ، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : " فما يدريكم أنهم إناث " ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث ، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسألون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أُوشْهِدوا »(١) بهمزة استفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة ، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبي عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقق الهمزتين . والباقون « أَشَهِدُوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » على الخبر ، «سَتُكْتَبُ» قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شَهَادَتُهُمْ » رفعا . وقرأ السُّلمِي وابن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص « سَنَكْتُبُ » بنون ، « شَهَادَتَهُمْ » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله : «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»(٢) وفى «يس» : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ»(٣) . وقوله : ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق .　(٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ .　(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٧

Marfat.com

قوله : «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا» أى مالهم بقولهم: الملائكة بنات الله — من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعني الأوثان ؛ أى ما لهم بعبادة الأوثان من علم . « من » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم فى عبادة غير الله عز وجل . وكان فى ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضى ذلك منا ، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله : «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ» . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ أى من قبل القرآن بما ادعوه ؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أى على طريقة ومذهب ؛ قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « عَلَى إِمَّةٍ » بكسر الألف . والأمة الطريقة . وقال الجوهرى : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمة أيضا لغة فى الأُمّة ، وهى الطريقة والدِّين ؛ عن أبى عبيدة . قال عَدِىّ بن زيد فى النعمة :

ثم بعد الفَلَاح والمُلْك والأمّة وارتْهُمُ هناك القبور *

عن غير الجوهرى . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دِين ؛ ومنه قول قيس بن الخطيم

كنا على أمة آبائنا * ويقتدى الآخر بالأول

Marfat.com

قال الجوهري : والأمّة الطريقة والدِّين، يقال : فلان لا أمة له ؛ أى لا دين له ولا نِحْلة . قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمّة وكَفُورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفى بعض المصاحف « قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّةٍ » وهذه الأقوال متقاربة . وحكى عن الفرّاء على ملة على قِبْلة . الأخفش : على استقامة، وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائع

الثانيـــة — ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى نهتدى بهم . وفى الآية الأخرى « مُقْتَدُونَ » أى نقتـدى بهم، والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفى هـذا دليل على إبطال التقليد، لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة » مستوفى (١) . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضا . يُعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ (٢) » . والمترف : المنعم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعـالى : قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ أى قل يا محمد لقومك : أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى؛ يريد بأرشد . ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعنى بكل ما أرسـل به الرسل . فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سـواه . وقرئ « قُلْ وَقَالَ وَجِئْتُكُمْ وَجِئْنَاكُمْ » يعـنى أتتبعون آباءكم ولوجئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا : إنا ثابتون على دين آبائنا لاننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى فى « البقرة (٢) » القول فى التقليد وذمه فلا معنى لإعادته .

(١) راجع ج ٢ ص ٢١١　　(٢) راجع ج ١٥ ص ٣٦٧

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة (1) « قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ » . وقرأ ابن عامر وحفص «قَالَ أَوَلَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنون وألف ؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أى ذكرهم إذ قال . ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ، لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهرى : وتبرأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فى الأصل ؛ مثل : سَمِع سَماعا . فإذا قلت : أنا برىء منه وخَلِىّ ثنّيتَ و جمعت وأنّثت ، وقلت فى الجمع : نحن منه بُرآء مثل فقيه وفقهاء ، و بِراء أيضا مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، و بريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات و برايا . ورجل برئ و بُراء مثل عجيب وعجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس . ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ، مع عبادة الأوثان . و يجوز أن يكون منقطعا ؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

Marfat.com

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير فى « جَعَلَهَا » عائد على قوله : « إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى » . وضمير الفاعل فى « جَعَلَهَا » لله عز وجل ؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقيــة فى عقبه ، وهم ولده وولد ولده ؛ أى إنهــم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله ، وأوصى بعضهم بعضا فى ذلك . والعقب من يأتى بعده . وقال السدى : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله : « فِى عَقِبِهِ » أى فى خلفه . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية فى عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهــد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتــادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى : « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »(١) . القرظى : وجعل وصية إبراهيم التى وصّى بها بنيه وهو قوله : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ »(٢) ــ الآية المذكورة فى البقرة ــ كلمة باقيــة فى ذريته وبنيــه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله : « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وقــرأ « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » . وقيل : الكلمة النبوّة . قال ابن العربى : ولم تزل النبوّة باقية فى ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانيـــة ــ قال ابن العــربى : إنمـا كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؛ إحداهما فى قوله : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ »(٢) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قوله : « وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »(٣) . وقيل : بل الأولى قوله : « وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »(٤) فكل أمة تعظمه ، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح .

الثالثـــة ــ قال ابن العربى : جرى ذكر العقب هاهنا موصولا فى المعنى، وذلك مما يدخل فى الأحكام وترتب عليــه عقود العُمْرَى(٥) والتحبيس . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٩ . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٤ وص ٩٩ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨

(٤) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ . (٥) العمرى (كحبلى) : تمليك الشىء مدة العمر .

Marfat.com

" أيمَا رَجُلٍ أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذى أعطيها لا ترجع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " . وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأول — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وآمرأته فى الإناث والذكور . وعن ولد الذكر دون الإناث لغة وشرعا ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ »(١) . وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس، يقول المحبس : حبست على ولدى أو على عَقِبى . وهـذا آختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره، وآحتجوا بقول الله جل وعز : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ »(١) . قالوا : فلما حرّم الله البنات حرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »(٢) مستوفى .

اللفظ الثانى — البنون؛ فإن قال : هذا حبس على ابنى؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد . ولو قال ولدى ، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد . وإن قال على بنىّ ، دخل فيه الذكور والإناث . قال مالك : من تصدّق على بنيه وبنى بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن فى ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين . فإن قيل : فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحسن آبن آبنته : " إن ابنى هـذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . قلنا : هذا مجاز ، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه ؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بآبنى ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؛

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ وص ١٠٥ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣١

Marfat.com

لأن الحقائق لا تنفى عن متنسباتها (١) . ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيــه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعـالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » . وقال تعالى : «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — إلى قوله — مِنَ الصَّالِحِينَ» (٢) فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدّم بيانه هناك . فإن قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنــو أبنائنا ، وبناتنــا * بنوهن أبنــاء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله : إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ إذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقا ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه ، وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا ، ولا يسمى ولد الابنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، وولد الابن إنما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة . ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وإنما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا في «الأنعام» (٢) والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — إلى أن قال — وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى » . وإنمـا كان من ذريته من قبــل أمه . وقد مضى في « البقرة » (٣) اشتقاق الذرية وفي « الأنعام » الكلام على « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الآية ؛ فلا معنى للإعادة .

(١) في « ك ، ى » : « مشبهاتها » . وفي ابن العربي « مسمياتها » .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .		(٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ .

Marfat.com

اللفظ الرابع — العقب؛ وهو فى اللغـة عبارة عن شيء بعـد شي كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير؛ أى جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السواد . وعَقَب يَعْقُب عقوبا وعَقْبًا إذا جاء شيئا بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبُه . والمِعْقاب من النساء : التى تلد ذكرا بعـد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : فى القرآن « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ » وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسّره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : هاهنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد وولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدى . وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القـدم وهى مؤنثـة . وعقب الرجل أيضا ولده وولد ولده . وفيـه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهى أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فـلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »[(1)] . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . واختلف فى الذرّية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب ؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيـل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام فى الذرية هنا وفى « الأنعام »[(2)] .

اللفظ الخامس . نسلى ؛ وهو عند علمائنا كقوله : ولدى وولد ولدى ؛ فإنه يدخل فيه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقِبى ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات، إلا أن يقول المحبس نسلى ونسل نسلى، كما إذا قال : عقبى وعقب عقبى ، وأما إذا قال ولدى أو عقبى مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات ؛ ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهـل الاجتماعُ،

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٩٤ .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

Marfat.com

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعـة ، وذلك بالعصبة ومن دخل فى القُعْدُد[١] من النساء ، والعصبة مشتقة منه وهى أخص به . وفى حديث الإفك : يارسول الله ، أَهْلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعنى عائشـة . ولكن لاتدخل فيـه الزوجة بإجماع وإن كانت أصـل التأهل ؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قـد يتبدل ربطها ويحـل بالطلاق . وقـد قال مالك : آل محمد كلُّ تقى ؛ وليس من هذا الباب . وإنمـا أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسى : يدخل فى الأهل كل من كان من جهة الأبوين، فوفَّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعانى إنمـا تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق، فهذان لفظان .

اللفظ الثـامن ــ قرابة، فيـه أربعـة أقوال : الأول ــ قال مالك فى كتاب محمـد ابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد، ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات . الثانى ــ يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه ؛ قاله على بن زياد . الثالث ــ قال أشهب : يدخل فيـه كل رحم من الرجال والنسـاء . الرابع ــ قال ابن كنانة : يدخل فيـه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس فى تفسير قوله تعـالى : « قُل لَّاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ »[٢] قال : إلا أن تصلوا قرابة مابينى وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينـه وبين النبي صلى الله عليـه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التـاسع ــ العشيرة ؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لمـا أنزل : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »[٣] دعا النبي صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم ــ كما تقدم ذكره ــ وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشـيرة فى الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد ، كما تقدم من قول علمائنا .

(١) فى الأصول : « ومن دخل فى العقد » . وفى ابن العربى : « ومن دخل فى العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بمـا فى شرح الباجى على الموطأ ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل فى ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندى : العصبة أو من كان فى قعدد هن من النساء » . والقعدد : (بضم أوله وسكون ثانية وضم ثالثة وفتحه) : القربى .

(٢) راجع ص ٢٠ من هذا الجزء .　　(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٤٣

Marfat.com

اللفظ العاشر — القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء ؛ وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقـوم آل حصن أم نساء

ولكنه أراد أن الرجل إذا دعا قـومه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصصه القرينة (١) .

اللفظ الحادى عشر — الموالى ؛ قال مالك : يدخل فيه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهـذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبينة له ؛ والتفريع والتميم فى كتاب المسائل ، والله أعلم .

قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقرئ « بَلْ مَتَّعْنَا » . ﴿ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا بالإمهال . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صلى الله عليه وسلم بالتوحيد والإسلام الذى هو أصل دين إبراهيم ؛ وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾

(١) فى ح ، ز ، ى : « فتعمه الصفة وتخصه القرينة » وفى ك : « ... أو تخصه ... » .

Marfat.com

وقرئ « على رَجْل » بسكون الجيم . ﴿ مِنَ القَـرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »[(١)] أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبى جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقا لنزل على أو على أبى مسعود؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوّة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهـم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القـوّة قليل الحيلة عَيِّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شـديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه[(٢)] . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن فى رواية عنه « مَعَايِشَهُمْ » . وقيـل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما على وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغـنى والفقر ؛ فبعضهم غـنى وبعضهم فقـير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خَوَلًا وخدّاما ، يسخّر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك: يعنى ليملك بعضهم بعضا. وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال ، والاسم السُّخرية (بالضم) . والسُّخْرِىّ والسِّخْرِىّ (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمّوا « سُخْرِيًّا » إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرأا « سِخْرِيًّا » ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٣ (٢) فى ح ، ز ، ل : « مقتر عليه » بالقاف .

Marfat.com

خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى أفضل مما يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوّة ، وقيل الجنة . وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حبّ الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه ؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل . وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدى وغيرهم . وقال ابن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » فى طلب الدنيا واختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » . وقال الكسائى : المعنى لولا أن يكون فى الكفار غنىّ وفقير وفى المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانيـة — قرأ ابن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ، اعتبارا بقوله تعالى : « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ »(1) . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع ؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيل : هو جمع سقيف ؛ مثل كَثِيب وكُثُب ، ورَغِيف ورُغُف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سقوف ؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فعولا كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام فى « لِبُيُوتِهِمْ » بمعنى على ؛ أى على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول : فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى : « وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ »(2) كذلك قال هنا : « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

(1) راجع جـ ١٠ ص ٩٧ . (2) راجع جـ ٥ ص ٥٤ .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعنى الدَّرَج ؛ قاله ٱبن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليـلة المعراج . والجمـع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتـان . « وَمَعَارِيجَ » قرأ أبو رجاء العُطَارِدِى وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهى المراقى والسلالم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى على المعارج يرتقون و يصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهذا لأن من علا شيئا وٱرتفع عليه ظهر للناظرين . و يقـال : ظهرت على الشيء أى علمته . وظهرت على العدوّ أى غلبته . وأنشد نابغة بنى جَعْدة رســول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَـــلَوْنا السماء عِزّةً ومهـابةً * و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا (1)

أى مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " إلى أين " ؟ قال إلى الجنــة ؛ قال : " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعـــة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حَقّ فيه لرب العُــلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله . قال ابن العربى : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وســقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلو له إلى السماء . وٱختلفوا فى السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهــم من قال ليس له فى باطن الأرض شيء . وفى مذهبنا القولان . وقـد بيّن حديث الإسرائيلى الصحيح فيما تقدّم : أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنمـا اشتريت الدار دون الجرّة ، وقال البائع : إنما بعت الدار بمـا فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وســلم أن يزوّج أحدهما ولده من بنت

(1) رواية البيت كما فى كتاب الأغانى جـ ٥ ص ٨ طبع دار الكتب : * بلغنا السماء مجدنا وجدودنا *
وروايته كما فى جمهرة أشعار العـــرب : * بلغنا السماء مجدا وجودا وسؤددا *
وروايته كما فى اللسان مادة «ظهر» : * بلغنا السماء مجــدنا وســناؤنا *

Marfat.com

الاخر ويكون المال لهما . والصحيح أن العُلو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع ؛ فإذا باع أحدهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للمبتاع منه .

الخامسة — من أحكام العُلو والسُّفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه ، فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبنى علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو ، وليس لربّ العلو أن يبنى على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل . قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل . قال : ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبنى السفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبنى . وروى ابن القاسم عن مالك فى السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق ، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل : إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل . وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا " — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث

Marfat.com

ما لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفــال »(١) . وفيه دليــل على جواز القرعة وآستعمالها ، وقد مضى فى « آل عمران »(٢) فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيّنا ، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى و لجعلنا لبيوتهم . وقيل : «لِبُيُوتِهِمْ» بدل اشتمال من قوله : « لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » . « أَبْوَابًا » أى من فضة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك ؛ وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأَسِرَّة ، والأَسِرّة جمع السرير ؛ فيكون جمع الجمع . ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ الاتكاء والتَّوَكُّؤ : التحامل على الشيء ؛ ومنه ، « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا »(٣) . ورجل تُكَأَة ؛ مثال هُمَزَة ؛ كثير الاتكاء . والتُّكَأَة أيضا : ما يُتَّكأ عليه . وآتكأ على الشيء فهو متّكِئ ؛ والموضع متَّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أفعله) أى ألقاه على هيئة المُتَّكِئ . وتوكأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو ، ففعل به ما فُعــل بآتزن وآتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ؛ عن آبن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ »(٤) وقد تقدّم . وقال آبن زيد : هو ما يتخــذه الناس فى منازلهم من الأمتعــة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ؛ وأصــله الزينة . يقال : زخرفت الدار ؛ أى زينتها . وتزخرف فلان ؛ أى تزين . وانتصب « زُخْرُفًا » على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ؛ والمعنى فجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب ؛ فلما حذف «من» قال : «وزخرفا» فنصب . ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن آبن عامر « و إنْ كل ذلك لمـا متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف ؛ وقد ذكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لَمَـا » ؛ فـ « ـما » عنده بمنزلة الذى ، والعائد عليها محذوف ؛ والتقدير : و إن كل ذلك للذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١　　(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦　　(٣) راجع جـ ١١ ص ١٧٦
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

Marfat.com

هو متاع الحياة الدنيا، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه فى قراءة من قرأ « مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا »(١) و « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ »(٢) . أبو الفتح : ينبغى أن يكون « كُلٌّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إنْ » مخففة من الثقيلة ، وهى إذا خففت وبطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها و بين « إن » النافية التى بمعنى ما ؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن آتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يَحْزَن عبدى المؤمن لكلّلت رأس عبدى الكافر بالإكليل، ولا يتصدّع ولا ينبِض منه عرق بوجع . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء " . وفى الباب عن أبى هريرة ، وقال : حديث حسن غريب . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقد شبِعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتّع من الأيام إن كنت حازما * فإنك فيها بين ناهٍ وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه * فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ، * ولا وزن زِفّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ٱبن عباس وعكرمة « ومن يَعْشَ » بفتح الشين، ومعناه يعمى ؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عَشًا إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وٱمرأة عشواء إذا كان لا يبصر ؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجـــلًا غائب الوافِـــدَيْـ * ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضَـــرِيرا (١)

وقـــوله :

ألَانْ رأتْ رجـــلًا أعشى أضَرَّ به * رَيْبُ المنـــونِ ودَهْرٌ مُفْنِـــدٌ خَبِـــلُ

الباقون بالضم ؛ من عشا يعشو إذا لحقــه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف ؛ وأنشد :

مـــتى تأتِه تَعْشُـــو إلى ضَـــوْءِ ناره * تَجِـــد خيرَ نارٍ عنـــدها خيرُ مُوقـــدِ (٢)

وقال آخـــــر :

لنعـــم الفـــتى يعشو إلى ضـــوء ناره * إذا الريح هبّت والمـــكان جـــديب

الجوهرِيّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل و يبصر بالنهار . والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعشِي (بالكسر) يَعشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشوان، لأن الواو لمـا صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت فى التثنيـــة على حالهـا . وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أَعْشَى أَعْشَوِيّ . و إلى العَشِيَّة عَشَوِيّ . والعشواء : الناقـــة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شىء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابطُ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا (٣) » أى نواصل لكم الذكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا ، يمنعه من الحلال، و يبعثه على الحرام، و ينهاه عن الطاعة، و يأمره بالمعصية ؛ وهو معنى قول ابن عباس .

---

(١) فى اللسان مادة «وفـــد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عنـــد المضغ ؛ فإذا هرم الإنسان غاب وافداه » . (٢) البيت للحطيئة . (٣) راجع ص ٦٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره ؛ قاله سعيد الجُرَيْرِى . وفى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بملَك حتى يقضى الله بين خلقه ؛ ذكره المهدوىّ . وقال القشيرى : والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْت إلى كذا أى قصدته . وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه ، فتفرق بين «إلى» و «عن» ؛ مثل : مِلْتُ إليه ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ ، يُعْرِض ؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف فى اللغة . وقال القُرَظى : يولّى ظهره ؛ والمعنى واحد . وقال أبو عبيدة والأخفش : تُظْلِم عينه . وأنكر العُتْبىّ عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبى الهيثم والأزهرى . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السلمىّ وابن أبى إسحاق ويعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيّض» (بالياء) لذكر «الرَّحْمن» أوّلا ؛ أى يقيّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون . وعن ابن عباس « يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » أى ملازم ومصاحب . قيل : «فَهُوَ» كناية عن الشيطان ؛ على ما تقدّم . وقيل : عن الإعراض عن القرآن (١) ؛ أى هو قرين للشيطان . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى ؛ وذكر بلفظ الجمع لأن «مَن» فى قوله : «وَمَنْ يَعْشُ» فى معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى ويحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار ان الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص ؛ يعنى الكافر يوم القيامة . الباقون «جاءانا» على التثنية ، يعنى الكافر وقرينه وقد جُعلا فى سلسلة واحدة ؛ فيقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (٢) ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقّت مآقيهما من أُخُرْ (٣)

(١) فى الأصول : «من التعرض» . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠ (٣) البيت لامرئ القيس . وحدرة : مكتنزة صلبة ، وقيل الواسعة الجاحظة . وبدرة : تبدر بالنظر ، وقيل تامة كالبدر .

Marfat.com

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْـدَ مشرِق أطول يوم فى السـنة إلى مَشْرِق أقصر يوم فى السنة، ولذلك قال : « بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » . وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فغلّب آسم أحدهما، كما يقال : القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبى بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة ، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجرير :

ما كان يرضى رسـول الله فعلهم * والعُمَرانِ أبو بكر ولا عمـر

وأنشد سيبويه :

* قَدْنِيَ من نَصْر الخُبَيْبَيْنِ قَدِى *

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير، وإنمـا أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت ؛ لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخدرى : إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعـالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقول الله للكافر : لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم فى الدنيا هذا الكلام، وهو قول الكافر : « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى لا تنفع الندامة اليوم . « إِنَّكُمْ » بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنـه . الباقون بالفتح . وهى فى موضـع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا ، وذلك أن التأسّى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسـوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فـلولا كثرة الباكين حـولى * على إخوانهـم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزّى النفس عنـه بالتأسّى

Marfat.com

فإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسّى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قُرَناءكم وأنتم فى العذابِ مشترِكون كما أشتركتم فى الكفر .

قوله تعـالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ؛ ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعـالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش[1] . ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قـد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهـو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و« نَذْهَبَنَّ بِكَ »على هـذا نتوفينّك . وقد كان بعـد النبيّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تقرّ به عينه وأبقى النقمة بعده ، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِى النقمة فى أمته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده ، فما زال منقبضا ، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : [" إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطا وسَلَفا . و][2] إذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتَقَرّ عينه لمـا كذّبوه وعصَوا أمره".

---

(١) جملة : « من أذى قريش » ساقطة من ن . (٢) ما بين المربعين ساقط من ه .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْـكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب ؛ فـ ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعنى القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ»(١) أى شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهـل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيـالا عليهم ؛ لأن أهل كل لغـة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعـنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء ، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمّى عربيا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » يعنى الخلافة فإنهـا فى قريش لا تكون فى غيرهم ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلِمهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم“ . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه، حكاه ابن أبى سلمة عن أبيـه عن مالك بن أنس فيما ذكر المـاوردىّ والثعلبىّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بنى التيمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى ، إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهـم، وتهمّمت الخلافة بهـم . ورأيت بمدينة السـلام ابنى أبى محمـد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَينة بن عبد الله التيمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب يقول وقـد سئل عن الحنّان المنّان فقال : الحنان الذى يُقبل على من أعرض عنه، والمنّان

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٣

Marfat.com

الذى يبـدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًّـا : أُكَيْنة بن عبد الله جدهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعنى القرآن؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم . قال المـاوردى : «وَلِقَوْمِكَ» فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك ؛ قاله قتادة وذكره الثعلبى عن الحسن . الثانى — لقومك من قريش؛ فيقال ممن هذا؟ فيقال من العرب، فيقال من أى العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال : أقبل نبى الله صلى الله عليه وسلم من سرية أو غزاة فدعا فاطمة فقال : "يا فاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أُغْنى عنك من الله شيئا" وقال مثل ذلك لنسوته، وقال مثل ذلك لعترته، ثم قال نبى الله صلى الله عليه وسلم : "ما بنو هاشم بأولى النـاس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون، ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون، ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون. إنمـا أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجِمام[1] الصـاع ليس لأحد على أحد فضـل إلا بالتقوى" . وعن أبى هريرة قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "لينتهينّ أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجعلان التى تدفع النتْن بأنفها، كلكم بنو آدم وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقىّ وفاجر شـقى" . خرجهما الطبرى . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى الحجرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أى عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء . وقال ابن جريج : أى تسألون أنت ومن معك على ما أتاك . وقيل : تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

قال ابن عبـاس وابن زيد : لمـا أسرى برسـول الله صلى الله عليـه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومن وُلد من

(١) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

Marfat.com

المرسلين، وجبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصلّ بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسـلم : " سل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهـة يعبدون". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أسأل قد اكتفيت ". قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . في غير رواية ابن عباس : فصلّوْا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلي ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل[1] قام فقال : " إن ربي أوحى إليّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله " ؟ فقالوا : يا محمد ، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل، وإنك خاتم النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبي بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتبع أثرك ". وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا » قال: لقي الرسل ليلة أسري به. وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: «وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا» قال : سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدثني عن قتادة قال : سألهم ليلة أسري به، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية . و « مِنْ » التي قبل « رُّسُلِنَا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجـماعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا . وروى أن في قراءة ابن مسعود « وَٱسْأَلِ الَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ رُسُلَنا » . وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ«مِن» على هـذا زائدة، وهو قول مجاهد والسُّدي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وابن عباس أيضا . أي واسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل . وقيل :

(١) انفتل عن الصلاة : إذا انصرف عنها .

Marfat.com

المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رُسُلِنَا » على هـذا تام ، ثم ابتـدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى واسأل تُبَّاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال : « يُعْبَدُونَ » ولم يقـل تعبد ولا يعبدن ، لأن الآلهـة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هـذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : إنّ ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ؛ فأمره الله بسؤاله الأنبيـاء على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان فى شك منه . واختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم على قولين : أحدهما — أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى . الثـانى — أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل ؛ حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيمانا وأعظم يقيناً من أن يسأل عن ذلك" . وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لمـا أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوه وأقام الحجـة بآستشهاد الأنبيـاء وآتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصـة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقـومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فَكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى : ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ اسـتهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كبار الآيـات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل : « إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَـا » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح ، ومعنى الأُخوة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات ؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ » (١) . والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَـا السَّاحِرُ ﴾ لمـا عاينوا العذاب قالوا يأيها الساحر ؛ نادَوْه بمـا كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل : كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « يَأَيُّهَـا السَّاحِرُ » يأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يُوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم . وقيـل : يأيها الذى غَلَبَنـا بسحره ؛ يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبتـه بالسحر ؛ كقول العـرب : خاصمته فخصمته أى غلبتـه بالخصومة ، وفاضلته ففضلته ، ونحـوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به السـاحر على الحقيقة على معنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب « أيُّهُ الساحر » بغـير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بمـا قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللَّجُـوج النفس * أفق عن البيض الحسانِ اللُّعَس

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٦٣

Marfat.com

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى « النور »(١) معنى هذا . ووقف أبو عمرو وآبن أبى إسحاق ويحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم . وقيل : إنه أمر من ينادى فى قومه ؛ قاله آبن جريج . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخا فى مثلها؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ يعنى أنهار النيل، ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنّيس(٢) . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل : من تحت سريره . وقيل : «مِن تَحْتِىٓ» أى تصرفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل : كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجرْى . قال القشيرى : ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبوبية، إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعل خارق للعادة . وقيل : معنى « وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله : « تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ » أى أفرّقها على مَن يتبعنى؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨ .

(٢) فى كتاب روح المعانى للآلوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيل المبارك؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ؛ ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ، لكنه اندرس بجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الإسلام » .

Marfat.com

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتي وقوتي وضَعْف موسى . وقيل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى . والواو في « وَهَٰذِهِ » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلْكُ مِصْرَ » و « تَجْرِي » نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، و « الْأَنْهَارُ » صفة لاسم الإشارة ، و « تَجْرِي » خبر للمبتدأ . وفتح الياء من « تَحْتِيَ » أهل المدينة والبزّي وأبو عمرو ، وأسكن الباقون . وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأُوَلِّيَنَّهَا أحسن عبيدي ، فولّاها الخَصِيبَ ، وكان على وضوئه . وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ » ؟ ! والله لهي عندي أقل من أن أدخلها ! فثنى عنانه . ثم صرح بحاله فقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدّي : « أَمْ » بمعنى « بل » وليست بحرف عطف ؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي لا عزّ له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني ما كان في لسانه من العقدة ؛ على ما تقدم في « طـه »(١) . وقال الفراء : في « أَمْ » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقًا على قوله : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ » . وقيل : هي زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أَمْ » زائدة ؛ والمعنى أنا خير من هذا الذي هو مهين . وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ　＊　وبين النَّقا آأنتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ(٢)

أي أنت أحسن أم أم سالم . ثم ابتدأ فقال : "أَنَا خَيْرٌ" . وقال الخليل وسيبويه : المعنى « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ، أم أنتم بصراء ، فعطف بـ « أم » على « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » لأن معنى « أَمْ أَنَا خَيْرٌ » أم أي تبصرون ؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

Marfat.com

وروى عن عيسى الثّقفيّ ويعقوب الحضرميّ أنهما وقفا على « أم » على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثاني . وقيل من وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تُبْصِرُونَ » من قوله : « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . ولا يتم الكلام على « تُبْصِرُونَ » عند الخليل وسيبويه؛ لأن « أم » تقتضي الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله : « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ثم ابتدأ « أَمْ أَنَا خَيْرٌ » بمعنى بل أنا؛ وأنشد الفرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس في رَوْنَقِ الضحى * وصورتِها أم أنتِ في العين أَمْلَحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفرّاء أن بعض القراء قرأ « أَمَا أَنَا خَيْرٌ » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أَنَا خَيْرٌ » وقد ذُكِر .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي هلا ﴿ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أَسْوِرَةٌ » جمع سِوار، كخمار وأخمرة . وقرأ أُبَيّ « أَسَاوِرَ » جمع إسوار . وابن مسعود « أَسَاوِير » . الباقون « أَسَاوِرَة » جمع الأسورة فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساوِرة » جمع « إِسْوَار » وألحقت الهاء في الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار، وهي لغة في سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامة لسيادته، فقال فرعون : هلا ألقى ربّ موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعني متتابعين؛ في قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى : هلّا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أَهْيَبَ في القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا

Marfat.com

كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رســل الله إنمــا أيِّدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، و إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — فى قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — فى قول الكلبى — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان فى الجائز أن يُكذَّب مع مجئ الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعـالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ﴾ قال ابن الأعرابى : المعنى فٱستجهل قومه ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، وٱستخفه أى حمـله على الجهل؛ ومنه : « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » (١) . وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيـل : استخف قومـه (٢) أى وجدهم خفاف العقول . وهـذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه ، فلا بدّ من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى ٱتبعوه ؛ يقال : استخفه خلاف استثقله ، وٱستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعـالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عبـاس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنه علىّ بن أبى طلحة : أى أسخطونا . قال المـاوردىّ : ومعناهما مختلف ، والفـرق بينهما أن السخط إظهار الكراهـة ، والغضب إرادة الانتقام . القشيرىّ : والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات ، و إما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول المـاوردى .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٤٩

(٢) فى ا ، ز ، ل : « ... استخف بقومه ... » .

Marfat.com

وقال عمر بن ذرّ : يأهل معاصى الله ، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، وآحذروا أسفه ؛ فإنه قال : « فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » . وقيل : «آسَفُونَا» أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين؛ نحو السحرة و بنى إسرائيل . وهو كقوله تعالى : « يُؤْذُونَ اللَّهَ »(١) و « يُحَارِبُونَ اللَّهَ »(٢) أى أولياءه ورسله .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾ أى جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مجلز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم ، «وَمَثَلًا» لمن يعمل عملهم . وقال مجاهد : «سَلَفًا» إخباراً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، «وَمَثَلًا» أى عبرة لهم . وعنه أيضا «سَلَفًا» لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار . قتادة : « سَلَفًا » إلى النار ، « وَمَثَلًا » عظةً لمن يأتى بعدهم . والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَفَ يَسْلُفُ(٣) سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا ؛ أى تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أى تقدّم . والقوم السُّلاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وحارس وحَرَس . وقرأ حمزة والكسائى «سُلُفًا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف ؛ نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر ؛ ومعناهما واحد . وقرأ علىّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعى وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أى فرقة متقدّمة . قال المؤرّج والنضر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة ، نحو غُرْفة وغُرَف ، وطُرْفة وطُرَف ، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧)

لما قال تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهًا ؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٣٧ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤٧ (٣) لفظة : «يسلف» ساقطة من ب ، ن ، ى .

Marfat.com

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى، وأن الضارب لهـذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لمـا قالت له قريش إن محمدا يتلو : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (١)» الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليـه ؛ قالوا : وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عُزَيْراً، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله : « يَصِدُّونَ » فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١) » . ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليهـا ؛ لأنه قال : « وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقـل ومن تعبدون و إنمـا أراد الأصنام ونحوها ممـا لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة و إن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء (١) » . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال لقريش : "يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله" . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيًّا وعبدا صالحـا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله! . فأنزل الله تعـالى : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّونَ » (بضم الصاد) ومعناه يُعرضون ؛ قاله النَّخَعِيّ ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان؛ مثل يَعرِشون ويَعرُشون ويَنِمّون ويَنُمّون ، ومعناه يَضجّون . قال الجوهرى : وصَدّ يَصُدّ صديدا، أى ضَجّ . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفرّاء : هما سـواء ؛ منه وعنـه . ابن المسيّب : يصدون يضجون . الضحاك يعجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون؛ فيكون المعنى : من أجل الميْل يُعدلون . ولا يُعدّى « يَصِدُّون » بمن ، ومن كسر فمعناه يضجون ؛ فـ « من » متصلة بـ « يَصِدُّون » والمعنى يضجون منه .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ وص ٣٤٥

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى آلهتنا خير أم عيسى؟ قاله السدى . وقال: خاصموه وقالوا إن كل مَن عُبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآية . وقال قتادة : « أَمْ هُوَ » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خَيْرٌ أَمْ هَذَا » . وهو يقوّى قول قتادة، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أَأَلِهَتُنَا » بتحقيق الهمزتين ، ولين الباقون . وقد تقدّم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جَدَلًا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » " .

قوله تعالى : إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ماعيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل ؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يُجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبّه إلى الله عز وجل، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلهم . وقيل : المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم، والأول أظهر. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أى بدلا منكم ﴿مَلَائِكَةً﴾ يكونون خلفا عنكم؛ قاله السُّدِّى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهرى : إن « مِن » قد تكون للبدل ، بدليل هذه الآية .

قلت : قدم تقدم هذا المعنى فى «براءة»(١) وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : يريد القرآن ؛ لأنه يدل على قرب مجىء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك «وإنه لَعَلَمٌ للساعة» (بفتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عكرمة « وإنه للعلم » (بلامين) وذلك خلاف للصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل ؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه فى سننه . وفى صحيح مسلم "فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤١

Marfat.com

دِمَشْق بين مَهْرُودَتَيْن (١) واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسه قَطَر وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يَحِلّ لكافر يجد ريحَ نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهى] حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ (٢) فيقتله ..." الحديث... وذكر الثعلبيّ والزّمخشرى وغيرهما من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق (٣) بين مُمَصَّرتَيْن (٤) وشعر رأسه دَهين و بيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البِيَع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به". وروى خالد عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شتّى ودينهم واحد وأنا أَوْلَى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بينى و بينه نبيّ و إنه أول نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام " . قال الماوَرْدِىّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث، ولأن بقاء الدنيا يقتضى التكليف فيها، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهيا عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

قلت : ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَمًا عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجِزْيَة وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها وَلَتَذْهَبَنّ الشحناء والتَّبَاغُض والتحاسد وَلَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد" . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامُكم منكم" وفى رواية "فأمّكم منكم" قال ابن أبى ذئب : تدرى "ما أمّكم

(١) أى شقتين أو حلتين » . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .

(٣) فى روح المعانى : « أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ... » .

(٤) الممصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة .

Marfat.com

منكم " ؟ قلت : تخبرنى ، قال : فأمّكم بكتاب ربّكم وسُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسـلم" .
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نصّ على أنه ينزل مجدّدًا لدين النبيّ صلى الله عليه وسلم للذى دَرَس منـه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيـل : « وَإِنَّهُ لَعِـلْمٌ لِلسَّاعَةِ » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليـل على الساعة وبعث المـوتى؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وَإِنَّهُ » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعـلم للساعة ؛ بدليل قوله عليـه السلام : " بعثت أنا والساعةُ كهاتين " وضم السـبابة والوسطى؛ خرّجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليـه وسلم . ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكّون فيها ؛ يعنى فى الساعة ؛ قاله يحيى بن سـلام . وقال السّدّى : فلا تكذبون بها، ولا تجادلون فيها فإنها كائنـة لا محالة . ﴿ وَاتَّبِعُـونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى طريق قويم إلى الله،أى إلى جنته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله : « وَاتَّبِعُونِ » فى الحـالين، وكذلك «وَأَطِيعُونِ» . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغتروا بوساوسه وشُبه الكفار المجادلين ؛ فإن شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيـد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تقدم فى «البقرة»(1) وغيرها .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام، وخلْق الطير، والمـائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

(1) راجع جـ٢ ص ٢٠٩

Marfat.com

هنا الإنجيل . ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوة؛ قاله السدى . ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح . وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى . ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [قال مجاهد : من تبديل التوراة . الزجاج : المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة . قال مجاهد : وبين لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام](١) التوراة على قدر ما سألوه . ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها . وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم . ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ »(٢) . وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض . ويقال للمنية : علوق وعلاقة . قال المفضل البكرى :

وسائلة بثعلبة بن سير(٣) * وقد علقت بثعلبة العلوق

وقال مقاتل : هو كقوله : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »(٤) . يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدى سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ه . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٠٧ (٣) يريد ثعلبة بن سيار .
(٤) راجع ج ٤ ص ٩٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعنى ما بينهم ، وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجاهد والسُّدّى . الثانى — فرق النصارى من النُّسْطُورِيّة والملكية واليعاقبة ، اختلفوا فى عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هذا فى سورة « مريم » (١) . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا وأشركوا ، كما فى سورة « مريم » (١) . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أى أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أى ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون . ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ يريد القيامة . ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنون . وقد مضى فى غير موضع (٢) . وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . ويكون « ٱلْأَحْزَابُ » على هذا ، الذين تحزّبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذّبوه من المشركين . ويتصل هذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (٣) » .

قوله تعالى : ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى أعداء ، يعادى بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء فى الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى أميّة بن خلف الجُمَحِيّ وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبى معيط ؛ فقال له أميّة : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تَتْفُل فى وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بدرٍ صبرا (٤) ، وقُتل أميّة فى المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية . [وذكر الثعلبي رضى الله عنه فى هذه الآية] (٥) قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يارب ،

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٧ (٣) راجع ص ١٠٤ من هذا الجزء .
(٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل . (٥) ما بين المربعين ساقط من هـ .

Marfat.com

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ، وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر ، ويخبرنى أنى ملاقيك ، يارب فلا تُضلّه بعــدى ، وآهده كما هديتنى ، وأكرمه كما أكرمتنى . فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول : يارب ، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر ، ويخبرنى أنى ملاقيك ، فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : ويموت أحد الكافرين فيقول : يارب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يارب ألّا تَهْدِه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى ؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول : يارب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب ؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كل واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضل .

قوله تعالى : يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "ياعبادى لاخوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرَصة رءوسهم ، فيقول المنادى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبى فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : « يَاعِبَادِي لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ » فيرفع الخلائق رءوسهم ، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادى الثالثة : « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قــد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لايخذل وليّه ولايُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يَاعِبَادِ » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾

قال الزجاج : « الَّذِينَ » نصب على النعت لـ « عبادى » لأن « عِبَادِى » منادى مضاف . وقيل : « الَّذِينَ آمَنُوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو][1] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا ، أو الذين آمنوا يقال لهم : « ٱدْخُلُوا الْجَنَّةَ » . وقرأ أبو بكر وزرّ بن حُبيش « يَاعِبَادِىَ » بفتح الياء وإثباتها فى الحالين ، ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لاغير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو ياعبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة . ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيل : زوجاتكم من الحور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون ، والفرح فى القلب . قتادة : ينعمون ، والنعيم فى البدن . مجاهد : تسرّون ، والسرور فى العين . ابن أبى نجيح : تعجبون ، والعجب هاهنا درك مايستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم »[2] .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٧١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شىء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعالى :

---

(١) زيادة لايستقيم المعنى إلا بها .　　(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

Marfat.com

« وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ »[١] . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها[٢] فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة " . وقد مضى فى سورة « الحج »[٣] أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلة سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب ، يُغـدَى عليه بها ، فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا ، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا . ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ، كما قال تعالى : « وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ »[٤] وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى قِلابة قال : يؤتون بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ، ثم قرأ « شَرَابًا طَهُورًا »[٤] . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفُلُون ولا يبولون ولا يتغوطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيح والتحميد والتكبير — فى رواية — كما يلهمون النَّفَس " .

الثانيـة — روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم " وقال : " لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها " وهذا يقتضى التحريم ، ولا خلاف فى ذلك .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ (٢) قوله : « فى صحافها » على حد قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... » فالضمير عائد على الفضة ، ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩ (٤) راجع جـ ١٩ ص ١٣٨ وص ١٤١

Marfat.com

وآختلف النــاس فى استعمالها فى غير ذلك . قال آبن العــربى : والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها فى شىء لقول النبيّ صلى الله عليــه وسلم فى الذهب والحرير : " هذان حرام لذكور أمتى حلّ لإناثها " . والنهى عن الأكل والشرب فيها يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة ، وذلك يستوى فيــه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : " هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة " فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثـــة — إذا كان الإناء مُضَبَّبًا بهما أو فيه حَلْقة منهما ؛ فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليــه وسلم . قال آبن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغيّر شيئا ممــا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعـــة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرْم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعــالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمع صِحاف . قال الكسائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشــبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تُشبــع الرجلين والثــلاثة ، ثم الصُّحَيفة تشــبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

---

(١) فى ابن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أو تار من نحاس ؛ معرب .

Marfat.com

صريفيّة طيّبٌ طعمُها * لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ (١)

وقال آخر (٢) :

مُتّكئًا تَصفِق أبوابُه * يسعى عليه العبدُ بالكوب

وقال قتادة : الكوب المدوّر القصير العنق القصير العروة . والإبريق : المستطيل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها . وقال قُطْرُب : هي الأباريق التي ليست لها عُرًى . وقال مجاهد : إنها الآنية المدورة الأفواه . السُّدّي : هي التي لا آذان لها . ابن عَزيز : «أكواب» أباريق لا عُرى لها ولا خراطيم، واحدها كوب.

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّي ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرى .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذيّ عن سليمان بن بُرَيدة عن أبيه أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال : "إن اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل [فيها] (٣) على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [في الجنة (٤)] حيث شئت " . قال : وسأله رجل فقال يارسول الله، هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : " إنْ يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك". وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » ، الباقون « تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ » أي تشتهيه الأنفس ؛ تقول الذي ضربت زيد ، أي الذي ضربته زيد . ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ تقول : لَذّ الشيءُ يَلَذّ لذاذا ، ولذاذة . ولَذِذت بالشيء أَلَذّ (بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل) لذاذا ولذاذة ؛ أي وجدته لذيذا . والتذذت به وتلذّذت به بمعنًى . أي في الجنة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر . وقال سعيد بن جبير : « وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ» النظر إلى الله عز وجل ؛ كما في الخبر : " أسألك لذة النظر إلى وجهك " . ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

(١) الصريفية : الخمر المنسوبة إلى صريفون ، وهي قرية عند عكبراء ، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع) .

(٢) هو عدي بن زيد . (٣) من ا ، ح ، ز ، ن هـ . (٤) زيادة عن سنن الترمذي .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ أى يقال لهم هـذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالَوَيه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه ؛ ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدّم هذا مرفوعا فى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »[(١)] من حديث أبى هريرة، وفى « الأعراف »[(٢)] أيضا .

قوله تعـالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكهانىّ الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمـار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهـم فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهـة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لمـا ذكر أحوال أهل الجنـة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبينّ فضل المطيع على العاصى . ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أى لا يخفف عنهم ذلك العـذاب . ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى آيسون من الرحمـة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقد مضى فى « الأنعام »[(٣)] . ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعـالى : ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨   (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨   (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما « وَنَادَوْا يَا مَالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « وَنَادَوْا يَا مَالِ » باللام خاصة ؛ يعني رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم في النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول في مالك : يا مال ، وفي حارث : يا حار ، وفي فاطمة : يا فاطم ، وفي عائشة يا عائش وفي مروان : يا مرو ، وهكذا . قال :

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قبلي ولا مَلِكُ (١)

وقال امرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُرِيك وَمِيضه * كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (٢)

وقال أيضا :

أفاطم مَهْلًا بعض هذا التدلّل * وإن كنت قد أزمعت صُرْمي فأجملي (٣)

وقال آخر (٤) :

يا مَرْوَ إن مَطِيَّتي محبوسةٌ * ترجو الحِباء وربُّها لم ييأس

وفي صحيح الحديث " أي فُلْ ، هَلُمَّ " . ولك في آخر الاسم المرخَّم وجهان : أحدهما — أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر — أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيدُ ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراعِ المحذوف . وذكر أبو بكر الأنباري قال : حدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيّ قال حدّثنا محمد — وهو ابن سعدان — قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم

(١) البيت : لزهير بن أبي سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوي وكان أغار على بني عبد الله بن غطفان فغنم وأخذ إبل زهير وراعيه يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب . (٢) يروى : « أصاح » . والحبي : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل : المتراكب . (٣) فاطمة : هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطيعة . (٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحا ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمري) .

Marfat.com

ابن عيينة عن مجاهد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « بيت من ذهب »[1] ، وكنا لا ندرى « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ » أو يا ملك[2] (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « وَنَادَوْا يَا مَالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هـذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام ؛ وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر : «وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» بإثبات الكاف . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أو ذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخزنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ[3] » فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب ، فردّت عليهم : « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » قال : فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا مالكا ، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها ، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب ، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » سألوا المـوت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ، قال : والسنة ستون وثلثمائة يوم ، والشهر ثلاثون يوما ، واليوم كألف سنة مما تعدون ، ثم لحظ إليهم بعـد الثمانين فقال : « إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » وذكر الحديث ؛ ذكره ابن المبـارك . وفى حديث أبى الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون ادعوا مالكا فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كثون " . قال الأعمش : نُبِّئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ؛ خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة ، ثم يقول إنكم ماكثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالى : بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة ؛ ذكره ابن المبارك .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) لفظة : « أو يامالك » ساقطة من ن ، ز .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ (٧٨)

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أى إنكم ماكثون فى النار لأنا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «ولكنّ أكثرَكُم» أى ولكن كلكم. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر ﴿لِلْحَقِّ﴾ أى الإسلام ودين الله ﴿كَـٰرِهُونَ﴾.

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩)

قال مقاتل: نزلت فى تدبيرهم المكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل الله جميعهم ببدر. «أَبْرَمُوا» أحكموا. والإبرام الإحكام. أبرمت الشيء أحكمته. وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثانى، والأول سَحِيل؛ كما قال:

* ...... من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[1] *

فالمعنى: أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قضَوْا أمرًا فإنا قاضون عليهم بالعذاب. وأم بمعنى بل. وقيل: «أَمْ أَبْرَمُوا» عطف على قوله: «أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»[2]. وقيل: أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم فى أنفسهم أبرموا أمرًا أمنوا به العقاب.

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠)

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى. والبيت كما فى ديوانه:

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل: الغزل الذى لم يبرم. (٢) راجع ص ٩٤ من هذا الجزء.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أى ما يسرونه فى أنفسهم ويتناجون به بينهم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا؟ وقال الثانى : إذا جهرتم سمع ، و إذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى : وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فصلت »(١) .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدّى : المعنى ما كان للرحمن ولد، فـ «إن» بمعنى ما، ويكون الكلام على هذا تاما، ثم تبتدئ : «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» أى الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « الْعَابِدِينَ » تام . وقيل : المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد؛ أى لا سبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام؛ كقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢) . والمعنى على هذا : فأنا أول العابدين لذلك الولد، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده، على أنه لا ولد له . وقال السُّدّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدا ؛ ولكن لا ينبغى ذلك . قال المهدوى : فـ« إن» على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود، وهو آختيار الطبرى، لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « الْعَابِدِينَ » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدِينَ .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

Marfat.com

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني « فَأَنَا أَوَّلُ العَبِدِينَ » بغير ألف ، يقال : عَبِدَ يَعْبَدُ عَبَدًا (بالتحريك) إذا أنِف وغضب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبي زيد . قال الفرزدق :

أولئك أجلاسي بجئني بمثلهم * وأعبد أن أهجو كُلَيْبًا بدارم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْني هجوتهم * وأَعْبَدُ أن يهجى كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهري : وقال أبو عمرو وقوله تعالى : « فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » من الأَنَف والغضب ، وقاله الكسائي والقُتَبي ، حكاه الماوردي عنهما . وقال الهَرَوي : وقوله تعالى : « فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » قيل هو من عَبِد يَعْبَد ، أي من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعْبَدُ فهو عَبِد ، وقلّما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أول من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له . وروى أن آمرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له عليّ : قال الله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا »[1] وقال في آية أخرى : « وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ »[2] فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ . قال عبد الله بن وهب : يعني ما استنكف ولا أنِف . وقال ابن الأعرابي : « فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » أي الغضاب الآنفين . وقيل : « فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » أي أنا أول من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم . أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكى : عَبَدني حقّي أي جحدني[3] . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام . الباقون وعاصم « ولد » وقد تقدّم[4] . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي تنزيها له وتقديسا . نزّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث ، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(١) راجع ص ١٩٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٦٣

(٣) لفظ « أي جحدني » ساقط من ل . (٤) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة . أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو محكم، وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن محيصن ومجاهد وحميد وابن القعقاع وابن السميقع « حَتَّى يَلْقَوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ؛ وفتح القاف هنا وفي « الطور »(١) و « المعارج »(٢) . الباقون « يُلَاقُوا » .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

هذا تكذيب لهم في أن لله شريكا وولدا ؛ أي هو المستحق للعبادة في السماء والأرض . وقال عمر رضي الله عنه وغيره : المعنى وهو الذي في السماء إله في الأرض(٣) ؛ وكذلك قرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ » وهذا خلاف المصحف . و « إِلَٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « في » بمعنى على ؛ كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »(٤) أي على جذوع النخل ؛ أي هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدم(٥) .

قوله تعالى : وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة، وقد تقدم(٦) . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن محيصن وحميد و يعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٦
(٣) في أ ، ح : « وهو الذي إله في السماء إله في الأرض» وفي هـ : « وهو الذي في السماء إله في الأرض » .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٢٤ (٥) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ (٦) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ « مَنْ » في موضع الخفض . وأراد بـ « الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » عيسى وعزيرا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : « مَنْ » في محل رفع ؛ أي ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعني الآلهة — في قول قتادة — أي لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعني عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والواحدانية لله . ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفرا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله : « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » أي اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني المؤمنين إذا أذن لهم . قال ابن عباس : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » أي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أي لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و « إِلَّا » بمعنى لكن ؛ أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن في جملة « الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » الملائكة . ويقال : شفعته وشفعت له ؛ مثل كلّته وكِلت له . وقد مضى في « البقرة » معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها[1] . وقيل : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨

Marfat.com

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على معنيين : أحدهما ــ أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني ــ أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها . ونحوه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع " . وقد مضى في « البقرة »(١) .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي لأقروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أفكه يأفكه أفكا ؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : « قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا »(٢) . وقيل : أي ولئن سألت الملائكة وعيسى « مَنْ خَلَقَهُمْ » لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أي فأنى يؤفك هؤلاء في آدعائهم إياهم آلهة .

قوله تعـالى : وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

في « قِيلِهِ » ثلاث قراءات : النصب، والجر، والرفع . فأما الجر فهي قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جرّ حمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا آختيار الزجاج . وقال الفراء والأخفش : يجوز أن يكون ﴿ قِيلِهِ ﴾ عطفا على قوله : « أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »(٢) . قال ابن الأنباري : سألت أبا العباس محمد آبن يزيد المبرد بأيّ شيء تنصب القيل ؟ فقال : أنصبه على « وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَعْلَمُ قِيلَهُ » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجَعُونَ » ، ولا على « يَعْلَمُونَ » . ويحسن الوقف على « يَكْتُبُونَ » . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القيل على معنى : لا نسمع سِرّهم ونجواهم

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩　　　(٢) راجع ص ٢٠٥ وص ١١٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

وقِيلَه ، كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يَكْتُبُونَ » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر ؛ كأنه قال : وقال قِيله ، وشكا شكواه إلى الله عز وجل ، كما قال كعب بن زهير :

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها وقِيلَهُمُ[1] * إنك يا ابنَ أبي سُلْمَى لَمقتولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع «قيله» فالتقدير : وعنده قِيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قِيلُه هذا القول[2] . الزمخشري : والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله : « إنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارب ، أو قيله يارب قسمي ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنباري : ويجوز في العربية «وقيلُه» بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون . المهدوي : أو يكون على تقدير وقيلُه قِيلُه يارب ؛ فحذف قيله الثاني[3] الذي هو خبر ، وموضع « يارب » نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء في « قِيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال : « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارَبَّ » بفتح الباء . والقِيل مصدر كالقول ؛ ومنه الخبر " نهى عن قيل وقال " . ويقال : قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا . وفي النساء « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا[4] » .

قوله تعالى : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال قتادة : أمر بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ » أعرض عنهم . ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » ثم نُسخ هذا في سورة « براءة » بقوله تعالى : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ[5] » الآية . وقيل : هي محكمة لم تنسخ . وقراءة العامة « فَسَوْف

(١) أى ناحيتها . (٢) « أو قيله هذا القول » ساقط من ح . وفى ز ، ل « وفيه هذا القول » .
(٣) فى الأصول : « الأول » . (٤) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ (٥) راجع جـ ٨ ص ٧١

Marfat.com

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تَعْلَمُونَ » (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين بالتهديد . و « سلامٌ » رفع بإضمار عليكم ؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم ؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً »[1] . وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفي مسند الدارميّ عن أبي رافع قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزُوّج من الحور العين " . رفعه الثعلبيّ من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبي أمامة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ حمٓ الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

إن جعلت «حمٓ» جواب القسم تمّ الكلام عند قوله : «الْمُبِينِ» ثم تبتدئ « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . وإن جعلت « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » جواب القسم الذي هو « الْكِتَابِ » وقفت على « مُنْذِرِينَ » وابتدأت «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» . وقيل: الجواب «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» ، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم ، والهاء في « أَنْزَلْنَاهُ»

(١) راجع ص ١٢٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

للقرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » كنى به عن غير القرآن، على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »(١) . والليلة المباركة ليلة القدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لستّ مضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان" . ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نجماً نجماً فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل : كان ابتداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة ها هنا ليلة النصف من شعبان . والأوّل أصح لقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »(٢) . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا ، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهذا المعنى قد مضى فى « البقرة »(٣) عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » ، ويأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران، قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان(٤) بن المغيرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبا

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٩٠
(٤) فى ا، ح، ز : « وروى عثمان أن المغيرة »

Marfat.com

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح و يولد له وقد خرج آسمه في الموتى " . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلًى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " ذكره الثعلبي . وخرج الترمذي بمعناه عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب". وفي الباب عن أبي بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرطاه عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث، وقال : يحيى بن أبي كثير لم يَسمع من عروة، والحجاج بن أرطاه لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير .

قلت : وقد ذكر حديث عائشة مطولا صاحب كتاب العروس، واختار أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلة النصف من شعبان، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه في غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هي ليلة القدر على ما بيّناه . روى حماد آبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي ؟ قال : أيْ و[الله][(1)] الذي لا إله إلا هو، إنها في كل رمضان، إنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضى الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج؛ يقال : يحج فلان و يحج فلان . وقال في هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى . وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[(2)] فنصّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيّن من زمانه الليل هاهنا بقوله : «فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ؛

(1) من ح ، ل . (2) راجع ج ٢ ص ٢٩٠

Marfat.com

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله ، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرىّ : « وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو مَلَك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم: يعطى كل عامل بركات أعماله ؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ «نفرق» بالتشديد، و«يَفْرِق» كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب «كل» ، والفارق الله عز وجل. وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه «نفرق» بالنون. ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ كل شأن ذى حكمة ؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة » .

قوله تعالى : أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : « أمرا » فى موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالا . الفراء والزجاج : « أمرا » نصب بـ«يُفْرَق » ، مثل قولك « يفرق فرقا » فأمر بمعنى فرق فهو مصدر، مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : « يفرق » يدلّ على يؤمر ، فهو مصدر عمل فيه ما قبله . « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » قال الفراء (١) : « رَحْمَةً » مفعول بـ«مرسلين» . والرحمة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : « رَحْمَةً » مفعول من أجله ؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله . « أَمْرًا » وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : «أَمْرًا» نصب على الاختصاص، جعل كلّ أمر جزلا فخمًا بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه

(١) جملة « قال الفراء » : ساقطة من ا ، ح .

Marfat.com

لخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفي قراءة زيد بن علي « أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا » على هو أمر ، وهي تنصر آنتصابه على الآختصاص . وقرأ الحسن « رحمة » على تلك هي رَحْمَةٌ ، وهي تنصر آنتصابها بأنه مفعول له .

قوله تعالى : رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . الباقون بالرفع ، رَدًّا على قوله : « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وإن شئت على الابتداء ، والخبر لا إله إلا هو . أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو ربّ السموات والأرض . والجر على البدل من « رَبِّكَ » وكذلك : « رَبِّكُمْ وربِّ آبائكُمُ الأَوَّلِينَ » بالجر فيهما ؛ رواه الشَّيْزَرِيّ (١) عن الكسائي . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السموات والأرض ؛ أي إن كنتم موقنين به فآعلموا أن له أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق ؛ أي ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذي يحيي ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه ؛ كما تقول : فلان يُنْجِد ؛ أي يريد نجدا . ويُتْهِم ؛ أي يريد تِهامة . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء . و « هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ » أي يحيي الأموات ويميت الأحياء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي مالككم ومالك من تقدم منكم . واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنما

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي ، كان حجازيا ثم انتقل إلى شيزر (كحيدر ، بلدة قرب حماة) وأقام بها إلى أن مات فنسب إليها ، أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائي ، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

Marfat.com

يقولونه لتقليد آبائهم[1] من غير علم فهم فى شك . وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون فى دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يَلْعَبُونَ » يضيفون إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب ؛ وهو كالصبى الذى يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ قاله قتادة . وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمّى الحافظ رقيبا . وفى الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعدُ ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فينقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : علىّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن علىّ والحسن وابن أبى مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخُدْرىّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه كالزكمة . وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه ؛ ذكره الماوردى . وفى صحيح مسلم عن أبى الطُّفَيل عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفَارىّ قال : اطّلع النبىّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون " ؟ قالوا : نذكر الساعة ؛ قال : " إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات — فذكر — الدُّخَانَ والدَّجَّالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم " . فى رواية عن حُذيفة " إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ فى جزيرة العرب والدُّخَانَ والدَّجَّالُ

(١) فى ا ، ز ، ك ، ل ، هـ : « لتقليد الآباء لهم » . وفى ن : « تقليدا لآبائهم » .

Marfat.com

ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّل الناس". وخرجه الثعلبي أيضا عن حُذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول الآيات خروجًا الدّجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أَبْيَن تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسي معهم إذا أمسوا". قلت: يا نبيّ الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: " «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره".

فهذا قول. القول الثاني — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، [ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم](1). والحديث عنه بهذا في صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ. قال البخاريّ: حدثني يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كَسِني يوسف، فأصابهم قَحْط(2) وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعالى: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمُضَر فإنها قد هلكت. قال: "لمُضَر! إنك لجريء". فاستسق فسُقُوا؛ فنزلت: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ». فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ». قال: يعني يوم بدر. قال أبو عبيدة: والدُّخان الجَدْب. القُتَبيّ: سُمّي دخانا ليُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لما حجبت السماءَ الغَبرة؛ قاله عبد الرحمن الأعرج. («يَغْشَى ٱلنَّاسَ») في موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من

(1) ما بين المربعين ساقط من ك.
(2) في ح، ز، ل: «فأصابهم الجوع والقحط».

Marfat.com

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى يقول الله لهم : « هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هَذَا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ، كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك : آكشف عنا العذاب فـ « إِنَّا مُؤْمِنُونَ » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « الْعَذَابَ » هنا الدخان . وقيـل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ، على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ، ليبس الأرض فى سنة الجدب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ، ولهذا يقال لسنة الجدب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال المـاوردىّ : وهـذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنمـا يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ، غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ أى من أين يكون لهم التذكّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذّكرى والذّكر واحد ؛ قاله البخارىّ . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعـد توليهم عن محمد صلى الله عليـه وسلم وتكذيبهم إياه . وقيـل : أى أنّى ينفعهم

Marfat.com

قولهم : « إِنَّا مُؤْمِنُونَ » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أى علّمه بَشَرٌ أو علّمه الكَهَنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أى وقتا قليلا ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ؛ بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا فى القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أى ننتقم منهم يوم نبطش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « مُنْتَقِمُونَ » .وهو بعيد أيضا ؛ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيا قبلها . ولا يحسن تعلقه بقوله : « عَائِدُونَ » ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو آذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ؛ فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » كلام تام . ثم ابتدأ : « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛

Marfat.com

كما تقول : آتق النار آتق العذاب . و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ فى قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأبىّ بن كعب ومجاهد والضحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، وآختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع أو قحط يقع قبل يوم القيامة . المـاوردىّ : ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . ويقال : آنتقم الله منه ؛ أى عاقبه . والآسم منه النقمة والجمع النّقمات[1] . وقيل بالفرق بين النقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والآنتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أى آبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والآبتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أى أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجئ الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى كريم فى قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة وإسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال : آتبعونى . فـ « عِبَادَ اللَّهِ » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معى عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبَادَ اللَّهِ » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربى . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أمين على الوحى فاقبلوا نصحى . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) فى كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

Marfat.com

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . ابن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء : أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جريج : لا تَعْظُمُوا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار : أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبار تَرَفُّعُ المحتقر ؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام بحجة بيّنة . والمعنى واحد ؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال ابن عباس : تشتمونِ ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْتُ » نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيا مضى ؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »[(١)] . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول نشدتك بالله ، وأقسمت عليك بالله ؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي ﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى ؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى ؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »[(١)] أى به . ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا[(٢)] لا لِيَ ولا عَلَيّ ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : خلّوا سبيلى وكُفّوا عن أذاى . والمعنى متقارب ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٧ وص ٣٣٩ . (٢) أى مكفوفا عنى شركم .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أى فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾ بفتح « أنّ » أى بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أى مشركون ، قد امتنعوا من إطلاق بنى إسرائيل ومن الإيمـان .

قوله تعـالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى ؛ أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أى قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فَاسْرِ » بوصل الألف . وكذلك ابن كثير ؛ من سرى . الباقون « فَأَسْرِ » بالقطع ؛ من أسرى . وقد تقدم[1] . وتقدم خروج فرعون وراء موسى فى « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[2] » وإغراقه وإنجاء موسى ؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيـــة ــ أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل فى الغالب إنمـا يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدوّ فيتخذ الليـل سترا مُسْـدِلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب ، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يَسْرِى ويُدْلِج[3] ويترفّق ويستعجل ، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليـه وسلم " إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيها[4] " . وقد مضى فى أول « النحل[5] » ؛ والحمد لله .

قوله تعـالى : وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ . وجـ ٨ ص ٣٧٧ وجـ ١١ ص ٢٢٧ . وجـ ١٣ ص ١٠٥ . (٣) قوله : « يسرى » أى يسير عامة الليل . و « يدلج » أى سار من أول الليل . وربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق : (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها .

(٥) راجع جـ ١٠ ص ٧٣ .

Marfat.com

قال ٱبن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أى طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن ٱبن عباس أيضا سمتا . الضحاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ، لقوله : « فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ، وهو المعروف فى اللغة . وقاله قتادة والهَرَوِىّ . وقال غيرهما : منفرجا . وقال ٱبن عرفة : وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما ، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن ، يقال : جاءت الخيل رَهْوًا ، أى ساكنة . قال :

والخيلُ تَمْزَعُ رَهْوًا فى أعنّتها * كالطير تنجو من الشُّؤْبُوب ذى البرد[(١)]

الجوهرى : ويقال ٱفعل ذلك رَهْوا ، أى ساكنا على هِينَتِك[(٢)] . وعيشٌ راهٍ ، أى ساكن رافه . وخِمْسٌ راهٍ ، إذا كان سهلا . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أى فتح ، ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل ، يقال : جاءت الخيل رَهْوًا . قال ابن الأعرابى : رَهَا يَرْهُو فى السير أى رَفَقَ . قال القطامى فى نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ * ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوَة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء ، وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهو : الجَوْبة تكون فى مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفى الحديث أنه قضى أن " لا شفعة فى فِناء[(٣)] ولا طريق ولا مَنْقَبَة ولا رُكْح ولا رَهْوٍ " . والجمع رِهَاء . والرَّهْوُ : المرأة الواسعة الهَنِ ، حكاه النَّضْر بن شُمَيل . والرَّهْو : ضرب من الطير ، ويقال :

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى . و « تمزع » : تمر مرا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة ، ففى ا ، وك : « تمرج » بالراء والجيم . وفى ح ، وز : « تمرع » بالعين . « رهوا » كذا فى نسخ الأصل . والذى فى ديوانه : « غربا » وغرب الفرس : حدته وأول جريه . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر .

(٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار ، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هى الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذى يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ، وربما كان فضاء لا بناء فيه .

Marfat.com

هو الكُرْكِيّ . قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون « رَهْوًا » من نعت موسى — وقاله القشيريّ — أى سِرْ ساكنا على هِينَتِك ؛ فالرهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأوّل هو من نعت البحر؛ أى آتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالآنضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لمّا قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هـذا . وقيل : ليس الرَّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أى فرج . فقوله : « رَهْوًا » أى منفرجا . وقال الليث : الرَّهْو مَشْيٌ فى سكون، يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ : وادعٌ خافض . وآفعل ذلك سَهْوًا رَهْـوًا ؛ أى ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى إن فرعون وقومه . ﴿ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ كَمْ ﴾ للتكثير . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى « الشعراء » مستوفى (١) . ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ النَّعمة (بالفتح) : التنعيم، يقال : نَعَّمه الله وناعَمَه فتنعّم . وآمرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمَة، بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) : اليد والصنيعة والمِنّة وما أُنعِم به عليك . وكذلك النُّعْمى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النعمة، أى واسع المال ؛ جميعه عن الجوهريّ . وقال ابن عمر : المراد بالنعمة نيل مصر . ابن لَهِيعة : الفيوم . ابن زياد : أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السعة والدعة . وقد يقال : نَعْمة ونِعْمة (بفتح النون وكسرها) ، حكاه الماورديّ . قال : وفى الفرق بينهما وجهان : أحدهما — أنها بكسر النون فى المِلْك، وبفتحها فى البَدَن والدين، قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثانى — أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة، وبالفتح من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ؛ قاله ابن زياد .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٠١ .

Marfat.com

قلت : هـذا الفرق هو الذى وقع فى الصحاح وقد ذكرناه . وقـرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة « فَكِهِينَ » بغير ألف ، ومعناه أشِرين بَطِرين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحا . والفكه أيضا الأشِر البطر . وقرئ « وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ » أى أشِرين بطرين . و « فَاكِهِينَ » أى ناعمين . القشيرى : «فَاكِهِينَ» لاهين مازحين ، يقال : إنه لفاكه أى مَزَّاح . وفيه فكاهة أى مزح . الثعلبيّ : وهما لغتان كالحاذر والحَذِر ، والفاره والفَرِه . وقيـل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتـع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة . فضلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ، فيوقف على « كَذَلِكَ » . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبي : « كَذَلِكَ » أفعـل بمن عصانى . وقيل : « كَذَلِكَ » كان أمرهم فاهلكوا . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا »(1) الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى لكفرهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات . قال الشاعر :

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٧٢

Marfat.com

فالريح تبكى شجوها [1] * والبرق يلمع فى الغمامه

وقال آخــر [2] :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة * تُبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجيــة [3] :

أيا شجــر الخابور مالك مُورِقًا * كأنك لم تجزع على ابن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً فى وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : فى الكلام إضمار، أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة؛ كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ [4] » بل سرّوا بهلاكهم؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه — ثم تلا — « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » " . يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيّ كدَوِيّ النحل ! . وقال علىّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفى بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قول مجاهد . وقال شُريح الحضرمى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة —

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ الحميرى . وقد ورد هذا البيت فى الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هى ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة . (٤) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥

Marfat.com

قيل : من هم يا رسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» — ثم قال — ألا إنهما لا يبكيان على الكافر" .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر[(1)] قال : حدثنا أبو شعيب الحرانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعى قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة و بكت عليه يوم يموت . وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما؛ قاله علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — وعطاء والسدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السدّى : لما قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء ، وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر . قال يزيد : واحمرارها بكاؤها . وقال محمد بن سيرين : أخبرونا أن الحمرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرنا دماً يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدّارقُطْنِىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " . وعن عُبادة بن الصامت وشداد بن أوس قالا : الشفق شفقان : الحمرة والبياض؛ فإذا غابت الحمرة حلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سيرين . وقد تقدم فى «سبحان»[(2)] عن قرة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ، وحمرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرت العين بمائها قيل بكت، وإذا أدرت السماء بحمرتها قيل بكت ، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله ؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المؤمن اغبرّت فدرّت

---

(١) فى ن ، ز : «وذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدثنا محمد بن معمر ...» . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠

Marfat.com

باغبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها درّت بغبرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبيّ صلى ٱلله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كل شيء، وإنا لفى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة، فتدر بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسف وحزن .

قلت : والقول الأوّل أظهر، إذ لا استحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم — كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت »(١) — فكذلك تبكى ، مع ما جاء من الخبر فى ذلك [والله أعلم بصواب هذه الأقوال(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعنى ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكليفهم الأعمال الشاقة . ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من « ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » فلا تتعلق « مِنْ » بقوله : « مِنَ ٱلْعَذَابِ » لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هذا علوّ مدح بل هو علوّ فى الإسراف ، كقوله : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ »(٣) . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى على علم منّا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أى عالمى زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة : « كُنتُمْ خَيْرَ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ و جـ ١١ ص ١٥٧ و جـ ١٥ ص ٣٤٤
(٢) ما بين المربعين زيادة من ن .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٨

Marfat.com

أمة أخرجت للناس »[1] . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل : على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما . ويكون قوله : « كنتم خير أمة » أى بعد بنى إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ ﴾ أى من المعجزات لموسى . ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المنّ والسلوى . ويكون هذا الخطاب متوجّها إلى بنى إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفراء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذى كفّهم عنه والخير الذى أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معًا من قوم فرعون وبنى إسرائيل . وفى قوله : « بَلَاءٌ مُبِينٌ » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا »[2] . وقال زهير :

* فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو[3] *

الثانى — عذاب شديد ؛ قاله الفراء . الثالث — اختبار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[4] .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤

(٣) صدره : * رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعنى كفار قريش ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى ﴾ ابتداء وخبر؛ مثل : «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»(١)، «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا»(٢) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أى بمبعوثين . ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣) أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم . والمنشورون المبعوثون . قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل؛ قال : يا محمد ، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا : أحدهما — قصىّ بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا؛ لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف؛ فكأنه قال : إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فَأْتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم وحده؛ كقوله : «رَبِّ ارْجِعُونِ»(٤) قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ» هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة؛ و إذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبَّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تُبّع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفرس، وقيصر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمّى كل واحد منهم تُبّعا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظّل؛ وقال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٠ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٧٧
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٤٩

Marfat.com

يَرِد المياه حضيرةً ونَفيضةً * وِرْدَ القطَاة إذا اسْمَألّ التُّبَّع[1]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلي : تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت . وإن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تُبّع؛ قاله المسعودي . فمن التبابعة : الحارث الرائش، وهو ابن همال ذي سدد[2] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك ، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس ، الذي ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات : أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبّع لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا" . فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه؛ وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غزوه، و بعد ما غزا المدينة وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ اسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوه إليه . و يقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وابنَ عَمْ

وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم أنه حُفر قبر له[3] بصنعاء — و يقال بناحية حمير — فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب « هذا قبر حُبَّى ولَمِيس » ويروى أيضا: « حبي وتماضر » و يروى أيضا : « هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع ، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما » .

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم . وقيل : النفر يغزى بهم . وقيل غير هذا . واسمأل الظل : قصر وضمر ، وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرّفة .　　(٣) لفظة « له » ساقطة من ن، ك، هـ .

Marfat.com

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فى الكتاب الذى كتبه : « أما بعد ، فإنى آمنت بك و بكتابك الذى أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربك ورب كل شىء ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام ؛ فإن أدركتك فبها ونعمت ، وإن لم أدركك فآشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة ؛ فإنى من أمتك الأولين وبايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ »(١) . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبَّع الأوّل » . وقد ذكرنا بقية خبره وأوله فى « اللمع اللؤلؤية شرح العشر بينات النبوية »(٢) للفارابى رحمه الله . وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نبيًّا أو مَلِكا ؛ فقال ابن عباس : كان تُبَّع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع ملكا من الملوك ، وكان قومه كُهّانا وكان معهم قوم من أهل الكتاب ، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبانا ففعلوا ، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تسبّوا تُبَّعا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبعا كان رجلا من حِمير ، سار بالجنود حتى عبر الحيرة وأتى سَمَرْقَنْد فهدمها ؛ حكاه الماوردى . وحكى الثعلبى عن قتادة أنه تبع الحِميرى ، وكان سار بالجنود حتى عبر الحيرة . وبنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبى : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمى تبعا لأنه تبِع من قبله . وقال سعيد بن جُبَير : هو الذى كسا البيت الحِبَرات(٣) . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه ، وضرب بهم لقريش مثلا لقربهم من دارهم وعظمهم فى نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم — لأنهم كانوا مجرمين — كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية ، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمّى أوّلهم تبعا لأنه آتبع قرن الشمس وسافر فى الشرق مع العساكر .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١ (٢) اضطربت الأصول فى هذا الكتاب وفى اسم مؤلفه ، ولم نعثر عليه .
(٣) الحبرات (بكسر ففتح جمع حبرة) : ضرب من برود اليمن منمر .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الَّذِينَ » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أَهْلَكْنَاهُمْ » صلته . ويكون « مِنْ قَبْلِهِمْ » متعلقا به . ويجوز أن يكون « مِنْ قَبْلِهِمْ » صلة « الَّذِينَ » ويكون فى الظرف عائد إلى الموصول . وإذا كان كذلك كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمّا أن يقدّر معه «قد» فيكون فى موضع الحال. أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . ويجوز أن يكون « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ابتداء خبره « أَهْلَكْنَاهُمْ » . ويجوز أن يكون « الَّذِينَ » فى موضع جر عطفا على « تُبَّعٍ » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . ويجوز أن يكون « الَّذِينَ » فى موضع نصب بإضمار فعل دلّ عليه « أَهْلَكْنَاهُمْ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لاهين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »[1] . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى أكثر الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسُمّى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[2] . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[3] . فـ« يَوْمَ الْفَصْلِ » ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »[4] أى الوقت المجعول لتمييز المسىء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القراء فى رفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ١٣ ص ١١
(٤) راجع جـ ١٩ ص ١٧٣

Marfat.com

« مِيقَاتُهُـمْ » على أنه خبر « إنّ » واسمها « يَوْمَ الفَصْلِ » . وأجاز الكسائى والفرّاء نصب « مِيقَاتهم » . بـ«إن » و « يوم الفصل » ظرف فى موضـع خبر « إن » ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعـالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول . والمَوْلَى : الوَلِيُّ وهو ابن العمّ والناصر . أى لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا (١) » الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ « مَنْ » رفع على البدل من المضمر فى « يُنْصَرُونَ » ؛ كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخـبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغنى عنـه ويشفع وينصر . أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائى والفراء نصب على الاسـتثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين . و يجوز أن يكون اسـتثناء متصلا ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحـيم بأوليائه ؛ كما قال : « شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ (٢) » فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعـالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهـاء ؛ إلا حرفا واحدا فى سـورة الدخان « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٦ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩

Marfat.com

ابن الأنبارى . و ﴿ الأَثِيم ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء. وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ » والرجل يقول : طعام اليتيم ، فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى أبى قال حدثنا نصر قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : علّم عبد الله بن مسعود رجلا « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » فقال الرجل : طعام اليتيم ، فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ، فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ، قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلّم ، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزَّمَخْشَرِىّ : «وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةً معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدّى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض مالا يستقلّ بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى علىّ بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِى » بالتاء حملا على الشجرة . وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب « يغلى » بالياء حملا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يُحمل على المهْل لأنه

Marfat.com

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم ؛ من أثِم يأثَم إثمًا ؛ قاله القشيرى وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب الإثم ؛ قاله يحيى بن سلام . وفى الصحاح : وقد أثِم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع فى الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى ذى الإثم الفاجر (١) ، وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يعدنا محمد أن فى جهنم الزقوم ، و إنما هو الثريد بالزبد والتمر ، فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه فى هذه الشجرة فى سورة « الصافات (٢) وسبحان » أيضا .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أى يقال للزبانية خذوه ، يعنى الأثيم . ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أى جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ، أى تجره إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلا إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسًا :

* نَفْرَعه فَرْعًا ولسنا نَعْتِله (٣) *

وفيه لغتان ؛ عَتَلَه وعَتَنَه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فَٱعْتِلُوه » بالكسر . وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبى جهل بمقمع من حديد ، فيتفتّت رأسه عن دماغه ، فيجرى دماغه على جسده ،

---

(١) فى ح ، ز ، ل : « أى هو الآثم الفاجر » . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(٣) القائل هو أبو النجم ؛ وقبله :

طار عن المهر نسيل ينسله * عن مفرع الكتفين حرّ عطله

Marfat.com

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميا قد انتهى حره فيقع في بطنه؛ فيقول الملَك: ذُق العذاب. ونظيره: «يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ»[1].

قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباري: أجمعت العوام على كسر «إنّ». وروى عن الحسن عن عليّ رحمه الله «ذُق أَنَّكَ» بفتح «أن»، وبها قرأ الكسائيّ. فمن كسر «إن» وقف على «ذُقْ». ومن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم. قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزّ مني ولا أكرم؛ فلذلك قيل له: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ». وقال عكرمة: التقى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرني أن أقول لك أَوْلَى لك فأولى" فقال: بأي شيء تهدّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذلّه ونزلت هذه الآية. أي يقول له الملَك: ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» يعنون السفيه الجاهل في أحد التأويلات على ما تقدّم[2]. وهذا قول سعيد بن جبير. ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إن هذا ما كنتم تشكون فيه في الدنيا.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥ (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٧

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نُزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « فِي مُقَامٍ » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائي : المَقام المكان ، والمُقام الإقامة ، كما قال :

* عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها (١) *

قال الجوهري : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم ، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ، لأنه مشبه ببنات الأربعة ، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس ، و (بالضم) يمكن أن يراد به المكان ، و يمكن أن يكون مصدرا و يقدر فيه المضاف ، أي في موضع إقامة . ﴿أَمِينٍ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل « مِنْ مَقَامٍ أَمِينٍ » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض ، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّندس : ما رَقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى في « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر كذلك الذي ذكرناه . فيوقف على « كَذَٰلِكَ » . وقيل : أي كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدم ذكره ، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام في العِين في « والصّافّاتِ » (٣) . والحور : البيض ، في قول قتادة والعامة ، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها ، و يرى الناظر وجهه في كعبها ؛ كالمرآة من دقة الجلد و بضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود « بعيسٍ عِينٍ » (٤) . وذكر أبو بكر الأنباري أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدثنا حسين

---

(١) هذا أوّل معلقة لبيد . وتمامه : * بمنى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض بمخالطة شيء من شقرة .

Marfat.com

قال حدثنا عمار بن محمد قال : صليت خلف منصور بن المعتمر فقرأ فى « حم » الدخان « بعيس عين . لا يذوقون طعم الموت إلا الموتة الأولى » . والعيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس ، واحدها بعير أعيس وناقة عيساء . قال امرؤ القيس :

يرعن إلى صوتى إذا ما سمعنه * كما ترعوى عيط إلى صوت أعيسا (١)

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات (٢) البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حلة ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سميت الحور حورا لأنهن يحار الطرف فى حسنهن وبياضهن وصفاء لونهن . وقيل : إنما قيل لهن حور لحور أعينهن . والحور : شدة بياض العين فى شدة سوادها . امرأة حوراء بينة الحور . يقال : احورت عينه احورارا ، واحور الشىء ابيض . قال الأصمعى : ما أدرى ما الحور فى العين؟ وقال أبو عمرو : الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس فى بنى آدم حور ؛ وإنما قيل للنساء : حور العين لأنهن يشبهن بالظباء والبقر . وقال العجاج :

* بأعين محورات حور (٣) *

يعنى الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحدق . والعين جمع عيناء ، وهى الواسعة العظيمة العينين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مهور الحور العين قبضات التمر وفلق الخبز" . وعن أبى قرصافة (٤) سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين" . وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) العيط : (جمع عيطاء) الناقة الفتية التى لم تحمل . (٢) الثاقب : المضىء . وفى ا ، ح : « النقيات البياض » . (٣) فى الأصول : * بأعين محورات بيض *
والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : * إذ ترمى من خلل الخدور *
وبعده : * خزر بألباب إلى صور *
(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكنانى .

Marfat.com

قال : "كنس المساجد مهور الحور العين" ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا في (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيما أفضل في الجنة ؛ نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر ابن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن ابن أَنْعُم عن حِبّان بن أبي جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا . وروى مرفوعا إن "الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف" . وقيل : إن الحور العين أفضل ؛ لقوله عليه السلام في دعائه : "وأبدله زوجا خيرا من زوجه" . والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورِ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين في « بحور عين » سواء .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قال قتادة : « آمنينَ » من الموت والوَصَب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ أي لا يذوقون فيها الموت ألْبتّة لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ على الاستثناء المنقطع ؛ أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع في تَفَرُّق فالج * فَلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغدّتِ (1)

---

(1) في كتاب سيبويه : * من كان أشرك *
والقائل هو عنز بن دجاجة المازني . وفالج هذا : هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بني مازن وأساء إليه حتى رحل عنهم ، ولحق ببني ذكوان بن بهثة فنسب إليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم إلى بني أسد ، فدعا هذا الشاعر المازني على بني مازن حيث اضطروه فألجئ إلى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم ؛ لأنه لم يرض فعلهم ، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن ، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغدة ، وهي من أدواء الإبل كالذبحة . والغلواء : النماء والارتفاع . والمتنبت : المنمي والمغذي . ويروى بكسر الباء ، ومعناه النابت النامي . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كناشرة الذى ضيعتم * كالغصن فى غلوائه المتنبت

وقيل : إن «إلا» بمعنى بعد، كقولك : ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى، أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا، كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(١) . وهو كما تقول : ماذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس . وقال القتبي : «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلق الرّوح والرّيحان، وكان موته فى الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لايذاق، ولكن جعل كالطعام الذى يكره ذوقه، فاستعير فيه لفظ الذوق . ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضلا منه عليهم . ف « فَضْلًا » مصدر عمل فيه « يَدْعُونَ » . وقيل : العامل فيه « وَوَقَاهُمْ » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله، لأنه تفضل منه عليهم، إذ وفقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكذا، أى ناله وظفر به .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعنى القرآن، أى سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون وينزجرون . ونظيره : «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»(٢) . فختم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا، كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»(٣) على ما تقدم . ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٢

(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٣١ وص ١٣٤ وص ١٤٠ و ١٤٣

(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩

Marfat.com

النقاش . وقيل : آنتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : آنتظر أن يحكم الله بينك و بينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل آرتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : آرتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك . والله تعالى أعلم .

سـورة الجاثيـة

مكّيّة كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هى: « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» (١) نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكره الماوردى . وقال المهدوى والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت فى عمر رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» ثم نسخت بقوله: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » (٢) . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف . وهى سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و﴿ تَنْزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » آسم السورة . و «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مبتدأ . وخبره «مِنَ اللَّهِ» . والكتاب القرآن . و«الْعَزِيزِ» المنيع . « الحكيم » فى فعله . وقد تقدّم جميع هذا (٣) .

قوله تعالى : إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٧١
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١

Marfat.com

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر. ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدم جميعه مستوفى فى «البقرة»(1) وغيرها . وقراءة العامة « وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ » « وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم «إنّ» وخبرها « فِي السَّمٰوَاتِ » . ووجه الكسر فى « آيات » الثانى العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : إن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير « آياتٌ » لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا(2) . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه « إنّ » على تقدير حذف «فى» ؛ التقدير: وفى آختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت «فى» لتقدم ذكرها . وأنشد سيبويه فى الحذف:

أَكُلَّ آمرئٍ تَحْسِبِين آمرأً ٭ ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا(3)

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «واخْتِلَافِ» على قوله : « وَفِي خَلْقِكُمْ » ثم قال : « وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين ؛ لأنه عطف « وَاخْتِلَافِ » على « وَفِي خَلْقِكُمْ » ، وعطف « آيَات » على موضع « آيات » الأوّل ، ولكنه يقدّر على تكرير «فى» . ويجوز أن يرفع

---

(1) راجع ج ٢ ص ١٩١ ، وج ١٤ ص ٥٨ (2) فى ل : « زيدا وزيدا » بزيادة الواو .
(3) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

Marfat.com

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء ، وما قبله خبره ، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع « واختلاف » و « آيات » جميعا ، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ أى هذه آيات الله ؛ أى حججه و براهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يَتْلُوهَا » بالياء . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ ﴾ [أى بعد حديث الله](١) وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى « تُؤْمِنُونَ » بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ « وَيْلٌ » وادٍ فى جهنم . توعد من ترك الاستدلال بآياته . والأفاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أَثِيمٍ » أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوِى : النضرُ بن الحارث وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبى أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة(٢)، وهو أن ينحى عليها صاراً أذنيه . و « أَنْ » من « كَأَنْ » مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن ؛ كما فى قوله :

* كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ(٣) *

---

(١) ما بين المربعين زيادة من ل ، ن . (٢) العانة : الأتان (الحمارة) .

(٣) و يروى : إلى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى . وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية :

* و يوما توافينا بوجه مقسم *

والمقسم : المحسن . و « تعطو » : تتناول . و « السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

Marfat.com

ومحل الجملة النصب ، أى يصر مثل غير السامع . وقد تقدم فى أول «لقمان» القول فى معنى هذه الآية (١) . وتقدم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فى البقرة (٢) » .

قوله تعالى : وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله فى الزقوم : إنه الزبد والتمر، وقوله فى خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذل مخز . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحق جهنم . وقال ابن عباس : « مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ » أى أمامهم ؛ نظيره : « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (٣) » أى من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * أدبّ مع الولدان أزحف كالنّسر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى من المال والولد ؛ نظيره : «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (٤) » [أى من المال والولد] (٥) . ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى دائم مؤلم .

قوله تعالى : هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعنى القرآن . وقال ابن عباس : يعنى كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جحدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٩ (٤) راجع جـ ٤ ص ٢١
(٥) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، ل ، ن ، هـ .

Marfat.com

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب ؛ أى لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ » أى لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن محيصن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « أَلِيمٌ » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده ، وبيّن أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ يعنى أن ذلك فعله وخلقه و إحسانٌ منه و إنعام . وقرأ ابن عباس والجحدرى وغيرهما « جَمِيعًا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء ، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أى تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبى حاتم خبر ابتداء محذوف ، أى ذلك ، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ جزم على جواب « قُلْ » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥

Marfat.com

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دلّ الكلام عليه ؛ قاله عليّ بن عيسى وآختاره ابن العربيّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال آبن العربيّ : وهــذا لم يصح . وذكر الواحديّ والقشيريّ وغيرهما عن ابن عبــاس أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بنى المُصْطَلِق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لهــا «المُرَيْسِيع» فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قِرب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبى بكر ، وملأ لمولاه . فقــال عبد الله : ما مَثَلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيــل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمرَ رضى الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مِهران قال : لمــا نزلت « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا [(١)] » قال يهوديّ بالمدينة يقال له فِنحاص : آحتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه ؛ فجاء جبريل عليــه السلام إلى النبيّ صــلى الله عليه وسلم فقال : " إن ربّك يقول لك قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ " . وآعلم أن عمــر قد آشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه ، فلما جاء قال : " يا عمر ، ضع سيفك " قال : يا رسول الله، صدقت، أشهد أنك أرسلت بالحق . قال : "فإن ربك يقول : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ" قال : لاجرم! والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهى .

قلت : وما ذكره المهــدويّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عبــاس ، وهو قول القُرَظيّ والسُّدّى ، وعليه يتوجه النسخ في الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينــة أو في غزوة بنى المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى: « يَغْفِرُوا » يعفوا و يتجاوزوا. ومعنى: « لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » أى لا يرجون ثوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل: الرجاء بمعنى الخوف؛ [(٣)] كقوله : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا [(٢)] » أى لاتخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٣ (٣) فى ك : « لا تخافون » .

Marfat.com

مثل عذاب الأمم الخالية . والأيام يعبّر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافون البعث . ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى ليجزى الله . وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لِنَجْزِيَ» بالنون على التعظيم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «لِيُجْزَى» بياء مضموم وفتح الزاى على الفعل المجهول ، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجزاءُ قوما ، نظيره : «وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة «الأنبياء» (١) . قال الشاعر :

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا (٢)

أى لَسُبَّ السَّبُّ .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

تقـدم (٣) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة . ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الحكم : الفهم فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . «والنبوّة» يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام . ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى الحلال

(١) راجع ج ١١ ص ٣٣٤
(٢) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (بالتصغير) أم الفرزدق .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٧٠

Marfat.com

من الأقوات والثمار والأطعمة التى كانت بالشام . وقيل : يعنى المنّ والسلوى فى التيه . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى على عالَمى زمانهم ؛ على ما تقدّم فى « الدخان »(١) بيانه . ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، وينصره أهل يثرب . وقيل : بيّنات الأمر شرائعُ واضحات فى الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى حسدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . قيل : معنى « بَغْيًا » أى بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة ، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد ، قد جاءتهم البيّنات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة فى الرياسة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى يحكم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة فى اللغة : المذهب والمِلّة . ويقال لمشرعة الماء — وهى مورد الشاربة — : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ؛ والجمع الشرائع . والشرائع فى الدين : المذاهب التى شرعها الله لخلقه . فمعنى: «جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ» أى على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « عَلَىٰ شَرِيعَةٍ » أى على هدًى من الأمر . قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . مقاتل : البيّنة ؛ لأنها

(١) راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . آبن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال آبن العربي : والأمر يرد في اللغة بمعنيين : أحدهما — بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »(١) . والثاني — أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا هاهنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة(٢) من الدين وهي ملّة الإسلام ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »(٣) .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانية — قال آبن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة ، و إنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم آتباعه أم لا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي إن آتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين آتّقوا الشرك والمعاصي .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٩٣ . (٢) في جـ ، ز ، ل : « على شريعة من الدين » .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨ .

Marfat.com

قوله تعـالى : هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحـدود والأحكام . وقرئ « هَـٰذِهِ بَصَائِرُ » أى هـذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدّى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى ٱكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدم فى المـائدة[1] . ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي : « الَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا » عُتبة وشَيبة ٱبنـا ربيعة والوليد بن عتبة . و « الَّذِينَ آمَنُوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهـم يوم بدر فقتلوهم . وقيـل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن ؛ كما أخبر الربّ عنهم فى قوله : « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى »[2] . وقوله : « أَمْ حَسِبَ » ٱستفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربيـة يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقوم يقولون : فيـه إضمار ؛ أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيـل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سَـوَاءٌ » بالرفع على أنه خبر ٱبتداء مقـدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى « مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ » يعود على الكفار ؛ أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سَوَاءً » بالنصب ، وٱختاره أبو عبيد قال : معناه

(١) راجع ج ٦ ص ٦٦ (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٧٣

Marfat.com

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «وَمَمَاتَهم» بالنصب ؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم ؛ فلما أسقط الخافض انتصب . ويجوز أن يكون «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بدلا من الهاء والميم في نجعلهم ؛ المعنى : أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم . ويجوز أن يكون الضمير في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» للكفار والمؤمنين جميعا . قال مجاهد : المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا ، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا . وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحا عن مسروق قال : قال رجل من أهل مكة : هذا مقام تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » الآية كلها . وقال بشير : بِتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد . وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شعري ! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة .

قوله تعالى : وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر الحق . ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أي ولكي تجزى . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي في الآخرة . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه . وقال عكرمة : أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه ؛ فإذا استحسن

Marfat.com

شيئا وهَوِيَهُ آتخذه إلهـًا . قال سعيد بن جُبير : كان أحدهم يعبـد الحجر ؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبـد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنمـا عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ، مجازه : أفرأيت من آتخذ هواه إلهه . وقال الشَّعبىّ : إنمـا سُمّى الهوى [هوًى] لأنه يهوى بصاحبه فى النار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوًى فى القرآن إلا ذمّه ، قال الله تعالى : « وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ »(١) . وقال تعالى : « وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا »(٢) . وقال تعالى : « بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَـلَّ ٱللَّهُ »(٣) . وقال تعالى : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللَّهِ »(٤) . وقال تعالى : « وَلَا تَتَّبِـعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ »(٥) . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لمـا جئت به " . وقال أبو أمامة : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى " . وقال شدّاد بن أوس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الكَيِّس من دان نفسه وعمِل لمـا بعد المـوت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمـنّى على الله " . وقال عليه السلام : " إذا رأيت شُحًّا مطاعا وهوًى مُتَّبعًا ودنيا مؤثرة و إعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة " . وقال صلى الله عليه وسـلم : " ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع و إعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب" . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢١　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٠
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٣　　(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٥
(٥) راجع جـ ١٥ ص ١٨٩

Marfat.com

تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كَسَبْت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فاخضع لحبّك كائنًا من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها * والحر يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق

فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسي :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوارَى : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذ كم ؟ قال : مذ عرفت نفسي ! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعياني الدواء وقد عزمت على الكيّ . قلت وما الكَيّ ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

Marfat.com

وللعلماء فى هذا الباب فى ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى »[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « عَلَى عِلْمٍ » يجوز أن يكون حالا من الفاعل؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول؛ فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾[(٢)] أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى . ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمزة والكسائى « غَشْوَة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى فى « البقرة »[(٣)] . وقال الشاعر :

أما والــذى أنا عبــدٌ له * يمينًا ومالك أبدى اليمينــا
لــئن كنت ألبستنى غَشْوة * لقد كنت أصفيتك الوُدّ حينا

﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ أى من بعد أن أضله . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم فى الاعتقاد ؛ إذ هى مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم؛ كما تقدم فى أول « البقرة »[(٣)] . وحكى ابن جريج أنها نزلت

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٥   (٢) فى ح ، ز ، ك : « الهوى » بالواو .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ وص ١٨٦

Marfat.com

فى الحارث بن قيس من الغياطلة (١) . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ،وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ، فتحدّثا فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ،فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك ! ؟ قال : يا أبا عبد شمس ، كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكَمُل رشده ، نسمّيه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدّث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة (٢) ، واللات والعُزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت : « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء. ومعنى : « نَمُوتُ وَنَحْيَا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبى. وقرئ « ونُحْيَا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أى نحيا ونموت؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمرّ » . وقال ابن عيينة: كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا ويميتنا ؛ فنزلت هذه الآية . وقال قُطْرب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤيب :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تتوجّعُ * والدَّهرُ ليس بمعتِب مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشجر الملتف ، واختلاط الظلام » .

(٢) فى ا ، ز ، ح : « كسيرة » .

Marfat.com

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا و يميتنا و يحيينا فيسبّون الدهر قال الله تعـالى : يؤذيني آبن آدم يسب الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار" .

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخارى ولفظه. وخرّجه مسلم أيضا وأبو داود . وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدلّ بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعـله من العلماء آسمـا إنما خرج ردًّا على العـرب فى جاهليتها ؛ فإنهـم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهـم فى هـذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك : لا تسبّوا الدهر فإن الله هو الدهر ؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فَنُهُوا عن ذلك . ودلّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذيني آبن آدم ... " الحديث . ولقد أحسن من قال ، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمـورٌ، له آمِرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافـرٍ أموالُه جَمـةٌ * تزداد أضعافًا على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهـمٌ * يزداد إيمـانًا على فَقْـره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد :

فمـا الدهر بالجانى لشىء لحَيْنِـه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تَشتم الدَّهْرا
ولكن متى ما يبعث الله باعثـا * على معشر يَجعلْ مياسـيرهم عُسْرا

Marfat.com

وقال أبو عبيـد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر"!؟ فقلت : وهل كان أحد يسبّ الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إنّ محـلا وإن مُرتحَـلا * وإنّ فى السَّفْر إذ مَضَوْا مَهَـلا
اسـتأثر الله بالوفاء وبالعـدل * وولّى الملامــةَ الرَّجُـلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذمّوا الدهر عنـد المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه فى أشعارهم ، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قميئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى * فكيف بمن يُرْمَى وليس برام
فـلو أنهـا نَبْـل إذًا لاتقيتهـا * ولكننى أُرْمَى بغـير سهـام
على الراحتـين مرّة وعـلى العصـا * أنُوءُ ثـلاثًا بعدهن قيـامى

ومثله كثير فى الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه . ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى علم . و « من » زائدة ؛ أى قالوا ما(١) قالوا شاكين . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره . وحدث فى الإسـلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين؛ فيتأوّلون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثـواب والعقاب إلى خيالات تقـع للأرواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغتر بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحـذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهـذه حياة الذكر . وقيل : أشاروا إلى التناسخ ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

(١) جملة : « ما قالوا » ساقطة من ا ، ز ، ل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثمّ دفعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبر كان، والاسم «إِلَّا أَنْ قَالُوا آئْتُوا بِآبَائِنَا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نُطَفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدْلَوا به كما يُدْلِى المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيَّةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعُ[(1)] *

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة ألْبَتّةَ . فإن قلت : كيف وقع قوله : «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ» جواب «ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبكِّت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة ، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شيء عليه .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ «يَوْمَ» الأول منصوب بـ «يَخْسَرُ» و «يَوْمَئِذٍ» تكرير للتأكيد

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *
يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو فى المشى .

Marfat.com

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل فى « يَوْمَئِذٍ » « يَخْسَر » ، ومفعول « يَخْسَرُ » محذوف ؛ والمعنى يخسرون منازلهم فى الجنة .

قوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أى من هول ذلك اليوم . والأُمة هنا : أهلُ كل ملة . وفى الجاثية تأويلات خمس : الأوّل ـ قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذى لا يصيب الأرضَ منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثانى ـ مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث ـ متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع ـ خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس ـ باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجُثُو : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثى جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى فى « مريم »(١) . وأصل الجثوة(٢) : الجماعة من كل شيء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَيْن من تــراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صـفيح مُنَضَّـدِ(٣)

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " كأنى أراكم بالكُوم(٤) جاثين دون جهنم " ذكره الماوردى . وقال سلمان : إن فى يوم القيامة لساعةً هى عشر سنين يخرّ الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادى " لا أسألك اليوم إلا نفسى " . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ماعملت من خير وشر ؛

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣٢ (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذى جعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

Marfat.com

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كِتَابِهَا » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بمـا فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمىّ « كُلَّ أُمَّةٍ » بالنصب على البدل من « كُلَّ » الأولى لمـا فى الثانية من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جثوها شىء من حال شرح الجثو كما فى الثانيــة من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « تَرَى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعـالى : هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْـكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)

قوله تعـالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بيّن . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم ؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[(١)] . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »[(٢)] وقد تقدم . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون « كِتَابُنَا » بدلا من « هَذَا » و « يَنْطِقُ » الخـبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعمـلون . قال علىّ رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمـال بنى آدم فيعارضـون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العبـاد موافقا لمـا فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيـه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهـل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣٤ .

Marfat.com

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نسخ منـه الحسنات والسيئات[١] ؛ ولا تحـوّل المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنـده منها ما فيـه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعـالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك . وهـو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهـله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجـرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »[٢] فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذًا .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « وَالسَّاعَةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف

(١) كلمة : « السيئات » ساقطة من ل . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٦

Marfat.com

على موضع «إنَّ وَعْدَ اللهِ» . ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر؛ لأنه غير مؤكد، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد في الشعر . ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ هل هي حق أم باطل . ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تقديره عند المبرّد : إن نحن إلا نظن ظنًّا . [وقيل : التقدير : إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا . وقيل : أي وقلتم إن نظن إلا ظنًّا][1] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل بهم وأحاط . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أي تركتم العمل له . ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي مسكنكم ومستقركم . ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ﴾ يعني القرآن . ﴿هُزُوًا﴾ لعبا . ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم بأباطيلها وزخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها، وأن لا بعث . ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي من النار . ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يسترضون . وقد تقدّم[2] . وقرأ حمزة والكسائي «فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ» بفتح الياء وضم الراء؛ لقوله تعالى :

(١) ما بين المربعين ساقط من ح، ن، والمطبوعة .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ وجـ ١٤ ص ٤٩ وجـ ١٥ ص ٣٥٣

Marfat.com

« كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا » [(١)] الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى: « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا » [(٢)] . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قرأ مجاهد وحميد وابن محيصن « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ » بالرفع فيها كلها على معنى هو ربُّ . ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والله أعلم .

[ختم تفسير سورة الجاثية، والحمد لله [(٣)]]

سورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل : خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدم [(٤)] . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ تقدم أيضا [(٥)] . ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى القيامة ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٠٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) ما بين المربعين زيادة من أ
(٤) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٥٣

Marfat.com

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا ﴾ خُوِّفوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُوَلُّون لاهون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعـالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أى نصيب ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أى فى خلق السموات مع الله . ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى من قبل هذا القرآن .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أَوْ أَثارةٍ » بألف بعد الثـاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليـه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب فى الأرض " ؛ ذكره المهدوى والثعلبي . وقال ابن العربي : ولم يصح . وفى مشهور الحديث عن النبي صلى الله عليـه وسـلم قال : " كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطـه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ؛ خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرابيجى)(١) قال حدثنا محمد بن بنـدار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » قال : " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربي : واختلفوا فى تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه النسبة .

Marfat.com

ومنهم من قال جاء للنهى عنــه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبيّ المتقدّم فيه؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال : (١)

لعمرك ماتدرى الضوارب بالحصا * ولازاجراتُ الطـير ما الله صانـع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليـه تلك الكواكب من سـعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظنًّا مبنيًا على ظن ، وتعلقًا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك ممـا اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمتـه فى ذلك ، ولايحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لولم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقـد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ماآختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : [قوله عليه السلام](٢) : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هـذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعـلم الموافقة والشرع منع من التخرص وآدعاء الغيب جملة — فإنمـا معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجـدون إصابتـه ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ماتأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسير قوله : " كان نبى من الأنبياء يخط" [أنه كان يخط](٣) بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنـا رجال يخطون " : هو الخط الذى يخطه الحازى(٤) فيعطى حُلوانا فيقول : آقعد حتى أخط لك ،وبين يدى الحازى غلام معه مِيـل ثم يأتى إلى أرض رِخوة فيخط الأسـتاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيد . والرواية فيـه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطرق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات . (٢) ما بين المربعين ساقط من ك ، هـ . (٣) جملة : « أنه كان يخط » ساقطة من ل، ز .
(٤) الحازى : الكاهن .

Marfat.com

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإذا سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورا . وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك" . وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في « المائدة »(١) وغيرها . ومضى في « الأنعام »(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جرى العادة ، وقد يختلف . مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر ؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يومٌ إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدّم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط . وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : "يحدث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية" . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خط الحاكم وكتابه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢

Marfat.com

مافيه وإن لم يعلموا مافى الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » أوبقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفى الصحاح « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » بقية منه . وكذلك الأَثَرة (بالتحريك) . ويقال : سمنت الإبل على أثارة؛ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردى والثعلبي قول الراعى :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا فى أكِمّته فقارا

وقال الهَروى : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ماثَمّ عين ولاأثر . وقال ميمون ابن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : روايةٌ تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظى : هو الإسناد . الحسن : المعنى شىء يثار أو يستخرج . وقال الزجاج : «أَوْ أَثَارَةٍ» أى علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأَثَر، وهى الرواية؛ يقال : أثرت الحديث آثُره أَثْراً وأَثارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه قيل : حديث مأثور ؛ أى نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تمارَيْتُما * بُيِّن للسامع والآثر

ويروى « بَيّن » وقرىء « أو أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين . والمأثور : ما يُتحدّث به مما صح سنده عمن تحدّث به عنه (١) . وقرأ السُّلَمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أى خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبي والثانية الماوردى . وحكى الثعلبي عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

(١) كلمة : « عنه » ساقطة من ز ، ل .

Marfat.com

اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا » فيه بيان أدلة السمع « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهى الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ؛ فأخرجها وهى جماد مخرج ذكور بنى آدم ؛ إذ قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التى تُخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . فالملائكة أعداء الكفار، والجن والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها ؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم ؛ وهو قوله : ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أي تقوّله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة في « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا وآسمع قولهم المستنكر المقضيّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لا تقدرون على أن تردّوا عني عذاب الله ؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة في الشيء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا في الحديث أي آندفعوا فيه . وأفاض البعير أي دفع جِرّته من كِرشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأفضن بعد كُظومِهنّ بجِرّة * (١)

(١) هذا عجز بيت للراعي ، وصدره كما في معجم البلدان لياقوت في « حقيل » :

* من ذي الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الإبل الذي أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما في بطونها أفضن بجرة .

Marfat.com

وأفاض الناس من عرفات إلى منى أى دفعوا، وكل دفعة إفاضة. ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيدًا ﴾ نصب على التميز. ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون. ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أول من أرسل، قد كان قبلى رسل؛ عن ابن عباس وغيره. والبِدْعُ : الأوّل. وقرأ عكرمة وغيره «بِدَعًا» بفتح الدال، على تقدير حذف المضاف؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع. وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى، مثل نصف ونصيف. وأبدع الشاعر : جاء بالبديع. وشيء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع. وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع. وقوم أبداع؛ عن الأخفش. وأنشد قُطْرُب قولَ عدىّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى * رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد (١)

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة. ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يُفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل به؛ فنزلت : «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» (٢) فنسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف الكفار. وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بيّن الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت : «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (٢) الآية. ونزلت : «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا» (٣). قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك. وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

(١) هذه رواية البيت كما فى نسخ الأصل. والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى * رجالا فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) راجع ص ٢٦١ وص ٢٦٤ من هذا الجزء. (٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٠١

Marfat.com

آبن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح ، فأنزلناه أبياتنا فَتُوُفِّيَ ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ! إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله أكرمه " ؟ فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ! فمن ؟ ! قال : " أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إنى لأرجو له الجنة ووالله إنى لرسول الله وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " . قالت : فوالله لا أزكّى بعده أحدًا أبداً . ذكره الثعلبي ، وقال : وإنما قال هـذا حين لم يعلم بغفران ذنبه ، وإنما غفر الله له ذنبه فى غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمّ العلاء خرّجه البخارى ، وروايتى فيه : " وما أدرى ما يُفعل به " ليس فيه " بى ولا بكم " وهو الصحيح إن شاء الله ، على ما يأتى بيانه . والآية ليست بمنسوخة ؛ لأنها خبر . قال النحاس : محـال أن يكون فى هـذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أول السورة إلى هـذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم ؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " فى الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلّد فى النار ، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو فى الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم مايفعل به وبهم فى الآخرة . وليس يجوز أن يقول لهم ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الآخرة ؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدرى أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح فى الآية قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا أبو بكر الهذلى عن الحسن : «وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ فِى الدُّنْيَا» قال أبو جعفر : وهـذا أصح قولٍ وأحسنه ، لا يدرى صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله : «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّـوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»[1] . وذكر الواحدى وغيره عن الكلبي عن أبى صالح عن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٦

Marfat.com

ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه به فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » أى لا أدرى أأخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال : "إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يوحى إلى" أى لم يوح إلى ما أخبرتكم به . قال القُشيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض على وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم [فى الدنيا، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل، ولكن قال][1] ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى، أو أقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى؛ ولا أدرى ما يفعل بكم؛ أأمتى المصدقة أم المكذبة، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قذفا، أو مخسوف بها خسفا؛ ثم نزلت : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[2] . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[3] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته؛ ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنه . وقيل : أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة؛ ثم بين الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبين فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأول؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

(١) ما بين المربعين ساقط من ن . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١١ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨

Marfat.com

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة. ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وقرئ « يُوحِي » أى الله عز وجل . تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سَلَام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور فى التوراة ، وأنه نبيّ من عند الله . وفى الترمذى عنه : ونزلت فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (1) . وقد تقدّم فى آخر سورة « الرعد » . وقال مسروق : هو موسى والتوراة ، لا ابن سَلَام ؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله : « وَكَفَرْتُمْ بِهِ » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة ، لأن ابن سَلَام إنما أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بعامين ، [والسورة مكية . قال القُشَيْرِيّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سَلَام قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بعامين] (2) . ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع فى سورة مكية ؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ضعوها فى سورة كذا . والآية فى محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود فى أشياء ؛ أى شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لى من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة فى محاجة اليهود ، ولما جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله ، اجعلنى حَكَمًا بينك وبين اليهود ، فسألهم عنه : " أيّ رجل هو فيكم " قالوا : سيّدُنا وعالمنا . فقال : " إنه قد آمن بى " فأساءوا القول فيه ... الحديث ،

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥ (2) ما بين المربعين ساقط من ك .

Marfat.com

وقد تقدم . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك ؛ فسئل فشهد ثم أسلم . ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجرجاني . « مِثْل » صلة ، أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى هذا الشاهد . ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان . وجواب « إِنْ كَانَ » محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون ؛ قاله الزجاج . وقيل : « فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ » أليس قد ظلمتم ؛ يبينه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقيل : « فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ » أفتأمنون عذاب الله . و « أَرَأَيْتُمْ » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام ؛ ولذلك لا يقتضى مفعولا . وحكى النقاش وغيره : أن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى سبب نزولها على[1] ستة أقوال :

الأول — أن أبا ذر الغفارى دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفار الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

الثانى — أن زنيرة[2] أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللات والعزى ؛ فرد الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .

(٢) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات إلى الإسلام ، وممن يعذب فى الله وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنقذهم من التعذيب .

Marfat.com

الثـالث — أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأسَد وحَنْظَلة وأشْجَع، قالوا لمن أسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم إذ نحن أعزّ منهم؛ قاله الكلبي والزّجاج، وحكاه القُشَيْرى عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت فى مشركى قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بلال وصُهيب وعمّار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس — أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقا ما سبقونا إليه؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبي . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار فى قولهم : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم؛ حتى يقال لهم: لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه؛ ذكره المـاوردى (١) . ثم قيل : قوله : « مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، و يجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم » (٢) . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعنى الإيمـان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى لمـا لم يصيبوا الهـدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا هـذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيـل لبعضهم : هل فى القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم، قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ومثله : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » (٢) .

قوله تعـالى : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَـةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّـا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

---

(١) فى ك : « ولو كان تكذيب الرسول .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ وص ٣٤٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ أى التوراة ﴿ إِمَامًا ﴾ يقتدى بما فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من الله . وفى الكلام حذف؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك . و « إِمَامًا » نصب على الحال؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إماما . «وَرَحْمَةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفة[1] . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ يعنى للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أى مصدّق لما قبله عربيا، و « لِسَانًا » توطئة للحال أى تأكيد؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا؛ فتذكر رجلا توكيدا . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق، وهو النبي صلى الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة « لِيُنْذِرَ » بالياء خبر عن الكتاب؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وابن عامر والبزّى بالتاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ »[2] . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ « بُشْرَى » فى موضع رفع؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفا على الكتاب؛ أى وهذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى؛ فلما حذف الخافض نصب . وقيل : على المصدر؛ أى وتبشر المحسنين بشرى؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب؛ كما تقول : أتيتك لأزورك، وكرامة لك وقضاء لحقك؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

(١) راجع ما ذكره الصبان (باب النكرة والمعرفة) .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية تقدم معناها[1] . وقال ابن عباس : نزلت في أبي بكر الصديق . والآية تعم . ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ؛ أي فلا يبعد مثل هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض ؛ قاله القشيري .

الثانيــة — قوله تعالى : « حُسْنًا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى في سورة (الأنعام وبني إسرائيل) : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2] وكذا هو في مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى في سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »[3]

---

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧ (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٠ و ج ١٠ ص ٢٣٦

(٣) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨

Marfat.com

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر . وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت (١) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . وآختاره أبو عبيد ، قال : وكذلك لفظ الكره في كل القرآن بالفتح إلا التي في سورة البقرة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ (٢) » لأن ذلك آسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضُّعف والضَّعف والشُّهد والشَّهد ؛ قاله الكسائي ، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائيّ أيضا والفرّاء في الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه ، و بالفتح ما حمل على غيره ؛ أي قهرا وغضبا ؛ ولهذا قال بعض أهل العربية إن كرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا ، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . وروى أن عثمان قد أتي بآمرأة قد ولدت لستة أشهر ؛ فأراد أن يقضي عليها بالحدّ ؛ فقال له عليّ رضي الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر ، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى في « البقرة (٢) » . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر في آبتداء الحمل ؛ لأن الولد فيها نطفة وعلقة ومضغة فلا يكون له ثقل يحس به ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ (٣) » . والفصال الفطام . وقد تقدّم في « لقمان (٤) » الكلام فيه . وقرأ الحسن و يعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . وروى أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفي الكلام إضمار ؛

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨		(٢) راجع ج ٣ ص ٣٧ وص ١٦٠
(٣) راجع ج ٧ ص ٣٣٧		(٤) راجع ج ١٤ ص ٦٤

Marfat.com

أى ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هـذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال ٱبن عباس : ثمانى عشرة سنة. وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ٱبن ثمانى عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ٱبن عشرين ســنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيـه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وســلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشـجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبـد الله ٱبن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبيّ ، وما ٱستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضيره. فلما نُبِّئَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو ٱبن أربعين ســنة ، صدّق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وســلم وهو ٱبن ثمانية وثلاثين ســنة . فلما بلغ أربعين ســنة قال: « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » الآية . وقال الشـعبيّ وابن زيد : الأشدّ الحلم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » (١) الكلام فى الآية . وقال السّدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص. وقد تقدّم (٢) . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى ألهمنى . ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ فى موضع نصب على المصدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿عَلَيَّ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهداية ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربّيانى صغيرا . وقيل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ؛ أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين [أن أسلم (٣)] أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده . ووالده هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . وأمّه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ وجـ ١٤ ص ٦٣
(٣) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

أم الخير ، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبى قحافة « قَيْلَة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبى بكر الصدّيق اسمها « قُتَيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العزى . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون فى الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدَع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة " .

السابعة — قوله تعالى :﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أى اجعل ذرّيتى صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لى خَلَف صِدق ، ولك عبيدَ حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارًا لى مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن على : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغول : اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طلحة بن مُصَرِّف ؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذى كنت عليه . ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ » بفتح الياء ، والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائي « نَتَقَبَّلُ ، وَنَتَجَاوَزُ » بالنون فيهما ؛ أي نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ » أي نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتهم وغُفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات ، وليس في الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ « في » بمعنى مع ، أي مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد ، أي مع جميعهم . ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذي وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حَقُّ الْيَقِينِ »(1) . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وَعْدَ الكلامِ الصدقِ أو الكتابِ الصدقِ ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا في غير موضع(2) . ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

(1) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٢ (2) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أُفٍّ » مكسور منوّن . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم « أُفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منوّن؛ وكلها لغات، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »(١) . وقراءة العامة « أَتَعِدَانِنِي » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حيوة والمغيرة وهشام « أَتَعِدَانِّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعـامة على ضم الألف وفتح الراء من « أَنْ أُخْرَجَ » . وقـرأ الحسن ونصر وأبو العـالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عبـاس والسُّدِّى وأبو العاليـة ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بمـا أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبـد الرحمن بن أبى بكر قبـل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام و يعدانه بالبعث؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه؛ وكان هذا منه قبل إسـلامه . وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ » أى العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمـان، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّة(٢)، أتبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : هو الذى يقول الله فيه : « وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا » الآية . فقال : والله ماهو به ، ولو شئت لسمّيت ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه، فأنت فَضَضٌ(٣) من لعنة الله . قال المهدوى : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٢

(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

(٣) كل ما انقطع من شيء أو تفرق فهو فضض؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

Marfat.com

حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » يراد به من اعتقد ماتقدم ذكره ؛ فأول الآية خاص وآخرها عام . وقيل إن عبد الرحمن لما قال : « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » قال مع ذلك : فأين عبد الله ابن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون . فقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة « الأنعام » عند قوله : « لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » (١) ما يدلّ على نزول هذه الآية فيه ؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعني والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغواثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أي صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي صدق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أي ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي أحاديثهم وماسطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله أَحْيُوا لي مشايخ قريش، وهم المعنيّون بقوله : « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » . فأما ابن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله : « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » على ما تقدم . ومعنى : « حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أي وجب عليهم العذاب ، وهي كلمة الله : "هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أي مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أي ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سِفالا ، ودرج أهل الجنة عُلوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو اختيار أبى عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير « أَأَذْهَبْتُمْ » بهمزتين مخففتين ، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حيوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر ، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ ، والعرب توبّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى ، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم ؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن ؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؛ يُوَبِّخ ويقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

Marfat.com

« أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ؛ يعنى المعاصى. ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون الهوان. قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بغيًا وظلمًا . وقيل : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة ؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه؛ أى شبابه وقوته . قال الماوردىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأول أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء وصنابا وصَلائق، ولكنى أستبق حسناتى؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذ . قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء ؛ سُمِّى بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصِّلاء أيضا : صلاء النار؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النارِ . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبِرذَوْن : صِنابِىّ ؛ و إنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو ما يسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد ؛ قال جرير :

تُكَلِّفُنِي معيشـةَ آلِ زيدٍ * وَمَن لى بالصَّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »[1] . وأما الكراكر فكراكر الإبل ، واحدتها كِركِرة وهى معروفة ؛ هذا قول أبى عبيد . وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكِركِرة أيضا الجماعة من

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

Marfat.com

الناس. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد : وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلذ ، وهى القطعة من الكَبِد . قال أعشى باهلة :

تكفيــه حُــزَّةُ فِلْذٍ إن ألمّ بهــا * من الشّــواء ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَر (١)

وقال قتادة : ذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى للآخرة . ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا ! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد ابن الوليد : لهم الجنة ؛ فاغرورقت عينا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْرُبَته (٢) حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أُهُبًا (٣) جلودا معطونة قد سطع ريحها ؛ فقلت : يارسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كِسْرى وقَيْصر فى الديباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالسا وقال : " أفى شَكٍّ أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا " فقلت : استغفر لى ! فقال : " اللهم اغفر له " . وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضى عنه الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن ، والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغَرِيض (٤) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه ؛ فجئ بخبز متفلع (٥) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا ؛ فجعلنا لا نأكل ؛ فقال : مالكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا ؛ فقال : يابن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أن لو أمرتُ بعَناق (٦) سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مَصْلِيّة (٧) كأنها كذا وكذا ،

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير .

(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذى يشرب منه الناس . (و بضم الراء وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم الهمزة والهاء ، و بفتحهما على غير قياس : جمع إهاب ؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطرى .

(٥) فى ا وح : « منقلع » بالقاف . وفى ز : « منقطع » . وفى ك : «متقطع» . والمتفلع : المشقق .

(٦) العناق : الأنثى من ولد المعز ؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

Marfat.com

أمَا ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجلْ[1] ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتكم فى العيش ! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : آشتهى أهلى لحما فآشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أو كلما آشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها آستسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة وآستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من آبتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبًا كان أو قفارا[2] ، ولا يتكلف الطيِّب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا آتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ؛ ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنًا . ومعيشة النبىّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند آستيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيّبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

(١) فى « ز ، ك ب ر ل » : « أجاد » .
(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

Marfat.com

تناول الطيب الحلال مأذون فيـه ، فإذا ترك الشكر عليـه وآستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليـه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدِّين . ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ أى آذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليـه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد . وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليـل وغيره . وكانوا قهروا أهـل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقف ، وهو ما آستطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبلـغ أن يكون جبلا ، والجمـع حِقاف وأحقاف [وحقوف] . وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج . وقيل : الحِقف جمع حِقاف . والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حِقْفٌ أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطـاة حِقف أحقفا [(١)] *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طـىَّ الليـالى زُلَفًا فزلفـا * سَماوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى آنحنى وآستدار . وقال آمرؤ القيس :

كَحِقف النقا [(٢)] يمشى الولِيـدَانِ فوقه * بمـا احتسبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيـه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبـال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهده ماذكرناه . وقال قتادة : هى جبـال

(١) هـذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسيره إلى العجاج ؛ ولم نعثر عليـه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة : جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل . (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

Marfat.com

مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريب من عدن؛ يقال : شِحْرُ عُمَان وشِحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن . وعنه أيضا : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر . وقال مجاهد : هى أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف . وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها . قال النابغة :

فأصبح عاقلًا بجبال حِسْمَى * دُقاقَ التُّرْب مُحْتَزِمَ القَتامِ (1)

قاله الجوهرى . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضا : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بوادٍ يقال له مهرة ، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيّة (2) ؛ فيقال : إبل مَهْرِيّة ومَهارِى . وكانوا أهل عُمُد سيارة فى الربيع فإذا هاج (3) العود رجعوا إلى منازلهم ؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرق ، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره . وروى الطُّفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خيرُ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند . وشر وادِيَيْن فى الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرموْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر فى الناس بئر زمزم . وشر بئر فى الناس بئر بَرَهُوت ، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أى مضت الرسل . ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى من قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى ومن بعده ؛ قاله الفراء . وفى قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذا من قول المرسل ، فهو كلام معترض . ثم قال هود : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل : « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُ[نَا] إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُ[كُم]

(1) قال ابن برى : « أى حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له » .
(2) فى معجم البلدان لياقوت وك[...] اللغة أن الإبل المهرية تنسب إلى مهرة بن حيدان أبو قبيلة .
(3) هاج البقل : إذا أخذ فى اليبس [...]

Marfat.com

مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك . الثاني — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع ؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنَة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ * فُوكًا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفَّق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك نبيّ ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجئ العذاب . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لا عندى ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم . ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى سؤالكم آستعجال العذاب . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ قال المبرد : الضمير فى « رَأَوْهُ » يعود إلى غير مذكور ؛ وبيّنه قولُه : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أى فلما رأوا السحاب عارضا . و « عارضا » نصب على التكرير ؛ سُمّى بذلك لأنه يبدو فى عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » آستبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ماجاء منه يكون غيثًا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهرى : والعارض السحاب يعترض فى الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أى ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا فى الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

ياربَّ غابِطنا لو كان يطلبكم * لاقى مباعدةً منكم وحِرْمانا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابى بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه ، وقائمة لن تقومه ؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

Marfat.com

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانفصال ، فهي إضافة لفظية لا حقيقية ؛ لأنها لم تفد الأول تعريفا ، بل الاسم نكرة على حاله ؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هذا قول النحويين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبَّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُــوَ ﴾ أي قال هود لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هو » وقرئ « قُلْ بَلْ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ هِيَ رِيحٌ » أي قال الله : قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعني قولهم : « فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا » ثم بين ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج هــود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظعينة[1] فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أول ما رأوا العارض قاموا فمــدوا أيديهم ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهــم الريح ما بين السماء والأرض مثــل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما[2] ، ولهم أنين ؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر ؛ فهي التي قال الله تعـالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها . قال ابن عباس: أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ » من دَمَر دمارًا . يقال : دَمره تدميرا ودمارا ودَمّر عليــه بمعنًى . ودَمَر يَدْمُر دُمورا دخل بغير إذن . وفي الحديث : " من سبق طَرْفُهُ استئذانه فقد دَمَر " مخفف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبُوع تَدْمُرِيّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاته[3] إنما كان يتبسم . قالت : وكان إذا رأى غيما أو ريحا

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .

(٣) جمع لهاة ، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

Marfat.com

عُرف فى وجهه . قالت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية؟ فقال : "يا عائشة ما يُؤمِّنُنِي أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُمطِرُنا" خرجه مسلم والترمذى ، وقال فيه : حديث حسن . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نُصرت بالصَّبا وأهلكت عادٌ بالدبور" . وذكر الماوردى أن القائل «هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا» من قوم عاد : بكر بن معاوية ؛ ولما رأى السحاب قال : إنى لأرى سحابا مرمدا ، لا تدع من عاد أحدا . فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه فى ناديهم . قال ابن إسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلين أعلى ثيابهم . وتلتذ الأنفس به ؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا . وحكى الكلبى أن شاعرهم قال فى ذلك :

فدعا هود عليهم * دعوةً أضحَوْا همودا

عصفت ريح عليهم * تركت عادًا خمودا

سُخِّرت سبع ليال * لم تدع فى الأرض عودا

وعُمِّر هود فى قومه بعدهم مائة وخمسين سنة . ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة « لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ » بالياء غير مسمى الفاعل . وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ « ترى » بالتاء . وقد روى ذلك عن أبى بكر عن عاصم . الباقون « ترى » بتاء مفتوحة . « مَسَاكِنَهُم » بالنصب ؛ أى لا ترى يا محمد إلا مساكنهم . قال المهدوى : ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذى هو المساكن المؤنثة ؛ وهو قليل لا يستعمل إلا فى الشعر . وقال أبو حاتم : لا يستقيم هـذا فى اللغة إلا أن يكون فيها إضمار ؛ كما تقول فى الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب . ولا يجوز لا ترى إلا زينب .

---

(١) الصبا (بالفتح) : ريح الشمال . والدبور : ريح الجنوب .

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبرى : « خذها رمادا رمددا ، لا تذر من عاد أحدا » والرمدد (بالكسر) : المتناهى فى الاحتراق والدقة .

Marfat.com

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائي : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفراء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة؛ تقديره ولقد مكناكم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القتبي .

وأنشد الأخفش :

يُرَجِّي المرءُ ما إن لا يراه * وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودولةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذي . و «إن» بمعنى ما؛ والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم في ما إنْ مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ؛ وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ يعني قلوبا يفقهون بها . ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ من عذاب الله . ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون . ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أحاط بهم . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادي . والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يريد حِجر ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يعنى الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعِظات ؛ أى بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن فى الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ﴾ « لَوْلَا » بمعنى هلّا ؛ أى هلّا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »[1] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكِسائى : القُرْبان كل ما يُتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولى اتخذ الراجع[2] إلى الذين المحذوف ، والثانى « آلهةً » . و « قُرْبَاناً » حال ، ولا يصح أن يكون « قُرْبَاناً » مفعولا ثانيا . و « آلهةً » بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشرى . وقرئ « قُرُبَاناً » بضم الراء . ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أى هلكوا عنهم . وقيل : « بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » أى ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هى جماد . وقيل : « ضَلُّوا عَنْهُمْ » ؛ أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أى والآلهة التى ضلّت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى . وقراءة العامة « إِفْكُهُمْ » بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفّاك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير « وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ » بفتح الهمزة

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٢ (٢) الضمير الراجع .

Marfat.com

والفاء والكاف ، على الفعل ؛ أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفَكَه يأفِكه أَفْكًا ؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . وقرأ عكرمة « أَفَّكهم » بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم . وذكر المهدوِيّ عن ابن عباس أيضا « آفِكهم » بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم . وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه « آفكهم » بالمد؛ فجاز أن يكون أفعلهم ؛ أى أصارهم إلى الإفك . وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم . ودليل قراءة العـامة « إِفْكُهُمْ » قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يكذبون . وقيل «أَفْكُهم» مثل «أَفَكَهُم» . الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر؛ قاله المهدوِيّ .

قوله تعـالى : وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ هذا توبيخ لمشركى قريش؛ أى إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عنـد الله وأنتم معرضون مصرون على الكفر . ومعنى : « صَرَفْنَـا » وجهنا إليك وبعثنا . وذلك أنهـم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب — على ما يأتى — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرفوا عنه إلا عند مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم : لـمـا مات أبو طالب خرج النبيّ صلى الله عليـه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة فقصد عبْدَ يالِيل ومسعودا وحبيبا وهم إخـوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بنى جُمَح ؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسـلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحدا يرسـله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبدا ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فـما ينبغى لى أن أكلمـك . ثم أغرَوْا به سفهاءهم

(١) يمرط : ينزع .

Marfat.com

وعبيدهم يسبّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة . فقال للجُمَحِيّة : "ماذا لقينا من أحمائك" ؟ ثم قال : "اللهم إني أشكو إليك ضَعف قوتي وقِلّة حِيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ؛ لِمن تَكِلُني ! إلى عبد[1] يَتَجَهَّمُني[2] ، أو إلى عدوّ ملكته أمري ! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك" . فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانيّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعْه في هذا الطبق ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "باسم الله" ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "مِن أيّ البلاد أنت ياعدّاس وما دينك" ؟ قال : أنا نصراني من أهل نِينَوَى . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى" ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : "ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبيّ" فانكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبي صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سَيِّدي ما في الأرض خير من هذا ، أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ . ثم انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثَقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلّي فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرِست السماء ورُمُوا بالشُّهب قال إبليس : إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبِين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفة : بل أمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(١) في سيرة ابن هشام : « بعيد » . (٢) أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .

Marfat.com

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نينوى وجمعهم له ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعني " ؟ فأطرقوا ، ثم قال الثانيـة فأطرقوا، ثم قال الثالثـة فأطرقوا ؛ فقال ابن مسعود : أنا يا رسول الله ؛ قال ابن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيري ؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبا يقال له « شِعْب الحَجُون » وخطّ لي خطًّا وأمرني أن أجلس فيه وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك". ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشي في رفرفها ، وسمعت لَغطا وغَمْغَمةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغَشِيَته أَسْودة(١) كثيرة حالت بيني وبينـه حتى ما أسمع صوته ، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ النبيّ صلى الله عليـه وسلم مع الفجر فقال : " أنمت " ؟ قلت : لا والله ، ولقـد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا ؛ فقال : "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال : " هل رأيت شيئا " ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، رأيت رجالا سودا مُسْتَثْفِرِي(٢) ثيابا بيضا ؛ فقال : " أولئك جنّ نَصِيبين سألوني المتـاع والزاد فمتّعتهم بكل عظم حائل(٣) وروثة وبعرة " . فقالوا : يا رسول الله يُقَذِّرها الناس علينا . فنهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يُستنجى بالعظم والرَّوْث . قلت : يانبيّ الله ، وما يُغْني ذلك عنهم ! قال : " إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليـه لحمه يوم أُكِل ، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل " فقلت : يارسول الله ، لقد سمعت لغطا شديدا ؟ فقال : " إن الجنّ تدارأت(٤) في قتيل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق". ثم تبرّز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتاني فقال : "هل معك ماء"؟ فقلت يانبيّ الله ، معي إداوة(٥) فيها شيء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال : " تمرة طيّبـة وماء طهور " . روى معناه معمر عن قتادة وشُـعبة أيضا عن ابن مسعود . وليس

---

(١) أسودة (جمع السواد) والسواد والأسودات والأساود : جماعة الناس . وقيـل هم الضروب المتفرقون .

(٢) الاستثفار : أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه .

(٣) العظم الحائل : المتغير ؛ قد غيره البلى . (٤) تدارأ : اختلف . (٥) الإداوة : إناء صغير من جلد .

Marfat.com

فى حديث معمر ذكر نبيذ التمر . روى عن أبى عثمان النَّهْدِى أن ابن مسعود أبصر زُطًّا(١) فقال : ماهؤلاء؟ قال : هؤلاء الزط . قال : مارأيت شبهم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزّين يتبع بعضهم بعضا . وذكر الدَّارَقُطْنِى عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثنى قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضّأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال : "شراب وطهور" . ابنُ لَهِيعة لا يحتج به . وبهذا السند عن ابن مسعود : أنه خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمعك ماء يابن مسعود" ؟ فقال : معى نبيذ فى إداوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبّ علىّ منه". فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" تفرّد به ابن لَهِيعة وهو ضعيف الحديث . قال الدَّارَقُطْنِى : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ . كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال : ماشهدت ليلة الجنّ . حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن الفضل حدثنا داود بن أبى هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجنّ؟ قال لا . قال الدَّارَقُطْنِى : هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة راويه . وعن عمرو بن مرّة قال قلت لأبى عبيدة : حضر عبد الله بن مسعود ليلة الجنّ ؟ فقال لا . قال ابن عباس : كان الجنّ سبعة نفر من جنّ نَصيبين فجعلهم النبىّ صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم . وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسعة أحدهم زَوْبعة . وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوَى . وقال مجاهد : من أهل حران . وقال عكرمة : من جزيرة الموصل . وقيل : إنهم كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نَصيبين . وروى ابن أبى الدنيا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى هذا الحديث وذكر فيه نَصيبين فقال : "رفعت إلىّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزِر نهرها" . وقال السهيلى : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهودا فأسلموا ، ولذلك قالوا : «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى» . وقيل فى أسمائهم : شاصر(٢) وماصر ومنشى

(١) الزط : جيل أسود من السند . وقيل : أعراب « جت » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .
(٢) فى كتب اللغة : « شصار » ككتاب .

Marfat.com

وماشي والأحقب ، ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها ، فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا : ماندرى من عمرو بن جابر ! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر(١) فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ؛ وهو الحيّة التي رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولّوا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذي كفّنه هو صفوان بن المُعطَّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال : وقال ثابت بن قُطْبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا في سفر فرأينا حية متشحّطة في دمائها ، فأخذها رجل منا فواريناها ؛ فجاء أناس فقالوا : أيكم دفن عمْرًا ؟ قلنا ! وما عمرو ! قالوا الحية التي دفنتم في مكان كذا ؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حيّين من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل . ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حضر الدفن ؛ والله أعلم . وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه في خبائه تلهث عطشًا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها ، فأُتِي من الليل فسلم عليه وشكر ؛ وأخبر أن تلك الحيـة كانت رجلا من جنّ نَصيبين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْليّ : وبلغنا في فضائل عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه ممـا حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة ، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق ، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح" . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق ؛ وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

(١) كلمة : « الأجر » ساقطة من ل .

Marfat.com

عائشة رضى الله عنها حية رأتها فى حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت فى المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنًا ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة [1] ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، واشترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلى : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنّ ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس باسم علم ؛ فإن الأسماء التى ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه : هامة بن الهيم [2] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمنى الجنّ وممن لقى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلمه سورة « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » و « الْمُرْسَلَاتِ » و « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » و « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » و « الْحَمْدُ » و « الْمُعَوِّذَتَيْنِ » . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك فى دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقى نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردىّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدثنا محمد ابن البراء قال حدثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يُسَمّى جِنّ نَصِيبِين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال [3] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أى حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض اسكتوا لاستماع القرآن . قال ابن مسعود : هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) فى ز ، ل : « منتقبة » . (٢) فى ا : « الأهيم » .

(٣) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التى بين أيدينا مضطربة فيها .

Marfat.com

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قَالُوا أَنصِتُوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أَنصِتُوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى متقارب . ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد ؛ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك ؟ فجاءوا وادي نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرًا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدلّ على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلًا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلة الجنّ ليلتان ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وفي صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتي بيانه في « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ »[1] . وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال : سمعت أبي قال سألت مسروقًا : من آذن[2] النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال : حدّثني أبوك — يعني ابن مسعود — أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(١) راجع جـ ١٩ ص ١ . (٢) آذن : أعلم .

Marfat.com

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى القرآن ؛ وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ؛ ولذلك قالوا : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وعن ابن عباس : أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على أنه كان مبعوثا إلى الجن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة " . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس . وفى رواية من حديث أبى هريرة " وبعثت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون " . ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ؛ فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ؛ فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مسألة — هذه الآى تدل على أن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

Marfat.com

فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى . وقد قال الضحاك : الجن يدخلون الجنة و يأكلون ويشربون . قال القشيرى : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء ، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »(١) يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة ؛ لأنه قال فى أول الآية : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي(١) — إلى أن قال — وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم ؛ وسيأتى لهذا فى سورة « الرحمن »(٢) مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم . و « أن » واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجز ويضعف عن إبداعهن . يقال : عَىَّ بأمره وعَيِىَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع عَيُوا ، مخففا ، وعَيُّوا أيضا بالتشديد . قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٧ و ص ٨٥ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦٧

Marfat.com

عَيُّوا بِأمرهم كما * عَيَّتْ ببيضتها الحمامهْ (١)

وعييت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « وَلَمْ يَعِى » بكسر العين وإسكان الياء ، وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ * تمشى بِسُدّة (٢) بيتها فتُعيِى

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٣) » ، وقوله : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ (٤) » . وقال الكسائى والفرّاء والزجاج : الباء فيه خلف الاستفهام والجحد فى أول الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقدير : أليس الله بقادر ، كقوله تعالى : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ (٥) » . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدرى وابن أبى إسحاق و يعقوب « يَقْدِر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول الباء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص . (٢) السدة : الفناء . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٨٧

(٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٤ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٦٠

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، و إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، و إبراهيم . فأمر الله [عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة][1] : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة . و إبراهيم صبر على النار . و إسحاق صبر على الذبح . و يعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . و يوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن جُريج : إن منهم إسماعيل و يعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام »[2] وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، و إسحاق ، و يعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، و يوسف ، وموسى ، وهرون وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، و إلياس ، و إسماعيل ، واليسع ، و يونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[2] . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره علىّ بن مهدى الطبرىّ ، قال : و إنما دخلت « من » للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزّ وأكسية من الخزّ . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متى ؛ ألا ترى أن

(١) ما بين المربعين ساقط من ب ، ل ، ن (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضِبًا لقومه،
فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده
فأكله ، وسلط عليه الحوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو
العزم اثنا عشر نبيًّا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسل
عذابى إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ،
إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العذاب ببنى
إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بنى إسرائيل ؛
فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من
نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ،
ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ،
وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] ثم ابتلى فى ماله
وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيًا فى جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال
له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »[2] . وأما داود فأخطأ خطيئته
فنُبّه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة ، فقعد تحت ظلها . وأما
عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : " إنها مَعبرة فاعبروها ولا تعمروها " . فكأن
الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق
إبراهيم ، واثقًا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ،
زاهدا فى الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل هى : منسوخة بآية السيف . وقيل : محكمة ؛
والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم
من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتًا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٠٦

Marfat.com

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب[1] بهم، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محـذوف ، وهو العذاب . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العـذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ما عاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . فـ « بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ[2] » ، وقوله : « إِنَّ هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ[3] عَابِدِينَ » . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نَهَارٍ » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لَهُمْ » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ و بين اللام ، — وهى رافعـة — بشىء ليس منهما . ويجوز فى العربيـة : بلاغا و بلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا سـاعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهـارٍ بلاغٍ . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القرّاء « بَلِّغ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « مِنْ نَهَارٍ » ثم يبتدئ « بلغ » . ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن محيصن « فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ » على إسـناد الفعل إلى القـوم . وقال ابن عباس : إذا عسر على المـرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسق منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا[4] » . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك [الله[5]] إلا هالكًا مشركًا[6] . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

---

(١) فى ب ، ك ، ل : « العقاب » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٨٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٨ (٥) لفظ الجلالة ساقط من ب ، ك ، ل . (٦) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

Marfat.com

سورة القتال، وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية فى قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردى : فى قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »(١) . وقال الثعلبى : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جبير . وهى تسع وثلاثون [آية](٢) . وقيل ثمان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدّى . وقال الضحاك : « عَنْ سَبِيلِ اللهِ » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت فى المُطْعِمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبَىّ وأمية ابنا خلف، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

---

(١) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .   (٢) من ب ، ل ، ن .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصة فى ناس من قريش . وقيل : هما عامتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » : أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال إنهم الأنصار فهى المواساة فى مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهى الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التى ترضى الله تعالى . ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ لم يخالفوه فى شىء؛ قاله سفيان الثورى . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أى إن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أى شأنهم؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة: حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلى بالودّ أقبِل بمثله * وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأول محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال : [ما يخطر فلان على بالى؛ أى على قلبى . الجوهرى : والبال رخاء النفس](1) ؛ يقال فلان رخىّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالى ؛ أى مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ؛ وليس بعربى . والبالة : وعاء الطِّيب؛ فارسى معرب؛ وأصله بالفارسية بيلة . قال أبو ذؤيب :

كأن عليها بالةً لَطَمِيَّـة * لها من خلال الدَّأْيَتَين أريجُ(2)

(١) ما بين المربعين ساقط من ك .

(٢) اللطمية : العنبرة التى لطمت بالمسك ففتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأى : فقر الكاهل والظهر .

Marfat.com

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ « ذلك » في موضع رفع ؛ أي الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي كهذا البيان الذي بُيِّن يُبَيِّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير في « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ؛ ذكره الماوردي . واختاره ابن العربي وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج : أي فاضربوا الرقاب ضربًا . وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يا نفس صبرًا . وقيل : التقدير

Marfat.com

أقصدوا ضرب الرقاب. وقال: « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق(١) وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أى أكثرتم القتل. وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى: « حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »(٢). ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ أى إذا أسرتموهم. والوثاق آسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا؛ يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوِثاق (بالكسر) فهو آسم الشيء الذى يوثق به كالرباط؛ قاله القشيرى. وقال الجوهرى: وأوثقه فى الوثاق أى شدّه، وقال تعالى: « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ». والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيه. وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يفلتوا. ﴿ فَإِمَّا مَنًّا ﴾ عليهم بالإطلاق من غير فدية ﴿ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾. ولم يذكر القتل هاهنا آكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام، و « مَنًّا » و « فِدَاءً » نصب بإضمار فعل. وقرئ « فَدًى » بالقصر مع فتح الفاء؛ أى فإما أن تمنّوا عليهم منًّا، وإما أن تفادوهم فداءً. روى عن بعضهم أنه قال: كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » فى حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتـــل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الأعناق حمـــلُ المغارم

فقال الحجاج: أفّ لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن مثل هـــذا الكلام!؟ خلّوا سبيل من بقى. فخُــلّيَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

---

(١) فى ح، ل: « جز العنق » بالجيم.

(٢) راجع ج ٨ ص ٤٥

Marfat.com

الثالثة — واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(١) وقوله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »(١) وقوله : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »(١) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدي وابن جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزيّ : كُتب إلى أبي بكر في أسير أُسر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا ؛ فقال اقتلوه ، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا .

الثاني — أنها في الكفار جميعا. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا : إذا أُسر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيرد إلى المشركين؛ ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تُقتل . والناسخ لها : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية . وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » قال : نسخها « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » . وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وهو قول الحَكَم .

الثالث — أنها ناسخة؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثوري عن جُوَيْبِر عن الضحاك : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » قال : نسخها « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء : «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » . وقال الحسن أيضا : في الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها . ثم قال : « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » .

(١) راجع جـ ٨ ص ٧١ و ص ٣٠ و ص ١٣٢

Marfat.com

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير فى يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار فى ثلاثة منازل : إما أن يَمُنّ ، أو يفادى ، أو يسترق .

الرابـع — قول سعيد بن جُبَير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف ؛ لقوله تعـالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ [(١)] » . فإذا أُسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بمـا رآه من قتل أو غيره .

الخـامس — أن الآية محكمة ، والإمام مخيَّر فى كل حال ؛ رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ؛ قتل النبىّ صلى الله عليه وسلم عُقْبة بن أبى مُعَيْط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرا ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومَنّ على ثُمَـامة بن أُثَال الحنفى وهو أسير فى يده ، وأخذ من سلمة بن الأكْوَع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين ، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم ، وقد منّ على سَبْى هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقد مضى جميعه فى (الأنفال [(١)]) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنمـا يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، إذا كان يجوز أن يقع التعبُّد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسـترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيـه الصلاح للمسـلمين . وهـذا القول يروى عن أهل المدينـة والشافعى وأبى عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبا عن أبى حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عز وجل التوفيق .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السـلام . وعن مجاهـد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسـلام ، فيُسْـلِم كل يهودىّ ونصرانى وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب . ونحـوه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥

Marfat.com

عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفرّاء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب ، أي الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ومن نَسْج داود يحدى بها * على أثر الحيّ عيرًا فعيرًا (١)

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أي أثقالها . والوزر الثقل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها . قال ابن العربي : قال الحسن وعطاء : في الآية تقديم وتأخير ؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمرنا الله ؛ وقرأ « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد ، وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم ؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذَٰلِكَ » في موضع رفع على ما تقدّم ؛ أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام ؛ وهو كما قال تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » (٢) . أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى : « لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ » أي أهلكهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت في الأصول . وروايته في كتاب « الأعشين » :

ومن نسج داود موضونة * تساق مع الحي عيرا فعيرا

والموضونة الدرع المنسوجة . وفي شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٢٠

Marfat.com

ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين؛ كما فى السورة نفسها. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة «قاتلوا» وهى ٱختيار أبى عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير. وقرأ الجَحْدَرى وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف؛ يعنى الذين قتلوا المشركين. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: ٱعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "قولوا لا سواء. قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذَّبون". فقال المشركون: إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك فى (آل عمران[1]).

قوله تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

قال القشيرى: قراءة أبى عمرو «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدى من بقى منهم؛ أى يحقق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر. قال أبو المعالى: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين: «فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ» ومنه قوله تعالى: «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ[2]» معناه فاسلكوا بهم إليها.

قوله تعالى: وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٢

Marfat.com

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا(١) إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحة هذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيَتَقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا](٢) حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه](٢) بمنزله فى الدنيا " . وقيل : « عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عرّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم ؛ فحذف المضاف . وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكل بعمل العبد يمشى بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس : « عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى طيّبها لهم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام معرَّف أى مطيّب ؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه :

* عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللَّطائم(٣) *

يقوله : كما عَرُف الإتب ، وهو البَقِير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمَّين له تلبسه النساء . وقيل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيل : « عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرّف المطيعين أنها لهم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

---

(١) فى ا ، ز ، ل : « تقربوا » .	(٢) زيادة من صحيح البخارى .

(٣) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » (١) وقد تقدم . وقال قُطْرُب : إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله ؛ والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة فى موطن الحرب . وقد مضى فى « الأنفال » (٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فأثبت هناك [واسطة ونفاها هنا] (٣) ؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ » (٤) ثم نفاها بقوله : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » (٤) . « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » (٥) ومثله كثير ؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره « فَتَعْسًا لَهُمْ » كأنه قال : أَتْعَسَ الذين كفروا . و « تَعْسًا لَهُمْ » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء ؛ مثل سَقْيًا له ورَعْيًا . وهو نقيض لَعًا (٦) له . قال الأعشى :

* فالتَّعْس أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا (٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأوّل — بُعْدًا لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جريج . الثانى — حُزْنًا لهم ؛ قاله السدى . الثالث — شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد . الرابع — شَتْمًا لهم من الله ؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكًا لهم ؛ قاله ثعلب . السادس — خَيْبَةً لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحًا لهم ؛ حكاه النقاش . الثامن — رغمًا لهم ؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع —

---

(١) راجع جـ١٢ ص٧٢ (٢) راجع جـ٧ ص ٣٧١، ٣٧٧ (٣) ما بين المربعين ساقط من ز، ك، ل.
(٤) راجع جـ١٤ ص٩٢ وص٤٠ (٥) راجع جـ١٨ ص٢٠٦ (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع.
(٧) فى اللسان وكتاب الأعشين : « أدنى » بدل « أولى » . وصدره :

* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *

واللوث (بالفتح) : « القوة » . وعفرناة : قوية .

Marfat.com

شرًّا لهم ؛ قاله ثعلب أيضا . العاشر ــ شِقْوة لهم ؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التّعْس الانحطاط والعِثار . قال ابن السِّكّيت : التعس أن يَخِرّ على وجهه . والنّكْس أن يَخِرّ على رأسه . قال : والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْساً ، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أتعسْتَني يا مُجَمِّع

يقال : تعسًا لفلان ؛ أي ألزمه الله هلاكًا . قال القُشَيري : وجوّز قوم تعِس (بكسر العين) .

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطِي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض" خرّجه البخاري . في بعض طرق هذا الحديث " تعس وٱنتكس وإذا شِيك فلا ٱنتقش[2] " خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان . ودخلت الفاء في قوله : « فَتَعْسًا » لأجل الإبهام الذي في « الَّذِينَ » ، وجاء « وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » على الخبر حملا على لفظ الذين ؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملا على المعنى ، « وأضلّ » حَمْلا على اللفظ .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس ؛ لأنهم ﴿ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب ، ولا يَقبل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله « شيك » أي أصابته شوكة . و « فلا ٱنتقش » أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

Marfat.com

بيّن أحوال المؤمن والكافر تنبيهًا على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يَسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال: دمّره تدميرا ، ودمّر عليه بمعنًى . ثم تواعد مشركى مكة فقال: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

أى وليّهم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا » . فالمولى : الناصر هاهنا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فَغَدَت كِلَا الفَرْجَيْنِ تحسب أنه * مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامُها (١)

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبيّ صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدّم (٢) . ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

---

(١) البيت من معلقة لبيد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف ، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدم في غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام ، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غدهم . وقيل : المؤمن في الدنيا يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي مقام ومنزل .

قوله تعالى: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدم الكلام في « كَأَيِّنْ » في (آل عمران)[1] . وهي هاهنا بمعنى كم ؛ أي وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاح قَيْد للأسير المكبّل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها . ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجوني لما خرجت منك " . [فنزلت الآية][2] ؛ ذكره الثعلبي ، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير . ومعنى « على بينة » أي على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة : الوحي . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨ (٢) ساقط من ك .

Marfat.com

﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال : « سُوءُ » على لفظ « مَن » « وَاتَّبَعُوا » على معناه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ لما قال عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات ، أى صفة الجنة المعدّة للتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى « الرعد »(١) . وقرأ على بن أبى طالب « مِثَالُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » . ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أى غير متغير الرائحة . والآسن من الماء مثل الآجن . وقد أَسَنَ الماء يأسُن ويأسِن [أَسْنًا و] أُسُونا إذا تغيّرت رائحته . وكذلك أَجَنَ الماء يأجُن ويأجِن أَجْنًا وأُجُونًا . ويقال بالكسر فيهما : أَجِن وأَسِن يأسَن ويأجَن أَسَنًا وأَجَنًا ؛ قاله اليزيدى . وأَسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)(٢) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه ؛ قال زُهير :

قد أترك القِرن(٣) مُصْفَرًّا أنامله * يميد فى الرُّمح مَيدَ المائح الأَسِنِ

ويروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللّحيانى : إذا نزع إليه فى الشّبه . وقراءة العامة « آسن » بالمد . وقرأ ابن كثير وحُميد « أَسِن » بالقصر ، وهما لغتان ؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسن للحال ، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (٢) أى فى الماضى . (٣) وفيه رواية أخرى : « يغادر القرن » .

Marfat.com

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها(١) الأيدى كخمر الدنيا ؛ فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون . يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى . واستلذه عدّه لذيذا . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل . « مُصَفًّى » أى من الشمع والقذى ، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل . وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعدُ " . قال : حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " . وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سَيْحان نهر عسلهم . وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر . والعسل : يذكر ويؤنث . وقال ابن عباس : « مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى » أى لم يخرج من بطون النحل . ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ « مِن » زائدة للتأكيد . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ قال الفراء : المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيِّن له سوء عمله وهو خالد فى النار . فقوله : « كَمَنْ » بدل من قوله : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » . وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم . ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم . ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أى حارا شديد الغليان ، إذا أُدْنى منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم ؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم . والأمعاء : جمع مِعًى ، والتثنية مِعيان ، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا .

---

(١) رنق الماء : كدره .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزُيِّن لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبدالله بن أُبَىّ آبن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت(١) والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشُم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيَعِيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أى إذا فارقوا مجلسك . ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال آبن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود . وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أى الآن؛ على جهة الاستهزاء. أى أنا لم ألتفتْ إلى قوله . و« آنِفًا » يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : آستأنفت الشىء إذا آبتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف ، ورَوْضة أُنُف ؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شىء ؛ كأنه آستؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر(٢) :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم أنفَ القصاع

(١) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : « الصيت » بالتاء المثناة من فوق . وفى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أول ص ١٦٩٩) : « الصيب » بالباء الموحدة . (٢) هو الحطيئة .

Marfat.com

وقال آخر : (١)

إن الشِّواء والنَّشِيل والرُّغُف * والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

* للطاعنين الخيل والخيل قُطُف (٢) *

وقال آمرؤ القيس :

* قـد غدا يحملنى فى أنفـه (٣) *

أى فى أوّله . وأُنُفُ كلّ شىء أوّله . وقال قتادة فى هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع ، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع . وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل ، وسامع عاقل ، وسامع غافل تارك .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى الكفر . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أى للإيمان زادهم الله هدى . وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هـدى . وقيل : ما يستمعونه من القرآن هـدى ؛ أى يتضاعف يقينهم . وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفى الهـدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بمـا علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيّهم ؛ قاله الكلبيّ . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم إياها . وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها — آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع . الثانى — ثواب تقواهم فى الآخرة ؛ قاله السدّى . الثالث — وفقهم للعمل الذى فرض عليهم ؛ قاله مقاتل . الرابع — بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّيّ أيضا . الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية . المـاورديّ : ويحتمل . سادسا —

---

(١) هو لقيط بن زرارة . والنشيل : ما طبخ من اللحم بغير تابل . والرغف جمع رغيف . ويقال : أرغفة ورغفان .

(٢) فى الأصول : « حنف » والتصويب عن اللسان مادة « قطف » . وقد ورد هذا الشطر فى اللسان مادة « نشل » : للضاربين الهام والخيل قطف » . وقطفت الدابة : أساءت السير وأبطأت .

(٣) تمـامه : * لاحق الأيطل محبـوك ممـر *

Marfat.com

أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . وقرئ « وَأَعْطَاهُمْ » بدل « وَآتَاهُمْ » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أماراتها وعلاماتها . وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ، قاله الضحاك والحسن . وفى الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضم السبابة والوسطى ، لفظ مسلم : وخرجه البخارى والترمذى وابن ماجه . ويروى " بعثت والساعة كَفَرَسَىْ رِهان " . وقيل : أشراط الساعة أسبابها التى هى دون معظمها . ومنه يقال للدُون من الناس : الشُّرَط . وقيل : يعنى علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ، قاله الحسن أيضا . وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ، وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها . ومنه الشَّرْط فى البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْم بيننا * فقد جعلت أشراط أوّله تبدو

ويقال : أشرط فلان نفسه فى عمل كذا أى أعلمها وجعلها له . قال أوس بن حجر يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة[(١)] يقطعها ليتخذ منها قوسا :

فأشْرَط نفسه فيها وهو مُعْصِمٌ * وألقى بأسباب له وتوكّلا

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسى . وهى فى ك ، ل ، هـ : « نبقة » بالقاف .

Marfat.com

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ « أَنْ » بدل اشتمال من « الساعة » ؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : « رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ »[1] . وقرىء « بَغَتَّةً » بوزن جَرَبَّة[2] ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها ؛ وهي مَرْوِيَّة عن أبي عمرو . الزمخشري : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتَة » بفتح الغين من غير تشديد ؛ كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة « إِنْ تَأْتِهِمْ بَغْتَةً » . قال المهدوي : ومن قرأ « إِنْ تَأْتِهِمْ بَغْتَةً » كان الوقف على « السَّاعَةَ » ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكّوا في مجيئها « فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ « ذِكْرَاهُمْ » ابتداء و « أَنَّى لَهُمْ » الخبر . والضمير المرفوع في « جَاءَتْهُمْ » للساعة ؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفي الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثاني — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك " ذكره الماوردي .

قوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قال الماوردي : وفيه — وإن كان الرسول عالما بالله — ثلاثة أوجه : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثاني — ما علمته استدلالا فاعلمه خبرًا يقينًا . الثالث — يعني فاذكر أن لا إله إلا الله ؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) راجع ص ٢٧٣ من هذا الجزء . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حمر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة .

Marfat.com

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ — إلى قوله — سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ »(١) وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »(٢) . ثم قال بعد : « فَاحْذَرُوهُمْ »(٣) . وقال تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »(٤) . ثم أمر بالعمل بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ؛ فنزلت الآية . أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية : « وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، جُمْعًا(٥) [عليه](٦) خيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها — يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم . الثاني — « مُتَقَلَّبَكُمْ » في أعمالكم نهارا « وَمَثْوَاكُمْ » في ليلكم نياما . وقيل

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٦ (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٤٠
(٤) راجع جـ ٨ ص ١ (٥) يريد مثل جمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها .
(٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة في الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول ، وهي حبيبات تعلو الجسد .

Marfat.com

« مُتَقَلَّبَكُمْ » فى الدنيا . « وَمَثْوَاكُمْ » فى الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : « مُتَقَلَّبَكُمْ » فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . « وَمَثْوَاكُمْ » مقامكم فى الأرض . وقال ابن كَيْسان : « مُتَقَلَّبَكُمْ » من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . « ومثواكم » فى القبور .

قلت : والعموم يأتى على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شىء من حركات بنى آدم وسكناتهم ، وكذا جميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخْرَى . سبحانه ! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقًا للوحى وحرصًا على الجهاد وثوابه . ومعنى « لَوْلَا » هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى مُحْكَمة ، وهى أشدّ القرآن على المنافقين . وفى قراءة عبد الله « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ » أى محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أى فرض فيها الجهاد . وقرئ « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ وذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يشخص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهلعاً ، ولميلهم فى السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فَأَوْلَى لَهُمْ » قال الجوهرىّ : وقولهم : أَوْلَى لَكَ ، تهدد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

Marfat.com

قال الأصمعى : معناه قارَبه ما يُهلكه ؛ أى نزل به . وأنشد :

فعـادَى بين هادِيَتَيْن منهـا * وأَوْلَى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى « أَوْلَى » أحسن ممـا قال الأصمعى .
وقال المـُبَرِّد : يقال لمن همّ بالعَطَب[1] ثم أفلت : أَوْلى لك ؛ أى قاربت العطب .
كما رُوِى أن أعرابيـا كان يوالى رَمْىَ الصيد فيُفْلِت منـه فيقول : أَوْلى لك . ثم رمى صيدًا فَقَاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أَوْلَى يُطعِم القومَ صِدْتُهم * ولكنّ أَوْلَى يَتْرُكُ القومَ جُوَّعَا

وقيـل : هو كقول الرجل لصاحبـه : يامحروم، أىّ شىء فاتك ! وقال الجُرْجَانِىّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل ، ولكن فيـه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام .
وقد تم الكلام على قوله : « فَأَوْلَى لَهُمْ » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أَوْلى لهم . وقيل : أى وَلِيَهـم المكروه . ثم قال : « طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » أى طاعة وقـول معروف أمثـل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على « فَأَوْلَى لَهُمْ » . وكذا من قدر يقولون مِنّا طاعة . وقيـل : إن الآية الثانية متصلة بالأولى . واللام فى قوله : « لَهُمْ » بمعنى البـاء؛ أى الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك آمتثال أمر الله . وهى قراءة أُبَىّ « يَقُولُونَ طَاعَةٌ » . وقيل إن : « طَاعَةٌ » نعت لـ « سورة » ؛ على تقـدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فَأَوْلَى لَهُمْ » . قال ابن عباس : إن قولهم « طَاعَةٌ » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين . والمعنى لهم طاعة وقول معروف ، قيـل : وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فَأَوْلَى » .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جدّ القتال، أو وجب فرض القتال، كرهوه . فكرهوه جـواب « إذا » وهو محـذوف . وقيـل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر .
﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

(١) فى ل : « هم بالغضب » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اختلف فى معنى « إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الوِلاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا فى الأرض بأخذ الرُّشا . وقال الكلبيّ : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصى وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . وقيل : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ » أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا فى الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفى (1) . وقال بكر المزنى : إنها نزلت فى الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْد . والأظهر أنه إنما عُنِى بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء ، قالا : نزلت فى بنى أمية وبنى هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مُغفّل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » — ثم قال — هم هذا الحىّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ علىّ بن أبى طالب « إِنْ تُوُلِّيتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن يعقوب . يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحاربتموهم . ﴿ وَتَقَطَّعُوا

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٤٤

Marfat.com

أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتل . وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم « وتَقْطَعُوا » بفتح التاء وتخفيف القاف ، من القطع ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »(١) . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وَتَقَطَّعُوا » مفتوحة الحروف مشددة؛ اعتبارًا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ »(٢) . الباقون « وتُقَطِّعُوا » بضم التاء مشددة الطاء ، من التقطيع على التكثير ؛ وهو اختيار أبى عبيد . وتقدم ذكر « عَسَيْتُمْ » فى (البقرة)(١) . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز «عَسِى» بالكسر . قال الجوهرى : ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك ، وعَسِيت بالكسر . وقرئ «فَهَلْ عَسِيتُمْ» بالكسر.

قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة »(١) مستوفى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته . ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن الحق . ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ أى قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ » ثم قال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ » فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها " . وأصل القفل اليُبْس والصلابة . ويقال لما يبس من الشجر : القَفْل . والقفيل مثله . والقَفِيل أيضا نبت . والقفيل : الصوت . قال الراجز :

لما أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا
* كيف قريت شيخك الأزبا(٣) *

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٦ وج ٣ ص ٢٤٤ (٢) راجع ج ١١ ص ٣٣٩
(٣) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر .

Marfat.com

القِرْشِبُّ (بكسر القاف) المسِنّ ؛ عن الأصمعي . وأقفله الصوم أى أيبسه ؛ قاله القشيري والجوهري . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان . أى لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر ؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال : « عَلَى قُلُوبٍ » لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم فى هـذه الجملة . والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها .

الثالثة — فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هـذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلكِ وأقطع من قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » . وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار . وقال قتادة وغيره : معنى الآية فلعلكم، أو يخاف عليكم ، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد فى الأرض لسفك الدماء . قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى ! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعَصَوُا الرحمن . فالرحم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان ، التى قـد سماها الله إخوة بقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(1) . وعلى قول الفراء أن الآية نزلت فى بنى هاشم وبنى أمية ؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا ؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذلك يوجب القتال . وبالجملة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ؛ فالعامة رحم الدين ، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنَّصَفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم ، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم . وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرف الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة ؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم ،

(1) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رَحِم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث ، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس بصحيح ، والصواب أن كل مايشمله و يعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ، على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدثنا شعبة قال أخبرنى محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسيء إلىّ فيجيبها ربُّها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رحم . ورواه البخارى .

الرابعـة — قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير؛ كما تقدّم[1] . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى: « هَـذَا خَلْقُ اللَّهِ[2] » أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهم " كمل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة ، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرَّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما — أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها و يكتب ثواب من وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كرامًا كاتبين ، و بمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما —

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٥ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٥٨ .

Marfat.com

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدة الاعتناء . فكأنه قال : لوكانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ — ثم قال — وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[1] . وقوله : " فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة " مقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من آستجار به فأجاره ، وأدخله فى ذمتـه وخُفارته[2] . وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول وعهـده غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرَّحِم : " أمَا تَرْضَيْنَ أن أصل مَن وصلك وأقطع مَن قطعك " . وهذا كما قال عليه السـلام : " ومن صلى الصبح فهو فى ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء فإنه من يطلبه بذمته بشىء يدركه ثم يَكُبّه فى النار على وجهه " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُـمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُـمْ وَأَمْلَىٰ لَهُـمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليـه وسلم بعد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن . ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أى زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أى مدّ لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر؛ عن الحسن أيضا. وقال : إن الذى أملى لهم فى الأمل ومدّ فى آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفـرّاء والمفضل . وقال الكلبيّ ومقاتل : إن معنى « أَمْلَى لَهُمْ » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال فى عذابهم . وقرأ أبو عمرو وآبن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لَهُمْ » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرى ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملى لهم . وآختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٢) الخفارة (بالضم والكسر) الذمام .

Marfat.com

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهدوىّ : ومن قرأ « وَأَمْلَى لَهُمْ » فالفاعل آسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ »(١) ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزير على آسم الرسول .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه. وقراءة العامة « أَسْرَارَهُمْ » بفتح الهمزة جمع سِرّ ؛ وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر؛ نحو قوله تعالى : « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »(٢) جمع لآختلاف ضروب السر .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم . ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخرعنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »(٣) . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرةً لرسول الله

(١) راجع ص ٢٦٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٠

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعني الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ، يعني المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه . واختلف في معناه ؛ فقال السدّى : غِشّهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قُطْرُب : عدواتهم ؛ وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق　*　ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضِغن . قال :

* وذى ضغن كففت النفس عنه *

وقد تقدم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو　*　عليك ويُخرج الداء الدفينا

Marfat.com

قال الجوهري: الضغن والضغينة: الحقد. وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضغنًا. وتضاغن القومُ واضْطغنوا: أبطنوا على الأحقاد. واضْطغنت الصبيّ إذا أخذته تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

* كأنّه مُضْطَغِنٌ صبيّا *

أي حامله في حجره. وقال ابن مُقْبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها * ومِرفقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفا[1]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب. والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرّفناكهم. قال ابن عباس: وقد عرّفه إياهم في سورة «براءة»[2]. تقول العرب: سأريك ما أصنع؛ أي سأعلمك، ومنه قوله تعالى: «بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ»[3] أي بما أعلمك. ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم. قال أنس: ما خفي على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم. وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم[4] الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم. وقال ابن زيد: قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

* وخير الكلام ما كان لحنا *

أي ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرّح به. مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أي أذهب بها في الجواب لقوته على تصريف الكلام. أبو زيد:

(١) المغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع. و«رئاس السيف»: مقبضه. و«الشاسف»: اليابس من الضمر والهزال.
(٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦.
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥.
(٤) في نسخ الأصل: «يشكونهم».

Marfat.com

لَحَنْت له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره . ولَحِنَه هو عَنّي (بالكسر) يلحنه لَحَنًا أى فهمه . وألحنته أنا إياه ، ولا حنت الناس فاطنتهم ؛ قال الفَزَارِيّ :

وحديثٍ أَلَذُّه هـو ممـا * يَنْعَت النَّاعِتُون يُوزَن وَزْنَا
منطقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيـا * نًا وخير الحديث ما كان لحنا

يريد أنهـا تتكلم [بشيء] وهي تريد غيره ، وتُعَـرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها . وقد قال تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . وقال القَتَّال الكِلَابِيّ :

ولقد وَحَيْتُ[1] لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمـرتاب

وقال مرار الأسدي :

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني * صدودُكِ تُرْضِين الوشاةَ الأعاديَا

قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليـه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعـد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرَّفه الله ذلك بوحي أو علامة عَرَّفها بتعريف الله إياه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعـالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور . وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين . ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : « حَتَّىٰ نَعْلَمَ » حتى نميّز . وقال عليّ رضى الله عنه . « حَتَّىٰ نَعْلَمَ » حتى نرى . وقد مضى

(١) في اللسان : « لحنت » .

Marfat.com

فى «البقرة»[1] . وقراءة العامة بالنون فى «نَبْلُوَنَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ» . وقرأ أبو بكر عن عاصم باليـاء فيهن . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من «نبـلو» على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : «حَتَّى نَعْلَمَ» . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» الآية[2] . ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أى عادوه وخالفوه . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أى علموا أنه نبى بالحجج والآيات . ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم . ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهرى : بالكبائر . ابن جريج : بالرياء والسمعة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠ .

Marfat.com

وقال مقاتل والثُّمَالِيّ : بالمَنّ ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه . وكله متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانيــة — احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع — صلاةً كان أو صوما — بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه . وقال من أجاز ذلك — وهو الإمام الشافعي وغيره — : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوع ، والتطوع يقتضي تخييرا .

وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

بيّن أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار . وقد مضى في « البقرة »[1] الكلام فيه . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القَليب[2] . وحكمها عام .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إنني لست بموهونٍ فَقِرْ[3] *

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ .
(٢) المراد به قليب بدر .
(٣) هذا عجز بيت لطرفة ، وصدره :
* وإذا تلسنني ألسنها *

Marfat.com

ووهِن أيضا (بالكسر) وَهْنًا أى ضعف، وقرىء « فما وهُنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)[1] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أى الصلح . ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحــوال . وقال قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثــة — واختلف العلمــاء فى حكمها ؛ فقيل : إنهــا ناسخة لقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا »[2] ؛ لأن الله تعــالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيــل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا » مخصوص فى قوم بأعيانهم، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى[2] . ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أى بالنصر والمعونة ؛ مثل : « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[3] : ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَره يَتِره وِتْرًا وَتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : ” من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله “ أى ذهب بهما . وكذلك وَتَرَهُ حقّه أى نقصه . وقوله تعالى : « وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ؛ وأنت تريد فى البيت ؛ قاله الجوهرىّ . الفرّاء : « وَلَنْ يَتِرَكُمْ » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠ .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٩ .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٦٤ .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدم في « الأنعام »[1] . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها فى الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عيينة وغيره . وقيل : « لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق فى سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة . نظيره : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ »[2] الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنى واحد . والحَفِيّ المستقصى فى السؤال؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء فى الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى فى أخذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصن وحميد « وتَخرُج » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أَضْغَانُكُمْ » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبى عمرو « ويخرجُ » بالرفع فى الجيم على القطع والاستئناف والمشهور عنه « ويُخرِج » كسائر القراء، عطف على ما تقدم .

قوله تعالى : هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ .	(٢) راجع جـ ١٣ ص ٦٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أى هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون ﴿ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى على نفسه ؛ أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى إنه ليس بمحتاج الى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليها(١) . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذى عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال : " هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المدينى أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا آستبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : " هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس" . وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبى : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسن دينا ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبرى : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبى موسى الأشعرى أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحب إلىّ من الدنيا " . والله أعلم .

[ختمت السورة بحمد الله وعونه ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الأطهار](٢) .

(١) لفظة : « إليها » ساقطة من ل . (٢) زيادة من ن .

Marfat.com

ســـــورة الفتـــــح

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية . ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبية .

روى محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم ، قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبية من أولها إلى آخرها .

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ؛ فقال عمر بن الخطاب : ثَكِلَتْ أم عمر ، نَزَرْتَ(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك ؛ فقال عمر : فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فما نَشِبْتُ(٢) أن سمعت صارخا يصرخ بي ؛ فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ؛ فقال : " لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » " لفظ البخاري . وقال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح . وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا — إلى قوله — فَوْزًا عَظِيمًا » مرجعه من الحُدَيْبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهَدْي بالحُدَيْبية ، فقال : " لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا " . وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شمتوا بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى : « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ »(٣) وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به ! فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . ونحوه قال مقاتل

---

(١) أي ألححت عليه وبالغت في السؤال . (٢) أي ما لبثت وما تعلقت بشيء .

(٣) راجع ص ١٨٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

ابن سليمان : لما نزل قوله تعالى : « وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ »(1) فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت علىّ سورة ما يَسُرُّنِى بها حُمْرُ النَّعَم" . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح فى أوّل ليلة من رمضان فى صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴿١﴾

آختلف فى هذا الفتح ماهو ؟ ففى البخارى حدّثنى محمد بن بشار قال حدّثنا غندر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً » قال : الحديبية . وقال جابر : ما كنا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحُدَيْبِيَة . وقال الفرّاء(2) : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا نُعَدّ مع النبى صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة(3) ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمج فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا" . وقال الشعبى فى قوله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب بها مالم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ،

---

(1) راجع ص ١٨٥ من هذا الجزء . (2) فى تفسير الطبرى : « البراء » .
(3) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

Marfat.com

وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْىُ مَحِلّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعَوْفى : هو فتح خَيْبَر . والأول أكثر، وخَيْبَر إنما كانت وعدًا وُعِدُوه، على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ » (١) ، وقوله : « وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ » (١) . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون (٢) الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف (٣) فوجدنا نبي الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَمِيم (٤) ، فلما اجتمع الناس قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » فقال عمر بن الخطاب : أَوَ فتحٌ هو يا رسول الله ؟ قال : " نعم، والذى نفسى بيده إنه لفتح " . فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى : « فَتْحًا » يدل على أن مكة فتحت عَنْوة (٥) ؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على ما فتح عَنْوَة . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال : فُتح البلد صُلْحًا ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يُقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة (٦) ؛ وقد مضى القول فيها ، ويأتى .

قوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

(١) راجع ص ٢٧٠ وص ٢٧٨ من هذا الجزء . (٢) فى ك : « يهرعون » .
(٣) الإيجاف : سرعة السير . (٤) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة .
(٥) أى فتحت بالقتال، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها . (٦) راجع ج ٨ ص ٢ .

Marfat.com

قال ابن الأنبارى : « فَتْحًا مُبِينًا » غير تام ؛ لأن قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السِّجِستانى : هى لام القسم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أُنزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مَرْجِعَه من الحديبية ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت علىّ آية أحبّ إلىّ مما على وجه الأرض" . ثم قرأها النبى صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يفعل بك؛ فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجَمِّع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فقيل : « مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » قبل الرسالة . « وَمَا تَأَخَّرَ » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسفيان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ — إلى قوله — تَوَّابًا »(١) . « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ » إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » ما عملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ » كل شىء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان الصغائر على الأنبياء فى سورة « البقرة »(٢) ؛ فهذا قول . وقيل :

---

(١) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٨

Marfat.com

« مَا تَقَدَّمَ » قبل الفتح . « وَمَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح . وقيل : « مَا تَقَدَّمَ » قبل نزول هـذه الآية . « وَمَا تَأَخَّرَ » بعـدها . وقال عطاء الخراسانيّ : « مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء . « وَمَا تَأَخَّرَ » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وَمَا تَأَخَّرَ » من ذنوب النبيّين . وقيل : « مَا تَقَدَّمَ » من ذنب يوم بدر . « وَمَا تَأَخَّرَ » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو ويقول : "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض أبدا " وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه : من أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أُعبد أبدا ؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخر فيوم حنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان : " ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي " فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال : " شاهت الوجوه . حٰمٓ . لا ينصرون " فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهـم : " لو لم أرمهم لم ينهزموا " فأنزل الله عز وجل : «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»(1) فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو علي الرُّوذَبَاريّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : في الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي غالباً منيعاً لا يتبعه ذل .

قوله تعـالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤

Marfat.com

«السَّكِينَةَ» : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »[1] . وتقدّم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »[2] . وقال ابن عباس : بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاة من كل غم ، وظفرًا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل : « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت : « وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »[3] فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» نزل فى حق الأمة : «وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا»[4] . ولما قال : « وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع ج ٤ ص ٢٨٠
(٣) راجع ج ٦ ص ٦١ (٤) راجع ص ٢٦٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

المؤمنين[1] » . وهو كقوله تعالى: « إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[1] » . ثم قال : « هو الذي يصلي عليكم[1] » ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أي بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قتلًا وأسرًا واسترقاقا . ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ يعني ظنّهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » . وقال الخليل وسيبويه : «السّوء» هنا الفساد . ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ في الدنيا بالقتل والسّبي والأسر ، وفي الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهري : ساءه يسوءه سَوْءًا (بالفتح) ومَسَاءة ومَسَائِية ؛ نقيض سرّه ، والاسم السُّوء (بالضم) . وقرئ « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ » يعني الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ . تقدّم في غير موضع جميعه ، والحمد لله . وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَيّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٣ وص ٢٣٢ وص ١٩٨

Marfat.com

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون . وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير[1] هذا المعنى مبيناً . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار لمن عصى، قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى «البقرة» اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما[2] . وانتصب « شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو « لِيُؤْمِنُوا » بالياء ، وكذلك « يُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأما قبله فقوله : «لِيُدْخِلَ» وأما بعده فقوله : «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ» الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أى تعظموه وتفخموه؛ قاله الحسن والكلبى . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحد ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِيّ :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨

Marfat.com

الا بَكَرَتْ مَىٌّ بغـير سَـفَاهةٍ * تُعاتِبُ والمَوْدُودُ ينفعه العَزر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معــه بالسيف . وقال بعض أهــل اللغة : تطيعــوه . ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى تسوِّدُوه؛ قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير: التعظيم والتَّرْزِين أيضا . والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام، ثم تبتدئ « وَتُسَبِّحُوهُ » أى تسبحوا الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِــيلا ﴾ أى عَشِيًّا . وقيــل : الضمائر كلّها لله تعالى؛ فعلى هــذا يكون تأويل « تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ » أى تُثْبِتوا له صحــة الربوبية وتَنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . وٱختار هذا القول القشيرى . والأوّل قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو « وَتُسَبِّحُوهُ » من غير خلاف . وبعضه راجعا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو « وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ» أى تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة . وفى «تُسَبِّحُوهُ» وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح . والثانى — هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح . « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غُدْوة وعَشِيًّا . وقد مضى القول فيه (١) . وقال الشاعر:

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأجلس فى أفيــائه بالأصائل (٢)

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بالحديبية يا محمد . ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسلم إنمــا هى بيعة الله ؛ كما قال تعالى : «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَــدْ أَطَاعَ اللَّهَ » (٣) . وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان؛ على ما يأتى بيانها فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة . وقال الكلبيّ : معناه نعمة الله عليهــم فوق ما صنعوا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٨ . (٢) البيت لأبى ذؤيب . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٨٨

Marfat.com

من البَيعة . وقال ابن كَيْسان : قــوّة الله ونصرته فوق قوّتهــم ونصرتهم . ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النكث عليه؛ لأنه حرَم نفسَه الثواب وألزمها العقاب . ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرى « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فَسَنُؤْتِيهِ » بالنون . وآختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب آسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غِفــار ومُزَيْنة وجُهينة وأَسْلم وأشْجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتــح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذَرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَــدْىَ ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل ؛ فنزلت . وإنما قال : « الْمُخَلَّفُونَ » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلّف المتروك . وقد مضى فى براءة »(١) . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الآستغفار وآعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وهــذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمــزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال آبن عباس : الهزيمة .

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٦ .

Marfat.com

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا . و بالضم آسم لمـا ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأ كثر . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضرّ . وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغَنِيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر و يعجّل لهم النفع .

قوله تعـالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِـمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلَة[1] رأس لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وهـذا التزيين من الشيطان ؛ أو يخلق الله ذلك فى قلوبهـم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لا ينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير . قال الجوهرىّ : البور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِى :

يا رسـول المليك إن لسانى * راتـق ما فَتَقْتُ إذ أنا بُـور

وامرأة بُور أيضا ؛ حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول . وقد بار فـلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بُورًا » أشرارًا ؛ قاله آبن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد * يهدى الإله سبيـل المَعْشَر البـور[2]

أى الهالك .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول محرفا .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

أى هو غنيٌّ عن عباده ، و إنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن و يعاقب من كفر وعصى

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعنى مغانم خيبر؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحديبية فتح خَيْبَر ، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر . ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسَهْمِ مَن حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ، أى يَدَعُه . وأصله وَذِرَه يَذَرُه مثالُ وَسِعَه يَسَعُه . وقد أُميت صدره[1] ، لا يقال : وذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : « والعرب قد أماتت المصدر من « يذر والفعل الماضى ؛ فلا يقال ... » الخ .

Marfat.com

ووجه بهم قالوا ذرونا نتبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيروا . قال ابن زيد : هو قوله تعالى : « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » الآية (١) . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذى وعد لأهل الحديبية ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عامة أهل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سلمة وسلم . الباقون « كَلَامَ » على المصدر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » (٢) . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير . والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نبقة ونبق . ولهذا قال سيبويه : « هذا باب علم ما الكلم من العربية » ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة . وتميم تقول : هى كِلْمة ، بكسر الكاف، وقد مضى فى « براءة » القول فيها (١) . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾أن نصيب معكم من الغنائم . وقيل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى : « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا ؛ وهو ترك القتال .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٧ وص ١٤٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٨٠

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي لَيْلَى وعطاء الخرساني : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن ابن أبي لَيْلَى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال ابن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزُّهْري ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مُسَيْلمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ . وظاهر الآية يردّه .

الثانية — في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا ، لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه السلام ، لأنه قال : « لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » فدلّ على أن المراد بالداعي غير النبي صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . الزَّمَخْشري : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معي أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين .

Marfat.com

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم . [والله أعلم][1] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على « تُقَاتِلُونَهُمْ » أي يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة وإما الإسلام، لا ثالث لهما . وفي حرف أُبَيّ « أَوْ يُسْلِمُوا » بمعنى حتى يُسْلِمُوا، كما تقول : كُلْ أو تشبع، أي حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنما * نحاول مُلْكاً أو نموت فنُعْذَرا[2]

وقال الزجاج : قال « أَوْ يُسْلِمُونَ » لأن المعنى أو هم يسلمون من غير قتال . وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عام الحُدَيْبِيَة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لما نزلت : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لِعَماهم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى في « براءة » وغيرها الكلام فيه مُبَيَّناً[3] . والعَرَج : آفة تعرض لِرِجْل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرا فخلل الرِّجْلين أولى أن يؤثر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

(١) زيادة من ب، ز، ك، ن . (٢) البيت لامرئ القيس . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ و جـ ١٢ ص ٣١٢

Marfat.com

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل .
﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « نُدْخِلْهُ » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدم اسم الله أولا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غزوة بنى المُصْطَلِق فى شوّال ، وخرج فى ذى القعدة مُعْتَمِرا ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتى . وساق معه الهَدْىَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب ، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد فى خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم »(١) فورد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »(٢) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكعبي ، فسلك طريقا يخرج به فى ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم ، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التى مع خالد [جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ،

---

(١) اسم موضع بين مكة والمدينة . (٢) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

Marfat.com

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية[1]] بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خلأت ! خلأت[2] ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما خَلأَتْ وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألونى فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها " . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يارسول الله ، ليس بهـذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنَانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرَّوَاء[3] حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسّهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسّهم فى القَليب البَرَاء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاء سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا و يخرج ، وعلى أن يكون بينه و بينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس و يأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علّمه الله من أنه سيجعل للسلمين فرجا ، فقال لأصحابه . " اصبروا فإن الله يجعل هـذا الصلح سببا إلى ظهور دينه " فأنِس الناس إلى قوله هـذا بعد نفار منهم ، وأَبَى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلابد أن تكتب : باسمك اللهم . فقال لعلىّ وكان يكتب صحيفة الصلح : " آمح ياعلىّ ، واكتب باسمك اللهم " فأبى علىّ أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعرضه علىّ " فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

(١) ما بين المربعين ساقط من ك . (٢) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة . (٣) الرواء : الكثير .

Marfat.com

يكتب « من محمد بن عبد الله » . وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئـذ بأثر كتاب الصلح وهو يَرْسُف فى قيوده ، فرده رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ؛ فعظُم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل " أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا ، فجاء خبر إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه ؛ فدعا رسول الله صلى عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألّا يَفِرّوا . وهى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، التى أخبر الله تعـالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليـه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النـار . وضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان ؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال : أول من بايع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبيـة أبو سفيان الأسـدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة[(1)] ، وقال : بايعناه على ألّا نفـر ولم نبايعه على الموت وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبيـة ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة ؛ فبايعناه ، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصـارى آختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبى الجَعْـد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألف لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة . وفى رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبى أَوْفى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ، وكانت أسْلَمُ ثُمُنَ المهاجرين . وعن يزيد بن أبى عبيد قال : قلت لسلمة : على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال : على الموت . وعن البَرَاء بن عازب قال : كتب علىّ رضى الله عنه الصلح بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبيـة ، فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

---

(١) السمرة : شجر الطلح .

Marfat.com

لا نكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : "امحُه". فقال: ما أنا بالذى أمحاه؛(١) فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا : أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا ، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبّان السلاح . [قلت لأبي إسحاق : وما جُلُبّان السلاح ؟ قال :(٢)] القراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله ،(٣) فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهم . فقال : " اكتب من محمد رسول الله " قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اكتب من محمد بن عبد الله " فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ! قال: "نعم إنه مَن ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".

وعن أبي وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفّين فقال يأيها الناس ، اتّهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ؛ وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال " بلى " قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال " بلى " قال ففيم نعطى الدّنِيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال " يا بن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضَيِّعَنى الله أبدا " قال : فانطلق عمر ، فلم يصبر مُتَغَيِّظًا فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى ؛ قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدّنِيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم؟ فقال : يابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يُضيعه الله أبدا . قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى

(١) أمحاه : لغة فى أمحوه . (٢) زيادة عن مسلم .
(٣) قوله : « أما باسم الله ... » أى فنحن ندريه . وأما البسملة التي تذكرها بتمامها فما ندريها .

Marfat.com

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يارسول الله ، أوَ فتحٌ هو ؟ قال " نعم " . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء . وقال ٱبن جريج وقتادة : من الرضا بأمر البيعة على ألا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك رؤيا منام " . وقال الصدّيق : لم يكن فيها الدخول في هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ قال قتادة وٱبن أبي ليلى : فتح خيبر . وقيل فتح مكة . وقرئ « وَآتَاهُمْ » ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني أموال خيبر؛ وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة . ف« مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحًا قَرِيبًا » والواو مقحمة . وقيل « وَمَغَانِمَ » فارس والروم .

قوله تعالى : وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد . إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة . وقال ٱبن زيد : هي مغانم خيبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ أي خيبر؛ قاله مجاهد . وقال ٱبن عباس : عجّل لكم صلح الحديبية . ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعني أهل مكة؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبري؛ لأن كفّ أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله: « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » . وقال ٱبن عباس :

Marfat.com

فى « كَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ » يعنى عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارِى وعوف بن مالك النَّضْرِى ومن كان معهما؛ إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل فى قلوبهم الرعب وكفّهم عن المسلمين ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين ؛ فيعلموا أن الله يحرسهم فى مشهدهم ومَغيبهم . وقيل : أى ولتكون كف أيديهم عنكم آية للؤمنين . وقيل : أى ولتكون هذه التى عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو فى «وَلِتَكُونَ» مقحمة عند الكوفيين . وقال البصريون : عاطفة على مضمر؛ أى وكف أيدى الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يزيدكم هُدًى ، أو يثبّتكم على الهداية .

قوله تعالى : وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَى ﴾ « أُخْرَى » معطوفة على « هَٰذِهِ » ؛ أى فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال آبن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع مافتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وآبن أبى ليلى . وعن آبن عباس أيضا والضحاك وآبن زيد وآبن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال : « لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب فى الحال كما كان فى مكة ؛ قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » : أى أعدّها لكم ؛ فهى كالشىء الذى قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال : « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »[1] . وقيل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحديبية . وقيل : « وَلَوْ قَاتَلَكُمْ » غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر ؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعاداته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةً » على المصدر . وقيل : « سُنَّةَ اللَّهِ » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تَجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها ❊ فأوّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم[2] متسلحين يريدون غِرّة[3] النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سَلْمًا[4] فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » . وقال عبد الله بن مُغَفَّل المزنى : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى . (٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ، أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم . (٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والإذعان ... ... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

Marfat.com

بالحديبية فى أصـل الشجرة التى قال الله فى القـرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا ". قالوا : اللهم لا ، فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » الآية . وذكر ابن هشام عن وكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْنَ الْعُتَقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبـل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا ، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صلى الله عليـه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنـا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنيم ، اطلع الثَّنِيَّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبيّ صلى الله عليـه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " هـل لكم علىّ ذمة " ؟ قالوا لا ؟ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبي : هم أهـل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكف أيـدى المسلمين عنهم . وقـد تقدّم أن خالد بن الوليـد كان فى خيل المشركين . قال القشيري [(1)] : فهـذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى ذلك الوقت . وقد قال سـلمة بن الأكوع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسـلاح ، قال : فجئت بستة من المشركين أسـوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهـم رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم . وكان عمـر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا وليس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

(1) وجد فى هامش «ك» بخط الناسخ ما نصه : « حاشية — تعقب بعضهم هذا الكلام وقال : هذا باطل ، وإنما أسلم خالد بن الوليد بعـد الحديبية بزمن كثير . قال : وإن كان ابن عبد البر ذكر أنه كان على خيـل المسلمين بالحديبية ، فإنه وهم . قال بعضهم : حاشا ابن عبـد البر أن يظن به هـذا ، وقد تقدم قبل بورقتين : أنه كان على خيل المشركين يومئذ . وهذا أمر معلوم . ولكن القشيري ليس هذا من علمه ، والمؤلف ينقل ما وجد ، وخالد أسلم بعد الحديبية بستة أشهر » .

Marfat.com

رســول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبى جهل خرج إليـك فى خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك فى خمسمائة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئـذ سُمِّى بسيف الله ، فخرج ومعه خيـل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهـم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفُر[(١)] . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط فى الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ، فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم وقالوا : آضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : همّت غطفان وأسـد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهـم كانوا حلفاءهم فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كف اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهمـا — يريد به مكة . الثانى — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال المـاوردى : وفى قوله : « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » بفتح مكة . وتكون هـذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فُتحت صلحا ، لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت فى الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ماقدمناه عن أهـل التأويل من الصحابة والتـابعين . وروى الترمذى قال : حدثنـا عبد بن حُميد قال حدثنى سـليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمـانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التَّنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ » الآية . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح ، وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنمـا فُتحت عنوة ، وقد مضى القول فى ذلك فى « الحج[(٢)] » وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣

Marfat.com

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة ، ومنعوا الهَدْىَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيَّة الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً ، فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأُنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا ﴾ أى محبوسا . وقيل موقوفا(١) . وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه ، يَعْكِفه ويَعْكُفه عَكْفاً ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا » ؛ يقال : ماعكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره ؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه ، المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم . والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشىء . (و بالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس . وكان الهَدْىُ سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا . وقد اختلف العلماء فى هذا على ماتقدّم بيانه فى «البقرة» عند قوله تعالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ »(٢) والصحيح ماذكرناه . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

(١) فى الأصول : « واقفا » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٧١ .

Marfat.com

ابن عبـد الله قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ الحديبية البَـدَنةَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعُمْرة كلُّ سبعة فى بدنة . فقال رجل لجابر: أَيُشْتَرَكُ فى البدنة مايشترك فى الجَزُور؟ قال : ماهى إلا من البُدْن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين ؛ فحـال كفار قريش دون البيت، فنحر رســول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خِراش بن أُميّة بن أبى العيص الخزاعى، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلّوا ؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم ســلمة : لو نحرت لنحروا؛ فنحر رسول الله صلى الله عليـه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين مرة . ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهـه ؛ فقال : " أيؤذيك هوامّك " ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحـلق وهـو بالحديبيـة . خرجه البخارى والدَّارَقُطْنِى . وقـد مضى فى « البقرة »(1) .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وقرئ «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّه» بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »(1) أيضا . وهو معطوف على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ» . و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، وموضع « أَنْ » من قوله : «أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» نصب على تقدير الحمل على « صَدُّوكُمْ » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصدُّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لايصح حمله على العكف ؛ لأنّا لانعلم « عكف » جاء متعدّيا، ومجىء « مَعْكُوفًا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى؛ كأنه لمـا كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فَعُدِّىَ بإلى ؛ فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٨٣ وص ٣٧٨

Marfat.com

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . و يجوز تقدير الجر فى « أن » لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدّوكم عن المسجد الحرام، وصدّو الهَدْىَ « عن » أن يبلغ محـله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ و إن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة وأبى جَنْدل بن سهيل، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أى تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون. ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القـوم ؛ أى أوقعت بهم . و « أَنْ » يجوز أن يكون رفعا على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . و يجوز أن يكون نصبا على البدل من الهـاء والميم فى « تَعْلَمُوهُمْ » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطأهم ؛ وهو فى الوجهين بدل الاشتمال. و« لَمْ تَعْلَمُوهُمْ » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب «لَوْلَا» محذوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالا مؤمنين ونسـاءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ؛ ولكنا صُنّا من كان فيها يكتم إيمانه . وقال الضحاك : لولا من فى أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرَّة العيب، وهى مفعلة من العَرّ وهو الجَرَب ؛ أى يقول المشركون : قد قتلوا أهـل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدية فى قوله : « فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

Marfat.com

فى « النساء » القول فيه . وقال ابن زيد : « مَعَرَّةٌ » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق : غُرْم الدِّيَة . قطرب : شدّة . وقيل غَمّ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّى ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ اللام فى « لِيُدْخِلَ » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته . ويجوز أن تتعلق بالإيمان . ولا تحمل على مؤمنين دون مومنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ؛ أى جنته .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أى تميّزوا ؛ قاله القُتَبِى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علىّ رضى الله عنه : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : " هم المشركون من أجداد نبىّ الله ومن كان بعدهم وفى عصرهم كان فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيّل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما " .

الثالثــة — هذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٩

Marfat.com

أيحرق هذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم : أنرمى فى مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » . وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة . قال ابن العربى : وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ » وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال ، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينة الروم فحبس عنهم الماء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم الماء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل ، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثورى الرمى فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دية . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سيما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل الترس ، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية . فمعنى كونها ضرورية : أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كلية : أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين ؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

Marfat.com

قطعية : أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدى العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين . وإما بأيدى المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة — قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوة فإنه قرأ « تَزَايَلُوا » وهو مثل « تَزَيَّلُوا » في المعنى . والتزايل : التباين . و « تَزَيَّلُوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هي تفيعلوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما — « لَوْلَا رِجَالٌ » والثاني — « لَوْ تَزَيَّلُوا » . وقيل جواب « لَوْلَا » محذوف ؛ وقد تقدم . « وَلَوْ تَزَيَّلُوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٢٦)

العامل في « إِذْ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيَّةَ ﴾ فعيلة وهي الأنفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيَة إذا أنفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمس :

ألا إنني منهم وعِرْضي عِرْضُهم * كذي الأنف يحمي أنفه أن يكشما[(١)]

أي يمنع . قال الزهري : حَمِيَّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال . في نسخة ب ، ك ، هـ : « يهشما » .

Marfat.com

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى ٱمتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسـول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدّم . وقال ٱبن بحـر : حميّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حَمِيَّـةَ الجَاهِلِيَّةِ » إنهم قالوا : قتلوا أبناءنا و إخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزّى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبّتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل: لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أُبَىّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو قول علىّ وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسـلمة بن كُهيل وعبيـد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسّدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى ، و زاد « محمد رسول الله » . وعن علىّ وابن عمر أيضا هى لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قـدير . وقال الزهرىّ : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يُقِرّوا بهـذه الكلمة ؛ فخص الله بها المؤمنين . و « كَلِمَـةَ التَّقْوَى » هى التى يتّقى بها من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كَلِمَةَ التَّقْوَى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

قوله تعـالى : لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنـام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشًا بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون فى غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذى قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية ، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء . ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ أى فى العام القابل ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال ابن كيسان : إنه حكاية ماقيل للنبي صلى الله عليه وسلم فى منامه ؛ خوطب فى منامه بما جرت به العادة ؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ، تأدّب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[1] . وقيل : خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه ، كما قال : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وقيل : استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ، قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمِنِينَ » ، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أى إن سهل الله . وقيل : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » أى كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إِنْ » بمعنى « إذ » ، أى إذ شاء الله، كقوله تعالى: « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] أى إذ كنتم . وفيه بعد، لأن « إذ » فى الماضى من الفعل ، و « إذا » فى المستقبل ، وهذا الدخول فى المستقبل، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذى طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله فى العام المقبل فأنزل الله : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » . وإنما قيل له فى المنام : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فحكى فى التنزيل ما قيل له فى المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لَتَدْخُلُنَّ » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إن » بمعنى « إذا » . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من العدو . ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٤ (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٦٢

Marfat.com

وَمُقَصِّرِينَ) والتحليق والتقصير جميعا للرجال ، ولذلك غلب المذكر على المؤنث . والحلق أفضل ، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[1] . وفى الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بمِشْقَص . وهذا كان فى العمرة لا فى الحج ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق فى حجته . (لَا تَخَافُونَ) حال من المحلقين والمقصرين، والتقدير : غير خائفين . (فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أى علم ما فى تأخير الدخول من الخير والصلاح مالم تعلموه أنتم . وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبر فافتتحها ، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه فى ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعُدّة بأضعاف ذلك . وقال الكلبي : أى علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم . وقيل : علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . (فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) أى من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبية ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهرى : مافتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثلُ ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أى يُعْليه على كل الأديان . فالدين اسم بمعنى المصدر،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨١

Marfat.com

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيه . وقيـل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شَرْعه بالحجة ثم باليد والسيف؛ ونسخ ماعداه . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ « شَهِيدًا » نصب على التفسير ، والباء زائدة؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبـوّته بالمعجزات . وقيـل : « شَهِيدًا » على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوا أن يكتبوا : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » .

قوله تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ « مُحَمَّدٌ » مبتدأ و « رَسُولُ » خبره . وقيل : « مُحَمَّدٌ » ابتداء و « رَسُولُ اللَّهِ » نعتـه . ﴿ وَالَّذِينَ مَعَـهُ ﴾ عطف على المبتدأ، والخبر فيما بعده ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على « رَسُولُ اللَّهِ » . وعلى الأول يوقف على « رَسُولُ اللَّهِ » ؛ لأن صفاته عليـه السلام تزيد على ما وصف أصحابه؛ فيكون « مُحَمَّدٌ » ابتداء و « رَسُولُ اللَّهِ » الخبر « وَالَّذِينَ مَعَهُ » ابتداء ثان . و « أَشِدَّاءُ » خبره و « رُحَمَاءُ » خبر ثان . وكون الصفات فى جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ « الَّذِينَ مَعَهُ » جميع المؤمنين . ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيـل :

Marfat.com

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « اشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ، كأنه قال : والذين معه فى حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى يطلبون الجنة و رضا الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة ؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجُّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلحي قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقال ابن العربي : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ، وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وكَفَ[1] المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس ، قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة ، وفيه : "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" . وقال شهر بن حَوْشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد : السيما فى الدنيا وهو السَّمْت الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أى قطر سقفه .

Marfat.com

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى : « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال لا ؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُريج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمِر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أمّا إنه ليس بالنَّدْب فى وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثَّورِىّ : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم: " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراسانى : دخل فى هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء : فيه وجهان ، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا؛ كمثلهم فى القرآن؛ فيكون الوقف على «الْإِنْجِيلِ» وإن شئت قلت: تمام الكلام ذلك مثلهم فى التوراة، ثم ابتدأ فقال : ومثلهم فى الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل ؛ فيوقف على هذا على « التَّوْرَاةِ » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعنى أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على « التَّوْرَاةِ » على هذا ، و يوقف على « الْإِنْجِيلِ » ، و يبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شَطْأَهُ » يعنى فراخه وأولاده ، قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد ، فإذا خرج ما بعده فقد شطأه . قال الجوهرى : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه، والجمع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش فى قوله : «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» أى طَرَفَه . وحكاه الثعلبى عن الكسائى . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج : أخرج شطاه أى نباته . وقيل : إن الشطء شوك السُّنْبُل ، والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ، [وهو شَوْك البُهْمَى][1]، قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل، فيخرج من الحبة

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر . وما بين المربعين ساقط من ا ، ب ، ن .

Marfat.com

عشر سنبلات وتسع وثمــان ؛ قاله الفراء ، حكاه المــاوردي . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَاه » بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثّاب «شطاه» مثل عصاه . وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق « شَطَه » بغير همز ؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبي صــلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينــه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره ؛ كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هــذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أي قوّى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس ، أي قوّى الزرعُ الشطء . وقراءة العامة « آزَرَهُ » بالمدّ . وقرأ ابن ذكوان وأبو حَيْوَةَ وحُميد بن قيس « فَأَزَرَهُ » مقصورة ، مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بِمَحْنِيَةٍ(١) قد آزر الضَّالَ نَبْتُها　＊　مَجَرِّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ على عوده الذي يقــوم عليه فيكون ساقا له . والسوق : جمع الساق . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي يعجب هــذا الزرع زرّاعه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ، فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والشطء أصحابه ، كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ، قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ، أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعــــة ــ قوله تعــالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابا لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » في قــوله : « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قــوم ، ولكنها عامة

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحاني، وهي معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) شجرة السدر .

Marfat.com

مجنسة ، مثل قوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ » (١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ، أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتّى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ، أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم ، أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم ، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا ؛ يريد قطعت الثوب كله قميصا . و « من » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ» (٢) معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصّا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول : « من » مجنسة ؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن ، ومن ناحية القرآن . قال زهير :

* أمن أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ (٣) *

أراد من ناحية أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُــو رغائبَ يعطيها ويسألها * يأبَى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَــرُ (٤)

فـ «من» لم تُبَعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرٌ . والنَّوْفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامســة ــ روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « مُحَمَّدٌ

(١) راجع جـ ١٢ ص ٥٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥

(٣) الدمنة : آثار الناس وما سوّدوا بالرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم ؛ أى ميز ، فصار بمنزلة المتكلم . (٤) البيت لأعشى باهلة .

Marfat.com

رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » حتى بلغ « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » . فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد ردّ على الله ربِّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثنـاء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح ؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ (١) » . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٢) » ، ثم قال عز من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الناس قَرْنى ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه " خرجهما البخارى . وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نَصيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصـدق به ولا نصف المـد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتسع تَسِـيع ، وللثمن ثَمِين ، وللسّبع سَبِيع ، وللسّدس سَدِيس ، وللربع رَبِيـع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله آختار أصحابى على العالمين سوى النبيّين والمرسلين وآختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال : " فى أصحابى كلّهم خير " . وروى عُوَيم بن ساعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجل آختارنى وآختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانًا وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنـة

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٥٨		(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩

Marfat.com

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منـه يوم القيامة صَرفًا[١] ولا عَدْلاً ». والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، فحَـذارِ من الوقوع فى أحد منهم، كما فعل مَن طعن فى الدين فقال : إن المُعَوِّذَتَيْن ليستا من القـرآن، وما صحّ حديث عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى تثبيتهما ودخولهما فى جمـلة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقـه غيره عليها، فروايته مطّرحة . وهذا ردّ لمـا ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطال لمـا نقلته لنا الصحابة من المِلّة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفـرة وأجرا عظيما . فمن نسـبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أُلحق واحد منهم تكذيبا فقـد سُبّ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَبّ أصحابه؛ فالمكذّب لأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخلٌ فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألزمها كلّ مَن سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمـر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن أبا هريرة مُتَّهم فيما يرويه، وصَرّحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم وغيره؛ فنظر إلىّ الرشـيد نظر مُغْضَب، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى، فلم ألبث حتى قيـل : صاحب البريد بالباب، فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن ! فقلت : اللّهُم إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيّك، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه،

---

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

Marfat.com

فسلّمنى منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ؛ بيده السيف وبين يديه النِّطع[1] ؛ فلما بَصُرَ بى قال لى : ياعمر بن حبيب ما تلقّانى [أحد][2] من الرد والدفع [لقولى بمثل][2] ماتلقّيتنى به ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الذى قلتَه وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به][2] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول ! فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ؛ وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلّهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هذا مذهب أهل السنة ، والذى عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم فى بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ، ثم تغيّرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ، فلا بُدّ من البحث . وهذا مردود ؛ فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلىّ وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : « مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » . وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الإجتهاد ، وكل مجتهد مصيب . وسيأتى الكلام فى تلك الأمور فى سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى : [تم تفسير سورة « الفتح » ، والحمد لله][3] .

---

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس . أو يفرش للأكل أو اللعب .
(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة عمر بن حبيب .
(٣) زيادة من ا .

Marfat.com

تفسير ســورة الحُجُــرات

مدنيَّــة بإجمــاع . وهى ثمــانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلمـاء : كان فى العـرب جَفاءٌ وسـوءُ أدب فى خطاب النبيّ صـلى الله عليـه وسلم وتلقيب النـاس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقـرأ الضحاك ويعقـوب الحضرمىّ : «لَا تَقَدَّمُوا» بفتح التـاء والدال من التقدّم . البـاقون «تُقَدِّمُوا» بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسـوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعـالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيـــة ــ واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول ــ ما ذكره الواحدىّ من حديث ابن جريج قال : حدّثنى ابن أبى مُليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال أبو بكر : أمِّر القَعْقاع بن مَعْبـد . وقال عمـر : أمِّر الأقرع بن حابس . فقـال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمـر : ما أردتُ خلافك . فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

Marfat.com

فنزل فى ذلك : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ — إلى قوله — وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدوى أيضا .

الثانى — ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . ذكره المَهْدَوِى أيضا .

الثالث — ما ذكره الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم نسلموا وانكفئوا[(1)] إلى المدينة ؛ فلقوا رجلين من بنى سُلَيم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا و بينك عهدا ، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبي صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا ، لو أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا[(2)] على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .

(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

Marfat.com

عليه كالصلاة والصوم والحج ؛ وذلك بيّن . إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة[1]، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين ، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها . وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة ؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح ، ولكنه لمعانٍ تختص باليسير دون الكثير . فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر ، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلّي كما قاله أبو حنيفة والشافعيّ ، وإمّا حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به ،وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرضه : " مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : قولي له إن أبا بكر رجل أسيف[2] وإنه متى يَقُم مَقامك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف[3] . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(١) في الأصول : « وذلك أن العلماء .... » والتصويب عن ابن العربي .

(٢) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(٣) قال القسطلاني : « أي مثلهن في إظهار خلاف ما في الباطن ؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه ، ومرادها زيادة على ذلك ، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ، وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته ؛ فعبر بالجمع في قوله : « إنكن » والمراد عائشة فقط . وفي قوله : « صواحب » والمراد زليخا كذلك .

Marfat.com

وربمـا احتج نُفَـاة القياس بهذه الآية . وهو باطل منهم ؛ فإن ما قامت دلالتـه فليس في فعله تقـديم بين يديه . وقـد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القـول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني في التقدّم المنهي عنـه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِـيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مُليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يارسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عنـد النبي صلى الله عليه وسـلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي . فقال عمر(1) : ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ابن أبي مُليكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عنـد النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليـه ركب بني تميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

(1) كلمة : « عمر » ساقطة من ا ، ب ، ه .

Marfat.com

فى ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ » الآية. فقال آبن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه [١] ؛ يعنى أبا بكر الصديق . وذكر المهدوى عن على رضى الله عنه : نزل قوله : « لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ » فينا لما آرتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة ، نتنازع آبنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بها رسول صلى الله عليه وسلم لجعفر ؛ لأن خالتها عنده . وقد تقدم هذا الحديث فى « آل عمران [٢] » . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك عِلْمَهُ ؛ فأتاه فوجده جالسا فى بيته مُنَكِّسًا رأسه ؛ فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ ! كان [٣] يرفع صوته فَوْقَ صوتِ النبى صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار . فأتى الرجل النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى [٤] : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : " آذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة " (لفظ البخارى) وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكْنَى أبا محمد بآبنه محمد . وقيل : أبا عبد الرحمن . قُتِل له يوم الحَرّة [٥] ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ، وعبد الله . وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما قَدِم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فآفتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم ، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

---

(١) قوله : « عن أبيه » يريد جده لأمه أسماء .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل : كنت أرفع صوتى .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ، تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

Marfat.com

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عنـد ذكر المكارم
وإنا رءوس الناس من كل مَعْشَر * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وإن لنـا المِرْباع فى كل غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم (١)

فقام حسان فقال :

بَنى دارمٍ لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ * يعود وَبالًا عنـد ذكر المكارم
هَبِلتم علينـا تفخرون وأنتمُ * لنـا خَوَلٌ مِن بين ظِئرٍ وخادمِ (٢)

فى أبيـات لهما .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعـالى : « لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لمـا نزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ فَفَقَده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليـه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شـديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حبِط عملى . فقال عليه السـلام : " لستَ منهم بل تعيش بخـير وتموت بخير " . قال : ثم أنزل الله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (٣) فأغلق بابه وطَفِق يبكى ؛ ففقده النبيّ صلى الله عليه وسـلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يارسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسـود قومى . فقال : " لستَ منهم بل تعيش حَمِيدًا وتُقتل شهيدا وتدخل الجنة " . قالت : فلما كان يوم اليمـامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقَوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتـلا ؛ وعلى ثابت يومئـذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

(١) فى سيرة ابن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » . والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .
(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٩

Marfat.com

المسلمين فأخذها؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلم فتضيعه، إنى لما قُتلت أمس مرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزلُه فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ(١) فى طِوَله، وقدكفأ على الدّرع بُرْمَةً، وفوق البرمة رَحْل؛ فأْتِ خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعى فيأخذها، و إذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى أبا بكر — فقل له : إن علىّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقى عتيق وفلان؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته. قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيّته بعد موته غير ثابت، رحمه الله؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا تخاطبوه : يا محمد، و يا أحمد. ولكن : يانبىّ الله، و يا رسول الله؛ توقيرا له. وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدى بهم ضَعَفة المسلمين فنُهى المسلمون عن ذلك. وقيل : « لَا تَجْهَرُوا لَهُ » أى لا تجهروا عليه، كما يقال : سقط لِفيه؛ أى على فيه. ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه فى محل النصب؛ أى لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض. وفى هذا دليل [على] أنهم لم يُنهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة؛ و إنما نُهوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أُبّهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب و إن جلّت عن رتبتها. ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى من أجل أن تحبط، أى تبطل؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم.

الثالثــة — معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته؛ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

---

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا و إدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس، ليدور فيه و يرعى ولا يذهب لوجهه .

Marfat.com

الذى يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهرُه باهرًا لجهركم ؛ حتى تكون مزيّتة عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وآمتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق . لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتَبْهَرُوا منطقه بصخبكم . وفى قراءة ابن مسعود «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ» . وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام . وكره بعض العلمـاء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

الرابعـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميّتا كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثلُ كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يَعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به . وقد نبّه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنـة بقوله تعـالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا[(١)] » . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحْى ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثناة ، بيانها فى كتب الفقه .

الخامســـة — وليس الغـرض برفـع الصـوت ولا الجهر مايقصـد به الآستخفاف والآستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخـاطبون مؤمنون . وإنمـا الغرض صوت هو فى نفسـه والمسموع من جِرْسه[(٢)] غير مناسب لمـا يُهاب به العظماء ويوقّر الكبراء ، فيتكلف الغض منـه وردّه إلى حدٍّ يميل به إلى مايستبين فيـه المأمور به من التعزير والتوقير . ولم يتنـاول النهى أيضا رفع الصوت الذى يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشـبه ذلك ؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس آبن عبد المطلب لمـا انهـزم الناس يوم حُنين : "آصرخ بالناس" ، وكان العباس أجهر النـاس صوتا . يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : ياصباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٣

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت .

Marfat.com

زَجْرُ أبى عُرْوةَ السباعَ إذا[1] * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه .

السادسة — قال الزجاج : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أى فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدرة لام الصيرورة وليس قوله : « أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالا له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ » قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار[2] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة قال : لما نزلت : لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت : « لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ » ماحدث عمر عند النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » . قال الفراء : أى أخلصها للتقوى . وقال الأخفش : أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس : « امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » طهّرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) المسارة ؛ أى كصاحب السرار ، أو كمثل المسارة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

Marfat.com

والتقوى . وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته . فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت . ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا بادِيًا كَلالُها (١) ✽ قد محنت واضطربت آطالُها

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤)

قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا، فإن مَدْحَنا زَيْنٌ وذَمّنا شَيْنٌ . وكانوا سبعين رجلا قدّموا الفداءَ ذَرارِيَ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذي نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِي زَيْنٌ وإن ذَمِّي شَيْنٌ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ذاك الله " . ذكره الترمذي عن البَرَاء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه ، و إن يكن مَلِكًا نَعِش في جنابه (٢) . فأتَوا النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يامحمد ، يامحمد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بني تميم . قال مقاتل كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقان بن بَدْر ، والأقْرع بن حابس ، وسُوَيد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقَعْقاع بن مَعْبَد ، ووَكِيع بن وكيع ، وعُيَيْنَة بن حِصْن

---

(١) الرذايا : جمع رذية ، وهي الناقة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة . (٢) في الطبري : « في جناحه » .

Marfat.com

وهـو الأحمق المطاع ، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه ، وكان اسمه حذيفة وسمى عُيَيْنة لِشَتَرٍ(١) كان فى عينيه ذكر عبـد الرزاق فى عُيينة هذا : أنه الذى نزل فيه «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا »(٢) . وقد مضى فى آخر « الأعراف» من قوله لعمر رضى الله عنه مافيه كفاية(٣) ؛ ذكره البخارى . وروى أنهـم وَفَدوا وقت الظَّهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يامحمد يامحمد ، آخرج إلينـا ؛ فآستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهـم أن يهلكهم" . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلمات جمع ظُلْمة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ، فهو جمع الجمع . وفيه لغتان(٤) : ضم الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديًا رُكَباتنا * على موطن لانخلط الجِدّ بالهَزْلِ

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحَظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع « الحُجَرات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل مامنعت أن يوصل إليـه فقد حَجَرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لايحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٢

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ . (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

Marfat.com

من سوء الأدب » وقيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف. ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء. ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط . وسبب ذلك مارواه سعيد عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عُقبة مُصَدِّقًا[1] إلى بنى المُصْطَلِق ؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — فى رواية : لإِحْنَة كانت بينه وبينهم — ؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام . فبعث نبى الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً ؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ماذكروه ؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذ الآية ؛ فكان يقول نبى الله صلى الله عليه وسلم : "التأنّى من الله والعجلة من الشيطان" . وفى رواية : أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى المُصْطَلِق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد همّوا بقتله ، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم ، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدى إليه ماقَبِلْنَا من الصدقة ، فاستمرّ راجعا ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله ، والله ماخرجنا لذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ وسُمِّىَ الوليدُ فاسقًا أى كاذبا . قال

(١) المُصَدِّق (بتخفيف الصاد وتشديد الدال) : العامل الذى يجبى الصدقات .

Marfat.com

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[1] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لايستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى « فتثبتوا » من التثبت . الباقون « فَتَبَيَّنُوا » من التبيين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ، فـ«أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنى .

الثانيـــة ــ فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلًا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك مايتعلق بالدعوى والجحود ، و إثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . و إذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وليًّا فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وليًّا ؛ لأنه يَلِى مالها فيلى بُضْعَها . كالعدل ، وهو و إن كان فاسقا فى دينه إلا أن غَيْرته موفّرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال و يصون الحرمة ؛ و إذا وَلِىَ المال فالنكاح أَوْلَى .

الثالثـــة ــ قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوّز الشافعى ونظراؤه إمامة الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مال [كيف][2] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دِين . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا اسْتُطيعت إزالتهم صُلِّىَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن مايفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، و إذا أساءوا فآجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيّة أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . و بوجوب الإعادة أقول ؛

---

(١) فى « ح » : « أبوالحسين » .
(٢) زيادة من ابن العربى .

Marfat.com

فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سِرًّا في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعــة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق و يردّ ما خالفه ، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال ؛ ولا تلتفتوا إلى غير هـذا القول من رواية [تؤثر](١) أو قول يحكى ؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامســة — لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله ، أو إذن يعلمه ؛ إذا لم يخرج عن حق المرسِل والمبلِّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها(٢) شيء لعدمهم في ذلك . والله أعلم .

السادســة — وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة ؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم ؛ فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعــة — فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عمـلا بجهالة ؛ كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهـد . و إنما العمل بالجهالة قبول قـول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْري ، والذي قبلها المَهْدَوي .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

(١) زيادة من ابن العربي . (٢) في ابن العربي : « منهم » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنا لكم مشقة و إثم ؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأ ، ولَعَنِتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم . ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلِّغونه عن الناس والسماع منهم . والعَنَت الإثم ؛ يقال : عنِت الرجل . والعنت أيضا الفجور والزنى ؛ كما فى سورة «النساء»(١) . والعنت أيضًا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّمْ »(٢) بأكثر من هذا . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل ؛ أى جعل الإيمان أحبَّ الأديان إليكم . ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسّنه إليكم حتى اخترتموه . وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم ، حسب ماتقدّم فى غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، لاشريك له . ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتقٌ من فَسَقت الرُّطَبة خرجت من قشرها . والفأرة من جُحرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفى(٣) . والعصيان جمع المعاصى . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »(٤) . قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تصلُّب فيه ؛ من الرَّشاد وهى الصخرة .

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) راجع جـ ١٤ ص ٣٦

Marfat.com

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشَّمات　　　صَلِينَ الضوءَ من صُمِّ الرشاد (١)

﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً ﴾ أى فعل الله ذلك بكم فضلًا ؛ أى الفضل والنعمة ، فهو مفعول له . ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عَلِيمٌ » بما يصلحكم « حَكِيمٌ » فى تدبيركم .

قوله تعالى : وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيت عبد بن أُبَيّ ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سَبِخة ؛ فلما أتاه النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إليك عنى ! فوالله لقد أذانى نَتْن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل ف　　الآية . وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج . قال مجاهد : تقاتل حيّان من　　،　　نعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال

(١) فى شرح شواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبى عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثا فى المصير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون ، أى التى احترقت بضوئها أى حرها . و « من صم الرشاد » بيان لها . والصم : جمع صماء ، أى صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر الدبر ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

Marfat.com

بالسعف والنعــال ونحوه ؛ فأنزل الله هــذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت فى رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة(١) فى حق بينهما ؛ فقــال أحدهما : لآخذن حق عنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضًا بالأيدى والنعال والسيوف ، فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت فى حرب سُمير وحاطب(٢) ، وكان سُمير قتل حاطبًا ، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدى : كانت امرأة من الأنصار يقال لها : « أم زيد » تحت رجل من غير الأنصار ، فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلِّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجـاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهله فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وتجالدوا(٣) بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله « حَتَّى يَفِيئُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءُوا فَخُـذوا بينهم بِالقِسطِ » . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « اقتتلتا » على لفظ الطائفتين . وقـد مضى فى آخر « براءة » القول فيــه(٤) . وقال ابن عبـاس فى قوله عز وجل : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٥) » قال : الواحد فــا فوقه ، والطائفة من الشىء القطعة منــه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لها أو عليهما ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغى : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى ترجـع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا . وقيل : أقسطوا أى اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة ونحوها واختلفوا . وفى ا ، ز ، ل : « مماراة » وهى المجادلة .

(٢) راجع خبر حربهما فى كتاب الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .

(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩٤ (٥) راجع جـ ١٢ ص ١٥٩

Marfat.com

الثانيـــة — قال العلماء: لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا. فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يُمْشَى بينهما بما يصلح ذات البين ويُثمر المكافّة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صِير إلى مقاتلتهما. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغيّ عليها بالقسط والعدل. فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيتَا إليه ونُصِحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم.

الثالثـــة — في هذه الآية دليـل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منـع من قتال المؤمنين، واحتج بقوله عليـه السلام: "قتال المؤمن كفر". ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدّيق رضي الله عنه: من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة؛ وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهز على جريح، ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختـلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لـما أقيم حدّ ولا أبطل باطل، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سـبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزّبوا عليهـم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه السـلام: "خذوا على أيدي سفهائكم".

الرابعـــة — قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصـحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهـل الملة، وإياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "تَقتل عمّارًا[1] الفئةُ الباغية". وقوله عليه السـلام في شأن

(١) هو عمار بن ياسر. (راجع خبره في كتب الصحابة).

Marfat.com

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" ، والرواية الأولى أصح ، لقوله عليه السلام : " تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق" . وكان الذى قتلهم علىّ بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدّين أن عليا رضى الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفىء إلى الحق وينقاد إلى الصلح ؛ لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرَآء من دمه، لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أول مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بالقتل ، فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدى ، فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] فى الشورى ، وتدافعوها ، وكان علىّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ، فقبلها حَوْطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل . فربما تغيّر الدّين وانقض عمود الإسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام فى شرط البيعة التمكن من قتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ، فقال لهم علىّ رضى الله عنه : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه . فقالوا : لا تستحق بيعةً وقَتَلَة عثمان معك تراهم صباحاً ومساء . فكان علىّ فى ذلك أسدّ رأيا وأصوبَ قيلاً ؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حربا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر[3] وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم ، فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليًّا من ولاية ولا اعترضا عليه فى ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أولى .

قلت : فهذا قول فى سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم،

---

(١) زيادة من ابن العربى . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) فى ابن العربى : «الأمن» .

Marfat.com

وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قَتَلةُ عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غَدَر طلحة والزبير . والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فتم لهم ذلك على ما دبروه ، ونَشِبَت الحرب، فكان كل فريق دافعًا لمَكْرته عند نفسه، ومانعاً من الإشاطة (١) بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى ، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات ، كسعد بن أبى وقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوّب ذلك علىُّ بن أبى طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قَبِله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئةِ الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَك (٢) فيما فعل، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ ومن العدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال ؛ فإنه تلَف على تأويل . وفى طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء (٣) فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ، إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عُرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

(١) الإشاطة : الإهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك .
(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة .　　(٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقت وعظمت .

Marfat.com

السابعـة — إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف[1] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم. وإذا قتل العادلُ الباغيَ، أو الباغي العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا. ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال. وقيل: إن العادل يرث الباغي، قياسًا على القصاص.

الثامنة — وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجْهُ قول أبي حنيفة أنه إتلاف بعُدْوان فيلزم الضمان. والمعوّل في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيراً ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً؛ وهم القُدْوة. وقال ابن عمر: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة"؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: "لا يُجهز على جريحها ولا يُقتل أسيرها ولا يُطلب هاربها ولا يُقسم فَيْئُها". فأما ما كان قائما ردّ بعينه. هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ له. وذكر الزّمخشري في تفسيره: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها ضَمِنت بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرة ذات مَنَعة وشوكة لم تضمن؛ إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يُفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التّجمّع والتّجنّد أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع. فحَمْلُ الإصلاح بالعدل في قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجْهُه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد. والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسَلّ الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحُسْن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. قال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ قُرن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل؟ قلت: لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت

---

(١) تذفيف الجريح: الإجهاز عليه وتحرير قتله.

Marfat.com

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهْماء بإراءة(١) الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة؛ وأما الضمان فلا يتّجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإن الضمان متّجه على الوجهين المذكورين .

التاســعة ــ ولو تغلّبـوا على بلد فأخذوا الصـدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهـم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا يُنقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو الســنة أو الإجماع؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والســنة؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجشون . وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز توْليته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم، لمـا انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يعرضوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربيّ : الذى عنـدى أن ذلك لا يصلح؛ لأن الفتنة لمـا انجلت كان الإمام هـو الباغى، ولم يكن هناك من يعترضه والله أعلم .

العـاشرة ــ لا يجـوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطـوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنـا أئمة، وقـد تعبّدنا بالكف عما شجر بينهـم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر؛ لحـرمة الصحبة ولنهى النبيّ صلى الله عليـه وسلم عن سبّهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم . هـذا مع ما قـد ورد من الأخبـار من طرق مختلفة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض؛ فلو كان ما خرج إليـه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيـه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليـه خطأ فى التأويل وتقصـيرا فى الواجب عليه؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيّناه . ومما يدلّ على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقـوله : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بشِّر قاتل ابن صفية بالنـار " . وإذا كان كذلك فقـد ثبت أن طلحة والزبير

(١) فى ز : « وتسكين : الدماء بإبانة الحق » .

Marfat.com

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضي الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال : «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»(١) . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طَهّر الله منها يدى ؛ فلا أَخضِب بها لسانى . يعنى في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال : إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهَمين في الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى في الدِّين والحرمة لا في النسب ؛ ولهذا قيل : أخوّة الدِّين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٣٨ .

Marfat.com

وأخوة الدّين لا تنقطع بمخالفــة النسب . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسُوا ولا تحسّسُوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا[(١)] ". وفى رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبِـعْ بعضكم على بَيْـع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسـلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْـذُله ولا يَحْقِره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صـدره ثلاث مرات — بحسْبِ آمرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه" لفظ مسلم . وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المســلم لا يَظْلمه ولا يَعيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليــه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِـدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بهـا إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " آحفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم . وقال أبو علىّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفــظ التثنية يَرِد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعـالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ[(٢)] » . وقال أبو عبيـدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجحـدرىّ ويعقوب « بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إِخْوَانِكُمْ » الباقون . « أَخَوَيْكُمْ » بالياء على التثنية .

الثالثـــة — فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يزيل آسم الإيمـان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القـدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمـل وصِفِّين : أمشركون هم ؟

---

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد فى ثمن سلعة ولا رغبة لك فى شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء .	(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٣٩ .

Marfat.com

قال : لا ، من الشِّرك فرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال إخواننا بغَوْا علينا .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خَيْرًا مِنْهُمْ » أي معتقدًا وأسلم باطنا . والسُّخرية الاستهزاء . سَخِرت منه أسخر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرْت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وهَزِئت به ؛ كلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِيّ ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » وقد تقدّم[(١)] . وفلان سُخْرَة ؛ يُتَسَخَّر في العمل . يقال : خادم سُخْرة . ورجل سُخْرة أيضا يُسخر منه . وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانيــة ــ واختلف في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر ؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

---

(١) راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . وجـ ١٢ ص ١٥٤ وجـ ١٥ ص ٢٢٥ .

Marfat.com

فقبض كل رجل منهم مجلسه ، وعَضُّوا فيه[1] فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يَظَل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسّحوا تفسّحوا ؛ ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فآجلس ! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا ، ثم قال : من هذا؟ قالوا فلان ؛ فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيّره بها ؛ يعنى أُمًّا له فى الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل؛ فنزلت . وقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذى تقدم ذكرهم فى أول « السورة »[2] آستهزءوا بفقراء الصحابة ، مثل عمّار وخبّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان وسالم مَوْلَى أبى حُذيفة وغيرهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت فى الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخرية الغنى من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه فى الدنيا خير له فى الآخرة . وقيل : نزلت فى عِكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلما ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وبالجملة فينبغى ألا يجترئ أحد على الآستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لَبِيق[3] فى محادثته ؛ فلعله أخلص ضميرا وأنقى[4] قلبا ممن هو على ضدّ صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله ، والاستهزاء بمن عظّمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقّيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبِيل : لو رأيتُ رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذى صنع . وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوَّل كلبا . و « قوم » فى اللغة للذكّرين خاصة . قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حِصن أم نساء

وسُمّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم فى الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم، ثم استعمل فى كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين . وقد يدخل فى القوم النساء مجازا، وقد مضى فى « البقرة »[5] بيانه .

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به . (٢) راجع ص ٣٠٠ وص ٣٠٤ (٣) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل . (٤) فى ا ، ب ، ز : «وأتق» بالتاء بدل النون . (٥) راجع جـ ١ ص ٤٠٠

Marfat.com

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السّخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »(١) فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت فى امرأتين من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أمّ سلمة، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة — وهو ثوب أبيض، ومثلها السِّبّ — وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : أنظرى ! ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب ؛ فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم ، عَيَّرن أمّ سلمة بالقصر . وقيل : نزلت فى عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سلمة ، يانبىّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَىّ ابن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إن النساء يُعيِّرنَنِى، ويقلن لى يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هَلّا قلت إن أبى هارون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعــة — فى صحيح الترمذى عن عائشة قالت : حَكَيت للنبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا(٢) ؛ فقال : " ما يسرنى أنى حَكَيت رجلا وأن لى كذا وكذا " . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأة — وقالت بيدها(٣) — هكذا ؛ يعنى أنها قصيرة . فقال : " لقد مزجت بكلمة لو مُزِج بها البحر لمزج " . وفى البخارىّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس . وقال : " لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل ثم لعله يعانقها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصح

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٨ . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله .

(٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

Marfat.com

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو فى تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تُحتقر وتُذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، و بالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ : العَيْب ، وقد مضى فى « براءة » عند قوله تعالى : « وِمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ »(١) . وقال الطبرى : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) أى لا يقتل بعضكم بعضا ؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتل نفسه . وكقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ »(٣) يعنى يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : « ولا تَلْمُزُوا » بالضم . وفى قوله : « أَنْفُسَكُمْ » تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون كجسد واحد إن آشتكى عضو منه تداعَى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى " . وقال بكر بن عبد الله المزنى : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّة فتأمل عَيَّابا ؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل مافيه من العيب . وقال صلى الله عليه وسلم : " يبصر أحدكم القَذاة(٤) فى عين أخيه و يدع الجذع فى عينه " . وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا ورعًا * أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وَجَعُهْ

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦ . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٥٦ . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٣١٨ .
(٤) القذاة : هو ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

Marfat.com

وقال آخر :

لا تكشفن مساوى الناس ماستروا[1] * فيهتك الله سترا عن مساويكا
وآذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب ، والجمع الأنباز . والنَّبْزُ (بالتسكين) المصدر ؛ تقول : نَبَزه يَنْبِزُه نَبْزًا ؛ أي لقّبه . وفلان يُنَبِّز بالصبيان أي يلقبهم ؛ شُدد للكثرة . ويقال النُّبَزُ والنُّزَب لقَبُ السوء . وتنابزوا بالألقاب : أي لقّب بعضُهم بعضا . وفي الترمذيّ عن أبي جُبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره ؛ فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » . قال : هذا حديث حسن . وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصاري . وأبو زيد[2] سعيد بن الربيع صاحب الهَرَوِي ثقة . وفي مصنّف أبي داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، في بني سلمة « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يافلان فيقولون مَهْ يارسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم ؛ فنزلت هـذه الآية : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » . فهذا قول . وقولٌ ثانٍ — قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يايهودي يانصراني ؛ فنزلت . وروى عن قتادة وأبي العالية وعكرمة . وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق ؛ وقاله مجاهد والحسن أيضا . ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بئس أن يُسمّى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المعنى أن مَن لقّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق . وفي الصحيح " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه " . فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهمز والنبز فذلك فسوق وذلك لا يجوز . وقد روى أن أبا ذر رضي الله عنه كان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فنازعه

(١) في أدب الدنيا والدين : « لاتلمس من مساوى » . (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

Marfat.com

رجل فقال له أبو ذرّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما ترى ها هنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه " يعني بالتقوى، ونزلت : «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ». وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة " .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنًى مَن غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل الملّة . قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جَزَرة[1] ؛ لأنه صحّف « خرزة » فلُقّب بها . وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع في طين ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا في الدِّين . وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَبَاح المصريّ يقول : لا أجعل أحدا صغّر اسم أبي [في حلّ] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذي يضبط هذا كله : أن كل ما يكرهه الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذيّة . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . في « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليدين " قال أبو عبد الله بن خُوَيْز مَنْدَاد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذي النُّورين ، وخُزيمة بذي الشهادتين ، وأبا هريرة بذي الشّمالين وبذي اليدين ؛ في أشباه ذلك .

---

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي البغدادي الحافظ . روى الخطيب البغدادي بسنده ... سمعت صالحا — يعني جزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبي أمامة خرزة يرقي بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبي أمامة « جزرة » وإنما هي « خرزة » . راجع تاريخ بغداد في المجلد التاسع ص ٣٢٢ في ترجمة صالح هذا .

Marfat.com

الزمخشري : « روى عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيه بأحبّ أسمائه إليه " . ولهذا كانت التَّكْنِيَةُ من السنة والأدب الحسن ؛ قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة . ولقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأســد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب . ولم تزل هــذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها — من العــرب والعجم — تجــرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم مــن غير نكير » . قال المــاوردىّ : فأما مستحب الألقــاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت — فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصــفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج ، ومروان الأصفر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع — يعنى عمر — يقبّل الحجر . فى رواية الأُصَيْلِــع .

قوله تعــالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ أى عن هــذه الألقاب التى يتأذى بهــا السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

قوله تعــالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ يَٰأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيــل : إنها نزلت فى رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليــه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبيّ صلى

Marfat.com

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضمّ الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسرَيْن فيخدمهما . فضمّ سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما، فقالا له : [انطلق فاطلب لنا من النبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما وإداما، فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم :](١) " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذهب إليه، فقال أسامة : ما عندى شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ، فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة(٢) لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما " فقالا : يانبي الله ، والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أى لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانيـــة — ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخارى . قال علماؤنا : فالظن هنا وفى الآية هو التُّهَمَة . ومحل التحذير والنهى إنما هو تُهَمَة لا سبب لها يوجبها ؛ كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليـه ما يقتضى ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وذلك أنه قـد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصّر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . وإن شئت قلت : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك .　　(٢) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

Marfat.com

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة فى الظاهر، فظنّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من آشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء". وعن الحسن: كنا فى زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنت اليوم فى زمن اعمل وآسكُتْ وظُنّ فى الناس ما شئت.

الثالثة — للظن حالتان: حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات. والحالة الثانية — أن يقع فى النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهى عنه على ما قررناه آنفا. وقد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به؛ تحكمّا فى الدِّين ودعوى فى المعقول. وليس فى ذلك أصل يعوّل عليه؛ فإن البارئ تعالى لم يذم جميعه، وإنما أورد الذم فى بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبى هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه؛ لأن الظن فى الشريعة قسمان: محمود ومذموم؛ فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضدّه؛ بدلالة قوله تعالى: «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ»، وقوله: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً»[1]، وقوله: «وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً»[2] وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكّى على الله أحدا". وقال: "إذا ظننت فلا تحقّق وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيّرت فآمض" خرّجه أبو داود. وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبح؛ قاله المهدوى.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بآختلاف وغيرهما «وَلَا تَحَسَّسُوا» بالحاء. واختلف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين؛ فقال الأخفش: ليس

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٠٢. (٢) راجع ص ٢٦٩ من هذا الجزء.

Marfat.com

تبعـد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسس البحث عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيـل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأول أعرف . جَسست الأخبار وتجسّستها أي تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين ؛ أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطّلع عليه بعـد أن ستره الله . وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن اتبعت عورات النـاس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِي كَرِب عن أبي أُمامة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الأمير إذا ابتغى الريبـة في الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِيَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . وعن أبي بَرْزة الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته". وقال عبد الرحمن ابن عوف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج في بيت بابُه مُجافٍ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى ! ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وقـد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِـلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجن الثَّقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخـرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسـلم : خرج عمر وعبـد الرحمن يَعُسَّان ،

Marfat.com

إذ تبيّنت لها نار فاستأذنا ففُتح الباب ، فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتي ؛ قال فما في هذا القدح ؟ قال ماء زلال ؛ فقال للمرأة : وما لذى تغنين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل وٱسْودّ جانبُه وأرقني أن لا خليلَ ألاعبُهْ
فـوالله لولا اللهُ أنى أراقبــه لزُعزِع من هذا السرير جوانبه
ولكنّ عقـلى والحياء يَكُفُّنِي وأُكْرِم بَعْـلِي أن تُنال مَرا كِبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهـذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين ! قال الله تعـالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يقر على الزنى، وإنمـا غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها في مَغيبه عنها (١) . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها . فكان هو الذى نزل في قبرها، فسقط من كمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجـاء إلى أمه فقال : أخبريني ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم ، فتجسس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغِيبة " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره" قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة في جـ ٣ ص ١٠٨ .

Marfat.com

قال : "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته" . يقال : اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب (١) . قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى : الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه . وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال : قال لى معاوية — يعنى ابن قرة — : لو مر بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمى ماعزا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : أنظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؛ فسكت عنهما . ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : " أين فلان وفلان " ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال : " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال : " فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها " .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ مثل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم　*　و إن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا (٢)

---

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للمقنع الكندى ، واسمه محمد بن عميرة .

Marfat.com

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " . فشبّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقّص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيًّا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتا . وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمُشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون في أعراضهم". وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " . وقوله للرجلين : " مالي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما ". وقال أبو قلابة الرقاشي : سمعت أباعاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما في الغيبة . وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده ، ينهاه فإن انتهى وإلا قام . وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال : قام رجل من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فرأوا في قيامه عجزا فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : " أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه " . وعن سفيان الثوري قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ [1] ، إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو ابن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ! فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي .

---

(١) الجعد في صفات الرجال يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوة) والخلق. أو يكون جعد الشعر ، وهو ضدّ السبط .

وأما الذم فهو القصير المتردد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين. والقطط : القصير الجعد من الشعر .

Marfat.com

السابعــة ــ ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدِّين ولا تكون في الخلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هـذا فقالوا : لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب . والغيبة في الخَلْق أشدّ ؛ لأن مَن عَيَّب صنعة فإنما عيَّب صانعها . وهذا كله مردود . أما الأول فيردّه حديث عائشة حين قالت في صفية : إنها امرأة قصيرة ؛ فقال لهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقـد قلت كلمة لو مُزِج بهـا البحر لمزجته" . خرجه أبو داود . وقال فيـه الترمذي : حديث حسن صحيح ؛ وما كان في معناه حسب ما تقـدّم . وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب . وأما الثاني فمردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدِّين ؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد ممـا يكره في بدنه . وكفى ردًّا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام : "إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته ..." الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقـد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم نصًّا . وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وذلك عام للدِّين والدنيا . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة في عِرضه أو ماله فليتحلله منـه" . فعمّ كل عرض ؛ فمن خصّ من ذلك شيئا دون شيء فقـد عارض ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنــة ــ لا خلاف أن الغيبة من الكبائر ، وأن من اغتاب أحدا عليـه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، وإنمـا هي خطيئة بينـه وبين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمظْلِمَة يستحلها منه ، وإنمـا المظلمة ما يكون منه البـدل والعوض في المـال والبدن . وقالت فرقة : هي مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هي مظلمة وعليه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت

Marfat.com

لأخيه عنده مَظْلِمَة في عِرض أو مال فليتحلله منــه من قبل أن يأتي يوم ليس هنــاك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته". خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منــه اليوم قبل ألّا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه". وقد تقدّم هذا المعنى في سورة « آل عمران » عند قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »(١). وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت آمرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة : لقد آغتبتيها فاستحلّيها . فدلّت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها . وأما قول من قال : إنمــا الغيبة في المــال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ؛ وذلك ليس في البدن ولا في المــال ، ففي ذلك دليل على أن الظلم في العِرض والبدن والمــال ، وقد قال الله تعالى في القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »(٢). وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من بهت مؤمنًا بمــا ليس فيه حبسه الله في طِينة الخبال"(٣). وذلك كله في غير المــال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة ، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال : كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قــوله مَظلمة تثبت ظلامة المظلوم ؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت له عنــد أخيه مظلمة في عِرض أو مال فليتحللها منــه" . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحلّ له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيّب قال : لا أحلل من ظلمني . وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر ، هــذا رجل

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٠٢
(٣) الخبال : الفساد ، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول . و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار .

Marfat.com

سألك أن تحلله من مظلمة هى لك عنده ؛ فقال : إنى لم أحرمها عليه فأحلّها ، إن الله حرّم الغيبة عليــه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل، وهو الحجة والمبيِّن . والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو، وقد قال تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » (١) .

التاســـعة — ليس (٢) من هــذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر؛ فإن فى الخبر " من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له " . وقال صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاجر بمـا فيه كى يحذره النـاس " . فالغيبة إذًا فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن، والإمام الجائر . وقال الحسن لمـا مات الحجاج : اللهم أنت أمتّه فاقطع عنا سنته — وفى رواية شَيْنه — فإنه أتانا أُخَيْفِش أُعَيْمِش ، يمدّ بيد قصيرة البنان (٣)، والله ما عَرِق فيها غبار فى سبيل الله، يُرَجِّل جُمّتــه ويَخْطِر فى مِشْيته، ويَصْعَد المنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يَتّقِى، ولا من الناس يستحى ؛ فوقه الله وتحتــه مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البــدع غِيبة . وكذلك قولك للقاضى تستعين به على أخذ حقــك ممن ظلمك فتقول فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفــنى أو أساء إلىّ ؛ ليس بغيبة . وعلمــاء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك : " لصاحب الحق مقال " . وقال : " مَطْلُ الغنيّ ظلم " وقال : " لَيّ الواجد (٤) يُحِلّ عِرْضَه وعقوبته " . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هنــد للنبيّ صلى الله عليــه وسلم : إن أبا ســفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم فخذى " . فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لهـا . وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله صلى الله عليــه وسلم :

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء .

(٢) فى ل : « ليس يدخل فى هذا ... » .

(٣) فى ل : « بيد واحدة قصيرة » .

(٤) الواجد : القادر على قضاء دينه .

Marfat.com

" أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم(١) فلا يضع عصاه عن عاتقه " . فهـذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس(٢) بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشـــرة ــ قوله تعـالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ وقرئ « مَيِّتا » وهو نصب على الحال من اللحم. ويجـوز أن ينصب على الأخ ، ولمـا قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . وفيـه وجهان : أحدهما ــ فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة ؛ رُوِى معناه عن مجاهـد . الثانى ــ فكرهتم أن يغتابكم النـاس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أى فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر، أى اكرهوه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ عطف عليـه . وقيل : عطف على قوله : « اجْتَنِبُوا . وَلَا تَجَسَّسُوا » . « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » يعنى آدم وحواء . ونزلت الآية فى أبى هنـد ؛ ذكره أبو داود فى (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بَياضة أن يزوجوا أبا هنـد آمرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : نزوّج

---

(١) هو آبن حذيفة بن غانم القرشى . وقوله : « لا يضع عصاه » أى أنه ضراب للنساء . وقيـل : هو كناية عن كثرة أسفاره ؛ لأن المسافر يحمل عصاه فى سفره . (٢) هى أخت الضحاك بن قيس ، كانت من المهاجرات الأول ، وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت عند أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم ، فاستشارت النبى عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته .

Marfat.com

بناتنا موالينا[1] ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا » الآية . قال الزهرى : نزلت فى أبى هند خاصة . وقيل : إنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من الذاكر فلانة "؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " انظر فى وجوه القوم " فنظر ؛ فقال : " ما رأيت " ؟ قال رأيت أبيض وأسود وأحمر ؛ فقال : " فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى " فنزلت فى ثابت هذه الآية . ونزلت فى الرجل الذى لم يتفسح له : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »[2] الآية . قال ابن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن ؛ فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ؛ فإن المدار على التقوى . أى الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى . وفى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : " يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله . والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » " . خرجه من حديث عبد الله بن جعفر والد على بن المدينى وهو ضعيف ، ضعفه يحيى بن معين وغيره . وقد خرج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا سعيد الجريرى عن أبى نضرة قال : حدثنى أو حدثنا من

---

(١) من معانى « المولى » : العبد .	(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٦

Marfat.com

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعـير فقال : " يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت ؟ - قالوا نعم قال - ليبلّغ الشاهدُ الغائب " . وفيه عن مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم". ولعلىّ رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء * أبوهـــمُ آدمُ والأمّ حـــواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلةٌ * وأعظمٌ خُلقت فيهـم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ * يفاخرون به فالطين والمـاء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ * على الهُـدى لمن استهدى أدِلّاء
وقَدْرُ كلّ امرئ ما كان يحسنه * وللرجال على الأفعـال سيمـاء
وضدُّ كل امرئ ما كان يجهله * والجاهلون لأهل العـلم أعداء

الثانيـــة - بيّن الله تعالى فى هـذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى ، وكذلك فى أول سورة « النساء »(1) . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم ، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السـلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهـذا الجائز فى القـدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منـه حوّاء من ضلع انتزعها من أضـلاعه ؛ فلعله هـذا القسم ؛ قاله ابن العربى .

الثالثـــة - خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائلَ وشعوباً ، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدرها وهو أعلم بهـا ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحد بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه ،

(1) راجع جـ ٥ ص ١ .

Marfat.com

بقوله للعـربي : يا عجمي ، وللعجمي : يا عربي ، ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقـة . انتهى .

الرابعــة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربّى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »(1) . وقوله تعـالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »(2) . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »(3) . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمـرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمـل التأويل . وقوله تعالى : « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(4) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ، على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيـه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من المـاء والسُّلالةِ والنطفةِ ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدلّ على أن المـاء والسلالة لهما والنطفةَ منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المـرأة تُمْنى كما يُمْـنِي الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقـدّم بيانه في آخر الشورى »(5) . وقد قال في قصة نوح : « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »(6) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من آثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُـلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين . والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأوس والخـزرج ؛ واحدها « شَعْب » بفتح الشين ؛ سُمُّوا به

(1) راجع جـ ١٩ ص ١٥٧ .
(2) راجع جـ ١٤ ص ٨٩ .
(3) راجع جـ ١٩ ص ١١٤ .
(4) راجع جـ ٢٠ ص ٤ .
(5) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .
(6) راجع جـ ١٧ ص ١٣٢ .

Marfat.com

لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعْب من الأضداد؛ يقال شعبته إذا جمعته؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم) وهو الإشْفَى ؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فكَبّ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ * بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ (١)

وشَعَبته إذا فرّقته ؛ ومنه سُميت المنية شَعُوبا لأنها مفرقة . فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث : أن رجلا من الشعوب أسلم؛ (٢) فإنه يعنى من العجم . والشَّعْب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليه ، أى يجمعهم ويضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور؛ (٣) مثل مضر . والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتادة . ذكر الأوّل عنه المهدوِى ، والثانى الماوردى . قال الشاعر (٤) :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعداً مثل سعدِ بن مالك

وقال آخــر :

قبائل من شعوب ليس فيهم * كريم قد يُعدّ ولا نجيب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم؛ والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية : إن الشعوب الموالى، والقبائل العرب . قال القُشَيْرى : وعلى هذا فالشعوب من لا يُعرف لهم أصل نسب كالهند والجبْل (٥) والترك ؛ والقبائل من العرب . الماوردى : ويحتمل أن

---

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أى خار على وجهه . و « المدرية » : القرن؛ وهى المدرى والمدراة، والجمع مدار ومدارى . و « ذلق » ذلق كل شىء : حدّه . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما فى اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شىء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد . (٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس ؛ وفيه لغات كثيرة ، راجع جـ ١٥ ص ٤٧ .

Marfat.com

الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب ، والقبائل هم المشتركون في الأنساب . قال الشاعر :

وتفرقوا شُعَبًا فكل جزيرة * فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفَخِذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفصيلة ثم العَشِيرة ، وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشّعب فهو أكثر حَيٍّ * عددًا في الحواء ثم القبيله
ثم تتلوها العمارة ثم ال * بطن والفخذ بعدها والفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن * هي في جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبيلة قبلها شَعْب وبعدهما * عمارة ثم بَطْنٌ تِلْوُهُ فَخِذُ
وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لِسَهْمٍ ماله قُذَذُ(1)

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد تقدم في سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(2) . وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم يتفاخر بالأنساب ؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفي الترمذي عن سَمُرَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الحسب المال والكرم التقوى " . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : " من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله " . والتقوى معناه مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا في غير موضع . وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نَسَبًا وجعلتم

(1) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم .　　(2) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

نَسَبًا فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون " . وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب . يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " . وأعرض في كلّ عِطْفَيْه . وفي صحيح مسلم من حديث عبـد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سرٍّ يقول : " إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنمـا وَليِّيَ الله وصالح المؤمنين " . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس؟ فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا : ليس عن هـذا نسألك، قال : " فأكرمهم عند الله أتقاهم" فقالوا : ليس عن هذا نسألك، فقال : " عن معادن العرب ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا في ذلك :

ما يصنع العبـد بعـزّ الغنى * والعـزّ كلّ العزّ للمُتّقي

من عرف الله فلم تغنه * معـرفة الله فـذاك الشّـقي

السابعـة — ذكر الطبري حدّثني عُمر[1] بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال : تزوّج رجل من الأنصار امرأة فطُعِن عليها في حسبها ؛ فقال الرجل : إني لم أتزوّجها لحسبها إنمـا تزوّجتها لدينها وخُلُقها؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة[2] " . ثم قال النبي صلى الله عليـه وسلم : " إن الله تبارك وتعـالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصـة وأذهب به اللـوم فلا لـوم على مسلم إنمـا اللّوْم لَـوْمُ الجاهلية " . وقال النـبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى . قال ابن العربي : وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح . روى عبد الله عن مالك : يتزوّج المَوْلى العربية، واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعي :

---

(١) في ح و ن : « عمرو » . (٢) سيد من سادات العرب في الجاهلية . أدرك الإسلام وأسلم .

Marfat.com

يراعى الحسب والمـال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ــ وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم ــ تبنّى سالمـا وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة (١) ابن ربيعة ؛ وهو مولى لامرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود (٢) .

قلت : وأخت عبـد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ، وإنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ماروى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هذا " ؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح ، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا ". وقال صلى الله عليـه وسلم : " تُنْكح المرأة لمـالها وجمالها ودينها ــ وفى رواية ــ ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر ٱبنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ٱبنته فالتوى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها ، فقال بلال : يارسول الله ، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى ، فغضب رســول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ، فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك ؟ فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوجوها . وقال النبي صلى الله عليـه وسلم فى أبى هنـد حين حجمه : " أنكحوا أبا هنـد وأنكحوا إليه " . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند ". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

(١) وتسمى فاطمة .
(٢) اسم أبيه عمرو بن ثعلبة ، وتبناه الأسود بن عبد يغوث وهو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام .

Marfat.com

وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح . والتقىّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تَقِيَّيْن فحينئذ يقدّم النسيب منهما ، كما يقدّم الشاب على الشيخ فى الصلاة إذا استويا فى التقوى .

قوله تعالى : قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة جَدْبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السرّ . وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ؛ وجعلوا يمنّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين . وقال السدّى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنَة وجُهَيْنة وأسلمَ وغِفار والدِّيل وأشجع ؛ قالوا آمنّا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا ؛ فنزلت . وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب ؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى . ومعنى « وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أى استسلمنا خوف القتل والسّبْى ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب . وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الظاهر، وذلك يحقن الدم . ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى إن تخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتْكُمْ ﴾ أى لا ينقصكم . ﴿ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لاته يَليته و يلوته : نقصه . وقرأ أبو عمرو « لا يألتكم » بالهمزة، من أَلَتَ يَأْلُت

Marfat.com

ألتنا ؛ وهو اختيار أبي حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »[1]

قال الشاعر :

أبلـغ بني ثُعَلٍ عني مُغلغلة * جَهْد الرِّسالة لا أَلْتا ولا كَذِبا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رؤبة :

وليـلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْنِي عن سُرَاها لَيْتُ

أي لم يمنعني عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فعـل وأفعل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أي ما نقصه ؛ مثل ألته ؛ قاله الفرّاء . وأنشد :

ويأكلن ما أعنَى الوَليُّ فلم يَلِتْ * كأن بحافات النِّهاء المَزارعا[2]

قوله : فلم « يَلِتْ » أي لم ينقص منه شيئا . و « أعنَى » بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أعنَت الأرض شيئا ؛ أي ما أنبتت . و « الوليّ » المطر بعد الوَسْمِيّ[3] ؛ سُمّي وليًّا لأنه يلي الوسميّ . ولم يقل : لا يألتكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي صدقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ في إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر

(١) راجع جـ ١٧ ص ٦٦	(٢) البيت لعدي بن زيد .

(٣) الوسمي : مطر الربيع الأول ؛ سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات .

Marfat.com

والعـلانية وكذبوا ؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ الذى أنتم عليـه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » فى موضـع نصب على تقـدير لأن أسلموا . ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّـوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أى بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب، تقديره بأن. وقيل : لأن . وفى مصحف عبد الله « إِذْ هَدَاكُمْ » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنون . وقرأ عاصم « إِنْ هَدَاكُمْ » بالكسر ؛ وفيه بُعد؛ لقوله : « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . ولا يقال يَمُنّ عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة «أَنْ هَدَاكُمْ » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ، لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك مِنّة الله عليـكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِـيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر ، ردًّا على قوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ » . الباقون بالتاء على الخطاب .

وُجد فى « ز » ما يأتى : «والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمـآب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وهو حسبي ونعم الوكيل » .

حققـــه
أحمد عبد العليم البردونى

٤ محرم سنة ١٣٨٥
٥ مايو سنة ١٩٦٥

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر ، وأوله :
" ســورة (ق) "

Marfat.com